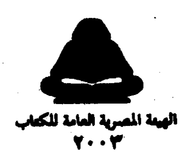
الدكتور محمد الجوادى

سيرة حياة العالم الأديب
الدكتور أحمد زكى



الغلاف : الفنان محمد حجى
الخطوط: محمود إبراهيم

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩١٨٢ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8918 - 9

سيرة حياة العالم الأديب
الدكتور أحمد زكى

إهـــــداء

إلى والـديَّ الجليلين :
الدكتور عبد الستار مصطفى
والأستاذ على محمود البطراوى
تحية إعزاز و إجلال وتقدير

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله سبحانه وتعالى أن مَنّ على بكتابة مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب، وبتقديم هذه الطبعة بكل ما يشتمل عليه الكتاب كما أعددته منذ ثلاثة عشر عامًا، ولعلها فرصتى الأولى أن أعتذر اعتذاراً مكتوبا عما حدث لهذا الكتاب فى طبعته الأولى حين اضطرت دار النشر نفسها إلى أن تطبع ثلاثة أرباعه وتترك ربعه الرابع وهو باب الببليوجرافيا على الرغم من (وربما بسبب) ضخامة هذا الجزء، ولست أستطيع أن أنكر أننى كنت على الدوام فى غاية الألم لهذا الذى حدث لكتابى هذا، ولست أستطيع أن أنكر أيضا مدى سعادتى اليوم وأنا أستشعر أن الكتاب سوف يكون كاملا بين يدى القارىء على رفوف المكتبة، فقد عانيت معاناة شديدة فى إعداد الجزء الببليوجرافى من هذا الكتاب حتى ظهر على هذا النحو. ومن غرائب الأقدار أن هذا الجزء قد قادنى من حيث لا أدرى إلى تأليف كتابى الكبير عن مجلة الثقافة، فقد وجدت نفسى أفهرس الثقافة كلها من أجل مقالات أحمد زكى لأنه كتب فيها من بدايتها إلى نهايتها تقريبا، وهكذا

أحببت الثقافة وعشقتها، وربما كانت مراجعتهـا سبباً إلى هذا الحب أو سببًا إلى تعميقه، وعلى أية حال فقد أعددت كتابى عنها على مدى سنوات امتدت منذ ١٩٨٠ وحتى ١٩٨٨ تقريباً ثم صدر هذا الكتاب فى نهاية ١٩٩٣ أو مطلع ١٩٩٤، أما كتـاب أحمد زكى فقد كنت انتهيت منه على ما أذكر قبل أن أنتهى من دراسة الطب، ولكنه لم يصدر للقراء إلا فى ١٩٨٤ حين كنت طبيبا مقيماً.

ولست أستطيع أن أتجاهل الاعتراف بأثيرية هذا الكتـاب على نفسى، ففيه كثير وكثير جدًا من نفسى وقلمى وفكرى وآرائى، واعتقد أن لهذا عدة أسباب :

- فقد كان أحمد زكى يتناول كثيراً جداً من الأمـور التى تحيط بنا والتى نعيشها، ولهذا فقد كنت فيما يبدو غير قـادر على أن أخلص للفكرة التى أرادهـا من دون أن أبدى انطبـاعى تجاه أفكاره أو تجاه الموضوعات التى تناولها.

- وبالإضافة إلى هذا فقد كانت آراء أحمد زكى وأفكاره تعطى مساحات واسعة من الاهتمامات الفكـريـة والفعلية والحيـاتيـة، وكـان هذا يقتضى كثيراً من التقـديم والـربط والتحليل والإشـارة والتعقيب، وكان لابد لهذا كله من أن يصطبغ بأسلوبى وبفكرى.

- أما السبب الثـالث والأهم فإنه يكمن فى أن أحمد زكى فى فكـره كان من أصحـاب المعاطف الكبيرة الذين يـدعون قراءهم ويشجعونهم إلى أن ينضمـوا بأفكارهم إلى فكره فى معالجة مـا يعالج ومايتناول وما يعرض له.

ولا أنكر أننى كتبت مسودات هذا الكتاب فى حجم أكبر من هذا الماثل بين أيدى القراء بكثير وجاهـدت نفسى حتى استطعت أن أصل بـه إلى هذا الحجم الذى فى أيـدينا، ومع هـذا فإننى لا أدرى هل أصبت أم أخطأت، وهل ينبغى أن تنال الطبعات التالية توسعة أم اختصارات؟

بيد أنى أحـب أن أجاهر بتقصيرنـا إلى أبعد الحدود فى الإفـادة من تراث أحمد زكى ويبـدو أننا نرتكب هـذا التقصير عن عمد وعن إصرار على الرغـم من أن الظواهر تخبرنـا بمدى أهمية العنـاية بتراثه بل وبمـدى الكسب المادى الذى يتحقق من جراء نشر هـذا التراث، فقد نشرت لأحمد زكى أعمال كثيرة من أعماله المتعددة بعد رحيله فلقيت الإقبال ونفدت طبعاتها (سواء فى ذلك ما نشر فى الهيئة المصريـة العامة للكتـاب، أو فى دار الشروق، أو فى سلسلة كتـاب العربى). ولست أدرى علام تبحث لجان تطوير المناهج بينما يضم تراث هذا الـرجل مقالات وكتابات تتضافر فيها ذرات العلم والفكر والأدب مع قـوة الأسلوب وروعة العـرض وجمال الآراء. ولكن لعل هذا يكـون تنبيها ويأتى اليوم الذى يتحقق فيه ما نصبوه بأفضل مما نتخيل.

لست أريد أن أترك هذه المقدمة من دون أن أشير إلى أنى كنت أنتوى بالفعل أن أترك الكتاب على نحو ما كتبته فلا أجرى فيه تعديلا أو تحويراً على الرغم من أن السنوات الخمس عشرة الماضية كانت تحتم مثل هذا وأكثر من هذا، ولكنى فى حقيقة الأمر لم أستطع وهكذا فقد كتبت هذا الكتاب مرة أخرى من أجل هذه الطبعة على الرغم من أنى كنت وما زلت ضعيفاً أشد ما يكون الضعف تجاه النصوص المطبوعة من كتاباتى، وقد استجاب هذا الكتاب فى طبعته هذه إلى ما هو معروف عنى من ولعى الشديد بالتبديل والتحوير والتغيير والتقديم والتأخير وإعادة الصياغة فى كل مخطوطاتى وتجاربى المطبعية وقد امتد هذا الخلق اليوم إلى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ليجعلها عملاً مختلفًا تمامًا عن الطبعة الأولى.

وهكذا تصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب وهى بالنسبة لى عمل جديد ومختلف تمامًا عن الطبعة الأولى التى صدرت من قبل، ولكنى بما أخذت به نفسى لا أستطيع أن أقول عنها إلا طبعة ثانية من كتابى فحسب مع اعترافى التام بأن الكتاب فى طبعته الثانية مختلف تمامًا عن الكتاب فى طبعته الأولى.

وانى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب وأن ينفعنا بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن يتجاوز عما يعلم وعما نعلم وعما هو به منا أعلم.

محمد الجوادى

تـقـــديم الطبعة الأولى

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد عبد اللطيف إبراهيم

بقدر ما أسعدنى أن يطلب منى الدكتور محمـد الجوادى أن أكتب مقدمة هذا الكتاب، بقدر ما تملكتنى رهبة لا أدرى كنهها ، ربما لأنى بعيد بحكم تخصصى عن الكتابة والأدب ، وإن كنت فى مقتبل عمـرى من عشاقها ، وربما لأنى أحسست أنى أحـاول الغوص فى أعماق بحـر حدوده بعيدة ، وأعماقـه سـاحقـة ، يحتاج إلى مـلاح ماهـر يستطيع بخبرته وسعة أفقـه أن يلتمس من دره وصدفاته ما شاء، وما شاءت له الظروف ، وربما لأن اسم أحمد زكى مرتبط فى ذهنى منذ أمد بعيد بقيمـة علميـة وأدبيـة كبيرة لا يستطيع الإنسـان أن يقيمهـا وهـو راض بها قـدر ، وربما لأن هـذه الأسباب كلها مجتمعة ، جعلتنى أرهب الكتابة عن هذا العالم الجليل الذى عرفته الأجيال السابقة والأجيال الحاضرة كأحد العمالقة الذين أثروا الحيـاتين العلمية والأدبية فى مصر والوطن العربى على مدى نصف قرن أو يقارب ذلك .

وأعتقد أن ليس من الضرورى أن يكـون الإنسان معروفا لك معرفـة شخصية حتى تتمكن من

الارتواء من أفكاره والاستمتاع بتجاربه .. وقد عرفت الدكتور أحمد زكى على صفحات المجلات والكتب - وأظن أن معظم محبيه وعشاقه عرفوه عن هذا الطريق فآمنوا به وأخذوا بكتاباته وعشقوا أسلوبه . وأشهد أنه على مدى سنوات عديدة كان العدد الشهرى لمجلة العربى أمل كل قارئ ينتظره فى لهفة ويحرص على اقتنائه فور صدوره ، وكان مقال الدكتور أحمد زكى هو بيت القصيد فى كل عدد ، ففيه كنت تجد من الفكر والمعرفة وسلاسة العرض ورقة الأسلوب ما يجعلك تحرص على اقتناء هذه المجلة فى كل شهر حرصك على زادك من طعام وشراب .

وأشهد أننى سعدت بمطالعة كتاب الدكتور محمد الجوادى ، الذى أتاح لى هذه الفرصة القيمة لأقرأ حياة إنسان أحبه وأقدره ، وأضعه مثلاً أعلى أحتذى به فى مشوار حياته الطويل . ولاشك فى أن هذا الجيل الذى كان منه أحمد زكى ، ذلك الجيل الذى ولد فى أواخر القرن الماضى ، ومارس الحياة فى أوائل القرن الحالى وحتى أواسطه ، هو الجيل الذى حمل مشعل العلم والثقافة إلى معاصريه وإلى الأجيال اللاحقة به حتى عصرنا هذا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل هؤلاء الرواد الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية نقل هذه الأمة إلى عالم النور والحضارة والمعرفة .

□

تخرج الدكتور أحمد زكى فى مدرسة المعلمين العليا فى دفعة ضمت عددًا من أبرز العلماء ورجال التعليم فى مصر ، وكان من أوائل المبعوثين إلى الخارج ، وكان أول مصرى يحصل على دكتوراه العلوم فى الكيمياء ، وعاد ليكون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء فى كلية العلوم . وقد تخرج على يديه رعيل من أساتذة العلوم والكيمياء فى الجامعات المصرية والعربية أصبحوا روادا فى كل مكان يذهبون إليه ، وما زال هؤلاء جميعًا يكنون له التقدير والإعزاز ويفخرون بالتلمذة على يديه .

وعلى الرغم من أستاذيته الفذة ، وفوزه دائمًا بحب زملائه فى كلية العلوم وأحقيته فى العمادة فإنه وجه جهوده إلى تمصير مصلحة الكيمياء ومصلحة الصناعة ، وفى هذا الزمان كم كان ذلك صعبا فى وجود الاستعمار وهيمنته على مصالح الدولة جميعًا .

ولعل أبرز إنجازات الدكتور أحمد زكى فى المجال العلمى هو ذلك الصرح الضخم ، الذى هو المركز القومى للبحوث الذى كان بمثابة إبراز مهم لفاعلية الجانب التطبيقى من العلوم فى حياتنا المعاصرة . ولاشك فى أن المركز القومى للبحوث هو الدعامة القومية التى بنيت عليها لبنات الفكر

لدى الباحث المصرى ، وهو أيضًا التربة الخصبة التى نمت فيها هذه الأفكار فأثمرت وازدهرت ، ووضعت الباحث المصرى فى الموضع الذى يليق بـه على مستوى الـوطن العربى والعـالم الدولى .
وإن من يحج إلى هذا الصرح الشـامخ دارسًا أو باحثًا أو زائرًا لابـد أن تحدثه نفسه بأن مَنْ فكـر فيه وسعى لإقامته ورعاه حتى خرج إلى الوجود ، هو بلا أدنى شك ابن بار من أبناء مصره ، خرج من أرضها ، وأظلتـه سماؤها ، ورواه نيلها ، فأراد أن يـرد إليها بعضـا من عطائها ، وكم كـان عطاؤه أهلاً بعطائها .

□

على أن هذا العطاء المتدفق لم يقتصر على وطنه المصرى ، بل امتد ليعم أمته العربية . ولعل أبرز إنجازاته فى هذا المجال : مجلة العـربى ، التى يعرفها ملايين القراء العرب من المحيط إلى الخليج .
وأشهـد أننى عرفت الـدكتور أحمد زكى على صفحـات هذه المجلـة التى أعتبرها عمـلا من أعمال الريادة والسيادة فى الثقافة والأدب . وقد خرجت هذه المجلة إلى النور فى وقت تدفق فيه البترول فى صحراء العـرب ، فانتقلت الأمة العـربية فى طفرة إلى عـالم غير الذى كانت تعيشـه ، فضاعت أو كـادت تضيع معـالمها ـــ وأخشى أن أقـول إنها عـرفت فى العـالم الخارجى بأمـة اللهـو والترف واللامبـالاة ، حتى إن شاعرًا عـربيا كبيرًا نـادى أعماق هذه الأمة فى وقت من أوقـاتها الحالكة ، أن تحاول أن تؤلف كتـابًا ، أن تقرأ كتابًا ، أن يحاول أفـرادها أن يذهبوا إلى بـلاد الثلج والضباب لكى يتعرف عليهم النـاس هناك ، ولا يحسبـوهم نوعًـا من الذبـاب . . أقول : فى هذا الـوقت المظلم كانت مجلة العربى كالشمعة المضيئة لا يستطيع الظلام مهما كان كثيفًا وثقيلاً أن يحجب ضوءها .
ولقد كنت دائمًا ـ ومازلت ـ أقول إنه يكفى دولـة الكويت أن تتبنى هذا العمل المجيد الذى قدر له أن يستحوذ على قلـوب العرب ، جميعا وكـان بداية طيبـة لظهور العـديد من أمثال هـذه المجلة فى أنحاء شتـى من الوطن العـربى . . لكم كان أحمد زكى عظيما عنـدما قـام بإصدار هـذه المجلة ، وتفرغ لها سنـوات عدة أعطى فيهـا من فكره وعلمـه وأدبه مـا ثبت أقدامهـا ، وما كـان كفيلاً بأن يدفعهـا دائمًا إلى الأمام حتى وقتنا هذا ، وحتى بعـد رحيله ، فما زالت روحه الفيـاضة تستشف فى صفحاتها ، وما زال فكره يقرأ فى حروفها ، ومـا زالت ـ وأدعو الله أن تظل ـ بإذن الله رسول محبة فى أنحاء الوطن العربى .

□

لا أريد أن أطيل على القارئ ، فسوف يجد بيان إنجازات هذا العالم الجليل على صفحات هذا

الكتاب ، من مؤلفات تتجلى فيها خبرة العالم الأديب الذى وهب من القدرة على التعبير والنظر فى مظاهر القدرة الإلهية ما جعل كتاباته فى هذا المجال فى الدرجة الأولى بين الآثار الأدبية والعلمية معا ، ويتجلى هذا بصفة خاصة فى مؤلفيه : « مع الله فى السماء » ، « مع الله فى الأرض » ناهيك عن مئات المقالات فى المجلات المختلفة وفى المجالات المتعددة من أدب وعلوم وسياسة وطب وغير ذلك .

□

قد لا أعرف الكثير عن حياتى الدكتور أحمد زكى الوظيفية والسياسية ، وقد لا يهمنى كثيرًا أن أمس هذا الجانب ، ولكنى أود أن أشير إلى أنه عندما كان فى مقعد مدير الجامعة كانت له قدرته الخارقة على المواءمة بين حرية الجامعة وسلطة الدولة ، وبين إرادة العقل وإرادات الطلبة ، وهذه ميزات لا يتمتع بها إلا القليل من رجال ذلك الزمان وكل زمان .

وإذ أقترب من نهاية هذه المقدمة تخالجنى مشاعر متعددة : يخالجنى شعور بأننى قد حاولت أن أجوب آفاقًا لست ربانها ، وإن كنت أشعر أن هذه المحاولة قد أرهقتنى إلا أنى سعيد بها ، فالعائد منها أكبر من المبذول فيها . . يخالجنى شعور بالغبطة يقودنى إلى شعور بالرغبة فى اتخاذ الرواد الأوائل قدوة نحتذى بها ، وهدفا نسعى إليه . . وأخيرًا يخالجنى شعور بالسعادة أن أرى هذا المؤلف الطبيب الشاب يقدم هذا العمل الرائع عن حياة الدكتور أحمد زكى كما قدم من قبل أعمالاً ناجحة فى سلسلة متواصلة عن أعلام علماء مصر المعاصرين . وإذا كان الدكتور محمد الجوادى قد وفق كل التوفيق فى الكتابة عن هؤلاء الأعلام ، فإنى أشهد أنه قد وفق كل التوفيق فى دراسته الطبية ، وهو الآن يشترك معى فى تقديم دروس ناجحة فى الجراحة باللغة العربية . . فأرجو له دوام التوفيق ، وأقدر جهده الرائع ، وحرصه المستمر على إحياء حياة البارزين من العلماء المصريين

دكتور محمد عبد اللطيف إبراهيم

رئيس جامعة الزقازيق

مقدمة الطبعة الأولى

ليس فى وسع المؤلف حين يباهى بكتابه وهو يقدمه إلا أن يعترف فى الوقت ذاته بأن كتابه كتاب بين دفتين عن كتاب مفتوح عاش تقرؤه الناس ، وتقرأ له ، ثم مضى ، والناس لا تزال تقرؤه وتقرأ له ، ويأتى هذا الكتاب فيضيف معطوفًا جديدًا حين يقال : وتقرأ عنه !

بل ما بال المؤلف تأخذه نفسه إلى جانب الزهو ، فيقول ما معناه إن الناس سوف يقرءون هذا الكتاب ، وبهذا يقرءون عن أحمد زكى؟ وأنى له ذلك القبول الذى لم يصبح بعد محل بحث ! ولما يخرج كتابه إلى الناس ؟ . . . أهو التفاؤل ؟ أم هو الأمل ؟ . . أم هو التمنى ؟ أم هو الرجاء ؟ . . كل ذلك قد يكون ، ولكن الحق الذى لا مرية فيه أن الناس تحب أن تعرف من هو أحمد زكى . . ووددت لو زاد علمها بهذا الرجل العظيم . . فإذا كانت حياتنا الثقافية والفكرية فى عقديها الأخيرين تعانى مع كل العظماء أو الرواد أو العمالقة أو أدعياء بعض ذلك حالا قد يستساغ التعبير عنه بقول القائل « إننا نعرف عن حياة أولئك البارزين الشخصية أضعاف ما نعرف عن آثارهم وقدرها » . . إذا كان الأمر كذلك فالحال مع أحمد زكى هى خلاف ذلك على خط مستقيم !

ولعل فى هذا ما كان باعثًا حقيقيًا ، ودافعًا حثيثًا للمؤلف حين يلقاه أهل الفضل من الناس ، وقد عرفوا من أمر اهتمامه بتاريخ أعلام علمائنا المعاصرين ما شرف به ، فيسألونه عن كتابه عن الدكتور أحمد زكى، وعن اليوم الذى يلقون فيه الكتاب ، فكان صاحبنا طيلة ألف يوم مضت يسعد بأن ينهى إليهم أنه انتهى من الكتاب ، وأنه قد دفع به إلى دار النشر الأولى فى هذا الوطن !

أما ذلك الجيل الجديد من الشباب الذين هم فى الجامعة اليوم أو دونها ، فإنهم يدهشون حين يرون الناس يسخرون من جهلهم بالدكتور أحمد زكى صاحب العربى وبأحمد زكى باشا شيخ العروبة ، فى الوقت الذى تتراءى فى مخيلتهم صورتان لرجلين من أهل الفن فى القريب الحاضر فى التمثيل والإخراج ! فإذا قدر لهذا الجيل الجديد أن يعرف بعض قدر الدكتور أحمد زكى أو شيخ العروبة ، فسوف يسخر من معلوماته أضعاف ما سخر منه سابقوه فى قرارة أنفسهم . . هذا إذا نجح هذا الكتاب فى أن يصور للناس بعضا من أحمد زكى : حياته وفكره وأدبه .

□

قد يكتشف الناس بعد أربعين عاما ، أو نحو ذلك ، أن أستاذ الجيل الذى نحن منه (إذا كان لا بد أن يكون له من أستاذ ، أو إذا قدر لهذا الجيل أن يكون له من الشأن ما يغرى بالبحث عن أستاذه ، أو إذا بحثوا فى شأن أفراد القلة النابهة من هذا الجيل لو أتيح لها أن تتقدم الصفوف فى العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين) هو الدكتور أحمد زكى . ولعل الرجل نفسه كان يعى هذه الحقيقة ، حين بذل ما بذل ـ لا نقول من جهده ولكن نقول من نفسه ـ طيلة مائتى عدد من مجلة العربى التى كانت بلا شك الرحيق الأوسع انتشارًا بين طائفة محبى الثقافة الرفيعة على امتداد الوطن العربى ، بل اللسان العربى . ولعله ، بل إنه كان يعى تمامًا أن الأستذة مع عصره لم تعد كأستذة لطفى السيد فحسب ، فى جريدته أو فى جامعة المصريين الوحيدة ، أو نادى محمدعلى . . وإنما صارت أستذة الجيل مع الديمقراطية التى سودتها وسائل الاتصال (حتى ولو كانت الديمقراطية السياسية غائبة) ، صارت هذه الأستذة إلى تلك الوسائل نفسها ، وأصبح هناك فى نفس كل طموح إلى هذه الأستاذية تنازع قوى ، قد يكون خفيا ، وقد يكون ظاهرًا بين الذيوع والخلود ، بين أستذة المواقف وأستذة العقليات . . ولهذا أدرك أحمد زكى ، وظهر أثر إدراكه واضحًا ، أن أستاذية أجيال عصور الفضاء لا بد لها من إلمام واسع وعميق بثقافة رحبة عريضة ، تلزم لها التنمية المتواصلة ، ولهذا كان أحمد زكى ــ فى كل أسبوع من أسابيعه ، بل فى كل يوم ،

تلميذًا على دقيقة من الدقائق الجديدة، وبهذا أصبحت معلوماته ، وأصدق وصف لها القول الإنجليزى «up to minute» «حتى هذه الدقيقة» .

□

ولم يكن أحمد زكى فى حملاته الفكرية ولا فى إنجازاته الإنشائية فى المعاهد والمصالح التى أنشأها أو أدارها ، من أولى الحنكة الحكومية الذين يحرصون على جسورهم من ورائهم ، بل إنه كان من مذهب الذين يخاطرون فيقولون إنه يستوى عندهم أن يحرقوا تلك الجسور أو لا يحرقوها . . لأنهم لا يتقهقرون أبدًا . . وهكذا كان أحمد زكى : لم يتقهقر أبدًا ، وإنما كان يترك المجال إلى المجال الآخر لينشئ (أو فينشئ) ويبدع وينجز ويتفوق ويخلد ، ولعله لو نظر وراءه فى غضب لذهبت نظرته ببعض الآفاق التى حققها فى أى من مواقعه السبعة التى كان له فى كل منها اليد العليا . وقد كان الرجل : المعلم الناجح فى التعليم الحر ، وكان بعد ذلك طالب البعثة النابغ ، ثم كان الأستاذ الجامعى المحبوب صاحب المدرسة المرموقة ، ثم قاد تمصير مصلحة الكيمياء ، وتطويرها على خير ما يكون، ثم أنشأ المركز القومى للبحوث وشب به على نحو لم يكن لولا وجوده وجهوده، ثم ولى الوزارة ، ثم تولى أمر الجامعة فحفظ عليها ثوبها ، ثم ذهب لينشئ للعرب من الكويت (ولا نقول فى الكويت) مجلة فيها اللسان وفيها الذاكرة وفيها العقل وفيها الروح التى هى من وراء كل ذلك . ولو أن الشيطان كان قد تملك من نفس أحمد زكى القدر الأيسر الذى يهيئ لها أن ترى الخير فى نظرتها إلى الوراء (فى غضب أو فى حسرة) ، أو إلى المضى مع الماضى فى تخيل أو فى خطة ، لخسرنا من أحمد زكى الكثير ، ولكن ذلك لم يكن لأن الرجل لم يخسر من نفسه شيئًا ، مع أنه كذلك لم يخسر من دنياه الكثير (ولا حتى القليل) .

□

وقد يكون الفرق بين أحمد زكى وبين كثير من أنداده الذين حظوا فى حياتهم العامة بكثير من هناءة البال ، هو ذلك الفرق الذى عبرت عنه قصة الراهبين : أحدهما من الدومنيكان ، والثانى من الجزويت ، كانا فى الدير ، وأرادا التدخين فى أثناء نزهة ، فكان عليهما أن يسألا الرئيس الإذن

بذلك ، وذهبا إليه كل بمفرده وعادا ، فوجد راهب الدومنيكان زميله يدخن ، فدهش وسأله السر الذى جعل الرئيس يأذن له ، بينما رفض طلبه . فسأل الجزويتى زميله : ماذا طلبت من الرئيس ؟ فقال الدومنيكانى : طلبت أن يؤذن لى أن أدخن وأنا أذكر الله ! هنا افتر فم الجزويتى عن ابتسامة وهو ينفخ الدخان ، وقال : أما أنا فقد طلبت أن يؤذن لى أن أذكر الله وأنا أدخن ! ! . . وقد كان الدكتور أحمد زكى يسأل ، ويسأل ولا يقحم الادعاء بذكر الله ، لأنه كان فيه نزوع الحرية القوى . . ومع هذا كان فى قرارة نفسه القوية ، ومنذ مرحلة مبكرة ، من أشد الناس تحمسا للنظام ، ولو قدر له أن يلخص فلسفته فى هذا الصدد لقال قول القائل : إنه كان يهتم فى شبابه المبكر بالحرية . . ثم أصبح بعد حين يهتم بالنظام . وقد توصل إلى أعظم فلسفة ، وهى أن الحرية من منتجات النظام !

كل أولئك من خلق الرجل ، ومن فضله ، ومن قدره ، سوف يتناوله الباب الأول من هذا الكتاب فى شىء من التفصيل الجميل تتوالى فيه الفقرات على نحو لا يمل منه القارئ ، أو هكذا يود المؤلف لو كان كذلك شعور قارئه . فإن كان الأمر كذلك ، فهلا انتقل المؤلف وقارئه إلى الحديث عن الباب الثانى من هذا الكتاب !

□

ظل الدكتور أحمد زكى رحمه الله حتى أواخر أيامه عقلاً حاضرًا ، وذهنا صافيا ، ونظرًا ثاقبًا ، وقلبًا شابا ، وصدرًا رحبا ، ونفسا وثابة ، لم يضعف منه من كل ذلك شىء ، إلا القوة التى تحمل كل ذلك ، كل هاتيك السنوات ، قوة العضل ، فمات الرجل بضعف العضلات ، قوى الإيمان والفكر ، والشعور ، وبقى من بعده تراث عريض ، وإنتاج غزير ، وفكر واسع المدى . وكان على المؤلف أن يبحث عن كل ذلك ، وكان عليه أن يتطرق ، وأن يتشعب ، وأن يتفرع . وكان عليه بعد ذلك أن يعود إلى قارئه فلا يضطره إلى التطرق أو التشعب أو التفرع ، وإنما يضع بين يديه ، فكر الرجل ، مرتبًا ومبوبًا ، على نحو يتأتى منه تكوين الفكرة عن الفكر ، وتزويد الفكر بالفكر ، وتنقيح الفكر بالفكر ، وإعمال الفكر بالفكر . وإذا نجح المؤلف بالباب الثانى من هذا الكتاب فى أن يحقق أيا من هذه الأمور الأربعة فقد يكفيه ذلك جزاء ما بذل من جهد .

□

جمع الدكتور أحمد زكى من مقومات الألمعيـة ما جمع ، ولكن يبدو لى أن أعظم ما فى شخصيته كان ذلك التـوازن الظاهر ، والكـامن (أيضا) فى تلك المقـومات التى يعرفهـا الناس فى عظمائهم يطغى بعضهـا على بعض . ذلك أنه كـان فى الـدكتور أحمد زكى ذلك التـوازن الظـاهر والتعـادل الكامن بين إرهـاف حاسـة الفن ، ودقة نظرة العلم . بين الحرص على المنصـب الرفيع والتمسك بالخلق الأرفع ، بين حب الناس وتقدير النفس ، بين سهر الليالى وصحة البدن ، بين قوة العزيمة وشكيمة الزهد ، بين الحضـور الجماهيرى ، والوحدة المؤنسة ، بين المعارف الواسعـة والصداقات القوية ، بين عمل الأشيـاء الصغيرة بإتقان وعمل الأشياء الصعبة بسهـولة . . ولم يكن هذا شأن أحمد زكى فى نفسـه فحسب ، وإنما كان كـذلك فى قلمه وأدبـه : ألفاظ من قبل الميـلاد ومن قبل الهجرة ، ومعـان من بعد الفضاء وبعـد الذرة ، وشى عثمانى وحشو عصرى ، بـديع أنيق فى بيان دقيق ، معان أوربية فى صياغة عربية ، ومعان عربية فى صياغة أوربية ، قصص فى مقال ، ومقال من القصص ، حبكـة تنفك فتنشأ عقـدة . . وكل أولئك كان مـن وراء نتاج أدبى ضخم سـوف يحاول الباب الثالث من هذا الكتاب عرض بعض معانيه بأكثر مما يعرض الفن فيه .

□

وسواء كان القارئ الكـريم من الذين يقرءون مقدمة الكتاب بعـد الكتاب نفسه ، أو كان من الذين يقرءونها من حيث هى فى الكتاب ، فإنى أود أن أعتـذر إليه أن ليس فى إمكان هذا الكتاب أن يضع أحمد زكى بين يديـه . وقد يشفع للمؤلف أن يـوافقه القارئ على أن المثل العليـا نجوم لن تستطيع أن تلمسها بيديك ، ولكنك ، تستطيع أن تكون كالبحارة الماهرين ، تتخذها مرشدًا لك وتتبعها فتبلغ غايتك .

□

ها قد بلغنا غايتنا من التعريف بمحتـويات هذا الكتاب فهل للمؤلف بعد ذلك أن يفخر بأن كتابه هذا قد جاء ثمرة من ثمـرات وقت انقطع فيه بعض الشىء عن القاهرة ؟ هل يريد بذلك أن يعتـذر عن بعض ما قـد يلحظ قـارئه الكريم من عيـوب ، يخشـاها دائمًا المؤلف أن تقف بـه دون

المكانة التى تحتلها القاهرة من الوطن ؟! ومع هذا فلو كان لهذا الكتاب أن يتميز على كتبى السابقة بشىء ، فقد يكون ذلك فى خفة حركة الأفكار فى سطوره ، وبصفاء الصوت فى الكتاب للمترجم له ، وبخلو فصوله إلى حد كبير من تلك التقاطعات ، واستعاضته عن ذلك بشىء من التطويل فى شىء من الدوران قد يفهم على أنه تكرار . . ومع هذا يطمح المؤلف إلى أن تكون تلك الخصال الثلاث مما ينال رضا القارئ ، وتقديره لمدينة الزقازيق (لا للمؤلف) ، فهى سر كل تلك الانعكاسات .

□

أما ما ينبغى للكتاب من تزيين بشكر أصحاب الفضل وراءه ، فينصرف اليوم إلى شقيق عالمنا الكبير ، اللواء حسن عاكف ، وإنى لأرجو الله أن يأتى اليوم الذى يجد فيه من تقدير وطنه ، ما هو أهل بهذا الوطن ، وسمائه . وينصرف كذلك إلى أساتذتنا الأجلاء الدكاترة كامل منصور ومصطفى أمين ، ومحمود حافظ ، وعبد المنعم أبو العزم ، وحامد جوهر ، وحسين فوزى ، وصلاح جلال ، ومحمد طنطاوى ، ومنير نصيف ، وإميل سمعان ، وزميلى الدكتور سامح خميس ، فلهم جميعًا الثناء الجميل .

د. محمد الجوادى

الباب الأول

حيـاة
أحمد زكى

ولد الدكتور أحمد زكى بن محمد حسين عاكف فى اليوم الخامس من شهر إبريل سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩٤) فى مدينة السويس ، وكان والده رحمه الله رجلاً مثقفًا ، جمع مكتبة كبيرة ووعاها ، وتعلم فى صغره فى مدرسة فرنسية ، وكان كعادة أغلب أهل العلم والشهادات فى ذلك الوقت من موظفى الحكومة ، وهذا هو ما ذهب بالأسرة إلى السويس حيث ولد عالمنا الجليل ، ثم عادوا إلى القاهرة عام (١٩٠٠) حيث ترعرع .

وكان والد أحمد زكى على صلة بالشيخ محمد عبده ، يتصل به ، ويستمع إليه ، ويأخذ بآرائه . وهى ظاهرة مدهشة [على الأقل فيما يتعلق بى] ، فقد كان والد محمد كامل حسين كذلك ، وكان والد على مصطفى مشرفة كذلك ! وكانت لوالده ميول إلى الكتابة ، وكثيرًا ما كان يعلق على ما يقرأ بعبارات وجدها أبناؤه على هوامش كتبه تنم عن سعة أفق ، وسلامة عقيدة . وقد امتد به العمر حتى رأى ابنه الدكتور أحمد زكى عالمًا كبيرًا وأستاذًا جامعيًا ، ومديرًا لمصلحة الكيمياء ، ثم توفى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف (١٩٤٣) . أما والدته ، فقد توفيت وهو يدرس فى إنجلترا .

كان أحمد زكى أكبر أشقائه ، وكان له شقيقان ، وثلاث شقيقات . فأما الشقيقان . فهما المرحوم الأستاذ محمد أمين عاكف ، وكان من كبار رجال التعليم المصرى ، واللواء حسن عاكف ، أطال الله بقاءه ، عضو جمعية المهندسين الجويين بلندن ، والطيار المصرى اللامع . وأما

الشقيقات الثلاث فقد توفيت وسطاهن « حنيفة » بعد عودتها بشهادة عليا من إنجلترا ، وعملها أستاذة فى معهد البنات ، وكانت من أوليات المصريات اللاتى ابتعثن للخارج فى سبيل العلم .
وأما الشقيقتان الأخريان ، فهما زوجتا الأستاذين عبد الرحمن خضير وكيل وزارة الشئون القروية السابق ، والأستاذ جنيد رئيس تحرير البلاغ عليهم رحمة الله جميعًا .

□

ولما شب الدكتور أحمد زكى عن الطوق بُعث به إلى الكتاب ، فلم يطقه ، وتركه بعد أيام معدودات إلى المدارس الحكومية ، وقد تحدث عالمنا عن تجربته فى الكتاب فى أكثر من موضع .
ودرس الدكتور أحمد زكى سنوات من المرحلة الابتدائية فى السويس ثم فى القاهرة فى مدرسة عباس الابتدائية فالتوفيقية الثانوية . وعرف رحمه الله بالجد فى التحصيل ، وبروز الشخصية فى هاتين المرحلتين ، وبالإضافة إلى هذا كان أحمد زكى الجناح الأيسر لفريق كرة القدم فى التوفيقية الثانوية ، وحصل عالمنا الجليل على البكالوريا سنة ١٩١١ ، وكان ترتيبه الثالث عشر على القطر المصرى .

آثر أحمد زكى أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا ، فالتحق بها ، وزامل فيها مجموعة من العظماء ، قلما اجتمع عدد كبير منهم فى نفس الدفعة ، ومن العجيب أن هؤلاء قد قادوا حركة الثقافة وهم طلبة ، وهم شباب ، ثم تسلموا مقاليد التعليم المصرى لفترة طويلة من الزمان فارتقوا به وحافظوا له على مستوى دولى مرموق . وفى هذه المدرسة زامل الدكتور أحمد زكى الأستاذ محمد فريد أبو حديد الأديب والكاتب وعضو مجمع اللغة العربية وأحد كبار رجال وزارة المعارف ، والدكتور محمد عوض محمد الجغرافى والأديب والوزير النابه وعضو مجمع اللغة العربية وأحد رواد الإصلاح الاجتماعى ، والدكتور أحمد عبد السلام الكردانى - أطال الله بقاءه - أمين جامعة القاهرة ووكيل وزارة المعارف وأول من درس الطيران وهندسته ، وعبد الحميد العبادى المؤرخ والأستاذ الجامعى الكبير وعضو مجمع اللغة العربية ، والأستاذ محمد بدران شيخ المترجمين العرب فى العصر الحديث ، وأحد كبار رجال التعليم والثقافة ، والأستاذ محمد شفيق غربال الأستاذ الجامعى ، والمؤرخ الكبير ، والمشرف على إصدار الموسوعة العربية الميسرة ، وعضو مجمع اللغة العربية ، والأستاذ محمد أحمد الغمراوى أحد رجال التعليم والعلم البارزين ، والأستاذين محمد عبد المنعم أبو زهرة ومحمد عبد الوهاب خلاف من كبار رجال وزارة المعارف والجامعة ، والأستاذ محمد كامل سليم الذى اختاره سعد زغلول سكرتيرًا خاصًا له ، ثم تدرج فى مناصب الحكومة حتى كان سكرتيرا عامًا لمجلس الوزراء المصرى ، كما زامل أحمد زكى غير هؤلاء من الدفعات السابقة واللاحقة .

كانت مجموعة متميزة باتساع الأفق ، وعلو الهمة ، وسمو الغاية . انظر إليها وقد ألفت من بينها وهى على وشك التخرج من مدرسة المعلمين « لجنة التأليف والترجمة والنشر » أعظم مؤسسة

وطنية قامت للنشر فى مصر ، واختارت اللجنة ضمانًا للنجاح أن تبدأ بالكتب المدرسية ، فعهدت بكتاب « مبادئ الكيمياء » إلى أحمد زكى وأحمد الكردانى ليترجماه ، ثم أخرجت اللجنة الكتاب بالعربية ، ليكون المرجع الأول لطلابها ، وبقى هذا الكتاب كذلك لفترة طويلة .

□

وتخرج أحمد زكى وزملاؤه ، فلم يجدوا أبواب الرزق مغلقة ، ولكنهم وجدوها لا تتسع لهم . كانت الحرب العالمية الأولى قد دقت الأبواب ، وانتشروا فى الأرض يبحثون عن عمل يكفل لهم لقمة العيش ، وترددوا فى وظائف التدريس بين القاهرة والأقاليم . وعمل أحمد زكى بالتدريس فى بعض المدارس . ثم عمل ناظرًا لمدرسة وادى النيل الثانوية بباب اللوق بالقاهرة ، وكانت على مقربة من الجامعة المصرية القديمة ، وكان صاحبها هو والد الفنان يوسف وهبى . وتقوم مكانها اليوم المدرسة الألمانية بباب اللوق .

وقد وصف أحمد زكى حاله وهو ناظر ، وتلاميذه يكبرونه فى السن ، وطولهم أكبر ، فقال فى طرافة : « ولكن شاربى يفوق شواربهم لأنه يبرم إلى أعلى ، وكانت مودة العصر » ، فاتخذ أحمد زكى منها ضرورة أدبية .

وكانت النفوس فى نهايات الحرب العالمية الأولى مشتعلة بالغضب على الإنجليز ، تبغى الخلاص منهم ، وقد اتخذ هذا الغضب بعد مرحلة قصيرة صفة الثورة العامة ، فكانت ثورة سنة ١٩١٩ ، ولكن بدايات هذا العنف كانت عند الشباب من أمثال أحمد زكى وأنداده وطلبته . ويعبر أحمد زكى عن ذلك بقوله إنه كان هو ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وأحمد أمين زملاء فى مدرسة الثورة . وكانت مهمة الناظر وقتها تنظيم الإضرابات ، وقد خرج طلبة أحمد زكى ذات يوم فى تظاهرة تحدت الإنجليز الذين اصطفوا فى انتظار مقدم السلطان فؤاد لافتتاح الهلال الأحمر ، وخرجوا فى يوم آخر ثم عادوا إلى المدرسة وجاء الإنجليز يلاحقونهم ليلحقوا بهم الأذى ، فلم يجدوا فى الفصول إلا الطلبة الصغار وضعاف البنية ، وكان أحمد زكى الناظر قد أخفى الطلبة فى البدروم ، وهكذا .

وشارك أحمد زكى فى حركة المعلمين لتكوين نقابتهم ، وانتخب سكرتيرًا عامًّا لنقابتهم الأولى .

□

كانت نفس أحمد زكى مشتعلة بالثورة ، ولكنها كانت تواقة كذلك إلى العلم ، وقد رشح أحمد زكى بحكم أوليته لبعثة إلى إنجلترا ، ولكنه حرم منها بسبب رسوبه فى الكشف الطبى ، ولكن نفسه ظلت تواقة إلى العلم ، وبدأ يدبر أمر السفر على نفقته الخاصة ، حتى إذا توفر له من ماله ذلك القدر الذى يمكنه من البداية قرر السفر ، وأخذ طريقه إلى إنجلترا ، واختار التخصص فى الكيمياء ، هكذا ، دون أن يخطط له أحد أو يوجهه .

وقد قال فى ذلك : « ولم يكن للمصريين فى نهضتهم الحديثة ، إلى ذلك اليوم علم بهذه الكيمياء . . كانت الكيمياء شيئًا مجهولاً ، أقسامها وحروفها ، وسألت فما شفانى مجيب » . وليس فى هذا مبالغة إذا ما تذكرنا قصة ترجمة كتاب « مبادئ الكيمياء » التى قام بها عالمنا هو والكردانى .

سافر الدكتور أحمد زكى فالتحق بجامعة نوتنجهام ، والسر فى هذا أن جامعة نوتنجهام كانت الجامعة الوحيدة التى استجابت لطلبه بعدما كتب إلى كل الجامعات البريطانية برغبته فى الالتحاق بها . وحين ذهب الدكتور أحمد زكى إلى نوتنجهام ، لم يكن فيها من المصريين إلا اثنان : على مصطفى مشرفة ، ومحمد أحمد الغمراوى . ولم يكن سبقهما إلى الدراسة فيها على ما يُرجح الدكتور زكى إلا النقراشى باشا رحمهم الله جميعًا .

ويصف الدكتور أحمد زكى أيامه الأولى فى الجامعة وبين الإنجليز ، فيقول : « كنت فى أول أمرى بادى الحس مرهفه ، ثم تعلمت من القوم انثلامه ، وتعودت أن أسير فى طرقات الحياة هادئًا باردًا لا أبالى ، وإن تأججت فى قلبى مما ألقى وممن ألقى جمرات . والأدب شاع فى القوم ، فلكل عطاء شكر ، ولكل أخذ استئذان . والصف ، والطابور ، ولم نكن تعودناه فى مصر طمأنا أنفسنا على الوقوف فيه . . إن القادم الأول له الخدمة الأولى ، وإذن لا بد من ترتيب » .

□

ثم حانت للدكتور أحمد زكى فرصة للانتقال إلى جامعة ليفربول ، « وهى جامعة أكبر ، والمدينة مدينة أفسح ، والمصريون كانوا فيها كثرة وكان فيهم انبساط ، وعندى انطواء فقل بهم لقائى ، وتنقلت بين الأسر أنزل بها ، فتارة أحمد ، وتارة أذم » .

« وألفت رجال هذه الجامعة ، وألفونى ، وحمدت لهم ، وحمدوا لى ، وكان أساتذتى بها فى العلم أساطين . رأيت الأستاذ الكبير بالى مرة يسير من معمل فى الجامعة إلى معمل ، وبين الاثنين

شـارع ، وفى يمناه أجهـزة ، وفى يسراه ، وهـو مثقل بها ، فأسرعت إليـه أحمل عنه ، فـدفعنى فى لطف ، فلما ألححت قال لى : « إن كنت مغرما بحمل الهمـوم فاحمل هـذه عنى » . وكان ذا عين واحدة ، والأخرى من زجاج ، فقد ذهب بها فى شبابه فرقعة جاءته فى تجربة كيمياوية لم يحسب لها حسابا » .

« ورأيت ضحى يوم رجـلاً طويلاً مهيبًا على رأسـه شعر طويل منتفش ، وهـو يسير فى رحاب الجامعة فى هالة من الناس ، فسرت نحوهم ، فوجدت بينهم أساتذة عرفت ، وأساتذة لم أعرف ، وهم يـدورون فى الجامعـة بصـاحبهم ، وسألت : مـن الـزائر ؟ قيـل : أينشتين . فتبعت مع التابعين ، ولم يرتفع من حـوله صراخ ، كان الوقار السائد ، وكان السكـون فكأنما كنا نسير معه فى مأتم » .

قضى أحمد زكى عامًا وعامين يحاول أن تلحقه الحكومة المصرية ببعثتها ، حتى أفلح فى النهاية أن يضم إلى البعثـة الـرسميـة . ومن ملف الـدكتـور أحمد زكى فى وزارة المعـارف ننقل نص هـذا الخطاب المؤرخ ٩/ ٢/ ١٩٢٢ :

« حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة المعارف .

السلام على سعادتكم ورحمة الله .

قدمت العـام الفائت طلبًا إلى صـاحب المعالى وزيـر المعارف السابق أطلب فيـه إلى الوزارة أن تدمجنى ضمن طلبـة إرساليتها بإنجلترا ، وقـد تسلمت الوزارة طلبى هـذا فى يونيو الفـائت ، وقد وعدتنى بلسان الوزيـر عن طريق قلم الإرسالية على أثر ذلك بالنظـر فى طلبى هذا العام لأن وقت النظر فى إرسالية العام الفائت كان قد تم .

وليس لدى الآن من جديد أزيده على ما طلبتـه فى العام الفائت سوى لفت نظر سعادتكم إلى تقريـر قرأه على منـذ أسبوعين المستر إليـوت رئيس قسم الإرساليـة بلندن ، وهـو تقريـر عنى كتبه رئيس مدرسة الكيمياء بجامعة ليفربـول البروفسور بالى إلى وزارة المعارف ، وفيه أنه لا شك فى نيلى درجة الشرف فى الكيمياء ومن الصنف الأول فى يونيو القادم ، وأنه ينصح لى بالبقاء عامين آخرين فى الجامعة لنيل الدكتوراه D. Sc. ، فرجـائى من سعادتكم عنـد النظر فى طلبى أن تلحقـوا هذا التقرير به ولكم منى الشكر المضاعف . . . . . . » .

□

وألحق الدكتور أحمد زكى بالبعثة المصرية ، وحصل على بكالوريوس العلوم من ليفربول عام (١٩٢٣) وعلى دكتوراه الفلسفة (.Ph. D) عام (١٩٢٤) ، ثم واصل دراسته فى جامعة مانشستر فى تلك المنطقة المشهورة بمصانع القطن ، وعمل مع الأستاذ الكبير روبرت روبنسون . وجدّ الدكتور زكى فى عمله ، حتى إن الجامعة أعطته مفتاحًا من مفاتيح أبوابها الرئيسة ، ليخرج ويدخل وقتما شاء .

ويحدثنا الدكتور زكى عن موقف الطلبة والجامعات البريطانية من السياسة ، وهو موقف نال إعجابه : « وأحسست أنه كان فى الجامعة ، من طلبة وأساتذة ، للسياسة والساسة احتقار ، وعنها وعنهم ترفع . والسياسة عندهم عمل فردى ، وهى واجب ، ولكنها واجب شخصى كبعض الواجبات والضرورات التى يقوم بها الشخص منا فى خلواته » .

لهذا لم يكن عجبًا ألا يجد الدكتور زكى فى يوم من الأيام فى تلك الجامعة تظاهرة أو إضرابًا أو تجمعا أو مناقشات سياسية . . إلخ .

وبعثت به جامعة مانشستر إلى النمسا ، إلى جامعة جراتس ، حيث الأستاذ بريجل مبتدع التحليل المكروئى للمواد ، وقضى الدكتور زكى أيامًا ممتعة فى صحبة العالم الكبير ، وتلاميذه الأفذاذ ، وطلبة الجامعة الذين يشتغلون بالسياسة على خلاف الإنجليز .

□

ويعود الدكتور زكى إلى إنجلترا ، وإلى جامعة لندن فى عاصمة الإنجليز ، ويتقدم لنيل درجة الدكتوراه فى العلوم ، أعلى الدرجات العلمية « D. Sc » فيحصل عليها سنة (١٩٢٨) . ويصف نقاشهم له عند نيل الدرجة ، فيقول : « كان نقاشا طويلاً ، ذكرنى بنقاش الأزهر عند العالمية ، وخلصت منهم خلوص الشعرة ، والسر أنى كنت أعلم بالذى أنا فيه » .

ويحتفظ الدكتور زكى للندن فى ذاكرته بالذكرى الطيبة ، وقد كان سعيدًا أن يدرس فيها ، وأن يقضى وقتًا فى العاصمة : « كنا فى محاضرة ، وبعد الفراغ منها علمنا أن الملكة كانت بيننا تستمع ، جاءت من الباب الخلفى الأعلى للمدرج . وخرجت السيدة الشيخة الوقور تتوكأ على عكازها ، والكل وقوف فى احترام شديد ، ولم ينبس أحد منهم . كان صمتا أبلغ من الكلام » .

وبحصول الدكتور زكى على درجة الدكتوراه فى العلـوم ، أصبح ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة فى مصر ، بعد المغفور لهما على مصطفى مشرفة وعبد العزيز أحمد .

وعاد أحمد زكى إلى وطنـه عام (١٩٢٨) ليجـد فيه جـامعة ناشئـة ترحب بـه أستاذًا مسـاعدًا للكيميـاء العضـويـة فى كليـة العلـوم ، وليكـون من أوائل المصريين الـذين يحظـون بهذا الشرف العظيم. وسرعان مـا يحصل أحمد زكى على الأستاذية عام (١٩٣٠) ليكـون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء .

وسـوف نتحدث عن أحمد زكـى الأستاذ ، ورائد الطلبـة ، والبـاحث ، عندمـا نفـرغ من سرد تاريخ حياته إلى التأمل فى نواحى شخصيته بعد بضع صفحات من هذا الكتاب .

□

ثم تجرى انتخابـات العمادة عام (١٩٣٦) لانتخاب أول عميد مصرى ، فيفـوز الدكتور أحمد زكى بأغلبية الأصـوات ، يليه الأستاذ حسـن أفلاطون ، ويليهما الـدكتور مشرفة . ولكن حكـومة الوفـد الحاكمة فى ذلك الوقت تعين مشرفـة عميدًا ، والاثنـان بل الثلاثة خيـار من خيار ، ولكن أحمد زكى يغضب ، ويتكلم نـائب فى البرلمان ، ويرد الـوزير الكبير فى البرلمان ليقـول إن القانـون يعطينا هـذا الحق (حق اختيار العميد من بين ثـلاثة نالوا أكثـر الأصوات) ، وهو قـانون العمادة الذى كان معمولاً به وقتها ولا يزال * . ويتكلم طه حسين مع مكرم عبيد على نحو ما روى محمود عوض على لسان الدكتور زكى . وتخلو مصلحة الكيمياء من مديرها الأجنبى ، فيذهـب إليها أحمد زكى مديـرًا ، لا بحكم الترضية فحسب ، ولكن لأن منصب مـدير مصلحـة الكيمياء لا يجد بين المصريين من هو أصلح له ولا أجدر به منه .

ويبقى أحمد زكى على صلة بالجامعة ، وتتكرر مسألة العمادة فى عام (١٩٣٩) . ويلحون على أحمد زكى فى البقـاء بالجامعـة ، ولكنه يصمم على التحـول من الجامعـة ، ويقول إنـه جاز لـه ألا يتحول عند الفشل الأول ، أمـا عند الثانى فقد وجب التحـول ، « ومنونى ، فقلت لا أقيم بأرض تزرع الفشل » .

---

* بعد صدور الطبعة الأولى و فى عهد قريب (١٩٩٤) تم تعديل القانون وإلغاء مبدأ الانتخاب كلية .

وقد ظل أحمد زكى مديرًا لمصلحة الكيمياء أحد عشر عاما ، ينهض فيها بالمصلحة إلى المصاف الأول من معاهد الكيمياء فى العالم ، ويجعلها قادرة على الوفاء بحاجة المجتمع المصرى وصناعاته ، وما إلى ذلك من المهام العلمية والتحكيمية التى تقوم بها مصلحة الكيمياء .

□

ويأخذ الدكتور أحمد زكى يلعب دوره المرموق فى المجتمع المصرى ، فيكتب فى الإصلاح الاجتماعى ، ويكتب أكثر فى الثقافة العلمية ، وتفسح له المجلات الكبرى المجال ، فكان من أعمدة مجلتى الرسالة والثقافة ، ومن محررى الصفحات العلمية الكبرى فى الصحف اليومية واسعة الانتشار .

ولا يفتأ أحمد زكى يكتب مطالبًا بإنشاء معهد قومى للبحوث العلمية ، يتولى أمر هذه البحوث فى مصر، فى سبيل العمل من أجل قيام النهضة المصرية على الأسس العلمية الثابتة . وتتجاوب دعوة أحمد زكى مع دعوات زملائه من العلماء والمفكرين ، حتى تنتهى الحرب العالمية الثانية بالانفجار المروع للقنبلتين الذريتين ، اللتين أبانتا عن خطورة دور العلم . . وينشر الدكتور أحمد زكى على ما يروى أستاذنا الدكتور أبو العزم « كلمة فى إطار أسود ينعى فيها مشروع المجلس الأهلى للبحوث الذى لم ير النور بعد » ، وكانت كلمة لها صداها . ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى خرج قانون مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث إلى حيز التنفيذ عام (١٩٤٥) ، ويختار الدكتور زكى سكرتيرًا عاما للمجلس بالإضافة إلى منصبه مديرًا لمصلحة الكيمياء .

وفى العام التالى (١٩٤٦) تضاف إلى الدكتور أحمد زكى أعباء إدارة « مصلحة الصناعة » ، فتجتمع فى يد الرجل مفاتيح إدارة العلم التطبيقى فى مصر .

وفى سنة ١٩٤٧ يبلغ مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث مرحلة متقدمة من التنظيم ، وينشأ له جهاز تنفيذى ، ويختار الدكتور زكى ليكون أول مدير للمجلس (بدرجة وكيل وزارة تتبع رئاسة الوزراء مباشرة) . ويبقى عالمنا على هذا الوضع خمس سنوات (١٩٤٧ - ١٩٥٢) ليؤسس المركز القومى للبحوث على خير وجه ، على نحو ما يرويه لنا أستاذنا الدكتور حامد جوهر فيقول : « كما أن له الفضل الأكبر فى نفخ الروح فيه ، فقد دأب على حفز أولى الأمر فى ذلك الوقت على الاهتمام به ، وإخراج مراكز البحوث إلى الوجود . وقد شاءت له دقته العلمية وسمو همته أن تكون هذه المراكز على أحدث ما وصلت إليه العلوم والفنون ، فرأى بثاقب فكره، وقوة إرادته، وحسن إدارته

أن يبدأ من حيث انتهى من سبقونا ، ولهذا الغرض كانت رحلاته فى أنحاء الدنيا القديمة والحديثة يزور كل المعاهد والمؤسسات العلمية والصناعية والجامعات وكل مكان يكون للبحث العلمى والتطبيقى فيه شأن ، حتى جاء مجمع المراكز القومية للبحوث آية فى الإبداع والكمال ، وظل دليلاً عمليًا ساطعًا على ما اتصف به فى جميع أعماله من دقة علمية متناهية ، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أولاها ما تستحقه من العناية والاهتمام » .

ويردف الدكتور جوهر: « وإنى لأستعمل هنا اسم مجمع مراكز البحوث لأنه فى الواقع عدد من مراكز البحوث اجتمعت فى موقع واحد ، وهكذا قصد فقيدنا الكبير عندما فكر فى إنشائها » .

« ولقد توخى قبل أن يتم وضع برنامج المجمع ورسومه ومواصفاته أن يتم ذلك عن طريق مسابقة دولية عالمية ، اشتركت فيها البيوتات الدولية المشهود لها بالخبرة والكفاءة والامتياز ، ثم جاء دور الاختيار من بينها فوكل أمر ذلك إلى هيئة عالمية ممتازة من العلماء اختارها لهذا الغرض بخاصة ، فإذا جاء دور التنفيذ كان سبيله إلى ذلك مناقصات دولية عالمية اختيرت من بينها الهيئة الأصلح والأقدر على ذلك وأشرفت على التنفيذ هيئات خاصة أيضًا لم يكن اختيارها يتم بدون الدقة نفسها التى نالتها عمليات أخرى . وعلى الوتيرة نفسها تم تجهيز هذه المراكز » .

« وكان هو فى هذه الأعمال العقل المفكر المدبر المنسق المؤقت ، وقد راعى فى كل ذلك حركة التطور السريع التى يشهدها العلم فى هذا العصر ، وأهمية نماء العلم والبحوث العلمية والتكنولوجية للجيل الذى كان يعيش فيه والأجيال التى تليه » .

ولا غرو إذن إذا جاء (مجمع البحوث) آية فى الإعجاز ، ومثلاً أعلى لما تكون عليه المشروعات العلمية فى عصر الفضاء قبل أن يأتى هذا العصر » .

وكان أحمد زكى إبان رئاسته لمجلس البحوث وتعامله المباشر مع رئيس الوزراء والوزراء يعانى أشد المعاناة من عقليات الساسة الذين يتعامل معهم فى الوزارات المتعاقبة . فقد كان هؤلاء مشغولين بل مأخوذين بالأمور العاجلة من مشكلات السياسة والجلاء والمفاوضات وأزمة فلسطين وما بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن قضايا الانتخابات وتقسيم الدوائر ، وتوزيع الكراسى . ويذكر عالمنا أنه جاءه ذات مرة مهندس يونانى قدير يعرض عليه فكرة إنشاء السد العالى وأقنعه بها، وذهب به الدكتور زكى إلى الوزير المختص ، فرد عليه هذا الوزير مستنكرا : «أحنا فى إيه ولا فى إيه ؟ » . لهذا يجد قارئنا فى فلسفة الدكتور زكى حملة شديدة على مثل هذه السياسة قصيرة النظر. ولقد كان أحمد زكى لهذا يعارض فى شدة وفى استمرار الشعار الذى رفعناه بعد ٥ يونيو قائلين « لا صوت يعلو على صوت المعركة » .

□

وحين شكل حسين سري باشا وزارته الخامسة والأخيرة فى الثانى من يوليو عام (١٩٥٢) ، اختار أحمد زكى وزيرًا للشئون الاجتماعية ، وكان بين الرجلين صداقة وتقدير ، وإذ تم تشكيل الوزارة على عجل ، فقد كلف البوليس بإحضار أحمد زكى ، فذهبوا إليه كأنهم يقبضون عليه ، ويستحثونه الإسراع ، لمقابلة الملك ، فى الريدنجوت الأسود ، ولم يكن لديه هذا الريدنجوت الأسود ، فاستعاره من صديقه الدكتور السنهورى ، وقد صورت الصحافة ذلك الموقف يومها فى صورة طريفة ، حيث قالت إنهم قبضوا عليه « بالبيجامة » ليكون وزيرًا .

وهكذا دخل أحمد زكى الوزارة ، وأقسم اليمين ، ومضى بعد لقاء الوزراء إلى الوزارة ، فاجتمع بوكلائها وبالمديرين . فلما انفض الاجتماع أسرع إليه الصحفيون يسألونه ماذا هو فاعل ؟ وقد كان لسؤالهم معنى ، فقد كان أحمد زكى من أقطاب المنادين بالإصلاح الاجتماعى ، وها هو ذا قد ولى الأمور . وقال لهم أحمد زكى إنه اقتنع الآن أن هذه هى وزارة الإنتاج فعلاً . . يقصد إنتاج المادة الإنسانية . وعبر لهم عن أنه شعر بأنه ليس غريبًا عن أهل هذه الصناعة لاتصالها بكل ذى فكر . . وانتقل إلى الخطوات التنفيذية التى يزمع القيام بها ، فقال : « إنه لا اعتراض فى الإحسان إلى العاجز المطلق . . أما أنصاف العجزة والأرامل ، فيمكن ابتداع وسائل لتحويلهم من رجال ونساء يحسن إليهم إلى رجال ونساء يستطيعون بمال الضمان أن يقفوا على أرجلهم فينتجوا » . أما كيف الوسيلة إلى ذلك ؟ فقد قال أحمد زكى إنه يرى أن يعطى الراتب الذى يصرفه الضمان لهؤلاء أول السنة دفعة واحدة (بدلاً من أن يعطى شهريًّا على ١٢ دفعة) وعندئذ يستطيع الواحد من هؤلاء أن يبدأ به مشروعا نافعًا ترتفع به نفسه من مذلة الإحسان إلى عزة الاستقلال . فهذه فائدة ، ثم الفائدة الأخرى بإخلاء مكانه لآخر من المستحقين الذين يقفون فى طابور الانتظار . هنا قال له الصحفيون : ولكنك ياسيدى الوزير بهذا لا تعتبر الإحسان إلى الفقراء حقًّا على الدولة ، كما ينص القانون . فأجابهم أحمد زكى فى بديهة حاضرة قائلاً : إنه حق لاشك فى ذلك ، ولكن الكرامة الإنسانية فوق الحقوق القانونية .

□

وقد أثار الدكتور أحمد زكى أثناء توليه الوزارة مسألة تحديد النسل ، وكان يدعو إلى التفكير فى الموضوع بجدية وموضوعية ، وكان يقول إنها مشكلة عالمية ولا يكون حلها إلا بزيادة الإنتاج ، وزيادة الأرض ، واتباع الطرق العلمية التى تضمن وفرة الإنتاج ، وإصلاح الصناعة والنهوض بها

حتى تشكل مصدرًا من مصادر الدخل التى ينبغى لها أن تسد حاجة الناس .

وكان أحمد زكى يدعو إلى الهجرة . . وكان يحدد أماكنها ، فيجعل على رأسها السودان الذى هو أحوج ما يكون إلى الخبرة المصرية . . ثم البلاد العربية التى تعانى من قلة السكان حتى إنها مهددة بالغزو لهذه القلة . ومضت الأعوام وأثبتت الأيام صواب أفكار عالمنا .

وكان الدكتور أحمد زكى يؤكد أن برامج تحديد النسل يدعو إليها الوعى ، ولا تحكمها القوانين ، ولهذا فإنه لا يريد تحديد النسل عند الأغنياء والقادرين ، ولكنه يريده عند أولئك الذين عانوا الفقر والتعاسة . ولعمرى ، إنه أصوب الآراء التى ينبغى أن تبنى عليها البرامج الإعلامية والدعائية لمشروعات تنظيم الأسرة .

ولم تتح الأيام العشرون التى قضاها الدكتور زكى فى الوزارة أن يرى ثمرات برامجه الإصلاحية ، واستقالت وزارة سرى باشا فى الثانى والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ لتعقبها وزارة نجيب الهلالى باشا التى لم تمكث أكثر من أربع وعشرين ساعة قامت فيها ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

ولم يكن أحمد زكى سعيدًا بالفترة التى قضاها وزيرًا ، وقد عبر ـ عرضًا ــ بصراحة عن مشاعره تجاه هذه الفترة ، فقال : « وكانت تجربتى فى الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها أن للحكم ظاهرًا يعرفه الناس ، وأن للحكم باطنًا لا يعرفونه ، وليس هذا كذلك . رجل مثلى تعود أن يقيس الأطوال بالمتر ، فإذا وجد شيئًا طوله عشرة سنتيمترات لم يستطع أن يقول إنها عشر بوصات ، ولو قرأها عشرون رجلا من حوله من أهل الحكم وقالوا إنها البوصات لا السنتيمترات .

« إنها عادة لأهل العلم يضيق بها أهل السياسة » .

□

وخرج الدكتور أحمد زكى من الوزارة ، فعاد إلى مجلس البحوث فى نفس موقعه ، موقع الرأس من المركز ، واستمر فى تنفيذ برنامجه الإنشائى والتنظيمى فى عهد الثورة ، حتى زاره أحد كبار رجال الحكم ، فلم يبد الفهم أو الاحترام اللائق بالمركز ، فرد الدكتور زكى عليه مباشرة ــ على ما يروى أستاذنا الدكتور أبو العزم ــ فى كتاب عنوانه : « المجلس الأعلى للبحوث : ماضيه القصير ، وحاضره ، ومستقبله » .

ويبدو أن الأمر فى مجلس البحوث لم يعد يلقى القبول فى نفس عالمنا ، فذهب الرجل فقدم

استقالته إلى اللواء نجيب ، ونشرت الصحف اليومية ذلك يوم الثانى عشر من أغسطس عام ١٩٥٣ .

بعدها بخمسة أيام ، خرجت الصحف تعلن للناس نبأ اختيار الدكتور أحمد زكى مديرًا للجامعة الأولى فى البلاد ، جامعة القاهرة . وهكذا أتيح للجامعة الأولى أن يكون مديرها فى فترة الاضطرابات (القادمة) هو ذلك الرجل الذى جمع العلم والمنطق والخلق والشخصية ، وكأنما أراد الله للجامعة الحفظ من العاصفة السياسية التى كانت فى مارس (عام ١٩٥٤) . وقد تولى أحمد زكى منصبه فى السابع عشر من أغسطس (عام ١٩٥٣) ، والبلد بعد الثورة على شفا جرف هار من أزمات سياسية ، يتصيد لها أصحاب الهوى ، الفرصة بين كل حين وآخر ، وقادة الثورة منقسمون على أنفسهم أو على خلاف فى بعض الأحيان مع محمد نجيب أو مع بعض المدنيين الذين قبلوا معاونتهم فى تولى أمور الحكم .

وأشيع أن الجامعة ستبدأ سنتها متأخرة ، فخرج أحمد زكى ليطمئن الناس أنها ستبدأ فى موعدها . ثم بدأت القلاقل داخل الجامعة ، فلم يتوان أحمد زكى عن أن ينشر رأيه يوما بعد يوم على الناس من خلال الصحافة — أكثر وسائل الإعلام فعالية يومها — إما بقلمه ، وإما على صورة الاستجابة لسؤال الصحفيين الذين يتوافدون عليه ، ولا بد من الإشارة إلى أنهم كانوا يحبون الرجل ويقدرونه . . وكان منطق أحمد زكى فى كل ذلك هادئًا حريصًا ، حريصًا على العلم وعلى كعبة العلم وعلى طلاب العلم من أبنائه .

ثم حدث ما لم يكن من حدوثه بد ، ودخلت قوات الشرطة الجامعة فى أزمة مارس ، على الرغم من ممانعة أحمد زكى لوزير الداخلية فى ذلك ، واعتدى على بعض الطلاب فى الحرم ، وذهبوا بهم إلى مستشفى قصر العينى للعلاج ، وذهب أحمد زكى من فوره فزارهم . فلما كان على باب القصر قابله الطلاب وصاح به أحدهم أن يستقيل ، وصاح به آخر أن يبقى ويدافع عما يطالب به الطلاب ، وزادت حيرة أحمد زكى بين الرأيين أو الموقفين اللذين تنازعاه قبل مجيئه من الجامعة إلى قصر العينى . وفكر المفكر ، ثم استقر على الرأى الذى صرح به بعد ذلك لسامى جوهر ونشره فى الجيل الجديد : « إن مدير الجامعة يجب ألا تستخفه الحوادث هكذا سريعًا ، وإنه قبل أن يستقيل هكذا غضبا لا بد أن يتصل بالمسئولين ليعرف الحقيقة فيما جرى ويطلب القصاص ممن أذنب ، وعلى كل حال يزن الموقف الذى كان ، ويقدر إلى أى شىء هو سائر ، ثم هو من بعد ذلك يستقيل نزولا على رأى الطلاب » .

وقال الدكتور أحمد زكى إنه اختار هذا الموقف بعد أن عرف « أن نجيبًا (الرئيس محمد نجيب)

وصاحبه زارا الجرحى مواسين آسفين » ، « واخترته بعد أن اتصلت بوزير المعارف وهو الصلة بين الجامعة والمسئولين وهو الرئيس الأعلى للجامعة ووافق على ألا يكون اعتقال إلا أن يعقبه اتهام صريح على الناس . . . . » .

« وفرحت عندما برت الحكومة بوعدها ، وأردت أن أعلن ما صنع الوزير فنشرت كتابًا أرسلته إليه شكرًا للذى صنع وطلبا للمزيد وتشجيعًا لأهل الخير وتقوية لهم » . . هكذا كان عالمنا يفهم الديمقراطية فى ذلك الوقت ، ولو فهمها المسئولون يومها كما فهمها أحمد زكى ما انساقت البلاد إلى ما انساقت إليه .

واستطرد أحمد زكى يقول لمجلة الجيل الجديد : « اليوم ، ومسئولية الحكم على عاتقنا ، لا بد أن نقدرها ، ولو استقلت فى مثل هذه الظروف فإن « الاستقالة عندئذ تكون من تلك الاستقالات الرخيصة التى تهدف إلى كسب هتاف صارخ عاجل . . وحسبت أن عهد المحبة الزائفة الرخيصة قد ذهب إلى غير رجعة . . وحسبت أن مصر اليوم فى دور يجب أن تتحمل فيه المسئوليات ولو مرة كالعلقم » . ثم شرح كيف أن المسئولية عن الجامعة بطلابها الثلاثة والعشرين ألفا وأساتذتها ومدرسيها وفيها ما فيها من التيارات المتلاطمة مرة كالعلقم . وقال : « إن أشد الأمور إيلاما هو ما يجرح الضمير» . وختم كلمته فى تحذير ذكى واع ، وفطنة زائدة ، ولباقة شديدة فقال : « وقد يأتى وقت يثقل الضمير حتى ينوء فيقدم استقالته » . ولكن أحمد زكى لم يقدم استقالته ، وإنما حفظ له الذين لا يريدون استقلال الجامعة ما حفظوا فى صدورهم حتى أتيح لهم أن يتخلصوا منه فتخلصوا ، وترك أحمد زكى منصبه يوم الثامن من سبتمبر سنة (١٩٥٤) فكانت مدة رئاسته أقصر مدة قضاها رئيس لجامعة القاهرة منذ لطفى السيد باشا وحتى اليوم .

□

وترك أحمد زكى أرفع منصب فى الجامعة الأولى بعدما حافظ على استقلالها بكل ما وسعته طاقته ، وطاقة مدير الجامعة . وعلى ذكر استقلال الجامعة ، فإن أحمد زكى كان يصرح فى فترة مبكرة من رئاسته للصحافة قائلاً : « إن هناك زعماء كانوا إذا ما جاءوا الحكم أصدروا القرارات بفصل كل طالب يشترك فى أى إضراب أو مظاهرة بالهتاف أو بالإشارة أو حتى بالإيماءة ، حتى إذا ما أصبحوا فى المعارضة أنفقوا الأموال ، وأشرفوا بأنفسهم على تنظيم الإضرابات فى الجامعة !» .

وتعـود الصحافـة لتسأل أحمد زكى فى مسألـة « الطلبة والسيـاسة » بعـد أن ترك الجامعـة بفترة طويلة ، فيقول لهم : « إن جراثيم هذا الداء لا تزال إلى اليوم فى الدماء ، وهى لا يقتلها إلا الجرعة القويـة تدفع فى « الشرايين » دفعـا ، ولكنها جرعـة قاتلة فـلا بد من الاستعـاضة عنها بجـرعات خفاف توزع على الأيام » .

وكان يسأل كثيرًا عن استقلال الجامعة ، فيخلص الرأى فى قـوله ، إنه قرأ تاريخ الجامعات من القـرن الـرابع عشر حتى الآن ، «فـدلتنى قـراءتى وتجاربى أن الاستقـلال لا يصنع بـالقـوانين ولا باللـوائح ولا بالبوليس ولكنـه يكتسب ويغتصب» ، « والذى أعلمه أن هـذا العهد ـ يقصـد عهد الثورة ـ هو أقمن العهود على أن يمنح الجامعـة كل استقلالها على شرط أن تعطى الجامعة أغراض الجامعة وأهدافها كل جد . . وهذا ثمن هذا» .

وكان يـدافع عن الطلاب ، فيقـول : «اختلطت بالطلاب حتى فى الهيـاج ، فوجـدت الطلاب فرادى من خير ما يمكن أن نجد عليه الطلاب أدبـا وذكاء وصفاء قلب ، ولكنى لم أجدهم كذلك فى مجموعة» ، ولهذا كانت دعـوته الدائبة إلى تربية الروح الأسرية بين الطلبـة وأساتذتهم « بهذا يثمر النصح ويجدى التوجيه» .

وكـان إذا سمع آراء القائلين بمنع الطلبـة من الاشتغال بـالسياسـة ، اعترض وقال فى وضـوح وقوة : « إنه لا يمكن منع الطلبـة من الاشتغال بالسياسـة ، لأن السياسة الآن ممتزجـة بالحياة ، فلم تعد سيـاسة ملوك ولا سياسـة أباطرة ولكنهـا سياسة شعـوب ، والسياسة تؤثـر فى حياة الكبير كما تؤثر فى حيـاة الصغير ، وتؤثر فى الإفطار والغداء والعشـاء ، والسياسة بمعنى الحكم دخلت فى كل مرافق الدولـة ، وبدون تحرر لا يمكن أن تعيش أمة ، والطلبة هم رجال المستقبل فـلابد أن يفكروا فى كل شىء ، وفى السيـاسـة هـذا فى التفكير . . » ويستطـرد أحمد زكى ليقـرر قـرارًا غير واضح الهوية : «أمـا فى العمل ، أما فيما يصنعون من بعـد تفكير وكيف يصنعون فأمر لاشك فيـه خلاف كبير !» .

ولعل الظروف الصعبة التى كان الوطن يجتازها لم تكن تتيح له أن يجهر بأكثر من هذا ، فرأى أن يتقدم بالفكر فى هـذه النقطة إلى هذه المرحلة وهذا يكفيه . على أن البـاب الثانى من هذا الكتاب سيتناول رأى الرجل فى هذا الموضوع بالتفصيل فى أحاديثه الشهرية .

□

وكانت الجامعة حين تولى أحمد زكى منصب مديرها، قد بدأت تشهد التحولات التى كان لابد من حدوثها مع العهد الجديد، عهد الثورة . ولعل أبرز هذه التحولات هو الاتجاه إلى زيادة أعداد الطلاب، الأمر الذى حدا بالدكتور زكى ورئيسى جامعتى عين شمس والإسكندرية إلى الاجتماع بالمسئولين ليقرروا وضع حد أدنى لدرجات القبول فى الجامعة ، وهى أولى الخطوات التى خطتها الجامعة نحو ما يعرف اليوم بمكتب التنسيق من أجل تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص . وخرج الدكتور زكى بعد الاجتماع وقبل بداية العام الدراسى ١٩٥٣/ ١٩٥٤ ليعلن أن الجامعة قد حددت القبول بنسبة خاصة . فقبلت ثمانية آلاف منتظمين وأربعة آلاف على سبيل الانتساب ، وعقب مصرحا لمحرر مجلة الجيل فى ٢٣/ ١١/ ١٩٥٣ « بأن الذين تركوا باب التعليم الجامعى مفتوحا على مصراعيه للآلاف الجارفة كانوا يقومون فى نفس الوقت بخدعة غير نظيفة لا يرضاها ضمير أى إنسان » .

وعلى الرغم من هذا الموقف القوى الذى اتخذه أحمد زكى لتحديد أعداد المقبولين فى الجامعة ، فإنه كان يدفع الرأى القائل يومها بانحدار أخلاق الطلبة، وكانت وجهة نظره فى هذا « أن الزيادة فى الكم تكون على حساب الكيف ، والكم دائمًا يخرج منه كيف أكبر ولا شك أن عندنا الآن كفايات أكبر وأقدر ولسنا فى حاجة إلا إلى جو اطمئنان » . ويردف موضحا أهمية هذا الاطمئنان فى تحقيق الروح المطلوبة للجامعة والبحث العلمى . فيقول : « إنه قبل لذة البحث لا بد من تأمين العيش وتأمين العدالة » (الجيل الجديد : ٢١/ ٩/ ١٩٥٣) .

ومن التحولات الاجتماعية المهمة التى بدأت الجامعة تواجهها فى عهد أحمد زكى قضية التوجه نحو مجانية التعليم الجامعى ، وقد أخذ هذا الاتجاه خطواته تدريجيا إلى الوجود ، فى ظل قواعد متدرجة صاغها الجامعيون وشارك الدكتور أحمد زكى فى وضع خطوطها العامة ولمساتها الأخيرة ، وكان يرى أن الغرض من المجانية هو محاربة الحرمان من مواصلة الدراسة . ولهذا فإنه كان ينادى من ربع قرن بألا تعطى المجانية للطالب الذى يتكرر رسوبه « فرحمة بالطالب الذى يتكرر رسوبه أن نخلى الطريق لغيره من الذين عندهم الاستعداد » .

□

وفيما يتعلق بالزى الجامعى ، فقد تقرّر زى جامعى فى عهد أحمد زكى ، ولكنه كان على سبيل الاختيار ، ومع ذلك لقى الدكتور زكى بعض الهجوم ، فقال إنه لا يعتقد أنه يمكن أن نجبر طلبة الجامعة على ارتداء زى واحد لأن طلبة الجامعة غير طلبة المدارس . وفسر ذلك بأن طلبة الجامعة هم فى حكم المواطنين المسئولين ، لهم رأيهم وظروفهم وأمزجتهم . . ولا ينبغى أن يفرض عليهم زى معين ، وإنما كان الزى الذى تقرر تعبيرًا عن إرادته فى أن « يلفت نظر الشباب إلى أن هذا الكرنفال المتناقض من الأزياء لا يجب أن يظل معروضًا فى كعبة عالية » .

ثم تحدث مستعينا بأفقه الواسع ، وعقله الكبير ، فقال إنه لو قرر الزى إجباريًا فإنه يخشى أن تكون استجابة البنات أسبق لاستجابة الأولاد ، ومرجع ذلك عنده أن المرأة تفوق الرجل فى إحساسها بشىء مهم هو الأناقة . . والأناقة أوضح ما تكون فى الزى الواحد .

وتصادف أن جاءت نهاية العام الدراسى (٥٣/ ١٩٥٤) مع شهر رمضان ، واختلفت الآراء فى مسألة توقيت الامتحانات . هنا ظهرت الروح الجامعية عند أحمد زكى فترك الأمر فى جداول الامتحانات للكليات ، وقال : إنها أعرف بظروفها ، وبها أتمت من مقررات . . فلما حاول البعض الاصطياد فى الماء العكر والإشارة إلى أن الحوادث التى وقعت فى الجامعة هى التى أدت إلى هذا ، قال أحمد زكى إنه لا يظن أن فى هذا مشكلة ، فإنه يعرف تاريخ الجامعة منذ نشأت ، وقد جاءت عليها بعض السنوات التى لم تستقم فيها الدراسة أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة . . وعن مشكلة مجىء رمضان مع موسم الامتحانات استفتى الطلبة مفتى الديار فى الإفطار وجوازه ، فأفتاهم بجوازه ، وعقب أحمد زكى ـ عندما سئل عن رأيه ـ فقال إن كثيرًا من المسلمين يتحرجون بضميرهم من الأخذ بهذا الرأى .

ومع ظهور نتائج الامتحانات بانت فى الأفق مشكلة تعطل الخريجين الذين زادت أعدادهم عن كل حاجة . . وسئل أحمد زكى عن رأيه فقال : « إن التعطل أصبح مشكلة مزمنة ، وإنه يوجد عند غيرنا من الأمم ، وإنه لا يزول إلا بالحروب » . . ولكنه لا ينادى بمثل هذا فى مصر ولا يعلل الأمور بوجوده فى الخارج ، وإنما يدعو إلى إنشاء « مراكز للتوظيف » لأن العمل فى مصر موجود والقادرون عليه موجودون ، ولكن المسألة فى إيجاد الصلة المنظمة بين الاثنين . . وهى الفكرة التى اتخذت بعد ذلك اسم «القوى العاملة » .

ولكن أحمد زكى كان ينبه بشدة إلى خطورة التعطل ويقولها فى صورة حكمة « **ليس أخطر من عامل متعطل** » .

□

وبرغم كل هذه الأمواج العاتية ، والظروف المتعاقبة ، والمشكلات التى كانت تستنفد الجهد والوقت ، كان أحمد زكى حريصًا على توجيه طلابه ، وإسداء النصح إليهم ، فى كل مناسبة يتحينها للحديث إليهم ، وكان يدعوهم إلى التمسك بالأخلاق وتقوية الشخصية ، وكان يقول لهم : « إن الرجل لا يكون بكثرة معارفه ، ولكن بصحة أخلاقه وصلابة نفسه » . وكان يحثهم على استقلال الرأى : « من أكبر مميزات العقل الناضج الاستقلال ، ومن أسوأ صفاته التعبد لكل مستعبد ، فالتبعية عبودية ، وشر ما ينال الناس العبودية لا سيما عبودية الرأى » .

لاشك كان أحمد زكى يقصد بعبودية الرأى انسياق الطلاب إلى تأييد القوى السياسية خارج الجامعة من دون تمحيص لآرائهم التى لن تحتمل أمام عقل الطالب النبيه دقائق حتى يتبين زيفها .

وكان أحمد زكى يمتد بنصائحه لطلابه إلى فترات الإجازة فيقول لهم إنها جعلت للاستجمام ، والاستجمام يكون بتغيير المناشط لا بالنوم .

وكان يدعوهم إلى القيام بواجبهم نحو ذويهم فى قراهم بتثقيف الريف ، وكان يرى أن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى المصاطب !! (١/ ٥/ ١٩٥٤) .

وكان أحمد زكى قبل هذا كله وبعد هذا كله حريصا على توفير احتياجات الجامعة من المعامل والكتب والأدوات ، ولم يكن يتوانى عن إعداد القوائم بمطالبها وترتيبها ، والذهاب بها فى قوة وفى مرحلة مبكرة إلى أولى الأمر يطالبهم بها . وقد نشرت صحف الصباح فى ٦/ ٩/ ١٩٥٣ أنه « توجه بالأمس لرياسة مجلس الوزراء وتقدم بطلبات الجامعة للرئيس محمد نجيب حتى تبدأ الجامعة عامها بالعمل فلا ينساق الطلبة وراء فورات الغضب أو التسرب إلى العمل فى الميادين المتطرفة . . . » . وسئل عن المبالغ التى طلبها والتى يحتاجها ، فقال إنه يتعشم ألا يقل المبلغ المعتمد عن ٦٠ ألف جنيه !!

□

ولعلنا بعد هذا العرض الطويل لمواقف أحمد زكى مدير الجامعة نستطيع أن نتبين العوامل التى ساعدته على اتخاذ هذه المواقف المشرفة . وليس من شك فى أن على رأس هذه العوامل ، علمه ، وخلقه ، وإيمانه بالجامعة ، وخروجه من بين صفوفها ، وفكره النير ، وشخصيته القوية ، وتاريخه الطويل ، ودراسته لماضيها وماضى الجامعات الأخرى . . على أن هناك عاملاً هو عندى أهم من هذه العوامل الثمانية آنفة الذكر ـ برغم أنها هى التى كونته ـ هذا العامل هوالذى جعل لآراء أحمد زكى قيمة ، ولصوته مدى يسمع ، ولتحركاته أثرا عند الناس ، أثر العلم بها عند العامة ، وأثر الاستجابة لها أو تقديرها عند أولى الأمر . ولم يكن هذا العامل إلا أن أحمد زكى كان « شخصية عامة » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان . فلم يكن أحمد زكى عالما يعيش فى برج عال ، ولا أستاذًا تحده الجامعة ، ولا صاحب خلق ينأى عن المشاركة لينأى عن الخطأ ، ولا مؤمنا بالجامعة

فى الجانب النظرى حائرًا فى البحث عن أى الطرق يؤدى به إلى تطبيق فهمه لها ، ولم يكن أحمد زكى غريبًا عن الجامعة ، ولا كان فكره غريبًا عن فكر الجامعة والفكر الجامع ، ولا كانت شخصيته بالتى تلين أمام الباطل القوى أو التى تبعد عن الحق الضعيف ، ولا كان جاهلاً بماضى جامعة القاهرة ولا الجامعات فى الدنيا القديمة والحديثة . . كل أولئك ساعد على تكوين « شخصية عامة » اسمها أحمد زكى ، وهو رجل عنده ـ بما آتاه الله من موهبة ـ الاستعداد لأن يكون « شخصية عامة » لها وزنها الذى يظهر أثره فى مثل هذه الأحداث .

بقى أن نتأمل فى تصاريف القدر فقد كان أحمد زكى يتمنى أن يكون عميدًا لكلية العلوم يسوس أمرها ويربى أجيالها . . ولكن الله لم يشأ له هذا لأنه شاءه لمشرفة ، ولأنه شاء لأحمد زكى أن يدخر طاقاته الجامعية جميعًا ربع قرن من الزمان لتظهر فى أحرج الأوقات التى مرت بها الجامعة حين جاءتها تيارات التحولين السياسى والاجتماعى دفعة واحدة ، وهى الجامعة الهادئة القائمة على الثبات والاستقرار منذ تولاها لطفى السيد ولخمسة عشر عامًا رسم فيها سياستها الثابتة ، ثم تلاه على باشا إبراهيم لينهض بها النهوض المحسوب والمطلوب . . رزقها الله فى مرحلة التحول بأحمد زكى ، وهو الذى شملت معارفه العلم والفكر والأدب والصحافة ، وأجاد التعبير والتحليل والفهم والتأويل ليوجه دفتها وسط هذه الأمواج العاصفة . ولهذا فلست مبالغًا إذا قلت إنها إرادة الله أن تحفظ الجامعات المصرية فى هذا الوقت بهؤلاء الثلاثة الذين رأسوا الجامعات الثلاث : أحمد زكى ، ومحمد كامل حسين ، ومحمد عوض محمد . على أن أكثرهم بلاء وابتلاء كان أحمد زكى ، وقد كان أكثرهم قدرة على التصدى لهذا الابتلاء الذى أصاب أكثر ما أصاب الجامعة الأولى التى ولى أحمد زكى أمرها .

□

ترك الدكتور أحمد زكى منصب مدير الجامعة إلى مكتبة بيته يقضى وقته فيها ، يقرأ ويدرس ويراجع ما يكتب ، وكان قد بلغ الستين قبل خروجه من الجامعة بقليل . وكان أحمد زكى مشتاقًا إلى الهدوء وراحة النفس والبال ، فجاءه ما اشتهى ، فسعد به ، ولكنه مع ذلك كان يشارك برأيه وفكره فى كثير من الأمور ، وبخاصة أن الصحافة كانت تذهب إليه كثيرًا تطلب منه الرأى ، وتنشره على الناس .

ثم فكرت دولة الكويت فى إصدار مجلة العربى لتكون للعرب أجمعين ، وكان صاحب الفكرة

هو المغفور له الأمير صباح الأحمد الصباح وكان وقتها رئيسا لدائرة الإعلام . ووقع الاختيار على الدكتور أحمد زكى ، واستجاب الدكتور زكى ، واختار فريق عمل يساعده على إصدار مجلة العربي ، وصدر عددها الأول فى ديسمبر عام ١٩٥٨ ، وجهد أحمد زكى فى كل صفحة بل فى كل ركن من المجلة واضح ، أثره وفكره وقلمه ونظام عقله .

ونجحت العربى نجاحًا كبيرًا بدأت بأربعين ألف نسخة ، وسرعان ما أصبحت تطبع أكثر من مائة ألف نسخة ، فلا تغطى السوق ، ولكنها لا تستطيع زيادة العدد ، لأن طاقة المطابع المخصصة لها لا تسمح لها بذلك إلا مرة واحدة فى العام حين تصدر العدد الممتاز مع مطلع العام والذى بلغ توزيعه ربع مليون نسخة .

وتمضي مجلة العربى من نجاح إلى نجاح ، ومن تطوير إلى تطوير ، وتهتم بأمر البلاد العربية والمدن العربية ، والأحوال العربية ، والتاريخ العربى ، وتسجل كل ذلك فى استطلاعات مصورة شاملة مستقصية ، أرادها الدكتور زكى على نمط المجلة الجغرافية الأمريكية فجاءت لا تقل عنها دقة وروعة وجمالاً .

وتهتم مجلة العربى بالقضايا الفكرية ، فتناقشها على مستوى عال رفيع ، وتتيح الفرصة للرأى والرأى الآخر دون سلطة ولا بيزنطية ، وتفتح بابها لرسائل قرائها وتقديراتهم وتعليقاتهم وتصويباتهم ، وتطلب رأيهم فى كل مرحلة تقدم فيها على تطوير نفسها .

وتولى مجلة العربى قضية الأسرة والمرأة اهتمامًا متزايدًا فتبسط المسائل الطبية ، وتكرر النصائح لربة البيت ولرب البيت ، لا فيما يتعلق بنظم التغذية والصحة فحسب ، ولكن فى طرق التربية والتوجيه ورعاية الأبناء فى جميع مراحلهم .

وتستكتب مجلة العربى أعلام القلم العربى فى كل المجالات ، كل فى مجاله الذى برز فيه ، وتكثر فيها نسبة أساتذة الجامعة والتكنوقراطيين لأن أحمد زكى كان حريصًا على المستوى الرفيع للمادة التى تقدمها المجلة .

ويستطيع أحمد زكى بحكمته أن يبتعد بالمجلة عن النزاعات والمعارك العربية الجانبية ، فيجنب مجلته الخوض فى هذه المجالات على نحو ما فصل القول فيه فى افتتاحية العدد الممتاز (يناير ١٩٦٦) .

□

ولم يكن على مجلة العربى رقيب واحد ، وإنما كان عليها عدد كبير من الرقباء بقدر ما تدخل من بلاد ، ولكن أحمد زكى كان قادرًا على أن يحافظ لمجلته على حرية القول وحرية الدخول إلى كل هذه البلدان ، ويكفى للتدليل على ذلك أن مجلة العربى لم تمنع من دخول مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر إلا مرة واحدة .

وكان أحمدزكى ينأى بالعربى عن أن تكون موضعًا لأحقاد أو تصفية حسابات . كانت العربى للعروبة تعبر عن انتصاراتها وانتكاساتها ، وواقعها والأمل الذى تؤمله لها . وقد خرج عدد مجلة العربى التالى لنكسة ٥ يونيو (يوليو ١٩٦٧) أسود الغلاف ضاما بين دفتيه تحقيقا مؤثرا عن الحرب ، وقد سماها أحمد زكى بالنكسة لا بالنكبة (ليكون منها شفاء) .

وحين انتقل عبد الناصر إلى رحمة الله ، وضعت العربى صورته فى افتتاحيتها ووضع أحمد زكى تحت صورة عبد الناصر قول الشاعر :

« ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملء معالم الجثمان »

على الرغم من أن أحمد زكى لم يكن رجل عبد الناصر ، بل وقد عانى منه ، ولكنها العروبة والوطنية والتعبير الصادق .

وحين كان الرئيس السادات يعانى فى أول عهده ـ فى كثير من الأحيان ـ من الصحافة العربية غير الناضجة ، كانت العربى فى حديث الشهر لرئيس تحريرها تزن الأمور بالميزان العلمى الدقيق ، محكمة العقل والمنطق ، منطلقة من عقلية تقدمية راقية .

وحين استرد العرب كرامتهم فى حرب أكتوبر ، خصصت العربى أعدادًا ثلاثة متوالية واكبت بها بالصورة والقلم أعظم نصر حققه العرب ونتائجه وآثاره ورؤية العالم له .

وأفسحت مجلةالعربى مع ذلك مساحات كبيرة للمشكلة الفلسطينية ، والأوضاع المترتبة عليها .

وأتاحت المجلة لقارئها العربى أن يتابع التطورات العالمية والمتغيرات الدولية والمسائل التى أثارت العالم لفترات طويلة كحرب فيتنام فى متابعة دقيقة ، ومعالجة وافية مع العناية باستخلاص العبرة بطريقة فنية تبعد عن الأسلوب المباشر الفج .

□

ومن خلال باب أنباء الطب والعلم والاختراع ، استطاع الدكتور أحمد زكى بنفسه أن يجعل القارئ العربى قادرًا على متابعة وملاحقة التطورات العلمية فى العالم كله شهرًا بشهر فى هذه المجالات الثلاثة : من الطب استكشافًا وعلاجًا وعقاقير جديدة ، والعلم ونظرياته وابتكاراته . . والاختراعات العلمية الجديدة فى الصناعة ، والزراعة ، والحياة اليومية ، وشتى النواحى التى غزتها التكنولوجيا .

وأراد الدكتور أحمد زكى أن يجعل فى متناول كل أسرة موسوعة طبية شاملة تسد حاجتهم فى الإسعافات الأولية فى حالات المرض المفاجئ والحوادث ، فكان الباب الرائع الذى يجيب فيه الدكتور زكى بنفسه ثم (نخبة من الأطباء بعد ذلك) عن أسئلة القراء .

ولم يكتف الدكتور زكى بذلك ، وإنما وضع خطة استطاع من خلالها تعريف القراء بالأمراض الشائعة جميعا ، مرضًا مرضا فى كل عدد من أعداد المجلة ، واستكتب الدكتور زكى مجموعة من الأطباء الكبار للحديث عن هذه الأمراض على نحو منهجى ، وكتب الدكتور أحمد زكى نفسه بعض هذه الفصول .

وكانت مجلة العربى تحرص على أن تكون مجلة جامعة تتيح للمستويات الثقافية العلمية أن تقرأ فى غير تخصصها . وكانت نظرية أحمد زكى فى ذلك — كما عبر فى يناير عام ١٩٦٨ — أن «أستاذ الطب تلميذ غالبا عندما يتصفح مقالا فى فلسفة الأديان ، وأستاذ الفقه الإسلامى تلميذ غالبا عندما يتصفح مقالا فى نفسية المراهقين والمراهقات ، وأستاذ التاريخ تلميذ غالبا عندما يقرأ مقالا فى إنتاج الكهرباء من الذرة . . وهكذا » .

وفى عبارة أخرى عبر الدكتور أحمد زكى عن هذا المعنى فى العدد التاسع (أغسطس عام ١٩٥٩) فقال إن العربى « للطائفة المثقفة : هى للطبيب فى غير طب ، وللعالم فى غير علم ، وللنفسانى فى غير نفس ، وللجغرافى فى غير جغرافيا ، وللأديب فى غير أدب » .

ومع هذا فالرجل المتخصص قد يقرأ فى علمه أو أدبه فيلذ له طريقة عرضه .

وقد استطاعت المجلة أن تتجنب « الأكاديمية المغرقة » . جاء ذلك من إيمان أحمد زكى بأن المجلة العامة لها مستوى تقف عنده لا تتعداه ، فإذا هى تعدته ، وطرقت موضوعاتها تخصصا ، وبلغة التخصص ، وبولوع فى التخصص ، لم يفهمها إلا المتخصص ، وإذن تنقلب المجلة إلى مجموعة مقالات عالية التخصص ، لا يفهم منها القارئ المتخصص إلا موضوعًا واحدًا ، ولن نجد فى الدنيا هذه الحال .

□

وكان أحمد زكى يعطى عناية خاصة للناحية الفنية فى المجلة . وكانت هذه الناحية بالذات فى مجلة العربى من المزايا الظاهرة والواضحة التى تمتاز بها المجلة (لأول نظرة) على المجلات العربية المعاصرة .

وبالإضافة إلى التنسيق والتبويب الرائعين اللذين كانت المجلة تمتاز بهما ، فقد كانت صورها معبرة ، واضحة التعبير . وإن كل صورة من هاتيك تصلح للحصول على جائزة صحفية بالمعنى المقصود . وبالإضافة إلى الصور كانت هناك الرسوم البيانية عند الحاجة إليها تنطق بالمعنى المقصود ، وكانت هناك أيضًا الرسوم التوضيحية التى كان الدكتور زكى يكلف بها الفنان «حاكم» لتحتل أماكن معينة من حديث الشهر .

وكانت مجلة العربى على عهد الدكتور أحمد زكى تولى غلافها أهمية خاصة ، وكثيرًا ما كانت تضع عليه ، على حد تعبير الدكتور أحمد زكى « زهرات من بناتنا حية ، ناطقة ، محتشمة » . ولكن هذا لم يرق للبعض ، فكتبوا يطلبون أن تختار المجلة لغلافها صورًا من الحجر الأصم تخرج بها من المتاحف « أثرًا من الآثار المحفوظة لترى النور » . ونشرت المجلة رأى المعترضين ، وردت عليهم بوجهة نظرها ، وسارت على نهجها الذى سارت ، عليه وبخاصة أنها كانت تختار هذه الصورة من واقع المادة التى يحتويها العدد .

أما الصور الفنية التاريخية ، فقد أفسحت لها العربى الغلاف الداخلى (ص ٢) حيث كانت تعرض أبرز اللوحات العالمية وما إليها من الآثار والتحف الفنية من شتى العصور . كانت المجلة تعنى بالتثقيف الفنى من خلال هذه القناة ، فكانت تفرد من صفحاتها مواضع للحديث عن النواحى الفنية والجمالية والتاريخية للأثر الفنى الذى صورته فى صفحة من صفحاتها .

وكان الدكتور أحمد زكى يحرص على تحقيق النسب العادلة بين البلاد العربية فى اهتمام العربى ، سواء فى الاستطلاعات المصورة أو الموضوعات الصحفية الأخرى .

وكانت العربى على صلة دائمة بقرائها فى أكثر من بريد ، فهناك بريد القراء التقليدى يحمل الرغبات والآراء ، والتعقيبات ، وما يعتقد أنه التصويبات ، والتعليقات . وبالإضافة إلى ذلك هناك باب « أنت تسأل ونحن نجيب » فيه الإجابات الشافية الوافية عن أسئلة القراء فى المعلومات العامة . أما أسئلتهم فى الطب فكان لها بابها الذى تحدثنا عنه .

وحتى مقال رئيس التحرير نفسه كان يتفاعل فى أحيان كثيرة مع رغبات وتعليقات قرائه . وأشهر مثل لذلك هو مقال الدكتور زكى عن الجدل وآدابه (فبراير عام١٩٧٣) الذى كان صدى

لما وقع فى نفسه من استياء أو دهشة لمواقف وقفها بعض القراء من مقال للأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى .

□

ومن الطريف على سبيل المثال أن نذكر أن كتاب العربى من أعلام الفكر الإسلامى قد تولوا وزارة الأوقاف المصرية على التعاقب سواء قبل نشأة العربى أو بعد كتابتهم فى العربى .

وقد كان كتاب العربى ـ كقرائها ـ منتشرين فى بلاد العروبة جميعًا .

وقد كسبت العربى كثيرًا ـ لا كسبا ماديا ـ وإنما قراء جيل بأكمله . ولم تكسب المجلة رواجها هذا بإثارة الغرائز الجنسية ، ولا باستغلال بسائط المفاهيم الشعبية ، ولا العواطف الجماهيرية . . كسبت العربى بجماهيرها الحقيقة ، وبطرح اللغو جانبًا ، وبالجواب الصائب بعد الدرس المتأنى .

ولا بد من أن نشير هنا بالتقدير لفريق العمل الذى عاون الدكتور زكى فى المجلة : الأستاذ يوسف زعبلاوى ، والأستاذ منير نصيف ، والأستاذ محمد طنطاوى ، والأستاذ أوسكار مترى ، والأستاذ سليم زبال .

وقد كان ثلثا العربى تقريبًا يكتبان فى دار الدكتور زكى ، على حين كان الثلث الثالث بأقلام الكتاب غير المتفرغين . وهنا لا بد أن نذكر أن عالمنا الجليل لم يكن يشترط لنشر المقال اسم صاحبه ، وإنما كان يهمه فى المقال المقال نفسه موضوعًا ، وطريقة معالجة .

وقد بذل الدكتور أحمد زكى طيلة سبعة عشر عامًا قضاها مع « العربى » فى الكويت جهدًا ضخما ، حتى أخرج هذا العدد الضخم من أعدادها « قرابة مائتين » وكان أحمد زكى يعد مجلة العربى كتابًا شهريا لا مجلة فحسب . . ولم يكن مدده فى هذه الجهود (كما عبر الفريق الذى عمل معه فيها) قوة بدن ، إذ كان يمعن فى الشيخوخة ومتاعبها ، وإنما كان مدده من حماسة نفسه ، وشعوره العميق بالمسئولية والأمانة ، وغيرته على عمله كأشد ما تكون غيرة الكريم على عرضه ، وقد أعانه على ذلك تيقظ ذهنه ، كأنه فى معركة حاسمة يتعرض فيها المحارب لأوخم العواقب عند أدنى هفوة .

« وكم من كلمة واحدة ، وقف عندها طويلاً ليفتح المعاجم والمراجع ، أو يسأل الخبيرين بها ، حتى يستوثق من صوابها ودقتها ومعناها المقصود ، وإذا كانت أعجمية حرص على أن تكتب بحروف لاتينية ، وإذا كانت مشكلة النطق ضبط منها ما يزيل إشكالها ، حتى يسهل النطق بها صحيحة ، وقد بذل هذا الجهد شهرًا فشهرًا ، بل يوما فيوما ، وساعة بعد ساعة » .

□

بقيت نقطة جديرة بالتأمل : هل كان الدكتور زكى صحفيًّا ؟ الأمر فى هذا ليس بحثًا عن إضافة تضاف إلى شخصية العالم ذى الأفق الواسع ، ولكننا إذا قلنا إن الدكتور زكى كان صحفيا فإننا نهدف فى المقام الأول إلى تقدير الصحافة ، كمهنة لا يبرع فيها من هو غريب عليها .

كتب الدكتور زكى فى البلاغ والثقافة والرسالة والهلال وفى غيرها من الصحف ، وليس فى الكتابة للصحف ما يكفى ليكون المرء صحفيا ، فهو من هذه الناحية كاتب صحفى (حسب الاصطلاح) فحسب . ورأس الدكتور زكى تحرير الهلال وتحرير العربى ، والصحافة العربية المعاصرة تنبئنا أن رئاسة التحرير لا تعنى بالضرورة أن يكون مَنْ تولاها صحفيا ، ولكننا إذا وجدنا رجلنا وقد أسس مجلة على النحو الذى فصلنا القول فيه عن قرب لم يكن فى وسعنا إلا أن نضعه ـ بعدما وضع نفسه ـ بين أعلام الصحافة وأعمدتها .

لا أريد أن أحدثك عن كفاية الدكتور زكى وقدراته الصحفية فى عبارات نظرية ، فقد أوردت بطريقة غير مباشرة أمثلة رائعة على دقة هذا الحس ورقيه فى فقرات سابقة كان أحمد زكى فيها فى موضع المسئول الذى يجيب على أسئلة الصحفيين .

وقد نضيف هنا أن نطلب إلى قارئنا أن يرجع إلى عدد مجلة الإثنين (١٨/ ١٠/ ١٩٥٤) ليطالع صفحتين جعلتهما المجلة كمجلة مستقلة وتركت للدكتور زكى مهمة تحريرها . . هنالك تظهر لك كفاية صحفية على نطاق ضيق ـ كما ظهرت على النطاق الواسع ـ وتجد الدكتور زكى وقد جعل فى مجلة ذات صفحتين ثمانية أبواب متكاملة وشاملة : كلمة العدد ، رسالة إلى الشباب ، حكمة العدد ، نكتة الأسبوع ، تعاريف ، قصة ، الصيدلانى الذى قال بانتهاء العالم ، من ألبوم الطفولة .

ومن المؤكد أن الحديث عن كفاية أحمد زكى الصحفية بعد كل ما أثبته فى أعظم مجلة عربية فى القرن العشرين أسسها ورأس تحريرها قد يصبح نوعًا من أنواع التزيد غير المقبول. قد نستطيع أن نقول إن رئاسته لتحرير الهلال من قبل قد ساعدت على هذا النجاح السامق كما ساعدته موهبته وفطرته وثقافته. ولكنى أعتقد أنه لا محل لكل هذا الحديث ولا لبعضه بعد كل النجاح الذى حققه أحمد زكى بالفعل فى المجال الصحفى.

□

وطوال المدة التى قضاها الدكتور أحمد زكى فى الكويت، كان يحظى بالاحترام والتقدير الزائد من أهل الكويت حكومة وشعبًا، لا لعلمه وقلمه ومكانته فحسب، ولكن لأن الرجل كان قادرًا على أن يبقى دائمًا كتوما للسر، محترما لأهل البلد وتصرفاتهم فى بلدهم، ولسياستهم، لا يتدخل فى شىء من ذلك كله، وهو الذى يعيشه كل يوم. كان أحمد زكى يعرف، ويدرك تمام الإدراك الخطوط الفاصلة بين الأخلاق التى تبدو وكأنها متشابهة، ولا يفصل بين الخلق الحميد والآخر غير الحميد إلا خط رفيع، حين يتعداه المرء يخرج الأمر من خلق يحمد إلى خلق يذم.

وقد أعطت الكويت للدكتور أحمد زكى الحرية الكاملة فى المجلة، وسجلت المجلة ذلك على غلافها الداخلى « تصدرها وزارة الإعلام . . ووزارة الإعلام غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء ». ومع هذا فقد أعطى الدكتور أحمد زكى المثل الأعلى فى الحرية المسئولة، وتقدير شرف الكلمة.

وكان أحمد زكى طوال هذه المدة يبقى فى الكويت معظم وقته، ويزور القاهرة على فترات متقطعة طوال العام، يحضر جلسات مجمع اللغة العربية فى مؤتمره السنوى، ويزور أصدقاءه وتلامذته فى الجامعة ومراكز البحوث.

□ □ □

ينبغى لنا أن نعود الآن لنتتبع - بشىء من التأمل - نشاط أحمد زكى فى الميادين المختلفة بعدما تتبعناه بطريقة زمنية فى مراحل حياته المختلفة.

وأول هذه المناشط كان فى لجنة التأليف والترجمة والنشر، فقد كان أحمد زكى من أعضائها

البارزين ، وقد طبع كتابه الذى ترجمه بالاشتراك مع الدكتور الكردانى أربع مرات ، اثنتان منها فى الفترة التى كان يدرس فيها فى لندن .

وكان أحمد زكى بلا شك من العلماء الرواد الأوائل الذين بنوا نهضة مصر العلمية فى عصرها الحديث . وقد ساهم أحمد زكى مع نخبة من أعلام الفكر والثقافة فى تأسيس المجمع المصرى للثقافة العلمية سنة (١٩٢٩) ليكون منارة لنشر الثقافة العلمية بين طوائف الشعب المختلفة ، وكان الدكتور زكى من أبرز أعضاء هذا المجمع ، وقد تولى رئاسته فى أوائل الأربعينيات ، وألقى فى مواسمه الثقافية المتعاقبة عددًا من المحاضرات يطالع القارئ بيانها فى الباب الرابع : البيليوجرافيا .

وحين بدأ فى مصر الاتجاه إلى إنشاء الجمعيات العلمية فى الفروع المتخصصة من العلم على غرار الجمعيات البريطانية المتخصصة ، كان للدكتور زكى الفضل الأكبر فى تأسيس الجمعية الكيميائية المصرية سنة (١٩٣٨) ، وقد انتخب رئيسًا للجمعية وظل رئيسًا ربع قرن من الزمان حتى شغلته الحياة ، فآثر الاستقالة من الرئاسة .

وساهم الدكتور أحمد زكى بجهد وافر فى تشجيع إنشاء جمعية خريجى كليات العلوم ، وكان لا بد للشباب الداعين إلى الفكرة - كإجراء رسمى - من أحد الأساتذة يرود حركتهم هذه ، فاختاروا الأستاذ الحبيب إلى قلوبهم أحمد زكى ، فكان يوجههم ولا يفرض عليهم رأيه فى مجلتهم « رسالة العلم » التى أصدروها وسجلوا فيها شكرهم له ، وتقديرهم لموقفه منهم .

وانتهز الدكتور أحمد زكى الفرصة ليستقل أبناؤه بأنفسهم ، فلما حانت صمم على أن يقوموا بأمر جمعيتهم ومجلتها التى لا تزال تصدر إلى اليوم .

وكان الدكتور زكى بك واحدًا من علمائنا العشرة الذين أسسوا الأكاديمية المصرية للعلوم فى أكتوبر سنة (١٩٤٤) ، أما التسعة الآخرون فهم الأساتذة والدكاترة : على مصطفى مشرفة ، ومحمد خليل عبد الخالق ، وحسن صادق ، وإبراهيم رجب فهمى ، وكامل منصور ، وعلى حسن ومحمد رضا مدور ، ويونس سالم ثابت ، وسعد الله مدور . وقد تولى الدكتور أحمد زكى رئاسة هذه الأكاديمية حين أصبح أكبر الأعضاء سنا حسب ما يقضى به نظام الأكاديمية .

والحق أن هذه الأكاديمية قد استطاعت - على الرغم من بقائها أهلية إلى الآن - أن تنهض بالواجب الذى تنهض به الأكاديميات العلمية الوطنية ، وقد مضت فى سبيل تحقيق أهدافها بخطوات كبيرة ، وواظبت على إصدار مجلتها العلمية رفيعة المستوى بأبحاثها العلمية الدقيقة . . وقد تطورت الأكاديمية مع الزمن بحيث صارت تضم اليوم أربعين عالما فى أربع شعب .

□

كذلك هيأت شخصية أحمد زكى الفذة أن تستعين الحكومات المتعاقبة به فى كثير من المواقع ، فكان رحمه الله عضوًا فى المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية ، وعضوا فى مجلس إدارة البنك الصناعى ، وعضوا فى مجلس معهد فؤاد الأول للصحراء . ولا شك أن كل هذه المواقع قد أفادت من وجود أحمد زكى فيها يشارك فى توجيه دفة الأمور نحو ما يراه صوابا وملائمًا بفكره وثقافته وخبرته فى الحياة ممارسة وقراءة .

وكان الدكتور أحمد زكى عضوا فى مجمع الخالدين و كان واحدًا من العشرة الذين ضمهم الفوج الثالث من أعضاء مجمع اللغة العربية سنة (١٩٤٦) ، مع الأساتذة والدكاترة : عبد الرزاق السنهورى ، و إبراهيم بيومى مدكور، وعبد الوهاب عزام ، وزكى المهندس ومحمود شلتوت ، ود . محمد شرف ، ومصطفى نظيف ، ومحمد فريد أبو حديد ، وعبد الوهاب خلاف ، واستقبلهم جميعا الأستاذ أحمد أمين ، وقال فى شأن الدكتور أحمد زكى : « إنه كيميائى عظيم ، وأديب كبير مزج العلم والأدب ، كما يمزج بين السكر والماء ، فبينما نراه فى معمله بين الأنابيب والمحاليل ، نراه فى مكتبه يحلل الكلمات ، ويستخرج المعانى ، ويصوغ الأفكار » .

وقد علق أستاذنا الدكتور إبراهيم بيومى مدكور على هذا القول حين رواه فى تأبين الدكتور زكى قائلاً : « وقد دلت الأيام على صدق هذه الصورة ودقتها ، فقد رأيناه نحن فى مجمع الخالدين يحلل الكلمة العلمية تحليلاً أمينًا ، كما يحلل الكلمة الأدبية تحليلاً بليغًا » .

وبقى الدكتور أحمد زكى عضوًا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة حتى وفاته ، ولم يكن يتاح له حضور جلسات مجلس المجمع الأسبوعية فى القاهرة حين كان يقيم فى الكويت ، كما ذكرنا ، فكان يحرص على حضور المؤتمرات السنوية وإلقاء بحوث قيمة فيها . وكانت له تعليقات كثيرة على بحوث زملائه الخالدين تنم عن سعة الثقافة ، ودقة الفهم . كما كانت له كثير من الآراء فى مجال اللغة واللغة العلمية ، سنعرض لها بشىء من التفصيل فى هذا الكتاب .

وقد اشترك الدكتور أحمد زكى فى كثير من لجان المجمع ، كما يقول أستاذنا الدكتور مهدى علام ، ولاسيما لجان المصطلحات العلمية كلجنة الكيمياء والطبيعة ولجنة الجيولوجيا ولجنة علوم الأحياء والزراعة . كما أسهم فى اللجان الإدارية ، فشارك فى أكثر من دورة فى لجنة تحديد موعد انعقاد المؤتمر وتعيين أعماله ، وكان عضوًا فى اللجنة التى تكونت فى الدورة الرابعة عشرة لاختيار زى وشارة لأعضاء المجمع . كما اختير الدكتور أحمد زكى عضوًا بمجلس إدارة المجمع فى دورته الثانية والعشرين وليمثل المجمع فى عدة مؤتمرات ، منها المؤتمر الصيدلى الثالث (فى الدورة الثالثة) والمؤتمر الصيدلى السابع (فى الدورة السادسة والعشرين) ، وفى الاحتفال بمرور ٧٥ عاما على

المجمع البولونى للعلوم والآداب (فى الدورة الرابعة عشرة) . وكان دائمًا ما يحث المجمع على إصدار توصياته من أجل الالتزام بالفصحى فى وسائل الإعلام (الدورة الثالثة والعشرون) .

□

وفى سنة (١٩٤٧) ، وهى - بالصدفة البحتة - السنة التى تزايدت فيها أعباء الدكتور أحمد زكى الحكومية (مصلحة الكيمياء ، ومصلحة الصناعة ، ومجلس البحوث) عهد إليه آل زيدان ، أصحاب دار الهلال ، برئاسة تحرير الهلال فى عهدها الجديد ، وقد دام هذا العهد أربع سنوات (١٩٤٧ - ١٩٥٠) استطاع الدكتور زكى خلال هذه الفترة أن ينهض بمجلة الهلال نهوضًا وثابا ، وأضاف إليها كثيرا من الملامح البارزة فى تاريخ حياتها الطويل (وقد كانت ومازال أقدم المجلات العربية) .

وإذا أراد القارئ أن يدرك طبيعة التجديدات والإضافات التى قدمها الدكتور زكى إبان رئاسته لتحرير الهلال ، ففى استطاعته الرجوع إلى مجلدات هذه الأعداد ، ذلك أنه يصعب علىّ أن اختصر فى سطور قليلة التعبير عن انجازات متعددة ، ومع هذا فإنى استطيع أن أقول باطمئنان إن جهود أحمد زكى فى الهلال كانت بمثابة إرهاصات لما قدمه بعد ذلك من خلال مجلة العربى : اهتمام بالعلم والطب وصحة الأسرة والمجتمع وفتاته المختلفة ، وتنويع فى الأسلوب الصحفى ، وتوظيف للصورة والكاريكاتير ، وتخصيص أعداد كاملة لموضوعات معينة تحيط بها من جوانبها المختلفة ، وتنويع الفنون الأدبية الإبداعية فى المجلة ، وإتاحة الفرصة للأقلام الجديدة ، وفتح الأبواب لتعليقات القراء وأسئلتهم وآرائهم فى المجلة وتطويرها والاهتمام بتطوير الجوانب الفنية كلها : بنط المجلة ، وحجمها ، وتنسيقها ، وتبويبها .

وفى عهد أحمد زكى كانت مجموعة كتاب الهلال تضم على سبيل المثال : طه حسين ، والعقاد ، وتوفيق دياب ، والمازنى ، وفكرى أباظة ، ، وأمينة السعيد ، وبنت الشاطئ ، ومى زيادة ، وعلى محمود طه ، ومن رجال الحكم : عبد الرحمن الرافعى ، ومحمد على علوبة . هذا بالإضافة إلى كبار الأطباء من أمثال : الدكتور سليمان عزمى وكامل يعقوب ، فضلا عن بعض كبار علماء التربية وعلم النفس والاجتماع . وكانت الهلال مع ذلك لا تخلو من الطرافة والإبداع ومواكبة الأحداث فى صورة صحفية بارعة .

وقد عبر أحمد زكى فى عـدد يونيو (عام ١٩٤٧) عن إيمانـه بأن الهلال يجب ألا يقتصر على ما يكتبه أصحـاب المكانـة المعروفة والصيت الـواسع ، بل يجب أن يساعـد على إبراز النبـوغ الكامن وتشجيع الكفـاءات الجديدة ، ولـذلك قال : « سنبـذل عناية خـاصة بفحص مـا يرد إلينـا من الكتاب الناشئين . ولعلنا بذلك نخدم مواهب هؤلاء الأدباء وجمهور القراء » .

ودعا أحمد زكـى كتاب الأقطـار العربيـة الشقيقة للكتابـة فى الهلال من خـلال الخطة العـامة للمجلة .

وكانت الهلال فى عهـد أحمد زكى تقدم كثيرًا من المواد المترجمة ، وكـان مذهب أحمد زكى تجنب الترجمة الحرفيـة ، إذ إن ما ينشر فى الخارج قـد كتب لجمهـور غير جمهـورنا ، فـلا بـد من التصرف والاقتباس والسبك من جـديد ، « ونحن ننقل عن صحف العالم أجمع ومجلاتـه وكتبه دون تفضيل جهة على جهة» .

□

كان الدكتور أحمد زكى كثير السفر والتجـوال فى بلاد العالم ، وقد مثل مصر فى معظم المؤتمرات العلمية التى شـاركنا فيهـا فى الأربعينيات ، وزار الباكستـان والهند ووثق الصـلات العلمية بينهما وبين مصر ، كما زار معظم البلاد العربية وحرص على وضع برامج للتبادل العلمى معها .

وقام الدكتور أحمد زكى بزيارة طويلة للـولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤٦ م ، تفقد خلالها كثيرًا من مـراكز البحـوث العلمية المنتشرة فى ولايـاتها وجامعـاتها ، وقـد استهدفت هـذه الزيـارة الوصـول إلى صياغـة للصورة المثلى فى التخطيـط لإنشاء مركـز البحوث (المركـز القومـى للبحوث الآن) ، وقد رافقـه فى هذه الـزيارة عدد كبير من علمائنـا ومبعوثينـا الذين كانـوا يدرسـون وقتها فى الولايات المتحـدة . وكان أحمد زكى حريصًا فى هذه الـزيارة وفى غيرها من زياراته للبـلاد المتقدمة على الدراسة المتأنية للسبل الكفيلة بإيجاد آلية كفيلة بربط العلم النظرى بالجوانب التطبيقية بالحياة من خـلال مراكـز البحـوث . . وقد استطـاع أن يستوعب تجارب العـالم المتقـدم ، وقارن بينهـا ، واستخلص الخطة والتخطيط الذين وضعهما للمركز القومى للبحوث فى مصر .

□

زار الدكتور زكى الكويت فى ربيع عام ١٩٥٥ مدعوًا للمشاركة فى الموسم الثقافى ، وكان ذلك عقب تركه رئاسة جامعة القاهرة ، فكان لهذه الدعوة أثر طيب فى نفسه . كما زار بيت الله فى مكة المكرمة غير مرة ، وكتب عن معظم هذه الزيارات فى مواضع متفرقة من المجلات التى كان ينشر فيها .

وزار الدكتور أحمد زكى المغرب العربى فى أوائل الستينيات وأوائل السبعينيات ، وكتب فى العربى عن هذه الزيارات .

وكان الدكتور أحمد زكى كثير الزيارات لإنجلترا بحكم دراسته السابقة فيها ، وبحكم النسب ، وكان من عادته زيارة إنجلترا كل صيف .

□

هذا وقد حظى الدكتور أحمد زكى بكثير من التكريم فى حياته ، وكان أكثر هذا التكريم من طلابه الذين كانوا يحتفلون به عند كل خطوة كبيرة يخطوها ، ولم يكن هذا إلا تعبيرًا عن متانة الروابط التى ربطت أحمد زكى بكل مَنْ عرفوه ، واتصلوا به . . وكان العلماء المصريون طوال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات يعتبرون أحمد زكى « أبا العلماء » وذلك بحكم أسبقيته إلى الدرجات العلمية العليا وأستاذيته وامتداد العمر به إلى ما بعد الثمانين ! ! ، وقد كان كذلك بحق .

وعلى الصعيد الرسمى ، منح عالمنا الجليل البكوية من الدرجة الأولى عام (١٩٣٧) ، ونيشان إسماعيل من الدرجة الثالثة عام (١٩٤٦) .

□

وقد عاش الدكتور أحمد زكى حياته متمتعا بصحة جيدة . وعلى الرغم من أنه توفى عن واحد وثمانين عاما فإنه كان يتمتع إلى ما قبل وفاته بأربعة شهور بصحة كاملة ، وعلى حد تعبير مجلة العربى ، وظنى أنه تعبيره شخصيا « قوى البنية ، مشحوذ الرأى ، يجد الراحة أطيب الراحة بين القلة القليلة من الأصدقاء ، والكثرة الكاثرة من الكتب » . وكان يبدو وهو فى الستين أقرب منه إلى الشباب . . وقد سئل غير مرة عن سر احتفاظه بشبابه فقال : « إن ذلك راجع إلى الأرومة التى أنا منها . . أعنى الشجرة التى أنجبتنى ، فأنا من أرومة عمرت طويلاً . . فوالدى مات بعد الثمانين وكذلك أمى ، فالعنصر السليم والدم النقى لهما فضل كبير فيما أتمتع به من شباب وصحة » ، وأما السبب الثانى فهو « الرياضة » وكانت رياضة أحمد زكى فى سنواته المتأخرة هى

المشى ، وروى عن نفسه أنه كان يمشى أحيانا ٨ ساعات فى باريس ، أما فى شبابه فقد فاز بجائزة « القط السعيد » وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت الجائزة آلة تصوير أهداها بعدها بنصف قرن من الزمان إلى حفيده رشاد ، هذا بالإضافة إلى ما ذكرنا من أنه كان الجناح الأيسر لفريق كرة القدم فى مدرسة التوفيقية الثانوية .

وفيما يتعلق بالأرومة التى كان الدكتور أحمد زكى منها ، روى عالمنا الجليل أنه فى إحدى جلسات مجلس جامعة القاهرة عام (١٩٣٣) كان يجلس إلى جوار الأستاذ درى أستاذ علم التشريح فى طب قصر العينى ، فلاحظ عالمنا أن الدكتور درى يطيل التأمل فى رأس أحمد زكى . . حتى لم يعد بد أمام أحمد زكى من أن يسأل . . فقال له الأستاذ درى : هل أنت مصرى ؟ قال الدكتور زكى : « ورحت إلى أبى رحمه الله أستفتى ، فعلمت أمرًا لم أكن أعرفه . . أن جده التقى بمكة — على الحج - بامرأة من القوقاز من أصل شركسى فتزوجها وعادا إلى مصر . . فكان منها جدى . . ثم أبى وأخيرًا أنا » .

وكان أحمد زكى يردف لمن يسأله عن سر احتفاظه بالصحة والعافية بقوله : « إنه أراد أن يثبت اهتمام العلماء بأجسامهم » .

□

وكان رحمه الله من أنصار الزواج ، وكان يقول : « إنه لا تطيب له صبورة عالم بلا زوج يسكن إليه ، فالعالم يشبع بعلمه جانبًا من جوانب الإنسان ، وهو ذلك العقل ، ويبقى القلب وسائر الجوانب ، وكل هذه لا يشبعها إلا أن يكون الإنسان إنسانًا يجرى على أساليب الناس فى العيش » .

ويروى لنا أنه كان يفكر قبل سفره إلى انجلترا فى واحد من أمرين : الزواج أو مواصلة الدراسة ، ثم قال لنفسه : إن الزواج استقرار حاضر يعقبه قلق مستمر ، وفضل السفر على نفقته لاستكمال دراسته ، ثم تزوج فى ليفربول سنة (١٩٢٣) ، وعاشا معا فى بريطانيا ومصر والكويت سنوات طويلة ينعمان بالحب والتفاهم والاستقرار ، ويتشاركان البأساء والضراء ، وتوفى أحمد زكى عن زوجته التى لحقت به بعد عامين .

وفى تحقيق صحفى أجرته آخر ساعة (١٠/ ٨/ ١٩٥٥) تحت عنوان : « الرجال الذين لم تعجبهم المصريات وتزوجوا أجنبيات ، والتقت فيه بالدكتور طه حسين (زوجته فرنسية) والدكتور

أحمد فخرى عالم الآثار (وزوجته ألمانية) والدكتور أحمد زكى (وزوجته إنجليزية) ، سئل الدكتور زكى عن وجهة نظره فى زواجه ، فسرح بفكره بعيدًا . . وهو يتذكر ذلك الماضى البعيد ، ثم قال : «إن الزواج حظ . . لا يرتبط كثيرًا بوطن الزوج أو وطن الزوجة . . والمسألة هى مسألة مزاج وأخلاق . . ولم أجد فيما سمعت من الزوجات صبرا ولا كرما ولا تضحية ولا فهمًا ، كتلك التى اخترتها من تحت تلك السماء القاتمة الماطرة ، والتى لا تكاد تكف عن المطر صيفًا أو شتاء . وقد حضرت هى إلى حيث لا مطر ولا سحاب . وإنما الشمس الساطعة المحرقة ، فاحتملتها ، وصبرت عليها حتى أصبحت لا تطيق مطرًا أو سحابًا » . واستطرد يقول : « حقا إن بين المصريات مَنْ يمتزن بالصبر الطويل المرير . . ولكن الصبر ونقيضه النزق موزعان فى الأمم توزيعًا عادلاً . . فإلى جانب الصابرة نجد المتهورة ، وإلى جانب الحليمة نجد سريعة الغضب » .

وقد رزق الدكتور أحمد زكى وزوجته بابنتهما السيدة لبيبة ، ورزقت هذه بابن كان الدكتور أحمد زكى يسعد به كثيرًا ولا يفتأ يداعبه ويهتم به ، وهو الدكتور رشاد مصطفى المهندس فى كاليفورنيا .

□

وقد سئل الدكتور أحمد زكى عن سر اكتفائه هو وزوجته بابنة واحدة ، فقال : « إنها ترى أن الحياة مغامرة ، وأن إنجاب الأطفال أقسى المغامرات ، فنحن ننجب الأطفال للشقاء أحيانًا وللسعادة أحيانًا ، وإن يكن هذا أو هذه فنحن على كل حال ننجبهم للجهاد العنيف ، والحياة الحديثة جهاد عنيف . . وقد رأيت ما رأت » ، وأضاف عالمنا قائلاً : « إن الناس تنجب إن لم يكن للشقاء فهم ينجبون للموت . . وكلانا ـ يقصد هو وزوجته ـ من رأى أبى العلاء :

هـذا جناه أبى علىّ　　　　وما جنيت على أحد

ومع هذا فلنا ثمرة ، وثمرة واحدة ، وكان لنا منها صبى » .

□

وكانت للدكتور أحمد زكى فيلا بالقاهرة هى الدار رقم ١٦ بشارع ٤ بالمعادى ، وكانت من دورين ابتناها بعد عودته واحتفظ بها حتى توفى ، وقد جعل مكتبه فى الدور الثانى منها مع حجرات النوم ، وكان بين مكتبه وحجرة نومه باب صغير ، فإذا أرق بعد ثلثى الليل ، وكثيرًا ما كان يأرق ، دلف من حجرة نومه إلى حجرة مكتبه ، وأضاء النور وأخذ يقرأ ويقرأ ، وقد يكتب ويكتب . ومن هنا جاء اسم واحد من كتبه « ساعات السحر » ، وهى فصول متفرقة الموضوعات لا يجمعها إلا أنها كتبت فى ساعات السحر ، ولهذا رأى أن يسميها بالوقت الذى كتبت فيه جميعًا بعدما تعذر أن يجد لها عنوانًا يضمها كلها .

ومن هذا المعنى كان الكاريكاتير الذى نشرته مجلة الهلال (مارس ١٩٥١) للدكتور أحمد زكى مصورة له على أنه « ديك » ، وذلك فى الحلقة الأولى من باب جديد اسمه « حديقة الأدباء» اتخذته « الهلال » موضعًا لإبداء الرأى فى الكتاب ، وأردف كاتبها طاهر الطناحى على ذلك الكاريكاتير بأبيات من الشعر تقول :

متـــــوج بعقيـق	مفـــــرط بلجين
عليـــه قـريـط وشى	مشمـــــر الكمين
قـــد زين النحـر منــه	ثنتـان كـالـوردتين
حتى إذا الصبح يبـدو	مطـــرز الطــــرتين
دعـــا فأسمـع منـــا	مَنْ كـــان ذا أذنين

ثم علق على ذلك بقوله : « ذلك هو الديك أو ذلك هو مؤلف (ساعات السحر) . وقد أحسن الرسام فى اختيار الديك له . فمن ذا الذى يستيقظ فى هذه الساعات أو قبيل هذه الساعات إلا أن يكون ديكا ، أو يكون الدكتور أحمد زكى ؟ غير أن الديك يستيقظ ويوقظ النائمين بصياحه ، وزكى يستيقظ ويصيح بصرير قلمه ، ولا يقلق النائمين بهذا الصرير الموسيقى الجميل » . ومضى طاهر الطناحى فى حديثه يركب من العبارات وأسماء كتب أحمد زكى جملًا طريفة المعنى والأسلوب .

□

كان الدكتور أحمد زكى من العلماء الذين يحرصون على الإيمان ، وكـان إيمانه بالله وقدرته عميقًا إلى أبعد الحدود، بل لعله أبعد علمائنا المعاصرين فى هذا شأوا ، إن كان فى الإيمان مفاضلة .

وكانت عقليته الدينية على شىء كبير من التفتح والتحرر ، وكان يجاهر بلا خوف أن حديثًا فى البخارى لا يمكن أن يكون صحيحًا إذا خـالف العقل والدين ، والنبى ﷺ لا يمكن أن يقول ما هو مخالف للوحى والدين .

وخاض الـدكتور أحمد زكى سنة ١٩٥٢ معـركة اجتماعية مع فضيلـة الشيخ حسنين مخلوف ، على صفحات الجرائد ، وكان وقتها مفتى الديـار المصرية ، حول المرأة وعمل المرأة ، وطبيعة عمل المرأة ، وانتصر الدكتور زكى فى النهاية .

وقد انتدب الدكتور أحمد زكى لتدريس التاريخ الطبيعى فى الأزهر فى أول عمله بالتدريس بعد تخرجـه من مدرسـة المعلمين ، فدرس عـامى (١٩٢٨ ، ١٩٢٩) ، وذكر ذات درس لطلبتـه أن ضلوع الإنسـان متساوية العـدد فى اليمين واليسار ، فهاج عليه الطلبـة يريدونـه أن يوافقهم على اعتقادهم أن الضلـوع فى الجانب الأيسر تنقص واحدًا ، هو الـذى خلقت منه حـواء ، فأخذهم عالمنا بـاللين والمنطق والعلم حتى أقنعهم بصواب ما قال . واقتنع الطـلاب ، وأحبوا أستاذهم ، وأخـذوا يستمعـون إلى نصحـه ويأخـذون بـآرائه . ومضى يعمل على تـوجيههم فى تكـوين شخصياتهم، ونصحهم بممارسـة الريـاضة البدنيـة لفوائدها الجمـة . وذهب الطلبة يلعبـون كرة القدم ، ولبسوا الشورت ، وجمعوا بينه وبين « العمة » فوق رءوسهم . وهاج ولاة الأمر فى الأزهر ، وكان الشيخ مصطفى عبـد الرازق ــ وهو صديق أحمد زكى ــ سكرتيرًا للمجلس الأعلى لـلأزهر ، وذهب الشيخ مصطفى (الـذى تـولى مشيخـة الأزهـر فيما بعـد) إلى أحمد زكى فـرجـاه أن يجعل الأزهريين الشبان يقلعون عن هـذه الرياضة التى نصحهم بها ، واستجاب عالمنـا لرجاء شيخنا ، واستجاب الطلبة لرجاء أستاذهم .

□

وكان الـدكتور أحمد زكى يـؤمن بأن العلم وتقدمـه سواء فى مجال البحـوث أو المجال التطبيقى عامل مؤثر فى الرقى بالإنسان وأخلاقـه ، ولم يكن من أنصار الرأى القائل بغلبة الماديات على هذا العصر ، وعنده أن الشر لا يكـون إلا والعقول مظلمـة ، ولا يمكن أن ينتج عن تقـدم العقول إلا الخير (الإثنين ٢١/ ٢/ ١٩٥٥) . وهو يستلفت النظر إلى أن الناس لم تأمن على سلامتها وأموالها وأرزاقها وبيوتها ورءوسها كما أمنت هذه الأيام ، وأبعد من هذا يتنبأ الدكتور زكى بأن نواحى التقدم العلمى والتكنولوجى سوف تكون أكبر العون على تماسك العقائد عند الناس .

وأصل الإشكالية فى رأيه أن العلم والتكنولوجيا ، كليهما ليس فيهما خير أصلا ، وليس فيهما الشر، إنما هما كمشرط الجراح يستطيع أن يفتك به ، أو أن يجرح ليشفى ، أو هما كالماء ، تستطيع أن تبل بـه الظمأ ، وتستطيع أن تسد به الأنفاس وتغرق (من حديثه لمحمود عوض فى آخر ساعة ٤/ ١٩٧١) .

ويلخص أستاذنا الدكتور أحمد زكى الرأى فى الرد على مَنْ يقولون إن المجتمع العلمى هو مجتمع مادى، فيقول : « هؤلاء القوم من أهل المشرق . . قوم من بيننا يفكرون مثل الثعلب الذى نظر إلى العنب ، فوجده عاليا لا ينال ، فقال إنه الحصرم المر ، وذهب راغبا عنه . إنهم إذن يقولون ذلك عجزا وقصر ذيل ، فلنصبح أولاً مجتمعًا علميا قبل أن نلعن غيرنا » .

وسوف نولى هذه النقطة كثيرًا من التفصيل فى الفصل الخاص بالفكر الفلسفى عند أحمد زكى من الباب الثانى من هذا الكتاب .

□

عاش الدكتور زكى طيلة حياته وقد سيطرت على عقله المتأمل والدارس فكرة وحدة الخلق والخالق ، وأن وحدة هذا الخالق تتراءى فى وحدة خلقه . وكان يعبر عن هذا فى الخمسينيات وهو فى مواقع السلطة ، فيقول: إن أمنيته أن يخلص من المناصب ليتفرغ لكتابة كتاب بعنوان « وحدة الكون » . وفى موضع آخر يقول أحمد زكى ملخصًا هذه الفكرة : « وخرجت على ما أحسب أنه حقيقة الحياة الكبرى : تلك وحدة شاملة تجرى فى هذه الخلائق جميعًا ، على اختلاف صور واختلاف أخلاق ، وهى تجرى فى أرض وسماء، أومن بها كإيمانى بوجودى وإيمانى بوجودك . والإيمان بالوجود أول الإيمان . . وتسألنى عن هذه الوحدة ما اسمها ، وأقول : سم ما بدا لك . أما هى عندى : فوحدة من وحدة الله » . قال الدكتور أحمد زكى هذا فى مقدمة كتابه « مع الله فى السماء » ، ثم قال : « وهذا الكتاب ليس بكتاب فى الفلك ولا فى علم الأرض ، ولا فى الفيزياء ، ولا فى الكيمياء . . وما كان له أن يكون ، إنه كتاب إيمان ، وأرجو أن أتبعه بالكتاب الثانى « مع الله فى الأرض » إكمالاً لمعنى الوحدة ، وعلى الله أن أنجزه ، وعلى الله أن أوفق فيه » .

ومضت الأيام ، ونشر الدكتور أحمد زكى سلسلة مقالات ممتعة فى مجلة العربى وجعل عنوانها «وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه . . وقدرة الله تتجلى فى بديع صنعه » ، وكان يعتزم أن يجمع بين

هذه المقالات التى نشرها فيها بين يناير عام ١٩٧٠ وديسمبر عام ١٩٧٤ فى كتاب ، وقد جهز هذا الكتاب بالفعل قبل وفاته ، وأضاف إلى المقالات عددًا آخر من الموضوعات استقام بها نظام الكتاب كموسوعة علمية فى فلسفة وحدة الكون ، وجعل عنوانها « مع الله فى الأرض » ، وقد نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بعد وفاة عالمنا الجليل .

□

ولم تكن هذه أو تلك هى الموسوعة الوحيدة لأحمد زكى فى المجال العلمى ، وإنما كانت هناك موسوعة أخرى نشرها الدكتور أحمد زكى بداية على صفحات العربى فى الموضوعات العلمية الرئيسة ، ثم جمعت تحت إشرافه وأخرجت إخراجًا رائعًا وصدرت عن دار الشروق ، تحمل نفس الاسم الذى كان أحمد زكى يكتبها تحت عنوانه وهو « فى سبيل موسوعة علمية » . وتعد موسوعة الدكتور أحمد زكى هذه خير ما صدر فى العربية فى هذا المجال .

□

وقبل الموسوعة وهذين الكتابين « مع الله فى الأرض » ، « مع الله فى السماء » كان الدكتور أحمد زكى قد أصدر فى سنة (١٩٣٨) كتابه « قصة الميكروب ، كيف كشفه رجاله » . وهذا الكتاب فى الأصل من تأليف الدكتور بول دى كريف « Dr. Paul de Kruif » ، وقد نشر الدكتور ترجمة لهذا الكتاب فى مجلة الرسالة ، التى كان الأستاذ أحمد حسن الزيات يصدرها ، وبدأ عالمنا فى نشر الفصول المترجمة منذ فبراير سنة (١٩٣٥) وعلى مدى ثلاث سنوات . وما إن انتهى نشر فصول الكتاب حتى نشرته مجلة الرسالة سنة (١٩٣٨) .

كذلك ترجم الدكتور زكى كتاب « Lady with a spear » الذى ألفته أوجينى كلارك « Eugenie Clark » ، وهى باحثة شابة حكت فى كتابها عن تجربتها العلمية فى عالم البحار ، وقد اختار الدكتور زكى أن يترجمه تحت عنوان « فى أعماق المحيطات » ، وقد نشرته دار الهلال .

وفى الستينيات عاون الدكتور أحمد زكى مؤسسة فرانكلين على نشر اثنين من أبرز الكتب العالمية التى أخرجتها المؤسسة فى مصر . وأول هذين الكتابين هو كتاب ألفه الدكتور جيمس كونانت

James B. Conant رئيس جـامعة هـارفـارد الأسبق ، وقد تـرجمه الـدكتور أحمد زكى تحت عنـوان «مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » ، ونشرته دار المعارف سنة (١٩٦٣) .

وأما الكتاب الثانى الذى يحمل اسم « بواتق وأنابيب . . قصة الكيمياء » ، فهو ترجمة الدكتور زكى لكتاب العلامة برنارد جافى « Bernard Jaffe » الذى ألفـه باسم « Crucibles: the Stroy of Chemistry » ، وهو كتاب كبير الحجم والقيمة كسابقه .

بالإضافة إلى هذه الكتب ذائعة الصيت فقد كان للدكتور زكى جهده فى كتب دراسية أخرى .

□

وقد كان الـدكتور زكى ينتهج فى ترجمته للكتب العلمية منهج الدقـة الزائدة فيما يتعلق بحقائق العلم وتاريخه ، ولكنه كان يجمع إليه مذهب التحرر فى تقديم المعلومات وتصويرها . وهو يقول فى هذا المعنى فى تقديمه لكتاب مـواقف حاسمة فى تاريخ العلم : « وجنحت فى الترجمة إلى النفع إذا هو عـارض التقليد ، وكان لا بد فى كتـاب يحكى عن العلم كهذا من ابتداع كلمات فابتـدعتها ، فـوجـدت من الفـائدة أن أذكـر إلى جـانبهـا لفظهـا الإنجليـزى لفـائدة من عـرف وألف اللفظ الإنجليزى . كذلك أسماء الأعلام وضعت إلى جانبها مقـابلها الأجنبى لمن يريد الرجوع إلى المراجع الأعجمية ليـزداد منها علما » . وسـوف نتحدث عن أسلـوب أحمد زكى فى الترجمة ، بالتفصيل فى فصل خاص من كتابنا هذا .

وقد يـلاحظ القارئ من طبيعة هذه الكتب التى ذكـرناها لتونـا أنها تعنى عناية خاصـة بتاريخ العلم ، أو بعبارة أخرى أنها تعرض العلم من خلال تـاريخه . وقد جاء هذا نتيجة إيمان أحمد زكى بفعالية هذا الأسلوب فى تـوصيل حقائق العلم وروحه إلى الجمهور المثقف ، وقد عبر رحمه الله عن هذا المعنى فى تقديمه لكتاب قصة الكيمياء ، فقـال إنه « ليس ألذ فى أحاديث الناس من قصة ، وليس أمتع فيما يقرأ الناس من قصة ، والعقول قد تخمد من تعب ، ويكاد يغلبها النوم ، حتى إذا قلت قصـة ذهب النوم واستيقظت العقـول ، وأرهفت الآذان » ، « وتسأل عن سبب ذلك فتعلم أن العقل الواعى من بعض أعماله التعقل ، ومن بعض أعمالـه التخيل ، والتعقل يطول فيجهد ، والخيال مركب وطىء ، يركبه الإنسان بأيسر جهد ، ويطير فيحلق به فى أجواء أكثر إنعاشا من جو هو فيه ، وليس أحب للنفس وليس أشهى لها ، من فرس ذى جناحين فى السماء رامح » .

وكان أحمد زكى فى كل ما بذل من جهد فى هذه الناحية ، يعبر عن إيمانه بأن من مسئولية رجل العلم أن يعرف الناس بالقيم العلمية . . ويحيى فيهم سعيهم نحو القيم العلمية . وهكذا عبر للأستاذ محمود عوض فى لقائه معه الذى نشر فى مجلة آخر ساعة وقال : « إن الناس دائما تهاب العلم ، لأن هناك إشاعة منتشرة تقول إن العلم صعب ، وإن العلم موهبة توجد عند بعض الناس ولا توجد عند البعض الآخر . هذا غير صحيح . إننا جميعا نبدأ حياتنا من نقطة متساوية ، ولكن اتجاهاتنا تتحدد على الطريق وليس من نقطة البداية نفسها ، ولأن الناس تتصور أن العلم صعب ، فإنك تجد أن الذين يقبلون على كتابة الشعر أو القصة مثلاً هم أضعاف من يقبلون على التخصص العلمى . إن الطريقة المثلى لتقريب العلم للجمهور هى أن يتحدث الناس علميا فى الأمور التى تتصل بحياتنا اليومية . فكلما قرأ الشخص العادى عن الدور الذى يؤديه له العلم داخل منزله ، وفى مكتبه ، وفى حياته عموما ، فإن اهتمامه بالعلم وقراءاته سوف تتزايد قطعا » .

على أن هناك مجموعات أخرى من مقالات أستاذنا الدكتور زكى فى مجلة العربى تصلح لأن تقوم كتبًا مستقلة بذاتها على غرار هذه الكتب . ومن أمثلة هذه المجموعة أحاديثه فى « الطب المصور » ، ومقالاته الأخرى فى « الأمراض الشائعة » ، وسلسلة أحاديثه عن « الذرة » وعن « الفضاء » .

وإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لها مَنْ يقوم بهذا الجهد .

□

وبالإضافة إلى الكتب العلمية الأربعة الكبرى التى نقلها عالمنا الجليل إلى العربية ، فقد أنجز ترجمة اثنتين من عيون الأدب العالمى لاثنين من كبار الأدباء وأبرزهم فى تاريخ الأدب ، إذ ترجم الدكتور زكى عملين أدبيين كانا من باب الطرافة عن سيدتين « غادة الكاميليا » و « جان دارك »*.

وتتألق القدرات الأدبية واللغوية والتعبيرية الهائلة لأستاذنا الدكتور أحمد زكى فى ترجمته لهذين

---

* فى حديث صحفى سيأتى ذكره بعد صفحات قليلة قال أحمد زكى إن أحب سيدتين إليه هما جان دارك القديسة وغادة الكاميليا غير القديسة .

الأثـرين العظيمين ، وعلى الرغم من أنهما قـد تـرجما عدة تـرجمات أخرى إلى العـربية إلا أن تـرجمة الدكتور زكى لكل من الأثرين تبقى فى مقدمة الترجمات .

□

أمـا عن أعمال الدكتـور زكى التى ألفهـا فى اللغة العـربيـة ، فبالإضـافـة إلى كتابيـه مع الله ، وبالإضافة إلى الموسوعة العلمية ، فقد أخرج للقارئ العربى خمسة كتب ضمت المجموعات الأولى من مقالاته . فقد جمع الدكتور زكى أحاديثه الإذاعية فى كتابين متعاقبين ، أولهما « سلطة علمية» ، وثانيهما « سلطة علمية أخـرى » ، وسيجد القارئ بيانا تفصيليًا بفصـول الكتابين فى الباب الرابع من هذا الكتاب «الببليوجرافيا » .

وقـد عثرت فى تـراث أستاذنـا الـدكتور أحمد زكى على كشف بقلمـه حصر فيه (٦١) واحـدًا وستين حديثًا إذاعيًـا لم تنشر فى «سلطة علمية» ، وبين يدى القارئ أيضًـا بيان بهذه الأحاديث فى الباب الرابع الخاص بالببليوجرافيا .

أما كتـاب « بين المسموع والمقروء » ، فقـد جمع فيه أستاذنـا الدكتور زكى ثـلاثين قصة صغيرة وأقصـوصة بعضهـا وصله عن طـريق السماع ، وبعضها عن طـريق القراءة أو هكـذا قال هـو فى التقـديم ، وسنتنـاول هذه القصص بشـىء من التلخيص والعـرض والنقد فى البـاب الثـالـث من كتابنا هذا .

بقى أن نذكر أن الكتاب الرابع « ساعات السحر » بفصوله الاثنين والعشرين كان مختارات من مقالات الـدكتور زكـى فى الهلال الجديد الـذى رأس تحريره ، وفى مجلـة الإثنين ، وقد تحدثـنـا منذ صفحات قليلة عن السر فى تسميته بهذا الاسم .

أمـا الكتـاب الخامس « مع النـاس » فيحـوى ثلاثـة وعشرين فصـلاً تتنـاول كل العـلاقـات والنواحى التى تكون بين الناس على النحو الذى ستعرضه الببليوجرافيا .

كان الدكتور أحمد زكى فيما يبدو لنا أديبا بالسليقة أو بالفطرة ، وقد تحدث عن نفسه فقال : إنه نظم الشعر فى شبابـه حين كان فى العشرين من عمره ، ويذكر عالمنـا أن أول بيتين قالهما هما هذان البيتان اللذان سجلهما على ظهر صورة شمسية أخذت له :

طيف شمس قــد ازدهـــــــى بشبـــــاب ونضـــــــــــــرة
يمـــــــلأ النفس وسعهــــــا من ســــــــــــرور وبهجــــــة

ولاشك فى أن هـذين البيتين يعبران عن اعتـداد أحمد زكى بنفسـه منـذ الشبـاب ، وهى صفـة لازمته من دون إفراط فيها ولا تفريط (فى نفسه أيضا) .

ويروى الدكتـور زكى أن أولى مقالاته كانت فى مجلة « السفور » . وكـان المنفلوطى رحمه الله قد نشر مقالاً جـرح فيه الشباب ونعى عليهم ، فرد عليـه أحمد زكى بمقال جرح فيه الشيـوخ ورماهم بجمود العروق وبـرود الدم . والطريف أن أحمد زكى قد روى هذه الواقعـة حين كان على مشارف الستين ، وقـال لمحـرر المصور الـذى أجـرى معـه تحقيقًا صحفيـا فى سلسلـة عن أهل الفكـر فى صوامعهـم (٢٧/ ١١/ ١٩٥٣) إنه ألف وهو فى مدرسة المعلمين كتابًا سماه « عبث الشباب » جمع فيه كل ما قال من نثر وشعر .

ثم إنـه لما تعلم الفرنسيـة على يد معلمـة سويسريـة بدأ يطبق العلم على العمل فترجم «غـادة الكاميليا » التى نشرها أول ما نشر من مؤلفاته بعد عودته .

□

ولما سافـر أحمد زكى إلى إنجلترا حمل معه كثيرًا من كتب الأدب العربى ، وكـان قليل الاختلاط بالمصريين والعـرب ، ولكنه كان كثير الاختـلاط بالأدب العربى المكتـوب ، ولعل فى هذا سرا من أسرار تميـز أسلوب أحمد زكى فى بعض العبـارات بالتركيبـات القـديمة على نحـو قد لا نجـده فى أسلوب معاصريه ، وإن لم يكن غريبا على الأسلوب العربى الأصيل .

وكان عالمنا أثنـاء دراسته فى إنجلترا يحرص على أن تكون رسائله إلى أصدقـائه وأهله فى القاهرة قطعا أدبية ، وهى طريقة لها أثرها بلاشك فى تدريب القلم والرقى بالأسلوب والقدرة على التعبير، والمثل على نجاحهـا واضح فى أحمد زكى . ومن طريف مـا يروى فى هذا الصـدد أنه عندمـا عرف الدكتور أحمد زكى العالم الجليل الشيخ أبا زهرة ، سأله الشيخ « هل لك قرابة بأحمد أمين ؟ فقال : أحمد زكى : لا ، ولكن نسب ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟ فقال أبو زهـرة : لقد أرسلت إليه رسالة من إنجلترا تصف فيـه واقعـة مـوت صديق لـك ، فقرأهـا لنـا أحمد أمين فى درس الأدب على أنها نموذج حى للأدب الرفيع . وكان أحمد أمين أستاذًا للشيخ أبى زهرة فى مدرسة القضاء الشرعى .

ولم يكن أحمد زكى يحتذى فى كتاباته أديبا بالـذات ، ولكنه كان متأثرًا فيها بخليط من الأدباء ،

وبخاصـة الشعراء : المتنبى والبحترى وأبو تمام ومهيـار . وكان المتنبى أكثرهم تأثيرًا فيـه ، وهذا واضح أيضا فى كثرة الأبيات التى يقتبسها أحمد زكى من المتنبى ، وقد عبر عن حبه للمتنبى عندما سئل عن أقرب الشعراء إليه ، فقال : المتنبى وليته ماتنبَّى .

وسألت الأهرام عـالمنا فى أوائل الستينيات عـن قراءاته ، فقـال : إن أكثر مطالعـاته فى الكتب العلمية ، لكنـه يلتمس ما استطـاع كتبًا سـواها ، لكى يستكمـل جوانب المعـرفة ، ويحاول بهذا الاستكمال إدراك الحكمـة التى لا يمكن إدراكهـا إلا بتجميع أجـزاء المعـرفة وربطهـا . واستطـرد فقال : إن التخصص لا يجوز أن يصرفنا عن الاتصال بمقدار مـا بجوانب المعرفة الأخرى ، بل إن هذا التخصـص نفسه يحتاج إلى النظـرة الشاملـة التى تدنيـه من الحكمة ؛ فليس مـن المجدى أن تعرف مترًا واحدًا من الكرة الأرضية إلى أعمق أعماق التخصص ثم تظل جاهلاً بقية الكرة الضخمة فلا تدرى أين موقع قدمك .

وكان يصرح بأن قراءاته فى النثر العربى قليلة ، وإن أكثر ما يقرؤه نثرًا هو فى الآداب الأجنبية ، ولك أن تتخيل مقدار مـا كان يقرؤه الرجل الـذى يزعم أنه لم يقرأ فى العـربية إلا القليل . رحم الله التواضع .

□

ولم يكن أحمد زكى يرى غرابة فى جمعه بين الأدب والعلم الذى تمثل بصورة واضحة فى شخصيته واتجاهه ، وكـانت فكرته فى هذا الصدد أن « الفارق بين العلم والأدب مفتعل ! وهـو أكثر افتعالا فى الشرق . . فكل كاتب فى الشرق مفروض أن يكون أديبا ولو كان عالما . . ومن غرائب الشرق أن يستغرب أن يكون العالم أديبا » .

كان رحمه الله من طـراز العلماء الموسوعيين . وعنـدى أن أعظم أدباء العـربية لم يكـونوا إلا من العلماء الموسـوعيين ، وهذه حقيقـة لن يتأتى فهمهـا على الوجـه الحق إلا للمـوسوعيين أو الـذين يريدون أن يكونـوا كذلك ، أو الذين يدرسون حياة هؤلاء ، أو الـذين يقرءون حياة هؤلاء على أقل تقدير، أما عدا هؤلاء وهؤلاء فقد يستحيل عليهم أن يقتنعوا بمثل هذه الفكرة ! !

ونعود فننقل عن الأستاذ طاهر الطناحى قولـه : « إن الديك ـ كما قال الجاحظ ـ فيه الشجاعة والصبر والجولان والثقافـة ، وله خبرة بسـاعات الليل ومقـادير الـزمان . وكذلك زكـى بك يكاد

يكون فـوق الأسطرلاب وفوق مقـادير المد والجزر ، فعلى الرغم من تعدد مشـاغله وكثرة «سلطـاته العلمية » فهـو يقسط جهوده وزمنـه على واجباتـه تقسيطا مـوزونا ، وكأنما الحيـاة عنده « معمل » تخضع للتحليل والتدقيق والتقسيط » .

نعم . كان الدكتور أحمد زكى مثلا يحتـذى به فى التنظيم ، والضبط ، والربط ، ولم يكن هذا إلا صورة من عقليته المنظمة ، التى نظمها العلم فاتسعت للكثير من العلم ، وأعطت الكثير من العلم والعمل .

كـان أحمد زكى كثير القراءة ، كما قـدمنـا ، وقد أتيحت لـه فـرصة الفـراغ لها بعـد فراغـه من الوظـائف فى مرحلـة مبكرة من عمـره (لا من حيـاته) . وكـانت له مكتبـة ضخمة قيمـة فى بيته بالمعادى ، فلما ذهب إلى الكويت وأسس العربى كانت لـه هناك مكتبة أخرى ضخمة فخمة كان لا يفتأ يزودها بالجديد ، ولما توفى رحمه الله اشترتها وزارة الإعـلام الكويتية ، وخصصت لها موضعًا ممتازًا .

وكان الدكتور يقضى ليل رمضان كله فى القـراءة ، ويظل يقرأ من بعد الإفطار وصلاة العشاء وحتى السحور ، ثم يواصل القراءة مرة أخرى حتى يداعب النوم جفونه .

□

أمـا عن أسلوب عـالمنا الجليل ، فيتحـدث واحد من أفـذاذ العلماء الكبار التـالين له ، وهـو أستاذنا الدكتـور عبد الحليم منتصر فيصفه بأنه كان مثالا للكاتب العلمى الـذى لا يزال بالفكرة حتى يغرسـها فى نفس قـارئه غرسًا ، وله طريقته الخاصة فى العـرض والتحليل فى جميع الموضوعات العلميـة التـى يتناولها ، وهو مع أنـه يكتب لقطاع عـريض جدا مـن قرائه فى الوطن العـربى ، فما أشك فى أن كل قرائه يفهمونه فى سهولة ويسر ، ولا يجدون أدنـى مشقة فى فهم ما يريد أن يعرض من مسائل علمية مهما تكن صعوبتها ودقتها .

وسئل الدكتور زكى عن غـرابة أسلوبه ، هل يحسهـا ، كما يحسها غيره ، فقال : « أقنعنى بأن أسلوبى لا بد فيه شىء غريب كلمة كتبها العقاد فى المصور ، وصف بها أسلوبى فقال : « إنى لا أقرأ للدكتور أحمد زكى شيئًا إلا وأتصوره قـد جلس إلى مكتبه وبيده قلم ، وبيده الأخرى مسطرة ، وبرجل » .

وكان العقاد رحمه الله من المعجبين بأحمد زكى وبجمعه الفـريد بين العلم والأدب ، وكان يقدر

أسلوبه ، وآراءه فى مجمع اللغة ، وهكذا كان الـدكتور زكى على رأس العلماء الذين سلموا من نقد العقاد ، بل وحظوا بتقديره .

□

وكـان عالمنـا حفيـا ببلـورة العلاقـة بين الصحـافة والأدب ، وبين الصحـافـة والعلم ، وبين الصحافة والثقافـة على وجه العموم . وقد قال فى حديثه لسـامح كريم : « إن الصحفى اليوم لن يكـون صحفيا بـالفهلـوة أو بالخطف ، وإنما بـالثقافـة والمعـاناة . صحيح أن الصحـافـة موهبـة واستعداد ، ولكن هـذه الموهبة ، وذلك الاستعداد ينبغى أن يكونـا فى خدمة الثقافـة والاطلاع » . ومضى الدكتور زكى يجيب عن سؤال عن العلاقة بين الصحافة والأدب ، فقال : « إذا كان الأدب هو الكـاتب ، والقلم الثرى بلفظه ، الثرى بمعانيه ، القـوى بأسلوبـه ، الواصـل فى يسر إلى ما يؤديـه ، فقد أفـادت الصحافـة الكثير منه ومن أصحـابه . . ومن أهل الصحـافة أهل أدب بهذا المعنى . . ولكن من أهل الصحـافـة من أساء إلى الأدب . هـؤلاء هم الكتـاب الذين يخطفـون ، هؤلاء هم الذين درسوا جـانبًا من اللغة ولكن لم ينموها ، درسوا صنوفًـا من الأدب فبهرتهم فراحوا يقلدونها قبل وفـرة واجبة من التحصيل ، ومنهم من لا يهمهم اللفظ يستعملـونه مـا دام يؤدى إلى الغرض سريعا » .

وقد كان أحمد زكى مهتما بالتأكيد على هذا المعنى أيضًا فيما يتعلق بالشباب ومحاولاتهم الشعرية وقضية الشعـر الحر . . وكان يقـول إن الضوابط والقيـود والأشكال الأدبية ليسـت عبثًا وإنما هى مقدرة ، وإن الحياة الحديثة ليست بالشىء السهل ، وإن بدت كذلك إلا أنها لم تجئ إلا بعد معاناة وعناء طويلين . واقرأ معى عباراته فى مقاله (يوليو عام ١٩٦٦) بالعربى حين يقول : «إنه جيل جاء من بعدنـا ، دهمته سرعة الحياة ، وغمرتـه المدنية غمرًا حتى ما تكاد تستقـر فى فيضها المتدفق قدماه ، وراح يحسب أنها مدنية فى أدب وفى غير أدب ، دانيـة الثمار ، وليس عليه إلا أن يمد يده إليها ويقطف ، والذين خبروا هذه المدنية يخبرونك أن وراءها التحصيل الكثير ، والسهر الطويل ، والحفظ المتصل المستنير . إنها مدنية شـاقة ، يبذل الإنسان فيهـا مثل ما يجنى منها وأكبر ، ولكم شقى الإنسان فيها بالعمل ، ولكم شقى ببعض ما جناه منها من ثمار » .

ويروى عـالمنا أنـه حدث شابـا مغرما بـالشعر فى هـذا ، فقال له الشـاب : أنا شـاعر ، فمالى والعلم؟! « قلت له إن جسمك أقـرب إليك من شعرك ، وشعرك فى حاجـة إلى هذا العلم وإن لم

يظهر فيه » .

وفى موضع آخر (أغسطس عام ١٩٧٥) يتحدث الدكتور زكى عن هذه الظاهرة ، فيقول : « إنه الحب يريد الشباب أن يتروحوا منه فيصبوه شعرا قبل نضوج . . إن قول الشعر فيه شفاء لقائله ، وهو بذلك يؤدى فى الشباب غاية » . ثم يردف بقوله : « والظاهر أن مدرسى اللغة العربية كثرة كاثرة هبطت بشغفهم بالأدب عامة ، فكان من ذلك الشعر الضعيف الذى ينتجه شباب اليوم ، بعد انتهاء من دراسة » .

والحق أن الدكتور زكى قد أفاض فى دراسته لهذه الظاهرة وحديثه عنها ، مما نظن أن سيكون لآرائه المفصلة فى هذا الصدد موضع آخر فى كتابنا هذا إن شاء الله .

□

أما لغة الدكتور زكى العربية ، فقد كانت على خير ما تكون هذه اللغة عند العلماء والمثقفين وعند أهل اللغة أنفسهم ، والأمر فى هذا لا يحتاج إلى بيان أو توضيح .

وكان الدكتور زكى يجيد الإنجليزية إجادة تامة قبل البعثة وبعدها ، وفى الكيمياء وفى غير الكيمياء .

وكان الدكتور زكى كما ذكرنا قد تعلم الفرنسية على يد سيدة سويسرية ، وسرعان ما طبق العلم فى العمل وترجم غادة الكاميليا .

ودرس الدكتور زكى الألمانية ، لأنه كان فى حاجة إلى هذه اللغة فى دراسته لدرجة الدكتوراه فى العلوم ، وقد أجرى بعض بحوثه بها فى النمسا .

ونحن هنا نقتطف لك طرفة من طرف الدكتور زكى حين يتحدث عن قلمه فى مقال له بمجلة الإثنين ، فيقول فى فقرة من الفقرات : « عرفت أقلامى أول ما عرفت العربية ، ثم هى تتدرج فتعرف الإنجليزية ، ثم إذا هى بالفرنسية تلوذ ، ثم هى من الألمانية تعوذ ، حتى التركية كان لها من محابرى سقيا ، وكان لها نصيب » . انظر إلى حبه للفرنسية ، وقبوله الألمانية على مضض ، معنى كرهه الدكتور زكى فى غير موضع ، مع أن فى قلمه تأثرًا كبيرًا بطريقة تركيب الجملة فى اللغة الألمانية على نحو سنتحدث عنه فى موضع آخرمن هذا الكتاب إن شاء الله بالتفصيل .

ويروى لنا عالمنا الجليل نفسه بعض الطرائف عن تعلمه اللغات فى مقاله : « حاولت أن أتعلم الصينية » الـذى نشره فى جريدة الشعب (١٢/ ١/ ١٩٥٧) ، فيقـول إنه حـاول أن يتعلم التركية على إسماعيل حقى ، وهو شاب تـركى جاء مصر مع الحرب العالمية الأولى واشتهـر أمره فيها ، ثم عاد إلى تركيا حيث أعدم لمعارضته نظام الحكم . . . ولكن أحمد زكى لم يواصل تعلم التركية .

وحـاول الدكتـور زكى أن يتعلم الـروسيـة مع اثنين من المسلمين الـروس المجاورين فى الأزهـر الشريف ، وكانا من مدينة كييف بأوكرانيا ، ولكنه لم يمض إلى النهاية .

وحاول أن يتعلم الصينية مع بعض مجاورى الأزهر كذلك ، فلاقى فى تعلمها صعوبة شديدة ، وكان مـرد هذه الصعـوبة عنـده إلى أنك قد تجد فى الصينية كلمـة ذات ٥٠٠ معنى . ويعلق على هذه الخاصيـة من خواص الصينية فيقـول إنك قد تجد فى العـربية كلمة ذات عشر معـان ، وهذا قليل جدا ، ولكن ما بالك بالكلمة الصينية يكون لها خمسون معنى ، وما بالك بها ولها خمسمائة !! وهكذا فإن أحمد زكى أجاد ثلاث لغات حية وإن كان لم يحالفه الحظ فى ثلاث لغات أقل حياة .

□

وعلى حين تعلم الدكتور زكى فى بريطانيا ، وعلى حين تزوج منها ، وعلى حين كان دائم الزيارة لها ، إلا أن هذا لم يمنعـه من أن يبدى الآراء الصريحة ــ التى تغضب البريطانيين على الأقل ــ من السياسة البريطانية والعقلية البريطانية .

ومن البدهى أن مـوقفه من المسألة المصريـة البريطانية كـان فى الجانب المصرى مائة فى المائة . ووطنية الرجل ليست محل تشكيك ، إنما أردنا بتبصيرنا فى الفقرة السابقـة مواقفه العامة خارج هذا النطاق الذى لا يحتمل التفاضل فى خلق أحمد زكى .

كـان عـالمنا الجليل يصرح فى الأربعينيـات وفى السبعينيـات بأن بـريطـانيا هى عقـادة العقـد (الهلال : ٤/ ١٩٤٧ ، العربى : ٥/ ١٩٧٣) ، وهو يؤكد أنها ما تبقى فى بلد زمانا ، وتخرج منه ، إلا بعد أن تكـون قد عقدت فيه عقـدة يصعب على أهل البلاد حلها بعد خـروجها ، ويفيض فى ضرب الأمثلة على ذلك بما حدث فى فلسطين وجنوبى السودان وإيران والعراق .

ولكن أحمد زكى لا يترك هذا الأمر شماعة للبعض : « ونذكر أنها عقدت هذه العقد ، ولكن العقدة لا تعقدها الكف الواحدة ، إنها كفان ، كف المستعمر القوى الغازى وكف بل أكف من أهل البلاد . إنى لا أبرئ بلدا ينزل به الشر ، استعمارًا كان أو غير استعمار أبدا . إنهما جرمان متكافئان : جرم غاصب ، وجرم مغصوب . ونذم الزمان لنوفر على أهل البلاد المذمة ، ونذم التخلف والتخلف نفسه إنما هو جرم جناه الأجداد على الآباء ، ويجنيه ، اليوم الآباء على الأبناء » .

ويتحدث الدكتور زكى عن بعض المواقف التى واجهته وهو يدرس فى بريطانيا . ومن هذه المواقف أنه هاجم الإنجليز وبالغ فى هجومه ، وسكتوا ، حتى إذا انتهى من كلامه وهدأ ، وكان العشاء ، سأله أحدهم : « إن كان هذا مبلغ كراهيتكم لهذه البلاد فلماذا تأتونها ؟ » . ويروى الدكتور زكى فيقول : « وكان جوابى العاجل : إنما نحن نأتيها مشترين ، فلكل شىء نأخذه منكم ثمن ، ونحن ندفع لكم عن تعليمنا قطنا . . ولم يعجبنى جوابى ، كان الواجب أن أقول : أنا آسف أنى آلمتك كل هذا الألم » .

على أن الأروع من هذه ما قصه الدكتور زكى من أمر زميل مصرى كان دائم الاحتداد على الإنجليز ، وكان إذا داس قدم أحدهم خطأ لم يعتذر ، إمعانا فى التحدى ، وكان قوى الجسم مفتول العضل . وحدث أنه احتك يوما بإنجليزى ، ضعيف الجسم ، قليل الحجم ، وامتد الخلاف إلى الأيدى ، وتلاكما ، ووقف الطلبة الإنجليز والمصريون الذين يدرسون حتى انتهت الملاكمة بانتصار الإنجليزى على ضعفه ، لأنه لاكم بصنعة لا بقوة . يعلق أحمد زكى على هذه القصة حين يرويها ، فيقول : « لطالما ذكرت هذا الصراع كلما قام بين البلدين صراع . إن هذا من هذا ، الصنعة دائما لا العضل هى الغالبة ، فكيف إذا اجتمعتا؟ ! » .

□

ونعود بعد هذه الدقائق الست من الاستطرادات التى ذكرنا فيها موقف أحمد زكى من الإنجليز، نعود إلى ما كنا فيه من الحديث عن أصول وطبيعة ثقافة أحمد زكى .

لم يكن عالمنا يقتصر فى ثقافته على القراءة ، وإن كانت هذه تمثل النسبة العظمى من وسائل الثقافة عنده ، وكان يحب السينما ، ولكنه كان حزينا على مستوى السينما المصرية ، ولا يخفى إحساسه أن المخرجين لا يخرجون أفلامهم لطبقة المثقفين .

ولم يكن له بعدما تقدمت به الحياة هواية إلى جانب القراءة ، إلا إنبات الزهر والفاكهة فى

حديقة بيته ، وكان يتخذ من هذه الهواية مادة لـدراسة علم النبات دراسة هواية ـ على حد تعبيره ـ وتجربة بعد ما درسه دراسة منهجية .

وكان الدكتور أحمد زكـى يحب المشى كما قدمنا ، إذ كان يتخذه رياضـة الشيخوخة ، وكان فى شبـابه أيضًـا يحب التجوال والتطـواف فى شـوارع القاهـرة القديمـة . وقـد عبر عن هذا فى مقـال أغسطس عام ١٩٤٧ بالهلال ، فقال : « إنى لم أجد أشفـى لنفسى فى يوم إجازة ، وأنا البعيد عن الأحياء التى نسميهـا تعسفًا بـالوطنية ، من دورة ، أدورهـا فى الحسينية إلى الجماليـة إلى النحاسين فـالصاغـة فالسكـرية فـالعقادين فـالخيامية . . وهلم جرا . . إلى أن أنتهى بـالسيدة زينب ومـا وراءها ، وعلى القدم أدورهـا ، وتطول فأجعل فيها محطات أحط بها استجمامـا ، وفيها أنظر روائع للفن فيشبع حسى بالفـن ، وأنظر معالم التـاريخ فأحيا التاريخ البعيـد والقريب وأرى صنـاعات تغيرت عليها القرون ولم تتغير ، فأحن للعهد القديم وآسى له على السواء » .

□

هكذا كـانت حيـاة عالمنا الجليـل تسير على نحو مـرسوم مخطط ، أخـلاق مصطفاة متـوازنة ، وشخصية متكاملة أو هى تحرص على هذا التكامل ، ولم يكن للصدفة أثر فى حياة أحمد زكى ، ولا جاءه شىء من غير أن يتمناه ويسعى إليـه . وقد سئل السؤال التقليدى : مـاذا يتمنى ، لو بدأت الدورة من جديـد ، فقال : « لو أن الحياة عادت بى من جديـد ، وأذن لى أن أتمنى ما تمنيت شيئا من هذه المناصب . لقد تمنيتها قبل أن أكونها ، فلما كنتها تعلمت منها ما رغبنى عنها » .

والحق أن الدكتور زكى قد تفرعت به مسالك الحياة كثيرًا ، ولو تأملت لتختار له المسلك الذى يسلك من بين هذه المسالك المتشعبة ما وجدت أنسب لشخصه وشخصيته مما كان ، وإن وجدت ما هو أكسب .

□

وكان الدكتور زكى قمة فى التواضع ـ مع عرفانه لقدره واعتزازه بشخصه ـ ولا بد أن كل مَنْ لقى هذا العالم الجليل شخصيا وجد فيه تواضع العلماء وأناقة الأدباء . .

فتراه يصغى للحديث بسمعه ... وبقلبـــه ولعـــله أدرى بـــه

كان الـدكتور زكى يؤمن بأن المجد الحقيقـى ليس هو ذلك المجد الصاخب ، وإنما هـو المجد

العامل فى هدوء وأناة على نحو ما كانت حياته . وهو يصرح بهذا المعنى فى مقال له فى الهلال (مارس ١٩٤٦) ، فيقول : « لقد آن للناس أن يكفروا بالمجد الذى يحوطه الضجيج ، لأن أكثره مجد زائف . . إنه كالطبل ، أعلاه صوتا أفرغه . . إن الأمم وإن الإنسانية قد تقدمت ، وسوف تتقدم إلى غايتها المأمولة لا بالصراخ وراء رجل أو بضعة رجال ولكن بأبطال ألوف يعملون عمل الحياة على الصمت . . وفى ضياء غير باهر لا يبالون زخرف الحياة ، ولا يجزعون من الموت ، ويؤمنون بالله وبأن المجد كله لله » .

ولم يكن أحمد زكى يرتاح إلى هذه الضجة التى تحيط بها الجمعيات الخيرية أعمالها ، ويتحدث عن هذا المعنى فى مقال له عنوانه « النسبة والتناسب » نشره فى جريدة الإثنين ، فيقول : « ولو أن الناس اعتادوا النسبة ، لسألوا هذه الجماعات : كم من هؤلاء الأطفال آوت ؟ وكم من المسلولين والمسلولات أبرأت؟ ولعلموا إذا هم نسبوا هذه الأرقام ، إلى عدد ما فى هذا البلد ، وسكانه عشرون مليونًا ، من أطفال مشردين وإلى عدد ما فى هذا البلد من مسلولات ومسلولين ، لعلموا أن هذه الجماعات إنما تحاول أن تنزح بحرًا بكوز ، أو تروى حقلاً بفنجان ، ولأدركوا أن هذه الأعمال لاتساعها ولكثرة ما تحتاج من نفقات ، ليست مما تطيقه هذه الجماعات ، ولكنها بحكم الزمن الحديث وما تنشأ فيه من آراء ، من عمل الحكومات ومن فروض الدول ، وإن الأمر ليس إحسانا ولا مبرة ، ولكنها حقوق المرضى العاجزين على الأصحاء والقادرين ، تؤخذ بالضرائب يدفعها دافعها راضيا أو يدفعها غصباً » .

□

وكانت فلسفة أحمد زكى هى الاعتدال ، وكذلك كان طبعه . ولكنه مع ذلك لا يتهاون فى الأساسيات . واقرأ فى هذا المعنى عباراته فى وصف الشباب الذى يعجبه ، أو ما يوده فى الشباب حين يقول : « فيعجبنى منه ـ أى الشباب ـ الوجه الطليق النظيف الذى يعمل فيه الموسى كل يوم أو لا يعمل أبدا ، والشعر المقلم الممشوط ، والثوب البسيط الأنيق . فتلك زينة خليقة بابن آدم ، وهى أخلق ما تكون بشبابه ، وهى ضريبة المنظر الطيب الذى لا بد أن يشيع فى دنيا يخفف من عنتها أن تقع العين فيها على الحسن الجميل ، ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنق ، وينبو عن الترقق ، فإن كان العمل فحما وزيتا انغمس فى الفحم والزيت ، وإن كان انبطاحا على الأرض تمرغ فى تراب الأرض ، وإن كان بخارًا وعفارًا ، نشق الأبخرة ، ولم يشح بوجهه عن الأعفرة ، فإذا انتهى

النهار دخل الحمام، وخرج منه فعاد إلى التأنق على الصحة التى أكسبها العمل ، وإلى الترقى على القوة التى أكسبها مران العضل » .

كان عالمنا معتدلاً فى مأكله وملبسه ، وإن لم يخل من أناقة زادتها أناقة قوامه ، ووسامة وجهه المعبر عن حيويته ورفعته . وكان قد تعود التدخين ، ثم أخذ يكثر منه حتى لم يكن يكتب إلا وهو يدخن ، إلى أن كان ذات يوم سنة (١٩٣٦) ، « ورأى المنفضة مترعة فتقززت نفسه ، وأقلع عن التدخين من يومها » . وهذه الحادثة بالذات تعبر لنا عن مدى الحساسية والشفافية وحب الكمال الذى ملأ على عالمنا نفسه وعقله وقلبه .

كان الاعتدال طبعه فى حياته ، وكذلك كانت فلسفته على الرغم مما قد يبدو من شخصيته وهو العالم الحاسم الحازم القاطع فى كثير من الأمور بحقيقة الصواب . . فقد كان من المؤمنين بالتطور فى الإصلاح . . وقد لخص لنا فكرته فى هذا خير تلخيص فى عبارته التى جاءت ضمن مقاله «خواطر عند الحلاق » ، والذى جعله فصلاً فى كتابه «ساعات السحر » ، حين يقول : « القليل القليل ، ثم انظر ما فعلت يداك . . أما الكثير الذى تتخطى به الحدود فقد يكون منه فساد ليس إلى إصلاحه سبيل » ، وليست هذه هى عبارته الوحيدة فى هذا المعنى ، وإنما هى العبارة التى رأيناها تبلور الفكرة فى أبسط صورة . أما تفصيل القول فى هذه الفلسفة فسيأتى بلا شك فى موضعه من كتابنا هذا إن شاء الله .

كان عالمنا أنيقا بالطبع وإن حسب البعض أنه أميل إلى التأنق . وقد أجرت مجلة الإثنين سنة خمس وخمسين (١٩٥٥) استفتاء لاختيار ملك للجمال من بين الرجال وملكة للجمال من بين الفتيات ، وجاء ترتيب الدكتور أحمد زكى الثالث بين ملوك الجمال بعد الأستاذين عبد المجيد عبد الحق وفكرى أباظة ، واختيرت له جائزة إنسانًا ميكانيكيا (روبوت) ذهبت به إليه ملكة الجمال الثالثة ، وهى فتاة الجامعات (عزيزة عبد الحميد) . وذهب مندوب مجلة الإثنين يسجل رأى أحمد زكى فى الجائزة التى أهديت إليه (لجماله) فانتقل الرجل إلى الحديث عن العصر الميكانيكى ومزاياه وشروره على النحو الذى ستطالعنا به آراؤه فى غير موضع من هذا الكتاب .

وكان للدكتور أحمد زكى ، إذا وقف فى الناس خطيبا أو محدثا ، أسلوب خاص ، ولصوته رنة خاصة ، ولألفاظه نبرات أخص ، ولوجهه تعبيرات خاصة أيضًا . وقال أستاذنا الدكتور حامد جوهر فى وصف هذا الخلق من أخلاق الدكتور أحمد زكى : « كان فنانا ، وكان مرهف الحس فى اللغة ، فكان لكلامه موسيقية متنوعة الأدوات من ألفاظ إلى مصطلحات إلى أساليب » .

□

كانت أخلاق عالمنا على مستوى رفيع من الرقى . ويصف أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو العزم أخلاق عالمنا الجليل ، فيقول : « إنها كانت السياج الذى يحمى فكر العالم ، وقلم الأديب » . ويضرب على ذلك المثل بأن الدكتور زكى لم يبعد خصومه عند تشكيل مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث ، وكان قادرًا على إبعادهم .

ويمضى الدكتور أبو العزم ليقول : « إن الدكتور زكى كان ظاهرة نادرة من ظواهر العصر، والظواهر خوارق ، والخوارق معجزات وفلتات لا تتكرر » . وهكذا كان الدكتور فعلاً ، والله وحده يعلم كم من الزمن ينقضى حتى يكون فى الأمة العربية « أحمد زكى » آخر .

وكانت فى أخلاق الدكتور أحمد زكى سماحة ظاهرة ، وكان يتسامح فى أخطاء الناس وإساءتهم إليه خاصة ما كان منها عن فقر أو جهل أو بلايا . وسألته مجلة الإثنين ذات مرة عن أحب الفضائل إليه ، فقال : أما اليوم فالترفع عن الصغائر . . وأما عن أحب المهن ، فقال : الكتابة ، وعن أحب الأصدقاء ، فقال : من يجازى الحب بالحب والوفاء بالوفاء ، وعن أحب البطلات إليه ، فقال : أين هى ؟ وهل ترك الرجل لهن بابا للبطولة الظاهرة مفتوحًا ؟ فقيل له : فأيهن من عالم الروايات ، فأجاب باسمى كتابيه اللذين ترجمهما إلى العربية ، وقال : جان دارك القديسة ، وغادة الكاميليا غير القديسة .

وسئل عن أبغض الأشياء إليه ، فقال : النفاق . ويبدو أن هذه كانت حقيقة مائة فى المائة ، فقد كان الدكتور زكى صريحا واضحا يحب الصراحة والوضوح ويكره نقائضهما ، والذين يتخلقون بنقائضهما . . وكانت أبرز النواحى الخلقية فى شخصيته هى الصراحة فى الحق ، وكان يعرف أنها تغضب الناس ، ولكنه كان يقول : إنها تغضب الناس ذوى المصالح !! وكانت هذه الصراحة هى مصدر الخشية التى تنتاب الناس من أحمد زكى ، وبخاصة فى عصر لم تكن الصراحة ولن تكون من أخلاقه المفضلة بعد أن قامت سياسته على إبعاد الصراحة جانبا وإلى أجل غير مسمى .

لنتأمل صراحة أحمد زكى حين اشتدت الحملة على مجمع اللغة العربية وجهوده فى تعريب المصطلحات ذات مرة ، فإذا هو يجاهر بالسبب الحقيقى وراء تلك الحملة ، ويقول فى مقاله (فى مجلة العربى : يونيو عام ١٩٦٠) بكل الوضوح وعلى الملأ : « ثم إن قوما خانهم شرف العضوية فى هذه المجامع هزئوا بها ، وتفاكهوا عليها اشتفاء وانتقاما . والفكاهة ، ولو كاذبة ، ما أسرع ما تسرى فى الناس » .

وكان أحمد زكى على خلاف ما قد يتوقعه القارئ يهش بالنقد ويبش له ، وله فى ذلك عبارة فى حديثه عن تجربة الشهور الأولى من العربى حيث يقول فى مقاله (العربى : ٨/ ١٩٥٩)

«واغتبطنا بـالنقد أكثر مما اغتبطنـا بالحمد، لأنك بـالحمد تقف عندما صنعت ، ولكنك بـالنقد تعيد النظر فيه ، فتقوم اعوجاجا أو تسد خللا ، وليس حسن إلا من وراءه أحسن ، والكمال بعيد المنال » .

□

اجتنب عالمنا الأحزاب و الحزبيـة على الرغم من أنها كانت فى حاجة إليـه وهو العالم العامل ، وهـو الكاتب الأديب ، ولكنـه نجح فى أن يبعـد عنها ، وأن يبعـد نفسـه عن التفكير فيها . هـو يتحدث عن فترة مـا قبل الثورة ، فيقول : « إنه لم يكتـب فى حياته من المقالات السيـاسية إلا إثنين شطبهما الرقيب ، واحد فى عهد الوفد ، وآخر فى غير عهد الوفد » .

وكان أحمد زكى يؤمن بالديمقراطية ، مهما كانت عيوبها . صحيح أنه كان يدرك أنها لا تصلح فى بلادنـا بالقـدر الذى صلحت فيـه فى البلاد المتقـدمة ، ولكنـه كان يؤمن بـأنها أسلم الطرق . وسنتناول هذه النقطـة بشىء من التفصيل فى فصل من فصول الباب الثانى من كتابنا هـذا عنوانه «الفكر السياسى عند أحمد زكى» .

وفى تحقيق صحفى عنوانـه « الحكم الديمقراطى كما يجب أن نفهمه » سألت مجلـة الجيل ثلاثة من الـوزراء (عبـاس عمار، وحلمى بهجت بـدوى، وأحمد زكـى) ، عن آرائهم ، ونشرتها فى (٢١/ ١٢/ ١٩٥٣) ، وقد أجاب أحمد زكى : « إنه لكى نفهم الديمقراطية يجب أولا أن نفهم ما هى الدكتـاتوريـة لأن أحسن طريق لفهم الخير هـو أن نفهم الشر » وضرب مثلاً بـالأسرة السعيدة والأسرة الشقية . وكأنه كان يحذر ، فقد فهم النـاس ـ بعد ما عانوا ـ الدكتاتـورية ، وفهموا بعدها قيمة الديمقراطية .

لم يكن أحمد زكى راضيًا عن بعض التجاوزات التى لجأت إليها ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وبخاصة أنها استعـانت فى أول أمـرهـا بصفـوة أهل الفكـر فى البلـد ، وسرعـان مـا نحتهم لينفـرد البعض بالسلطة ، فكان ما كان . وكان أحمد زكى يتحدث فى أمر الثورات على العموم (فى مقال سبتمبر ١٩٦٩ بمجلة العـربى) فمس هذه النقطـة فى شىء من الصراحة والـوضوح حين عقب بقـوله : «ولكن من الثورات التى أعرفها وتلك التى قرأت عنهـا ، ثورات نحت من رجال الفكر رجالاً لهم كفـايات تـرجح بهم فى الموازين ، لـو أذن لهم فى البقـاء حيث هم ، فى العهـود الجديدة لسهلـوا

الطريق ، ولكشفوا عن الأخطار ، ونفعوا نفعا عظيما » : « ولكن بدلا من هذا ركنت هذه الثورات فى كثير من الأحيان إلى أصناف من الرجال لم يكن فيهم النضج الكافى ، ولا حتى الإيمان بالجديد الذى خشيت الثورة أن يكون قليلاً فيمن أبعدوا ، ولم يكن فى الكثير ممن أبعدوا عن مشاركة ، نقص فى إيمان ، ولا عزوف عن جديد ، وكانت لهم قلوب مليئة بالنقمة على القديم ، ولكنها عادة فكر كان من شأنها النظر قبل القطع والاستماع إلى الرأى الحر قبل إبداء المشورة » . ولا أظن أن هناك عثارات أبلغ من هذه العبارات فى وصف ما حدث ! ثم انظر إلى العلاج فى عبارات الدكتور زكى حين يقول ، ولعله وجد سنتها آذانا صاغية : « فلنفتح الأبواب على مصاريعها ليدخلها الأهل جميعا ، خدمة طائعين ، يطلبون العيش كدا ، ويطلبون اللقمة عرقا ، ويطلبون الخير لكل من أظلته سماء ، وللوطن يطلبون المجد أرفع الأمجاد » .

□

يجدر بالذكر هنا أن الدكتور زكى عندما ترك مصر وأقام فى الكويت فعل هذا باختياره الكامل ، وحقيقة أنه طوال الفترة التى عاشها خارج مصر كان يحظى عند مقدمه إلى وطنه وعند خروجه منه بحسن اللقاء من الجميع ، ولكن هذا لم يمنع من أن يتعرض عالمنا الجليل (للروتين الأمنى) الذى حكم مصر فى فترة من الفترات . وقد تكون هذه هى الحادثة الفريدة ، التى رواها الدكتور زكى فى مقال (أغسطس عام ١٩٧١) عن تجربة له مع الشرطة المصرية ، إذ ظل واحد من ضباطها يتعقبه لمدة طويلة أثناء إحدى الإجازات التى قضاها فى مصر . وفى النهاية استطاع عالمنا أن يواجه الضابط فيسأله عن سبب المتابعة ، ثم يستطرد أحمد زكى محدثا الضابط ـ دون أن يسأله ـ عن كل ما قد يتعلق به من شكوك قد تكون ثابتة فى نفوس رجال الشرطة ، والضابط يقول له : إن أيا من هذه الأفكار لم يرد بباله . ومضت الأيام ، ثم علم أحمد زكى أن الأمر لم يكن إلا خوفهم من أن يهرب العملة الصعبة إلى داخل البلاد ، وأنهم كانوا يفعلون هذا مع الذين يحضرون للبلاد فى تلك الفترة . . روى الدكتور زكى هذه القصة فى سطور طويلة ، ثم قال : « هل تمضى الريبة هكذا بسهولة برجال الشرطة وبهذا الاتساع وبغير تقدير الرجال ، إلا أن تكون الثقة ضائعة بين حاكم ومحكوم ؟ أم لعلها المعاملة من مراكز القوى إلى مراكز الضعف من مراكز الشرطة إلى مراكز الشعب هى التى أوحت وتوحى إلى رجال الشرطة بما توحى » .

ونجد صورة أعمق من صورة رفض أستاذنا الدكتور أحمد زكى للدكتاتورية فى فهمه «للمثل

الأعلى » . فقد كان رحمه الله لا يحبذ الفكرة من أساسها ، كان يؤمن أن الإنسان لا ينبغى أن يبقى على مثل أعلى واحد يحتذيه ، فذلك فى رأى أستاذنا الدكتور زكى نوع من العبودية ، ولكنه كان يرى حل هذه المسألة فى أن تكون «الشخصية التى يعبدها شخصية خيالية مقتبسة أجزاؤها من شخصيات عظيمة يوفق بين العناصر التى يحبها فى كل منها ، ويكوّن منها زعيمه التصورى » .

وقد يدفعنا هذا إلى أن نستعرض آراء أحمد زكى فى عظماء التاريخ ، ومن الطريف فى هذا الصدد أنه كان مشغول الفكر عاما بعد عام وحقبة بعد حقبة بالطريقة التى انتهت بها حياة سقراط ، وهو يكتب فى هذه الواقعة غير مرة ، فى أكثر من موضع ، بل إنه يخصص لها ذات مرة عنوان المقال (مايو عام ١٩٥٩). وحين يتحدث عن الولاء فى مقاله (فبراير عام ١٩٧٠) يعرض لذات القصة فيقول : «وسقراط فيلسوف الإغريق ، اتهمته أثينا بالمروق ، وحكمت عليه بأن يشرب السم ليموت ، واجتمع عليه تلاميذه ومريدوه ، وهيئوا له سبيل النجاة والهرب فأبى عليهم ، بسبب ولائه لوطنه ، ولائه لأثينا ولاء سياسيا ، ولم يمنعه من ولائه لوطنه ، والرضا بالموت والطاعة لحكمه ، أنه كان حكما لا يرضاه ، وهو الذى مشى فى الشباب يؤلبه عليه » .

وكان الدكتور زكى كذلك معنيا بتحليل فلسفتى ابن سينا والرازى من حكماء العرب على نحو ما سنفصل القول فيه فى موضع آخر من هذا الكتاب .

أما من الزعماء فقد كان عالمنا يقدر غاندى تقديرًا شديدًا ، وهو يعبر عن هذا المعنى فى مقاله (الهلال : ٧/ ١٩٤٨) فيقول : «إن أقرب رجل استحق عندى زعامة الدنيا ، زعيم الهند الراحل غاندى ، ذلك الذى صلى صلاته البوذية فضمنها آيات قرآنية ، وكان جائزًا فى حكمه أن يمزج بين دعوات القسيسين والأحبار » . ثم يعقب الدكتور زكى فى أسى فيقول : « ولكن غاندى كان رجلاً أسود ، والحضارة الرشيقة تكره السواد ، وكان روحانيًا ، والحضارة العارفة تتجافى عن الروحانيات ، وكان قليلاً عفيفًا ، والحضارة الثرية ترجح عندها الفخامة ويرجح السمن » .

وعلى نفس الخط كان الدكتور زكى يقدر نهرو ، وقد كتب بعد وفاته مقالا جعل عنوانه «نهرو . كان إذا تكلم أنصتت الدنيا » (العربى : أغسطس عام ١٩٦٤) . وكان يقدر لنكولن ، أما ميكافيلى فكان يحظى بالقدر الأكبر من هجومه ، فى مقالات خاصة ، وفى مواضع متعددة من مقالاته السياسية .

□

تلقى الدكتور أحمد زكى تربيته السياسية فى مطلع حياته فى مدرسة الحزب الوطنى ، وكان أول أيامه فى هذه المدرسة يوم مشى فى جنازة مصطفى كامل ، يومها بدأ يعرف معنى الوطنية ، ومعنى مصر ، والمعنى الذى مات مصطفى كامل فى سبيله (لاحظ أن عمر أحمد زكى وقتها كان أربعة عشر عاما) ، ولا يفتأ أحمد زكى يتحدث عن هذا اليوم فى كثير من المواضع ، بل ويخصص له مقالا عنوانه « مصطفى كامل . . يوم وفاته » نشره فى «العربى» (فبراير عام ١٩٦٢) .

وفى مقال مبكر للدكتور زكى فى مجلة الرسالة (٢٩/ ١٠/ ١٩٣٤) يصف أحمد زكى شعوره وشعور رفاقه بعد ما شيعوا جنازة مصطفى كامل ، فيقول : « ذلك هو الحدث الأول الذى فتح للعيون الصغيرة أول كوة تطل منها على كل شيء يسمى وطنا ، وعلى ناس فيه بائسين يسمون أهلا ، أو هو أول صدع فى القلوب الصغيرة فتح فيها مدخلاً لحب الخير ، ورعاية الغير ، وقد كنا ربينا تربية من لون العصر الذى نعيش فيه ، لا تعين على الأكثر إلا على حب الذات ، والاستعداد للرزق عن طريق المرتبات » .

لقن أحمد زكى مبادئ الحزب الوطنى منذ ذاك الحين . ومن يومها توطدت علاقته هو وأصدقائه بالحزب الوطنى ، وبخاصة بالشيخ عبد العزيز جاويش .

حتى إذا كانت إرهاصات ثورة سنة ١٩١٩ ، كان أحمد زكى ، ومنصور فهمى ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد أمين من تلاميذ فصل واحد فيها ، كما روينا عنه فى أول هذا الباب ، فانظر إلى هذا الفصل الذى ضم شيخ الأزهر ، ومديرى الجامعتين الكبيرتين والأوليين ، وعميد الآداب الأشهر .

بدأ أحمد زكى وزملاؤه كفاحهم بالسلاح ، ثم أدركوا أن الكفاح الأصعب ليس بالسلاح ولكنه بشيء آخر . انظر إلى أحمد زكى يصف جهادهم فيقول : (مقال يناير سنة ١٩٧٢ بمجلة العربى) «كنا ونحن طلبة نجهز للوطن ، وكنا ونحن طلبة نتجهز لأسوأ حال يكون عليها الوطن ، وجمعنا إلى الجد فى العمل بقاعات المحاضرات الجد فى العمل لتحمل المصادمات خارج قاعات المحاضرات ، وكان الغاصب أجنبيا ، وتعلمنا كيف نفك السلاح ونركبه فى مراحيض المساجد وفى الصحارى . . أطلقنا الرصاص ولم يعلم بنا نصنع رجال ذلك العصر ولا قادته» .

ثم حدث التحول : « أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح . . كل السلاح على المدى الطويل ، إنما هو العلم والعرفان . . فألقينا نحن الشباب سلاحنا ، هكذا أعلنا ، واستبدلنا بالسلاح القلم ، وألفنا فى عام ١٩١٤ لجنة للوفاء بهذا الأمل البعيد سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهى تحتضر اليوم فى شارع الكرداسى فى بيت من بيوت القاهرة عتيق ، وهى تحتضر مع احتضار الكتاب العربى فى منشئه فى القاهرة » .

وإذ استطردنا هكذا إلى الحديث عن لجنة التأليف ، فمن الطريف أن نذكر ما كان يرويه الدكتور زكى عن أيامهم الأولى فيها حين كانوا يستعينون على تحقيق أهدافهم الثقافية بالتجارة . ويروى الدكتور زكى ما كان يدور بينهم من محاورات : كم ربحنا من الجلد هذا العام يافريد (الأستاذ محمد فريد أبو حديد) ، وكم خسرنا فى الفول يايوسف (يوسف بك الجندى) .

وكان أحمد زكى يرى أن ثورة سنة ١٩١٩ لم تفشل ، ويكفيها أنها قفزت بالوعى السياسى للشعب المصرى خمسين سنة إلى الأمام ، ومن الغريب أن نجد أنفسنا نثبت هذا الرأى لأحمد زكى ، ولكن ما العمل وقد كانت أبواق اعلامنا تكرر ليل نهار ما ذكره الميثاق عن فشل هذه الثورة ! ! .

لم يمارس عالمنا النشاط الحزبى بعد ثورة سنة ١٩١٩ . ترفع بعد عودته بشهاداته العليا وعقليته الجديدة أن يخوض فى مجالات يغلب عليها الكلام ، ولا يغلب عليها العمل . وظل على حاله من البعد عن السياسة مع أنه صار يوما بعد يوم يلمع ككاتب فحل ، وعالم رائد ، وموظف كبير. حتى إن الوزارة التى اشترك فيها كانت وزارة مستقلين رأسها صديقه حسين سرى باشا .

أما وظائف أستاذنا الكبير بدءًا بالأستاذية (فى المدرسة أو فى الجامعة) ، وانتهاء بمدير الجامعة ، ومرورًا بالمدير ووكيل الوزارة ، والوزارة ، فإنه كان يعتبرها « رسالة » لا « وظيفة » وكان سلوكه الوظيفى يستند دومًا إلى هذه الفكرة .

لهذا فإن الحديث عن روح الأستاذية فيه شىء لا تتيسر له الفقرات المطولة ، ولكننا سننقل هنا عن اثنين ممن تحدثوا عن هذا الخلق فى الدكتور زكى . فهذا الدكتور حامد جوهر يروى أنهم كانوا وهم فى أول حياتهم العلمية معيدين فى كلية العلوم « يأنسون إلى المصريين القلائل من كبار هيئة التدريس نبثهم آمالنا ونسألهم النصح والارشاد ، وكان فى مقدمة هؤلاء أحمد زكى ، وهنا ازددت معرفة به ، وقد وجدت دائما عنده الرأى الصائب والرؤية الصافية ، والنصح المخلص الأمين ، والصراحة التامة ، والبعد عن تزيين الحقائق المرة وتزييفها ، وكان يواجهنا بمواضع الخطأ فى تفكيرنا إذا رأى شيئًا من ذلك ، ولا يأبه لما يترك ذلك من أثر غير محمود عند من يفضل أن يزين له القبيح ويشجع على المضى فى الخطأ . وفى الواقع كان من أكثر ما أحببت فى فقيدنا الكبير تلك الصراحة التى كان يقابلنا بها ، وبخاصة أنه لم يكن ليعوزه الأسلوب المنسق المهذب للتعبير عن رأيه » .

وهذا هو أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو العزم يروى فيقول : « ذهبت إليه وأنا على أهبة السفر إلى البعثة التى اختارنى لها . . فبادرنى بقوله « أظنك قد أتيت إلى لسماع نصيحة منى ، ونصيحتى لك : ألا تسمع نصيحة من أحد عما ينبغى أن تفعله بالخارج . عليك أن تختار لنفسك الأسلوب

الذى يوائم طبعك ، ويلائم ظروفك ، وأن ترى بنفسك وبعينك ما فى هذا المجتمع الجديد من جديد ، ومايمكنك أن تتعلمه من هناك دون أن تحاول معرفته من هنا . . . » . ثم يروى الدكتور أبو العزم أنه لما عاد من بعثته قدمه الدكتور أحمد زكى فى محاضرة قائلاً : « من شبابنا العائدين أقدم (فلانا) وحكمى عليه لن يكون بما حققه فى الخارج من نجاح أو تفوق . . فإن غيره قد أصابوا مثل هذا النجاح ، ولكنى أحتفظ بحكمى عليه حتى يحقق فى بلده ، وفى ميدان تخصصه شيئًا نذكره له ، ونتحدث به عنه » .

وعلى الرغم من أن الدكتور زكى كان أستاذًا متفردًا ، فإنه كان يؤمن فى كل مناسبة بأهمية العمل الجماعى ، ودور الفريق فى حل المعضلات المعقدة ، لا يقصد بالفريق فريقًا من الأفراد وحسب ، ولكن فريق المؤسسات والمعاهد ومراكز البحوث . ومن هنا جاء إيمانه بضرورة اشتراك الجامعة والجامعيين فى البحوث التطبيقية التى تقوم بها مراكز البحوث . ويروى أستاذنا الدكتور حامد جوهر أن هذا كان هو السبب وراء اهتمام الدكتور زكى بإنشاء مراكز البحوث بالقرب من جامعة القاهرة ، وأنه بذل جهدًا كبيرًا حتى استطاع الحصول على هذا الموقع ليحقق به هذا الغرض .

□

لم يكن طموح الدكتور زكى فى أى من المجالات أو الميادين التى اقتحمها يقف عند حد ، وقد سئل ذات مرة فى تحقيق صحفى عن الحلم الذى عاوده وهو نائم ، فقال إنه كان يرى نفسه « قادرًا على الطيران بأجنحة من نور ، وأتحرك فى الهواء خفيفًا رشيقًا كالملائكة ثم أصحو فأعجب كيف كنت إنسانًا طائرًا » .

وكان للدكتور زكى ذكاء حاد ، وحاد جدًا ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور حسين فوزى كان يقرأ تجارب المطبعة لكتابى الأول عن الدكتور كامل حسين رحمه الله ، فأتى ضمن ما قرأ على تعليق للدكتور أحمد زكى قاله فى جلسة من جلسات مجمع اللغة العربية ، وكان التعليق ينم بوضوح شديد عن ذكاء الرجل الشديد ، ولم يتمالك الدكتور فوزى قلمه وأمسك بالقلم وكتب على الهامش « زكى ذكى » .

وليس ذكاء الدكتور أحمد زكى فى حاجة إلى الإبانة عنه ، فهو ظاهر فى عقليته وكتاباته وأسلوبه وإجاباته عن السؤال ، وسرعة بديهته ، وقوة ذاكرته . . وفى عبارة موجزة « كان حظه من مكونات الذكاء وافرًا » .

وكانت عقليته رياضية قبل أن تكون علمية ، ولعل دراسته للكيمياء أضافت إلى الجانب الرياضي البارز في عقليته ما جعل فيها ذلك التكامل الذي نتمناه في فكر مَنْ يتناولون قضايا المجتمع كي يكونوا أقرب إلى الصواب في حكمهم ، وأدنى إلى القبول في آرائهم .

كان الدكتور زكي في شبابه متفوقا في الرياضيات ، وقد حصل في البكالوريوس المتوسطة في إنجلترا على ٩٧,٥٪ ، وهي درجة ندر من يحصل عليها وقتها .

وبالإضافة إلى العنصرين الرياضي والعلمي في عقلية أحمد زكي كان هناك عنصران آخران : عنصر الخيال ، والعقلية الطبية .

فأما الخيال فلم يجاوز الحد ، ولو جاوزه لاستفدنا بلاشك من أحمد زكي في مجالات أخرى ، ولكن من يدري ، لو كان هذا على حساب ما كسبنا منه .

وأما العقلية الطبية ، فإني أستطيع الجزم أن أستاذنا الدكتور أحمد زكي كان دائم الحنين إليها . هل جاءه هذا من الجمع بين الميل العلمي والعطف الإنساني ؟ أم جاءه من اهتمامه واهتمام فلسفته بأمر الإنسان ؟ . . إن كنا لا ندري على وجه التحديد فإننا لا نخطئ الظواهر بدءًا بسلسلة « قصة الميكروب » في مجلة الرسالة ، وبهذا الجانب الطبي الذي أضافه أحمد زكي إلى «الهلال » عند رئاسته لتحريرها ولهذه الأبواب الطبية الكاملة التي حررها أحمد زكي لوقت طويل في مجلة العربي . . بل ولهذه الظاهرة الطبية في مجموعة قصصه « بين المسموع والمقروء » والتي سنشير إليها في موضعها . . وغير ذلك كثير .

□

ونعود إلى أمر الذكاء فنستعرض على سبيل المثال إحدى محاوراته ، التي تلقي الضوء على آرائه في الحياة والمجتمع بل وعلى الأعلام من معاصريه . فعندما بدأت الأنباء تتواتر عن صعود الإنسان إلى القمر نشرت جريدة أخبار اليوم (٢٦/ ١٠/ ١٩٥٧) تحقيقًا كبيرًا بعنوان « ١١ تذكرة للقمر » طلبت فيه ممن سألتهم أن يختار كل منهم عشرة يصحبونه في مركبة الفضاء التي تتسع لعشرين شخصًا منهم تسعة علماء ، قد احتلوا أماكنهم بالفعل ، على أن يأخذ في اعتباره أن المركبة ستبقى في الفضاء أربع سنوات . . وتوجهت أخبار اليوم إلى أم كلثوم ففكرت في توفيق الحكيم ثم استبعدته لأنه سيمضي الوقت في التشكيك أهو القمر أم لا . . ، ثم تخلصت أم كلثوم بذكائها الشديد الذي يتميز (في رأيي) بالتركيز وقالت : أختار الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد فهو يساوي عشرة رجال !

أما الشيخ شلتوت ، فإنه رأى أن يبعث بعشرة من الأشرار حتى يستريح العالم من شرهم ! على حين أن نوفيق الحكيم مضى يشكك على نحو ما صورت أم كلثوم من أمره !

وأما الدكتور أحمد زكى ، فقال إنه يأخذ خمسة يسميهم ، وخمسة يصفهم ولا يسميهم ، فأما الخمسة الذين يسميهم فهم « الأستاذ أحمد حسن الزيات فهو رفيق أنيس يحيى فينا الأمل حيث لا أمل ، والأستاذ أحمد لطفى السيد ليروح عنا بروح أرسطو ، وفضيلة الشيخ شلتوت ليمهد لنا لقاء الله سبحانه وتعالى ، والأستاذ منصور فهمى ليريح حنجرته فيهنأ بالصحة ، والأستاذ كامل الكيلانى ليقول لنا ما قاله المعرى فى خراب الدنيا » . وأما الخمسة الذين بصفاتهم فهم « مجنون كبير ، ومغرور كبير ، ومنافق معروف ، ورجعى مشهور ، وأى حانوتى» .

وفى معرض آخر تسأله مجلة الإذاعة المصرية هو وأربعة من النجوم (العقاد ، ومحمد عبدالوهاب ، وعبد الحميد الحديدى ، وزكى طليمات) عن نصائحهم لجيل الشباب الصاعدين ، فيركز أحمد زكى وصاياه للمبتدئين فى عالم العلوم فى خمس وصايا ، لا مانع من ذكرها ما دمنا نهدف بهذا الكتاب ضمن ما نهدف إلى ضرب المثل ، مع تقديم الاعتذار إذا كان القارئ قد مل هذه الاستطرادات التى ما فتئ المؤلف يلجئه إليها :

- ◻ ألا يقرب العلم كمهنة يكسب منها حتى لا يتحول العلم فى آخر أمره فيفقد الكثير مما به من كسب نفسانى لقاء ما يجنى من بعد ذلك من كسب مادى .
- ◻ ألا يقربوه حتى تكون فيهم ميول العلماء ، ولو هى بادئة براعمها ، وأن تكون أنفسهم من الأنفس السائلة عن كل ما غمض ، الطلابة لاستجلاء كل ما بهم أمامها .
- ◻ ألا تقرب العلم إلا إذا كانت نفسك تستطيع أن تبحث عن الحقائق فى حيرة .
- ◻ الصبر على الخيبة ، فإن التجارب تخيب ثم تخيب ثم آخر الأمر تنجح .
- ◻ ألا تضيق بجدل ، فالعالم الناجح لا بد له من جدل ، بل هو يدعو الناس إلى جداله ، وهذه منزلة العلماء .

وحين خصصت مجلة « الإثنين » عددًا من أعدادها للإذاعة ، ذهبت إلى بعض الشخصيات تسألهم عن التسجيلات التى يحبون سماعها ، فرتب الدكتور زكى رغباته العشر على النحو التالى : تسجيلات الشيخ محمد رفعت فى قراءة القرآن الكريم ، ثم كل ما غنته أم كلثوم من شعر شوقى ، ثم مجنون ليلى لعبد الوهاب وأسمهان ثم المواويل البلدية ، ثم أغانى سلامة حجازى وعبده

الحامولى ، ثم برنامج ربع ساعة مع أهل الفن ، ثم الرماد المتخلف عن حرق ورق الأحزاب . . ففيها معانى انعدام الشقاق والخصام والفرقة بين أبناء الوطن الواحد . . . وهكذا .

□

وكان أحمد زكى بالطبع صديقًا لكثير من أعلام عصره ، كان صديقًا لكثير من أقطاب السياسة الوفديين من الجيل الثانى ، وكان على رأسهم محمود سليمان غنام الذى كان من تلاميذ أحمد زكى الأوائل ، وكان صديقًا لزعماء الأحرار الدستوريين الذين كانوا زملاءه فى « مدرسة الثورة » وفى «الحزب الديمقراطى » (حزب الشباب أثناء ثورة سنة ١٩١٩) ، وكان على علاقة طيبة جدًا بالسعديين وزعمائهم ، وكان الإخوان المسلمون كثيرًا ما يترددون عليه لاستشارته فى كثير من المسائل . . كانوا يجدون فيه الصدق وكان يجد فيهم الشباب الذى يحبه ، وكان صديقًا لشباب الحزب الوطنى ومَنْ هم من جيله .

وكان أحمد زكى صديقًا لأهل الأدب واللغة ممن شاركوه العمل فى الصحافة ، وفى لجنة التأليف وزاملوه فى مجمع اللغة العربية والمجلس الأعلى لدار الكتب .

وكان كبار رجال التعليم الذين ضمتهم مدرسة المعلمين العليا من قبل يفخرون بزميلهم العلامة أحمد زكى ، وكان الدكتور زكى حريصًا على علاقاته معهم ، التى كانت أكثر من صداقة .

وكان الدكتور زكى صديقًا لرجال الصحافة الكبار الذين يقدرونه ، والصغار الذين يحبونه ويحبون حديثه وحواره ولقاءه ونصحه .

وكان صديقًا للذين يقرءون له فيبدون الإعجاب ، وكان أكثر صداقة للناس الذين يقرءون فيظهرون النقد .

وكان معجبا بأم كلثوم وعبد الوهاب ، محبا للاستماع إليهما فى الشعر الفصيح .

وكان قبل هذا وذاك صديقًا للمرأة . والملاحظة الأولى التى ترد إلى ذهن من يستعرض أسماء مؤلفات عالمنا تأتى من كتابين من كتبه يحملان اسم امرأتين ، على حين أن الباقى كله متصل بالعلم على نحو أو آخر .

وكان عالمـا يقرر أن البنت أكثر اجتهادًا فى الجامعـة من الولد ، وكان لا يخفـى سروره بدخولها كليـة دار العلوم على عهـده وهو مـدير للجـامعة وهـو إنجاز كبير جـدًا فيما يخص المرأة والتعليم الجامعى على حد سواء ، وكـان حريصًا دوما على أن تملك زوجة المستقبل أمر استقـلالها فى يدها ، وكان يقول : « إن أهم أسس السعادة الزوجية هو أن الـزوج الذى يجد أمامه زوجة عرفت ما عرف واستطاعت أن تكسب ما يكسب يكون أهدأ طبعًا » .

□

ليس غريبا إذن أن يكون الدكتور زكى أيضًا أول من سمح بتوظيف المرأة فى مصلحة الكيمياء ، وليس غريبًا ما كان من دفاعه الدائم عنهـا ، خصوصًا فى قضية المساواة ، وسوف نفرد إن شاء الله فصلاً كاملاً لهذه الناحية من خلق الدكتور زكى وآرائه فى المرأة .

سئل الـدكتـور زكى عن أخطـر امـرأة فى حيـاتـه ، فقـال إنها أمـه ، وقـال لمجلـة الإثنين (٦/ ٢/ ١٩٥٦) : « إن الرجل الـذى لا تكون أمـه أول امرأة دخلت فى حياتـه وأخطر امـرأة فهو رجل فقد كثيرًا من مشاعر الفطرة » .

وقد كان هذا الحب نتيجة لتلك العاطفة القوية الرشيدة التى كانت والدته تشمله بها فى صغره وصباه وشبابـه ، دون تدليل أو إفساد . وقـد توفيت وهو فى الغربـة فحزن عليها حزنـا مضاعفا ، ووصفها فى عبارة موجزة فقال : « إنه كان لها قلب دائم التحنان ، وعين دائمة اليقظة ترعانى عن قرب وترعانى عن بعد » .

هذا عن والدته ، وقـد قدمنا بعض الحديث عن زوجه التى لحقت به بعد وفـاته بعامين ، وما كان بينهما من وفاق ووئام ، أما ابنته الوحيدة فقـد درست اللغة الفرنسية وآدابها ، وتخرجت بدرجة عـالية فيهـا ، وعملت فى الصحافـة الفرنسيـة فى مصر بعض الوقت ، ثم اختيرت مترجمة لـلأمم المتحدة فى المؤتمرات الدولية ، واتخذت من باريس مقرًا ومستقرًا .

□

وبعـد . . . .فهـا نحن أولاء في صيف عـام ١٩٧٥ وقد تعـدى الـدكتـور أحمد زكى الثمانين ـ وبلغتها ـ وأدركـه مرض ضعف العضلات فسافر للعلاج ، وعـاد إلى القاهرة ، وأدخل مستشفى المعادى ، فبقى بين أبنـائه وتلاميذه وأصـدقائه ومحبيه مـدة من الزمن ، ولكن الله سبحانـه وتعالى اختاره إلى جـواره بعد أسبـوع من الاحتفال بمـرور عامين على انتصـار أكتوبـر. فتوفى الرجـل وهو سعيـد النفس بما تحقق مـن النصر ، وإن كـان قلقـا بسبب الخلافـات التـى دبت بين العـرب فى موضوع المفاوضات .

على أن قلقه الأكبر وهمه الأكبر كـان تلك المشكلات الداخلية التـى لا بد منها للانطـلاقة إلى التقدم . وانظر إلى آخـر عباراته التى كتبها بقلمـه إذ يقول : « أما الدواء ، فـالانتهاء من المشاغل الخارجية ، والتركيـز على الأمور الداخليـة ، وتغيير القوانين بقسـوة شرقية رادعة لا فلسفـة للغرب فقهية فيها ، مع الدعاية الواسعة » .

وشيعت جنازة أحمد زكى فى القاهرة ، ودفن بها ، مدعوا لـه بالرحمة والمغفرة . وأقام مجمع اللغة العربية حفلا لتأبين الدكتور أحمد زكى ألقى الدكتـور حامد جوهر فيه كلمة التأبين المجمعية ، كما شارك الدكتور أبو العزم ، بكلمـة فى التأبين وكان فى ذلك الوقت رئيسًا لأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

ومن حين لآخر تتنـاول الأقلام حياة عـالمنا من بعض زواياهـا المضيئة ، وكلها زوايـا مضيئة ، وتفضلت هيئة الكتاب بـالتعاقد على إصدار مـؤلفات الدكتور زكى فى سلسلـة الأعمال الكاملة ، وقد أصدرت من هذه المؤلفات حتى الآن عمـلاً واحدًا ، هو « مع الله فى الأرض» ، وأظنها بصدد إصدار الكتب الأخرى ، ما نشر من قبل ، وما لم ينشر .

الباب الثانى

فلسفة أحمد زكى

الفصل الأول

الفكر السياسى عند أحمد زكى

إن الديمقراطية جميلة ، ولكن غير الجميل أن يكون الناس غير ديمقراطيين ، يدخلون الديمقراطية بمفاهيم غير ديمقراطية . ومع هذا فدخولهم الديمقراطية حتى بهذه المفاهيم خير من ألا يدخلوا ، إنها الديمقراطية المريضة ، ولكن الأمراض لا تدوم ، وما خلقت العقاقير إلا للدواء والشفاء .

قدمنا فى الباب الأول أن أحمد زكى لم يكن من الذين مارسوا السياسة قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، ومن الواجب هنا أن نقيد ذلك القول بأنه لم يكن من المتحزبين لحزب معين ، فقد أبعد نفسه عن الحزبية ، ولكنه لم يبعد نفسه عن السياسة ، فقد كان واحدًا من صناع الأحداث فى مصر ، لا نقصد الأحداث البارقة سريعة الظهور سريعة الأثر ، وإنما الذين يصنعون السياسة التى توصف بأنها طويلة المدى فى مجال الفكر والعلم .

وقد استوزر الرجل فى وزارة من الوزارات الأربع التى كانت بين حريق القاهرة ، وقيام الثورة ، واستوزر لوزارة الشئون الاجتماعية ، وهو لم يكن من رجالها الفنيين . إذن يمكن القول بأن اختياره للوزارة التى فى غير تخصصه كان من ذلك النوع الذى يسمونه « بالوزير السياسى» . وإذن كيف كان ذلك ، ولم يكن الرجل من الساسة الذين يغلب على عملهم تولى الوزارات أيا كانت عندما تصل مجموعاتهم إلى الحكم ؟ !

والأمر فى هذا بسيط غاية البساطة ، **فقد كان الدكتور أحمد زكى هو أستاذ الجامعة الكبير، والموظف الكبير الناجح ، والعالم اللامع ، والكاتب المؤثر ، والمفكر صاحب الكلمة المقدرة دائمًا ، والمسموعة فى بعض الأحيان . كان الدكتور أحمد زكى بكل ذلك شخصية عامة .**

والشخصيات العامة تتفاوت ، أهمية وقدرًا واحترامًا ، وكان أحمد زكى بعقله ، وعمله ، وفكره ونفسه ، ولسانه ، وقلمه ، وعلمه من أرفع هذه الشخصيات مستوى .

لم يكن أحمد زكى برلمانيا ، ولا رجل سياسة شعبية ، ولكنه كان يلقى الاحترام من طوائف الشعب المتعلمة ، ويلقاه أكثر من أكثرها علمًا .

وكان لأحمد زكى رأى فى كل صغيرة وكبيرة من أمور السياسة ما توفرت له مكونات الرأى ، ولم يكن يحتفظ لنفسه هو برأيه ، ولا كان يحافظ على نفسه من رأيه أن يبديه ، وإنما كان لا يفتأ يبديه ويُهديه ، ويهدى به ، فى صراحة لا تعوزها لباقة السياسة أبدًا، وإن خالفت تلك الصورة من السياسة التى تقوم على اللباقة فحسب .

وكان قلم أحمد زكى يتناول الموضوعات السياسية حين أتيح لمجلة الهلال أن يرأس تحريرها ، فكان يتناول أمور السياسة الدولية ، والسياسة العربية ، والسياسة الداخلية ، فى صراحة ووضوح ، وبصر بالأمور ، وحكمة الحياة ، وصدق فى الحكم على الأشياء ، وسلامة فى القصد ، ونزاهة فى الغرض .

ثم كان ما كان وأصبح أحمد زكى بمثابة الرجل الأول فى الجامعة الأولى (جامعة القاهرة) بعد قيام الثورة ، وفى هذا الموقع واجه أعتى عواصف السياسة فى السنة الدراسية التى قضاها فى هذا الموقع ، إذ أتيح له أن يختلط بالأمواج المتلاطمة ، والتيارات العاتية ، والأغراض الملتوية ، والألسنة العابثة ، والعقول التى أرهبها الفكر ، والفكر الذى أرهقته الأحاسيس .

وخرج الدكتور أحمد زكى من هذه التجربة بخبرة الذين يمارسون الأحداث ويدركون خطورة الأمر ، ويلتبس عليهم فى لحظة من اللحظات الحق بالحق والباطل بالباطل لا يدرون أى الطرق

يسلكون ، وتعتريهم الرهبة من كل طريق ، ففى كل تضحية ، وتضحية جسيمة ، ويسابقهم الزمان بدقائقه لا بساعاته ليقول لهم إن اتخاذ القرار مهما كان ضلاله أهون على كل الأحوال من البقاء بلا قرار .

عرف أحمد زكى فى السنة التى عمل فيها مديرًا للجامعة طبيعة الثورات الدافعة ، كما عرف من قبل على مدى سنوات طبيعة الديمقراطيات الهادئة . . وأدرك أحمد زكى كيف يكون صاحب القرار محل اتهام بما هو أبرأ الناس منه ، وكيف تسير الجماعات ، وكيف تتصرف الحكومات ، وكيف تلعب الخلفيات أدوارها فى تقرير الواقع الذى تنبنى عليه أخطر الأمور .

ذاق أحمد زكى النار ، ولفحته العواصف ، ولكنه تحمل وخرج من التجربة ، وقد صارت له من الحصانة والمناعة قوة لم تكن لتتأتى له بدونها .

خرج من التجربة وقد عرف أن ليس كل ما يقال صدقًا ، وأن ليس كل ما يسكت عنه لم يحدث عنه ، وأن للمواقف خلفيات غير معلنة ، ولافتات معلنة ، وما أبعد ما بين الاثنين .

خرج وقد عرف أن المعطيات التى تكون عند الكاتب السياسى قليلة ، وهذا لا يطعن فيه على أية حال من الأحوال .

على أنه لا يعنينا هنا من أمر الخبرة ، وهاتيك الممارسة إلا أنهما كانتا من العوامل التى جعلت كاتبنا ومفكرنا ذا فكر متميز فى السياسة .

وليس من شك فى أنه من دون هذا العامل ، فقد توفرت لعالمنا من قبل العوامل الأساسية فى تكوين الكاتب السياسى ، ولكن إضافة هذا العامل إليها قد أتاح لنا من أحمد زكى كاتبًا سياسيًا من نوع خاص .

أى نوع خاص من الكتاب السياسيين كان أحمد زكى ؟ هذا هو السؤال ، وهذه هى الإجابة على طريقة الوصف بالخصائص :

- ☐ **بلا هوى :** لا هو إلى اليمين ولا إلى الشمال ، ولا إلى القديم ولا إلى الجديد ، ولا إلى الملكية ولا إلى الجمهورية ، ولا إلى الديمقراطية ولا إلى الدكتاتورية .

- ☐ **النظرة طويلة المدى :** التى لا تعنى بتحقيق المنفعة العاجلة أو الضجيج الصاخب مع تقديره لفوائدهما ، بقدر ما تعنى بوضع الأساس الصحيح ، وإنضاج البيئة الخيرة ، والعمل للمدى البعيد ، والتخطيط للمستقبل الأفضل .

□ **التعقل** : بحيث لا تدفعه العواطف نحو موقف معين ، مهما كان سمو هذه العواطف .

□ **الأخلاق السياسية** : وقد كان صاحبنا من أشد المؤمنين بأن السياسة أخلاق قبل كل شيء ، كان أكثر الناس كرها للميكافيلية ، وله في هذه المقالات لا الفقرات فحسب .

□ **الفصل والتفريق** : بين وصف الواقع وتقرير ما هو حادث ، وبين الأماني والمبادئ والأهداف المبتغاة .

□ **النظرة الكلية** : إلى الحقيقة من جوانبها المختلفة .

□ **الاستفادة من التاريخ أقصى استفادة ممكنة** : والتاريخ هنا لا يقتصر على الماضي ، ولكنه يبحث في تاريخ التجارب الإنسانية المعاصرة تحت نفس الظروف .

□ **وضوح الرؤية** : ولا أظن أحدًا قرأ لعالمنا الجليل مقالا سياسيا ثم سأل عن الغاية التي يقصدها ، فهو لا يترك الجزئيات والنيات إلا بعد التوضيح التام .

□ **احترام الشئون الداخلية** : إذا ما تناول أمرًا من الأمور يخص دولة معينة .

□ **النظرة إلى السياسة على أنها عنصر من عناصر الحياة** : في جميع صورها الاقتصادية والاجتماعية و . . . إلخ ، تتأثر بجوانب هذه الحياة جميعها ، وتؤثر في جوانبها جميعا .

□ **الكلمة المناسبة في وقتها المناسب** : والنصيحة الغالية قبل وقت الاحتياج إليها لأن التبكير بالنصيحة هو وقتها المناسب .

بعد ذلك ننتقل إلى سؤال آخر حول طبيعة المقال السياسي عند أحمد زكي : هل كان قلمه قادرًا على متابعة الأحداث في مقال يومي ؟ أو في مقال أسبوعي ؟ أو أنه كان أنسب ما يكون لما كان له من مقال شهري ؟

وهو سؤال افتراضي ، لكنه يعطينا مؤشرًا مهمًّا عن مقال أحمد زكي ، وكتاباته السياسية . وليس من المجاملة أن نقول إنه كان قادرًا على الكتابة في السياسة كل يوم ، ولكن يبدو أنه كان لا يريد الكتابة في السياسة اليومية ، وإن استطاع أن يكتب فيها كل يوم .

بعبارة أخرى فقد كان عالمنا قادرًا على أن يكون له مقال يومي في السياسة أو في غير السياسة ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك لأن طبيعة كتابته في السياسة لم تكن كذلك ، فهو لم يكن صاحب حزب أو دعوة يحمل الناس عليها كل يوم ، ويفسر أو يبرر تصرفاتها يوما بعد يوم ، ولكنه كان صاحب الدعوات التي تعيش على الزمان ، وتبقى على الأيام .

على اليد الأخرى ، لابد أن نشير إلى ما أشار إليه أحمد زكى فى عبارة عارضة فى مقال (٨/ ١٩٥٩) بالعربى وقد مضى على صدور عددها الأول تسعة أشهر من قوله : إن من سوء حظنا نحن الشهريين أننا نكتب فى الأحداث بعدما وقعت . ويبدو أننا فى حاجة أن نقول إنه لم يكن سوء حظ أحمد زكى ولكنه كان حسن حظ للقراء .

□

كان أحمد زكى يدعو و يكتب فى الدعوة إلى السلام العالمى والوحدة العربية الإسلامية والتقدم الوطنى ، وليس هناك فى كتاباته هدف أعظم قدرًا من هذه الأهداف الثلاثة فى تلك المجالات الثلاثة .

ولكن هذا لا ينفى أن الرجل كانت له أفكاره السياسية المستنيرة التى لم تكن تمثل مواقفه السياسية بقدر ما كانت تمثل مواقفه الفكرية ، والتى لم تكن تمثل أمنياته بقدر ما عبرت عن تفكيره ورؤيته ، وهذه الآراء هى آراؤه فى الحرية وفى المساواة ، فى الديمقراطية والزعامة ، فى الحروب والقوة ، فى الوطنية والقوميات ، وفى التمييز العنصرى ، وفى السياسة الدولية ، والسياسة الأمريكية ، فى هيئة الأم م ، وفى الثورات والتغيرات السياسية .

وقد وردت هذه الآراء متفرقة فى السطور التى تركها لنا أحمد زكى فى عدد كبير من أعداد المجلات المختلفة . ولكنها بالطبع لم تكن متفرقة ولا متناثرة فى عقله الكبير ، إنما جاءت إلى الحياة كما يجىء كل شىء إلى الحياة الدنيا بلا نظام ظاهر ، وبنظام أدق وأخفى حكم به الناموس فى اللوح المحفوظ .

وهذا الفصل يعرض لنا بطريقة منظمة (نظامًا ظاهرًا) بعض الأفكار السياسية للرجل بعدما استخلصها المؤلف من قرابة مائتى مقال للقلم الكبير ، وحين نقول « مائتى مقال » نأخذ بالأحوط ، وهو الأقل .

على أنه لابد من باب الإمتاع أن نعطى الفرصة للقارئ ليقرأ لأحمد زكى نفسه وجهة النظر فى تبرير كثرة كتاباته فى السياسة وهو الرأى الذى أبداه فى مطلع حديثه « اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث وغدر » (مجلة العربى : ٥/ ١٩٧٤ حين يقول : « أعود إلى الكتابة فلا أجد بابا كالسياسة يغرى الكاتب بالدخول فيه ، ذلك لأن السياسة هى اليوم أمسّ

شيء بحياة العرب وأكثر الأمور ارتباطا بمصائرهم، وكثيرًا ما هبت رياحها عاصفة تنذر باقتلاعهم من الأرض اقتلاعًا ثم هدأت ثورة الريح فأفسحت الأمل ببقاء ليس هو خير بقاء » .

القوة أساس العلاقات الدولية :

فإذا ما تناولنا وجهات نظر عالمنا فى السياسة الدولية فسوف ندرك قدرته على النفاذ إلى أعماق الأمور عندما يقرر فى صراحة ووضوح ومنذ مرحلة مبكرة أن القوة هى الحكم والفيصل فى علاقات الدول بعضها وبعض . وهو لا يكتب فى هذا من باب تقرير الواقع فحسب، وإنما حثا للعرب على الاجتهاد فى هذا المضمار بتقوية النفس بدلاً من الاعتماد على العواطف والكلمات المعسولة والوعود ! !

يكتب أحمد زكى مقالا مطولاً فى هذا المعنى، (مجلة العربى : ٧/ ١٩٦٩) ويجعل عنوانه «القوة . . القوة . سياسة الأمم لا تعرف غير القوة » ويأخذ فى الإسهاب فى الحث على المعانى التى يلخصها قوله : « سياسة الأمم لا تعرف غير القوة ، والقوة عندهم فوق القانون . والذين يحتمون بالمعانى الإنسانية ، قوم مستضعفون . وإنسان هذه الأرض إما آكل ، وإما مأكول » .

« والعرب تساورهم الذئاب من كل جانب فهل هم مستيقظون ؟ فلينج العرب بأنفسهم بطلب القوة لا ليأكلوا الناس ، ولكن لكيلا يأكلهم الناس ، فحيثما نظرت الآن وجدت حول العرب تحفزًا وتوثبا » .

ويفرق أحمد زكى بين طبيعة السياسات التى تكون بين الأفراد ، وبين تلك التى بين الدول بعضها وبعض ، ويسهب فى تفصيل هذا الفرق فى أكثر من موضع ، ولكننا نقتبس هنا قوله فى مقاله « من أين وإلى أين يارجال العرب » الذى نشره فى (مجلة العربى : ٤/ ١٩٧٣) حين بلغت قضية فلسطين حالة من اليأس عبر عنها مصطلح حالة اللاحرب واللاسلم : « إن معانى الحضارة، وكل تلك القيم التى تضم مفاهيم العدالة والمساواة والحق والديمقراطية وأشباهها يجدها الإنسان بين الأفراد وبين الطبقات فى الأمة المتحضرة الواحدة ، أما بين الأمم فليس هناك إلا قانون الغاب : آكل ومأكول ، والغلبة للأقوى ، ومن شك فى هذا فليقرأ ما وقع فى فيتنام ، قصف ضحيته الملايين دام سنين وخراب ذهب بالزرع والضرع إلى حين طويل » .

حتى إذا كانت حرب أكتوبر ، وكان النصر الرائع، واتضح للناس صدق كلام العالم والمفكر،

خشى أحمد زكى أن يستكين العرب إلى ما أحرزوه من نصر ، فأخذ يكتب داعيا إلى مواصلة السعى فى تقوية النفس يوما بعد يوم بكل الوسائل ، ويفيض أحمد زكى فى هذا المعنى فى مقاله الافتتاحى (مجلة العربى : ٨/ ١٩٧٤) الذى جعل عنوانه « هيئة الأمم المتحدة . تركت الكرة فى الميدان وجلست تشهد اللعب مع اللاعبين » . وهو يروى فى هذا المقال وقائع فض الاشتباك ، وما يتوقع للأزمة بعد هذه المرحلة ، ويخلص من هذا إلى القول : « ويجرى كل هذا مصداقًا لأن الذى يجرى سياسة هذا العالم ، ويحرك سياسته ليس هو العقل ، وليس هو العدل ، وليس هو الإيمان بالمساواة ، ولكنها السيادة فى ميدان الحرب ، والسيادة فى ميدان الاقتصاد ، وما يتبعها من ميادين للعلم والتقنية » .

ومن نفس المنطلق كان فهم عالمنا لطبيعة الحروب ، بل ولضرورتها فى بعض الأحيان وهو يتحدث عن هذه العلاقة بين الحرب والقوة فى لغة العالم المدقق الذى يسجل الظواهر الطبيعية ويرصدها ، فيقول فى حديث الشهر (مجلة العربى : ٦/ ١٩٧٣) وعنوانه « منطق الحوار ومنطق القوة» :

☐ « فالقوة والحرب يكملان المنطق ، فى سنن هذا الكون ، وكثيرًا ما تكون القوة وتكون الحرب أقوى حجة من المنطق ، ولا يحتقرن أحد القوة ، فهى بعض سنن هذا الكون . إن المنطق إذا لم يحل مشاكل الناس فلابد من شىء يحله ، ولهذا دخلت القوة نظاما من نظم الحياة » .

☐ « ما القوة إلا وسيلة وهى تكون وسيلة للخير ، كما تكون وسيلة للشر، وهى على كل حال فوق الضعف وفوق المذلة مكانا ، والله موسوم بالقوة وبالخير وبالجبروت » .

☐ « إنه المنطق أولا، فلما لم ينفع ، أكملته القوة ، والقوة منطق أفضل ، وسمى الإنسان هذه القوة التى تأتى بعد المنطق ، منطق القوة سخرية بها ، ولم تؤثر هذه التسمية الساخرة فى القوة فهى قد ظلت الوسيلة الفعالة التى تحسم الخصومات فى عالم الإنسان وكذلك فى عالم الحيوان» .

☐

ومن المهم أن نذكر أن أحمد زكى كان يؤمن بأن الحروب ستبقى ما بقيت البشرية ، هكذا كان اعتقاده ، أو كان على الأقل قريبًا من هذا . ألا ترى إلى قوله فى حديث الشهر « حرب أم سلام » (العربى : ١٠/ ١٩٦١) : « والعقيدة بأن الحرب لا تكون لأنه لن يكون هناك مجنون يبدؤها ، سلبية لا نرضاها ، والاحتماء باليأس لأن أزمة الأمور فى أيد غير أيدينا سلبية كذلك لا نرضاها » .

مع هذا فقد كان الدكتور زكى ينبه إلى خطورة الحرب واستنزافاتها ، ومع هذين كان يلقى

الضوء على ناحية الضرورة والتورط فى الحروب . وفى مقاله (مجلة العربى : ٣/ ١٩٦٦) يشير إلى ما حدث فى فيتنام من التورط الأمريكى ، ثم يقرر درسًا مهمًا ، فيقول : إن « داخل الحرب يدخلها فى الوقت الذى يشاؤه هو ، أما خروجه منها فأمر لا يتعلق بمشيئته هو وحده أبدًا . . إنما يتعلق بالأحداث التى تتمخض عنها الأيام ، وبالعقد التى تعقدها ، فالحرب إن حلت عقدة ، ربطت لكل عقدة عقدتين وثلاثًا » .

ويركز أحمد زكى رأيه هذا فى قوله : « إن الحروب ورطة ، وقد لا تكون ورطة الضعيف ، قد تكون ورطة القوى كما حدث من أمريكا فى فيتنام » .

ومن نفس المنطق منطق تقدير قيمة القوة ، وقوة القوة ، كان الموقف الذى اتخذه أحمد زكى حين قال فى مرحلة مبكرة ومن قبل أن يصرح أى سياسى أو رئيس بهذا : إن أوراق اللعبة كلها فى يد الولايات المتحدة الأمريكية . وفى الحق فقد كان أحمد زكى فى رأيه هذا أصدق الكتّاب العرب مع أنفسهم على الرغم من أنه كانت فى نفسه مرارات - لا مرارة - من الولايات المتحدة . واقرأ له معى من مقاله « لا صلح بين الزعماء إذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب أعصى » (مجلة العربى : ٦/ ١٩٧٥) إذ يقول :

□ «إن زمام الأمر كله فى يد دولة واحدة ، هى الولايات المتحدة كرهناها دولة أو أحببناها ، والسياسة ليس فيها ما نحب وما نكره » .

□ « إن القوة فى الدنيا هى الشىء الذى له فى هذه الأيام السيادة ، فلا العلم ، ولا الدين ولا الفلسفة ، ولا محاسن الأخلاق لها عند أمم الأرض الآن وزن . والقوة لها عجرفة تخفى عند الأمم ما قد يكون بها من مكارم الأخلاق » .

□ « والولايات المتحدة ، بقوتها الحاضرة ، هى سيدة الأرض . روسيا لا تطاولها ولا تجرؤ أن تخاصمها فى شىء إلى النهاية لأن فى ذلك هلاك الجميع وأوربا لم تزل إلى الآن فى تخبط . وقد غزاها الاقتصاد الأمريكى والدولار بها غزا . فهى ستظل إلى حين بعيد تتبع » .

□ « والخصومة بين العرب والصهاينة لا يحلها إلا الولايات المتحدة ، إذا هى شاءت ، وتعينها روسيا على ذلك بالكثير من الترفق على أن يكون لها على مسرح الأحداث نصيب بارز» .

ومن المدهش أيضا أن الدكتور زكى رحمه الله لم يكن من أنصار الرأى القائل بقيمة دور الأمم المتحدة ، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن الأمم المتحدة ليس لها من القوة ما يمكنها من تنفيذ قراراتها ، وهى الحقيقة الناصعة التى أدركها رجل الشارع بفطرته ، ولكنها استعصت على كثير من المشتغلين بالسياسة ، ويبدو أن المعاصرة كانت لهم بمثابة الحجاب الكثيف .

يتحدث الدكتور زكى فى مقاله (مجلة العربى : ٩/ ١٩٧٢) عن النظام الحزبى فى الولايات المتحدة تحت عنوان « حزبان ولكن » ثم يستطرد إلى المعنى الذى نتحدث فيه هنا بعبارات رائعة البيان والتعبير فيقول : « إن هيئة الأمم المتحدة كالرجل الناسك إلتقى العابد ، عليه الدعاء الكثير ، أما استجابة الدعاء فتأتى من خلفاء الله فى الأرض ، وهم خلفاء الله بما لهم من قوة ، وهم خلفاؤه بما لهم من علم ، وبما أقاموا من حضارة ذات وجوه شتى ، وفيها الوجه القبيح » . يقصد الدكتور زكى بهؤلاء الخلفاء الولايات المتحدة الأمريكية .

ويؤكد الدكتور زكى ما يقرره فى وضوح أن هيئة الأمم هى اليوم الولايات المتحدة الأمريكية ، ويضرب على رأيه مثلا بما حدث فى أمر عضوية الصين الشعبية فى الأمم المتحدة ، وكان المثل يومها حاضرًا فى أذهان القراء جميعًا .

□

ومع أن أحمد زكى ، كان مغرما بشرح طبيعة النظم الديمقراطية فى الولايات المتحدة فى أكثر من حديث ، وبخاصة مقاله (مجلة العربى : ٩/ ١٩٧٢) إلا أنه مع هذا كان حريصا على أن يصارح العرب بأن الأمر فى السياسة الأمريكية لا يتوقف أبدًا على تغيير الرئيس ، وانتخاب آخر محله ، وإنما هى سياسة ثابتة ، وقد عبر عن هذا حين انتشرت فى الشارع السياسى العربى موجة التفاؤل بمجيء نكسون بعد جونسون ، فقال أحمد زكى فى مقاله (مجلة العربى : ٤/ ١٩٦٩) : « لا هذا ولا ذاك أرادا أو يريدان ، وإنما هى الإدارات التى وراء رئيس الدولة والمصالح العملاقة التى إليها يسند هذا الكيان الجبار الذى أسميناه الولايات المتحدة هى التى أرادت » . ويستطرد على نفس الخط ليقول : «فالأمل الذى يربطه العرب برئيس الولايات الجديد يجب أن يصحبه إدراك لمقدار الحركة التى يستطيع أن يتحركها هذا الرئيس فى مقعده ، وهو يدير آلة الولايات المتحدة العارمة » .

هكـذا كان فهم أحمد زكى للعـامل الأول الـذى يحكم السياسـة الـدولية ، فماذا عن العـوامل الأخـرى التى تحكم هـذه السيـاسـة ؟ هـذا هو مـا يتبين لنـا فى رأى أحمد زكى فى تحليلـه لقضيـة العلاقـات الصينية الأمـريكية (وهـو الرأى الذى سيقـودنا إلى الجزئيـة الثانيـة فى هذا الفصل : القوميات والوطنيات) .

□

الصين أخطر على أمريكا من روسيا

كان الدكتور زكى يعتقـد ويجاهر أن أكثر شىء عكر صفو الأمريكـان هو دخول الصين نادى الذرة ، وكان يقول : « إن أمريكـا تتخيل الصين أخطر عليها من الروس مرات كثيرة ، وذلك لأن أمريكـا والروس تربط بينهما ثقافـة الغرب المدنية وثقـافته الدينية ، ودعك من القـول إن البلشفة ذهبت بالـدين ، فللدين فى الأنفس حتى وهى لا تعى ، آثار لا تمحـوها السنون هكـذا سريعا ، والـروس بيض ، والأمـريكـان بيض ، والصين صفـر ، وفلسفـة هـؤلاء فى الحيـاة نقيض فلسفـة أولئك ، ودع ما جاءت بـه الشيوعية من فلسفة لا تتعمق فى النفس إلى أكثر ممـا يتعمق إليه الطعام والشراب » وإذا أردت أن تستـزيد من آرائه فى هـذا الموضوع فـارجع إليهـا فى موضعهـا من مقالـه «الحرب الفيتنامية توشك أن تتحول إلى حرب ذرية » (العربى : ٣/ ١٩٦٦) .

على أنه لا ينبغى لنـا أن نترك هذه النقاط من دون أن نشير إلى النواحى الإيجابيـة التى كان أحمد زكى يقدرها فى « الأمم المتحـدة » ومنظماتها . وقد كان من رأيه أنها لا تفتقد القوة الإعـلامية الهائلة التى لها (العـربى :٨/ ١٩٧٤) . ويضرب أستاذنـا الـدكتـور زكى على ذلك مثلاً بما حـدث فى مسألة البرتغال، وحرب عام ١٩٥٦ ، ومؤتمر الشمال والجنوب الـذى دعا إليه الرئيس بومدين عام ١٩٧٤ . . كما يشير أحمد زكى بالفخر إلى نشاط المؤسسات الدوليـة التابعة للأمم المتحدة، ويقرر أن الذى حمى هذه المؤسسات من سوء المصير أشياء كثيرة، من أهمها خلوها من الساسة المحترفين وأن الكثرة التى هيمنت على مناشطها من رجال اتصلوا بالعلم نشأة ومهنة وطيب مزاج .

□

آن لنا بعد هذا أن ننتقل إلى الجزئية الثانية من هذا الفصل ، وهى إشكالية القوميات ، والألوان والثقافات . . . إلخ) التى وردت فى فقرة أحمد زكى التى قرأناها لتونا عن الصين وأمريكا وقد بدت غريبة بعض الشىء على المفاهيم الحاضرة فى أذهان الناس حين كتب أحمد زكى مقاله منذ أكثر من ثلاثين عاما . . ولهذا فسوف نمضى على نسق معين من الترتيب الزمنى الذى أظنه يساعدنا على الإلمام برأى الدكتور زكى .

□ كان أحمد زكى يعتقد أن للقومية ركائز خمسًا ، وقد فصل القول فى هذه المسألة فى حديث الشهر (مجلة العربى : ١١/ ١٩٦٦) « دنيا البيض ودنيا الصفر والسمر والسود » فقال ما ملخصه إنه يرى أن للقوميات ركائز خمسا :

« الركيزة العنصرية»

« والركيزة اللغوية»

« والركيزة الثقافية»

« والركيزة التاريخية»

« والركيزة المصلحية

ثم يضيف إليها الركيزة الجلدية ، **« قومية اللون الذى شاء ربك أن يصبغ بها وجوه الناس»** .

□ **أما الركيزة العنصرية فهى التى أساسها وشائج القربى ، وتتمثل أكثر ما تتمثل فى القبائل ، ولكنها كذلك تتمثل فى القبيل من الناس ، يسكنون البقعة الواحدة من الأرض ، ويجرون فى الحياة على أسلوب واحد ، وعلى الرغم من أنهم من أعراق بدأت فى الزمن مختلفة إلا أنهم بتزاوجهم مزجوا بين الدماء المختلفة »** .

□ **ثم الركيزة اللغوية** ، تسندها **الركيزة الثقافية** ، ولكن اللغة قد تتوحد ، وتتفارق الثقافات ، وإذن يمتنع العيش الواحد ، ويصعب التقارب ، ويظهر هذا باختلاف أحقاب الزمان ، وكذا فى الدولة الواحدة قد نجد دولة ذات قومية واحدة ، على الأقل لأن لها لغة واحدة وتبحث فى شئونها فتجد أنها تتألف من طبقات ذات ثقافات مختلفات متفاوتات ، بعضها فى الحضيض وبعضها فى السماء العلا ؛ دولة كهذه كيف يمكن أن تؤلف فى حسبان علماء الاجتماع قومية واحدة مهما أكد القانون والساسة ذلك ؟! «إن قالوا دولة واحدة فنعم ، وإن قالوا أمة واحدة فلا » .

□ ويعرف أحمد زكى **الركيزة التاريخية** بأنها الركيـزة التى تجمع بين قبيلين من النـاس كان لهما فى التاريخ تناصر وتآخ ، ومن أمثلتها الركيزة الدينية إن جاز هذا التعبير .

□ **أما الركيزة المصلحية** فيعنى بها أحمد زكى ما هـو حاصل فعلاً فى سويسرا وبلجيكـا وكندا ، وواضح أن هذه الركيـزة جاءت توفيقًا من أحمد زكى للحياة مع القواعـد النظرية التى شرح بها مسألة القوميات .

والسر فى هذا ليس أن المصلحـة ركيزة تقوم عليها قـومية ، وهذا ما لا أظن أحـدًا يخالف فيه ، ولكن الذى حـدث أن تقسيمًا معينا هـو فى الغالب خـاضع للظروف الجغـرافية وسيـاسة مـا بعد الحرب ، قد اقتضى نشأة قوميات جديدة ، ستتدعم لها من الركائز التى ذكرها أحمد زكى ما يجعلها مع الزمن فى مصاف القوميات القديمة .

وقـد كانت كثير من القـوميات التى نعـدها اليـوم قديمـة على هذا النحـو، على أنى لا أود أن أسترسل فى هذا الأمر أكثـر من ذلك حتى لا يكون بابنا تعبيرًا عن فكرنـا ، ونحن نريده تعبيرًا عن فكر الدكتور أحمد زكى .

□ **أما الركيزة الجلدية** ، فهى عند أحمد زكى قد قسمت الدنيا إلى أربعة ألوان : الأبيض والأسمر والأسود والأصفر ، « ولن تجد شيئًا فرق بين أهل الأرض كلون جلود » .

□

وينتقل أحمد زكى ليبنى على نظـريته فى القـوميـات فيقول : « بعـد تصنيف ركـائز القوميـة إلى أصناف خمسة يصبح مقـدار ما بأمة بالمعنى السياسى من قـومية تدعم الوحدة أمـرًا أيسر تقديرًا » لأنه مجموع ما بها من هذه الركائز الخمس ، هو ليس مجموعها بل هو حاصلها ، والمحصلة على ما يـدرس طلاب الثـانـوى هى قـوة واحدة تلخـص عمل قوى كثيرة تعمل فى جسـم واحد ، وقـد اختلفت مقدارًا ، واختلفت اتجاها ، وحاصل هذه القـوى قوة واحدة ذات مقدار واحد ، وذات اتجاه واحد وتعرف بالمحصلة .

□ ويخلص أحمد زكى إلى القول بأن القومية اليوم هى « حاصل صنوف الركائز التى توجد فى بلد ما أو بلدان ، وهى التى تقضى بالوحـدة تكون أو لا تكون . وعلى أى درجة من القوة هى كائنة وفى أى اتجاه تتجه .

□ ويستعرض أحمد زكى الجانب الآخر من مسألة القـوميات ، وهو المتعلق بالصراع بينها ، أو

التكامل ، التوافق أو التنافر، فيقول فى موضع آخر مناديا بتقارب الثقافات بالنهوض بالثقافات المختلفة إلى المستوى الأرفع :

« هذه هى الدنيا اليوم وقد تقسمت وسوف تزيدها الأيام تقسمًا » .

« ولا ينجيها من وبال ذلك إلا أن تتقارب الثقافات ، وتتشكل المدنيات ، فالفرقة القائمة اليوم ، إن يكن ظاهرها اختلاف لون ، فهى فى الصميم اختلاف علم وفهم ، واختلاف غنى وفقر ، واختلاف قوة وضعف ودرجات على سلم المدنية خطت بعض الأمم منها درجات كثيرًا ، وخطت الأخرى درجات قليلاً » .

« وسوف يظل سلام أهل هذا الكوكب محفوفا بالمخاطر حتى تتقارب حظوظ الناس من إنسانية ، وتهدف إلى غايات أراها إلهية سجلتها الطبيعة تسجيلاً فى خلايا تتوارثها ، بخيرها وشرها ، على الأزمان ، والأرحام » .

□

أزمة الملونين

وقد كان من الطبيعى أن يتناول قلم أحمد زكى مسألة أزمة الملونين التى سيطرت على الحياة الفكرية فى العالم المتحضر فى الفترة الزمنية التى كان أحمد زكى يمارس فيها الكتابة السياسية ، وقد رأينا أن نلخص هنا رأيه فيما يتعلق بهذه القضية وبخاصة بعدما استعرضنا تقسيمه للقوميات ، وإدخاله للركيزة الجلدية فى عداد الركائز التى أقام عليها القوميات .

و ينظر أحمد زكى أيضًا إلى هذه القضية نظرة العالم الطبيعى إلى الظواهر الكونية ، فيقول فى صراحة : « إن المسألة فى الملونين والقوميات ليست مسألة أخلاقية أو إنسانية أو غير ذلك . إنه حكم الطبع وكفى» .

وفى مقاله « أزمة الملونين» (العربى : ٦/ ١٩٦٨) يبدى رأيه فى تشخيص الأزمة فيقول : «إن أزمة اللون يردها الناس فى أمريكا وغيرها إلى اللون لأنه الشىء الحاضر الذى يملأ العين ، ولكن عندى ، وأكرر هذا وأؤكد أن مردها الأكبر والأكثر والأفضل إلى اللغة و إلى التعليم و إلى مستوى المعيشة « وعلاج هذا تيسر الرزق للبيض والسود على السواء» و إلى التقليد الذى لا يكون واحدًا ،

وإلى العادة التى لا تكون واحدة فى طعام أو شراب أو سير أو حب أو كراهية ، **أو اتصال** بحوادث الأيام ، وما يصيب الوطن الواحد من خير ومن شر ، عندئذ ، وعندئذ **فقط** ، **أى عندما** يستوى الناس فى هذه الأمور ، يصبح اللون قليل الخطر موضوعًا .

ويصل أحمد إلى وصف العلاج ، فيقول : « والحل الوحيد لصلاح الحال لابد أن ينبع **من** النازحين أنفسهم ، يكون منهم الإصلاح والنصح والهداية ، والقسر والقسوة إن كان فيها **تعمل** القلة ما يسىء إلى سائر النازحين ، تلك الكثرة الكبرى التى إنما طلبت الرزق الحلال فى **غير** أوطانها لما ضاقت بها الأوطان» .

□

مفهوم الوطنية

هذا عن القوميات فماذا عن الوطنية ؟ وهى الجزئية الثالثة فى آراء أحمد زكى فى هذا الفصل .

لم يكن أحمد زكى من الذين يتحدثون كثيرا عن أهمية الوطنية لأنه كان فيما يبدو من كتاباته لا يعول عليها كثيرًا إذا لم تكن الدولة أو الحكومة أو القيادة قد أعطتها حقها من الطرف الآخر، كذلك فقد كان يؤمن أن الوطنية الحقة لا تتحقق بالشعارات ولا الهتاف ولا السوق سوق الأغنام ، وفى هذا المعنى يقول عالمنا فى المقال الذى نشر بعد وفاته « أمنية » (العربى : ٢/ ١٩٧٦) :

« **إنه لا يربطك بأرضك** ، **وبحب بلدك** ، وبالسهر عليه ، وبالدفع عنه ، كأن يكون لك فيه نصيب ، وإن تساوت الأنصبة كان هذا كل المنى » .

ويكتب أحمد زكى فى « حب الأوطان » مقالا ممتعا (الهلال : ٢/ ١٩٤٨) ويعيد نشره فى كتابه «ساعات السحر» يقرر فيه أن : « حب الوطن ككل حب ، لا يحس به صاحبه حتى يمتنع ، وتمتنع أسبابه ، وتجف منابعه وتنحبس أفاويقه ، كالثدى لا يفتقده الطفل كافتقاده عن فطام » . ويدعم هذا القول بما يروى من قصة الأعرابى الذى سئل : « أى بنيك أحب إليك؟ » فقال : «الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يئوب » . والوطن أحب ما يكون عند الغائب حتى يعود .

وفى حديث الشهر « اشبتدى أزمة تنفرجى » (العـربى : ٢/ ١٩٦٩) يزيد الأمر تفصيلاً فيقول إن للوطن عـاطفة تنشأ مع تنشؤ الفتى والفتـاة فى مدارج الحياة ، فى قـرية أو مدينة أو عـاصمة . ويستعين على توضيح طبيعة حب الوطن بالاستشهاد بقول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبـات على ما قال برهانًا

ويردف بالقول : « إن الوطن الجديـر بالدفاع عنه هـو ذلك الوطن الذى تتـوزع فيه النكبة بين أبنائه بـالتساوى إن تكن نكبة ، أو تتـوزع النعمة إن تكن نعمـة ، نصيب كل من خسارة وكسب سواء » .

وحين يتحدث أحمد زكى عن الحرب الفيتنامية فى مقـاله (العربى : ٥/ ١٩٦٨) ويشيد بروح الفيتناميين فى القتال ، فإنه لا يفوته أن يشير إلى التفـافهم حول زعيمهم الشيوعى هوشى منه «على الرغم من شيوعيته» ، ويعلل الدكتور زكى هذا بأنهم رأوا فيه زعيمين ، زعيمًا عقائديا ، وزعيمًا محررا لـلأوطـان من الاستعمار، ولم يـرحبـوا كثيرًا بـزعـامتـه الأولى ، ورحبـوا كل الترحيـب بـزعـامتـه الثانية ، ويبدو لى أن الـدكتور زكى كان يقصد بمثل عبارته هذه أحـدًا آخر من العرب (لاحظ أنه كتب هذا المعنى فى عام ١٩٦٨) من باب «واسمعى ياجارة» .

□

الزعامة

آن لنا أن ننتقل من الأمور التى تتعلق بـالسياسات الدولية إلى الأمور التى تتعلق بـالسياسات الداخلية ، وستكون حلقة الانتقال هى الحديث عن آراء الرجل فى الزعامة والزعماء ، وهو موضوع حظى باهتمامه غير مرة ، فأفـرد له موضوعًا (الهلال : ٧/ ١٩٤٨) تحت عنوان « الـدنيا فى حاجة إلى زعيم » . كما كتب فى الإثنين مقالا بعنوان « للزعامات عـورات فاستروها » وهو ذاته فصل من فصول كتابـه «ساعات السحر » . وأفـرد للموضوع ذاته حديـث الشهر (العربى : ٩/ ١٩٦٩) وجعل عنوانه « الزعامة والزعماء : الزعامة بعض طبائع الأشياء »

هذا عدا ما جمعناه من آرائه فى هذا الموضوع فى مقالاته العديدة التى مس فيها موضوع الزعامة .

كان أحمد زكى يـؤمن أن الزعامـة ضرورة أو كما عبر هو فى عنوان مقالـه : «الدنيا فى حـاجة إلى زعيم» . وفى مقاله من بعـد عنوانه ، فهى عنده « بعض طبائع الأشيـاء » أو هى « شىء لابد كائن ما اجتمع معا نفر من الناس » .

ويفرق أحمد زكى فى مقـال مبكر (الهلال : ٧/ ١٩٤٨) بين نوعين من الـزعامة ، زعـامة أهل الفكر وزعامـة رجال الحكم ، ويعبر عن حاجة الدنيا إلى زعيم من النـوع الثانى « لأن الأزمة التى نحن فيهـا لا تمهل وهى تتطلب الحل الحاضر العـاجل » . ويستعـرض أحمد زكى زعماء العـالم الموجودين يومها فيقرر أن ليس فيهم طلبته .

ولكن مـا هى المواصفـات التى يطلبهـا دكتـورنـا فى الـزعيم ، نقـرأ لـه فى حـديث الشهـر (العربى : ٣/ ١٩٦٤) قوله :

« إن الزعيم النـابه ، الجديـر بالزعـامة ، هو هـذا الذى يدرك أنـه افتقد التـوفيق فى أول لحظة يختفى أالتوفيق فيهـا ، ولا يكبر عليه أن يمسك بلجام جواده ، ويعود أدراجـه فى وضح النهار ، يبحث عن التوفيق أين ذهب » .

« إنها المرونة السياسية التى افتقدها زعماء أمم فأودت بها وبهم » .

« و إنها المرونـة السياسيـة التى فطن لها زعماء أمم ، وارتفعوا بشجـاعتهم إلى مستوى التبعـات العليا ، فنجوا بأنفسهم ، وبأممهم ، وكسبوا مرضاة رب عظيم » .

وبعـد أن كتب أحمد زكى هـذه الأفكـار بخمس سنـوات فإنـه ينشر لنـا دراستـه عن رأيـه فى شخصية الزعامـة فى مقال قيم (العربى : ٩/ ١٩٦٩) وفيه يتقدم خطوة واسعـة نحو فهم حقيقة وطبيعة الزعامات فيقول : « إن شخصية الزعامة ليس فيها ما يوزن ، ولا ما يقاس ، وقد تقول من شروط الزعامة معرفة الرجال ، ومن شروطهـا درس ما يحيط بالرجال من أحوال ، ومن شروطها قلة الثقة بما تسمع وترى ، ومن شروطها القسوة ترادفها الرحمة . . إلخ . ويترك الدكتور زكى التحديد فى هذه المسألة التى لا تحتمل التحديد أو لا تحتاج إليه .

□

ولكن من قبل هذا وذاك كان الدكتور زكى واعيًا جدًا للفرق بين الرئاسة والزعامة حيث يقول فى مقال قديم (الهلال : ٧/ ١٩٤٨) : «الفرق بين الرئاسة والزعامة كبير، فكل رجل ذى كفاية معقولة يستطيع أن يترأس ، ولكن ليس كل رجل يستطيع أن يتزعم ، إن الزعامة إرادة قوية مفروضة بقوتها ، وهى فى قوتها لا تأتلف مع ضعف المشاورة القانونية ، وهى سريعة ، وهى فى سرعتها لا تأتلف مع بطء التروى » .

« والزعيم الديمقراطى يضيق بالديمقراطية إذا هو أنشب أظفاره فيها ونشبت أظفارها فيه» .

وينتبه أحمد زكى للعلاقة الغريبة بين الزعامة والقانون والديمقراطية ، وهو ينبهنا إلى ما انتبه إليه من غرابة طبيعة هذه العلاقة حيث **تنمو هذه العلاقة ، وتتدرج من رعاية الديمقراطية للزعامة إلى ذهاب الزعامة بالديمقراطية ،** يقول أحمد زكى : « إن الزعامة مبناها الثقة مع القانون ، أو الثقة على الرغم من القانون ، والناس لا تعطى ثقتها للزعيم القوى فحسب ، ولكن للزعيم ذى الفكرة القوية التى تخلب أفئدة الناس ، بما تتضمنه من رفع سوء قائم ، أو جلب نفع شامل ، ولاسيما من تخليص أمة من نكبة وقعت فيها ، وهذه الزعامة تبدأ عامة فى الأمم الديمقراطية على الديمقراطية ثم لا تلبث بطبعها أن تتجافى مع ما فى الديمقراطية من ميوعة ومع ما فى الرأسمالية من أنانية ، ومع ما فى نظم زعموها للحرية من بطلان وخداع فإذا بها دكتاتوريات يباركها الشعب» .

□

وكانت لأحمد زكى رؤية فى فهم طبيعة الزعامة وتدرجها على المستوى الشعبى من قاعدته إلى قمته ، إذ كان يعتقد أنه لابد أن تقوم زعامة الأمة على زعامات عديدة فى كل مجال من مجالات الحياة: زعامة البائعين . . والصانعين . . إلخ . وهو يعبر عن هذا بقوله : « زعامات فى الناس ألف من وضيعة ورفيعة وأرفع » . ويمضى الدكتور زكى فى تفصيل القول فى نظرته هذه على نحو ممتع لا تستطيع عباراتنا أن توجزه ، ولكنها تستطيع أن ترشد القارئ إلى موضعه فى مقال الزعامة .

وننتقل مع الدكتور أحمد زكى من الجانب النظرى للزعامة إلى الجانب التطبيقى ، فتواجهنا

مشكلة «عبادة الفرد». وقد ... ثنا في هذه المسألة حديثًا تحليليا رائعًا في الجزء الثانى من حديث الشهر (العربى : ٤ / ١٩٦٧) متخذًا من ماوتسى تونج فى الصين مثلاً .

وأقرأ اليوم ونحن فى عام (١٩٨١) مقالات تناقش ظاهرة ماوتسى تونج بعد رحيله بسنوات فلا أجدها تصل إلى المستوى الرفيع الذى وصل إليه مقال أحمد زكى فأترحم على الرجل .

وينبه أحمد زكى إلى أن الروس ليس لهم (اليوم) مع التبعة الجماعية ما كان لهم يوم تمثلت قواها فى فرد نحوه اتجه حبها ، وفيه انعقدت آمالها ، وإليه ارتفعت أيديها تطلب إليه من طيبات العيش والتقدم والتفوق على السلام أو على الحرب .

ويؤكد أحمد زكى أنه فى هذه القضية « لا يخذل ولا يناصر ، ولكنه يسجل حالا شهدها من صنوف الشر » .

ويرجع عالمنا السبب فى انتشار ظاهرة عبادة الفرد إلى حقيقة مهمة هى ميل الناس إلى الشىء المجسد دون الشىء المجرد . ويزيد هذه الجزئية توضيحا فيقول :

« إنك تحدثنى عن العدل وقيمة العدل ونفع العدل ، والضرورة الأخلاقية للعدل ، والضرورة الاجتماعية له ، ولكن أفعل فى نفسى وأبلغ أثرا من ذلك أن تحدثنى عن رجل عادل ما صنع وكيف صنع ، وكيف صرف أموره ، وحل عقدًا عقدها الظلم بين الناس ، وعقدتها الشراهة ، وعقدها حب السيطرة والغلبة » .

« وإنك تحدثنى عن الزهد والقنوت ، وأفعل من هذا فى نفسى أن تحدثنى عن حياة رجل زاهد قانت » .

« والفلسفة أسهل فهما عندما يتحدث بها أرسطو وأفلاطون ، ولقد ظل أرسطو نحو ثلاثين قرنا يسمى المعلم الأول ، حتى طرحته أوربا آخر الأمر وحرقت كتبه ، ومعها كتب ابن سينا وابن رشد . والعرب أعرف بابن سينا وابن رشد والفارابى من عرفانهم بفلسفته » .

« والسيد البدوى أحظى من الهيبة ، وأكثر حظا من دعاء الناس ، ودعاء الجماهير ممن هم فوقه علما وفوقه منزلة فى طبقات أهل الورع والتقوى من القديسين والصديقين . والجماهير هناك تتشفع به إلى الله ، وكان أولى بالتشفع عند الله من قد رقد تحت العتبة الخضراء فى مدينة النور، والسبب فى ذلك أن السيد البدوى واقع تحت أنظارهم ولو رفاتا فى مشهد بمسجد، فهو شىء متجسد ملموس محسوس وهو غير بعيد ، ووقع فى روعهم أن الله عنهم بعيد، وغفلوا عن أن الله أقرب إليهم من حبل الوريد، ونسوا قوله : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ . [البقرة : ١١٥]

وينهى أحمد زكى حديثه هذا بقوله : « فهل أنا أشجب عبادة الفرد ؟ بالطبع لا ، وكيف أشجب ما ظلت الإنسانية تعبده منذ كانت الإنسانية؟ ! » .

ألا ترى معى أنه ختام لبق يتفق مع رأى العالم الذى وصف الظاهرة وأصلها علميا ! ! ولكن أى وصف وأى تأصيل !

□

الديمقراطية

ولكن ماذا كان موقف أحمد زكى من الديمقراطية . قد يعجب القارئ إذا قلت له فى اختصار شديد إنه كان يراها أقل الوسائل ضررًا .

فأحمد زكى ينظر إلى الديمقراطية على أنها وسيلة ، وعلى أنها شكل . وعنده أن العبرة ليست بالشكل ، ولكن بالجوهر ، وأن الناس كثيرًا ما تتخذ الأشكال لتهتدى ، وقد تهتدى بالأشكال حينا ، ثم تتغير الظروف فيصبح الشكل قيدًا تتقيد به العقول والأفهام (من مقاله) « الحكم الصالح » (الهلال : ٦/ ١٩٤٩) .

ونستسمح القارئ فى دقيقة من وقته نقرأ له فيها نظرية الدكتور زكى فى الحكم الصالح حين يقول إنه يكون « برجال له صالحين ، يؤمنون بالله ويخافونه ، ويؤمنون بالناس ولا يخافونهم ، يصدعون بالحق فى غير جفوة ، ويبثون الحب والطمأنينة ويفتحون فى قلوبهم للخير بابا يدخل منه كل راغب فى الخير ، والناس عندهم سواسية قريبهم والبعيد ، غريبهم والنسيب ، يبذلون من أنفسهم أكثر مما يبذلون لها ، وتلك صفات الأشياء ، وعز حاكم أن يكون نبيا » .

« إن الحكم الصالح هو الذى يرضى الناس به بدءًا وانتهاء » .

ونعود بالقارئ إلى قضية الديمقراطية ، فنجد الدكتور زكى فى إحدى مقالاته (العربى : ١٢/ ١٩٧٠) يكتب تحت عنوان صريح « ديمقراطية مريضة » ,وهو مقال قيم من الناحيتين السياسية والاجتماعية . هذا فى جانبه النظرى ، أما فى جانبه العملى فهو أنسب ما يكون قراءة لكثير من شباب العرب والمسلمين اليوم وغدا . . ولهذا فنحن نلخص محتواه الفكرى فى النقاط التالية :

□□ « إن الديمقـراطية لا تزيـد رزقا ، وإنما عمل الفرد هـو الذى يزيـد رزق الفرد ، وعمل الجماعات يـزيد رزق الجماعـات ، ولا عمل إلا من بعد ثقـافة ، ولا ثقـافة إلا من بعـد تدريب ، والثقافة مشقة والتدريب أشق » .

هكذا يجزمّ أحمد زكى موجهًـا مَنْ يتنقلون من عهود استبدادية إلى عهود ديمقـراطية فيوحى لهم هذا الانتقال بأن الحيـاة ستكون أيسر ، وأن الرزق سيكون أوفر ، وأن مشقـات العيش سوف تزول من الطـريق . ويقـول الـدكتور أحمد زكـى معلقا على هـذا الفهم إن يكن فى فهم الـديمقـراطيـة أخطاء ، فهذا الفهم من أكبر أخطائها .

«فالديمقراطية إنما هى جـو ، وهى إنما تهيئ للعامل الجو الصالح ، ولكنها لا تنقص مما يجب على العامل أن يبذل لبلوغ غاية» .

□□ ويبدى أحمد زكى ضيقـه مما تقوم بـه بعض الحكومـات «الديمقراطيـة» من تثبيت هذا الرأى عند الشباب ، عندما يعتريها العطف عليهم ، فـلا يكادون يشكون ثقل مواد الدراسة حتى تعمـد إلى تخفيفها . . والهدف سيـاسى : ألا يتسم العهـد الديمقـراطى بكـراهية الشبـاب ولكن النتيجة تكون فى هبوط مستـوى التعليم ، فيهبط مستوى العلم والفن والتكنيك فى البلاد ، وتنزل البـلاد دون مرتبتهـا ، ولا تجد الأمة بعـد ذلك بين العلماء والفنيين من أهلها إلا العلم المستجـدى والفن الضئيل .

ويضرب أحمد زكى المثل على هـذه النقطـة بما يحدث فى الآداب « فـلا يكاد الشـاب يفـرغ من دراسة الثانوية حتى تراه يأخذ ينظم الشعر، ويحاول أن ينظم قصائده قصارها والطوال ، فإذا هى لم تنشر عدّ ذلك تثبيطا لهمم الشبـاب ، وهو لم يبلغ محصوله فى الشعر أكثر مما حصل من دراسته . وقـد كان الشـاعر القـديم وغير القديم يخشى الشعـر أن يقوله حتى يكون حفظ فيـه الآلاف من الأبيات واطلع على التواريخ والأحداث التى تفجرت بالشعر الرصين الخالد على السنين» .

ويمضى أحمد زكى ليقـول : « وفى سبيل الخطف والتسهيل ابتـدعـوا نـوعا من الشعـر سمـوه بالجديـد » . ويرى أحمد زكى أنه أحق بأن يسمى الـديمقراطى ، ويصفه فيقول : « لا تكـاد تكون فيه قافية أو وزن ، وليس فيه طعم إلا ما ندر ، وطعمـه إنما يكون لا بأنه شعر ، ولكن بأنه نثر » . ويقولون لك إن الـوزن قيد ، والقافية قيد ، والديمقراطيـة تأبى القيود . . وهكذا كما فى الأدب فى غير الأدب .

ويختم أحمد زكى الحديث فى هـذه النقطـة بقـولـه : « وهذا الـذى يخطف ، اعتقـادًا منـه بأن الديمقراطية جاءت للتيسير لا للتعسير ، إنما يجنى على قومه ، فقيرهم وغنيهم ، وعلى فقيرهم قبل غنيهم ، يفتح بابا للمرض إذا هو استشرى لا تسده العقاقير » .

□□ ويتساءل أحمد زكى « مَنْ قال إن حياة ما ، تكون بلا قيد على ظهر هذه الأرض »؟! «إن جاذبية الأرض ضربت مثلاً للإنسان أن من القيـود ما هو ضرورة لازمة للحياة » . « وأنت تستطيع أن تكون حرًّا فى حركتك أقصى الحرية وأنت على الأرض البسيطة ، ولكن مارس نفس هذه الحرية وأنت على حـافة جبل ، وانظـر مـا يكون منهـا . إنـه الهلاك المحقق » . « إنها القيود ، وكـدت أن أقول : ولكم فى القيود حياة يا أولى الألباب » .

ويشرح زكى طبيعة قيود الديمقراطية بقولـه : « والفرد حر أن يفعل بنفسه ما يشاء ، عن علم أو عن جهل ، وقد يكون فى بعض حريته هذه الدمار » . وتزيد القيود إذا اجتمع فرد بفرد ، وتزيد إذا اجتمع فرد بألف فرد ، إنه المجتمع ، ينزل فيـه كل عن قسم من حريته حتى لا تضيق بصاحبه ساحة هى أيضًا نصيبه من الحرية ، وهذه كلها معان ليس فيها جديد .

□□ وأحمد زكى مع القـول بأن الديمقـراطية فى حـاجة إلى المجتمع الـواعى المتربى المثقف . ذلك لأن علاقة الفرد بـالمجتمع وعلاقة المجتمع بالفرد وعلاقتهما جميعـا من حيث قيام الدولة ، قوية ذات نظام ، علاقات تجل عن فهم السواد فى الأمم التى لا تزال على فطرتها الوحشية الأولى .

□□ ومن عيوب الديمقـراطيات الناشئة الفهم الخاطئ لفكـرة المساواة ، وسنفصل القول فى هذه المسألة بعد حوالى ربع ساعة فى الجزئية الخاصة بالمساواة فى هذا الفصل .

□

ونعود مع أحمد زكـى إلى فترة سابقة (مجلـة الهلال : ٢/ ١٩٤٧) لنقرأ لـه تحت عنوان « عنـدنا دكتـاتـوريات مقنعـة » بعض الآراء الصريحة فى الـديمقـراطيـة والطبيعة البشريـة إذ يقـول : « إن الديمقراطية ليست من طبيعة البشر » لأنها تتعارض ومـا فى الناس من غرائز اقتضاها طلب الحياة على أرض فيها النجاح كفاح ، فالكفاح يتطلب القـوة ، والقوة تدعو إلى الأثرة ، و إلى الغلبة ، وما دام هنـاك غالب فـلا بد من مغلـوب ، وما دام هنـاك سيـد فلا بـد من مسود . ومن أضـاحيك الديمقراطية التى تسرى بين الناس ، أن نداء التخاطب لا يزال يحمل معنى السيادة : فالإنجليزى يقـول مستر ، والفرنسى يقـول مسيـو ، والألمانى هر ، والتليـانى سنيـور، ومعناهـا كلها سيـد ، والشرقى عند الخطـاب لا يتجه بـه إلى مَنْ يخاطب ، ولكن إلى المكان الـذى حل فيه تـرفعا عن أن

يمس الذات الكريمة بلفظة من لسانه، فهو لا يقول : أنت، ولكن : حضرتك ، ومن الحضرة ينتقل الكلام إلى الذات فرضا ».

وينبه أحمد زكى فى المقال القديم إلى أن الديمقراطية ليست بالأمر الهين يكتسب بسهولة ، وإنما هى جهاد طويل ، تعليم وتدريب وتمرين . ولعله حين كان ينبه إلى هذا كان يجيب فى فترة مبكرة عن المحاذير والتوقعات التى يتوقعها المفكرون من الأمة التى تجرب الديمقراطية فتفشل معها فى المرة الأولى فتتركها بلا عودة ، وهذا ما حدث فى كثير من الفترات فى الأمة العربية . انظر إلى أحمد زكى وهو يخترق حجب الزمن ويقول : « إن الديمقراطية كالمدنية تكتسب اصطناعًا، وهى تكتسب بالتعليم، والتدريب، والمران الطويل ، وهى لا تخلق فى يوم وليلة ، إنها تاج تتوج به المدنية فى أرقى مدارجها . والديمقراطية عمادها المساواة ، فإن لم تكن مساواة، فتقارب كالمساواة، والمساواة مساواة علم ، تنتهى غصبًا بمساواة مال . ومصر والشرق أبعد ما يكونان عن مساواة فى علم أو مال ، فالديمقراطية الصحيحة فيهما لا يمكن أن تكون حقا وصدقا ، ستظل ديمقراطيات الشرق ديكتاتوريات مقنعة حينا طويلاً ، يقود فيها صحيح البصيرة أعورها ، ويقود أعور البصيرة أعماها ، والأعمى والأعور لا يستطيعان فى الحياة إلا انقيادًا ».

عنده أن السر يكمن فى الوعى السياسى ، وهذا هو ما يؤكد عليه أحمد زكى فى مقالين كبيرين هما : «ذكرى الخامس من حزيران وما بعد الخامس من حزيران» (العربى : ٥/ ١٩٦٩) ، «الصفقات السياسية» (العربى : ٨/ ١٩٧٠)حيث يكرس كل هذه المعانى بكل ما أمكنه من وسائل التعبير .

ولعلنا فى حاجة إلى أن نكرر هنا قول أحمد زكى (الهلال : ١١/ ١٩٤٩) « إن العبرة ليست بالشكل ولكن بالجوهر ، فمن الدكتاتوريات دكتاتوريات حبيبة صالحة . . ومن الديمقراطيات ديمقراطيات كريهة ظالمة ، ووجدت دكتاتورية هى أقرب إلى الديمقراطيات بمعنى ذلك الأصل».

ولكن ما هو هذا الوعى السياسى؟ « إنه شىء عظيم ، ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية أو يقوم حكم سليم والناس لا وعى لهم ولا ثقافة فيهم إن شكوا الظلم ، وشكوا الإجحاف ، فالظلم أسبابه فيهم . . والإجحاف يبدأ حيث يبدأ الجهل ، ومع الجهل قلة الدراية والفطنة ».

□

ويزيد الدكتور زكى فكرة «الوعى السياسى» إيضاحا (العربى : ٥/ ١٩٦٧) فيقول ـ مشيرا من بعيد أو من قريب إلى أحوال بلاد عربية : « فمن ضياع الوعى فى الأمة :

- ألا تعى أنها أمة واحدة .
- الجهل فى شأن الدنيا والدين .
- خشية الرأى الحر، يخشاه الكاتب والحاكم .
- استمرارها فى تخلفها .
- ميلها إلى الخرافة وتصديق الخوارق من الأحداث .
- نجاح قوم فى السعى بالريبة حتى يصبحوا يرتابون فى كل ما يكسبهم القوة والعزة بين الأمم» .

ويلخص أحمد زكى فكرته فى هذا المقال فيما يقوله قرب نهايته : « ومن المشاكل التى تواجه الأمة العربية بعد حزيران : الحكم للشعب هو أم لغير شعب ؟ وكم لشعب ؟ وكم لغير شعب ؟ أم هو كله للشعب ؟ ونعلم أن الحكم كمحرك السيارة يتجه بها ألف اتجاه ، وقد يتجه بها إلى العطب عن عجز أو سوء قيادة » .

ومن ناحية أخرى فقد انتهز أحمد زكى فرصة حديثه عن رحلته فى لندن فى صيف عام ١٩٧١ لكى يطرح تصوراته التى يعلل بها ازدهار فكرة سيادة الديمقراطية عند هؤلاء القوم فيقول : «ويرجع هذا لا شك إلى أن هؤلاء الناس من خطيب فى الجمع ، وسامع ، أو كاتب نشئوا على معان للديمقراطية ألفوها كما ألفوا الهواء والماء ، ولكنه يرجع على الأكثر إلى الوعى السائد فى هذه الشعوب الذى كان من حصيلة الحرية وهو يرجع إلى اللاحرية التى اختفت منذ زمان ، وإلى ممارسة أحداث من الزمان كثيرة كان فيها الحلو وفيها المر وإلى الفوائد المكتسبة من خيرها الأيام سودها والبيض ، فما جاءت الديمقراطية مهداة فوق طبق من ذهب » .

بقيت نقطتان مهمتان فى موضوع الديمقراطية . . النقطة قبل الأخيرة هى اعتزاز عالمنا بالصورة الديمقراطية التى لاحظها فى ديمقراطية البادية العربية ، وهى ما عبر عنه فى حديث

الشهر (إبريل عام ١٩٦٧) حين كتب عما رآه من مشاركة أمير الكويت للشعب فى « رقصة العرضة » فى عيد الاستقلال إذ قال : « والديمقراطية قد يدعيها من الأمم من يدعى ، ولست أجد ديمقراطية فيها أصالة الطبع كديمقراطية العرب ، تلك التى يحلو لى أن أنسبها إلى أصولها الأولى ، فأسميها ديمقراطية البادية ، إن الذين يدعون الديمقراطية كثيرون ولكن ليس كديمقراطية نزل فيها النازل مع الناس ، يمتزج بهم فى أسواقهم ، ويشاركهم فى مفارحهم ومحازنهم ، وإذا حان وقت الطعام جلس معهم إلى قصاعهم » .

أما النقطة الثانية فهى أروع ختام لموضوع الديمقراطية وهى عبارة انتبه فيها أحمد زكى إلى خطورة بعض الجماهير على الديمقراطية حيث يقول : « إن الديمقراطية جميلة ، ولكن غير الجميل أن يكون الناس غير ديمقراطيين يدخلون الديمقراطية بمفاهيم غير ديمقراطية ، ومع هذا فدخولهم الديمقراطية حتى بهذه المفاهيم خير من ألا يدخلوا . إنها الديمقراطية المريضة ، ولكن الأمراض لا تدوم وما خلقت العقاقير إلا للدواء والشفاء » .

□

المساواة

قد أزعم أن فى أفكار الدكتور أحمد زكى عن المساواة أكبر متعة فكرية للذين يريدون الاستمتاع بأفكار هذا العالم الكاتب المفكر الأديب .

وأحب أيضا أن أشير إلى أن وضعنا للمساواة فى هذا الموضع بعد الحديث عن الديمقراطية وقبل الفصل الثانى الذى يتناول إن شاء الله مفهوم الحرية فى فكر أحمد زكى ليس وضعا عشوائيا وإنما هو متعلق أشد التعلق بطبيعة أفكار أحمد زكى فى مسألة المساواة .

فأحمد زكى على سبيل المثال عدو للمحسوبية ، ويطالب بالاستحقاقية بدلا طبيعيا عنها ، وهو يؤمن بالمساواة ولكنه يحدد ، فهو يؤمن بالمساواة فى الفرص ، لا فى توزيع النتاج .

ودعنا من ألفاظنا لننقل أفكار أحمد زكى فى هذا الشأن ، وقد خصص حديث الشهر (العربى : ١١/ ١٩٦٧) لهذا الموضوع وجعل عنوانه عنوانا على الأفكار التى ناقشها فيه : «المساواة؟ نعم . . ولكن فى أى شىء » ، وقد أسهب ، فى المقدمات التاريخية التى قدم بها

للموضوع ، مناقشًا قضية المساواة على امتداد التاريخ ، وأكد على الحقيقة التى قد تغيب عن الأذهان : « إن الناس ولدوا مختلفين لا متساوين » . ويتحدث عن المساواة فى القانون فيقول إنها يجب أن تكون فى القانون وأمام القانون : « والعدالة لا تكون فى الإجراء وحده ، ولكن على الأخص فيما تقضى به القوانين ، فالعدالة لا تبدأ عند القضاة فى المحاكم ، ولكن عند واضعى القوانين ، وما على القاضى إلا صحة التطبيق » .

ويتعرض عالمنا للمساواة السياسية فيسخر من فكرة أن تكون عند الانتخاب فقط ، ويؤكد أن العنصر الأول فى المساواة الاجتماعية هو المساواة فى الكرامة الإنسانية ، فكل ما خلق الله كريم ، ومنها ألا يكون قوم يقال لهم إنهم السادة وذلك لأن آباءهم كانوا سادة . . ويشير إلى أن الطبقية جاءتنا من الغرب بينما العرف العربى والدين العربى أعطيا للناس فى ميزان الكرامة الإنسانية أقساطا متساوية « فعمر ظل عمر ، وأبو بكر ظل أبا بكر ، ولم نسمع برفاعة بك وعلى باشا مبارك إلا فى القرون الحديثة القريبة ، ومع هذا ظلوا فلاحين يفترشون الأرض ويمصون أعواد القصب فى الحقل مع الأعيان من أهل القرية والأصحاب » .

أما عن مبدأ « **الاستحقاقية تهزم المحسوبية** » فيحدثنا عالمنا بقوله : « انهزام المحسوبية معناه انهزام الطبقية بمعناها القديم لا بمعناها الحديث ، أعنى بمعنى الاستقلال . إن مصالح الدولة الحديثة تعددت ، وواجباتها تكاثرت ، واختلفت وجوه الإنتاج التى تتولاها ، والخدمات عن إحصائها » .

« والمحسوبية تصنع الرجل غير الصالح حيث يفسد العمل به إنتاجًا كان أو خدمة عامة ، والرجل الصالح يؤخذ من القصر كما يؤخذ من الكوخ . من بيت الوزير ومن بيت الخفير » .

ويضرب لنا الدكتور أحمد زكى مثلاً يقرب به إلى الأذهان فهم رؤيته للمساواة ، فيقول : «إننا لا نستطيع إذا جمعنا بين الماء والزيت أن نمنع الزيت من أن يرتفع فوق الماء » .

وجوهر فلسفته فى فكرة المساواة أن الناس تبدأ عند خط سباق واحد ، ولكن لا ينتهى السباق الطويل على السنين إلا وقد اختلفت النتائج ، ومع هذا تقارب بين الخطوط يكون بالمنح التى تزيد فى التآخى ، وهى نوع من الشكر لله يبذله من ميزه على ما خصه به وحباه ، ولن ننسى أبدا أن نصيب الفرد منا من ذكاء وغباء هو أيضًا بعض حظوظ ميلاد .

ومن هذا المنطلق يعارض أحمد زكى بشدة فكرة « المساواة المطلقة » ، ومن المدهش أن وجهة نظره فى هذه القضية قد سجلتها كلماته الأخيرة فى مقاله « أمنية » الذى نشر بعد وفاته (العربى : ٢/ ١٩٧٦) حين يقول : «المساواة المطلقة إذا ، ما بدأناها ، ما دامت » .

«وحقوق الناس الظاهرة فى المساواة المطلقة ، سوف يعارضها حقوق أخرى ليست أقل ظهورًا ، تلك هى حقوق العمل ، والقدرة على العمل ، والذكاء فى العمل ، والعرق الصبيب الذى يتصبب من جبهته ومن إبطه عند العمل » .

« وهذا أمر لا خلاف فيه و إن اختلفت المذاهب » .

وتحظى هذه الفكرة بكثير من عناية أحمد زكى بتفْصيلاتها فى كثير من مقالاته ، ومن المواضع المهمة فى هذا الشأن فقراته التى تحدث بها عن الحقيقة التاسعة من الحقائق العشر التى اعتبرها سبب تخلف الشرق فى مقاله « حقائق عشر عن تخلف الشرق » وهو حديث الشهر (مجلة العربى : ١/ ١٩٧٣) حيث يقول :

« وأكثر الناس ، وأعنى المحرومين خاصة ، يطلب المساواة فى ثمرات الحياة ، وهو لا يحدد ، أو لا تتحدد فى ذهنه الحدود التى إليها يصل . إنه فقير ، فهو فى حاجة إلى مال ، وجاره غنى ، فعنده فضل من مال . أو هكذا هو يخال . وإذن فليقتسم » . ويعلق أحمد زكى بقوله : « هذا كلام قد يؤذن به أن يأتى من فرد فى ضيق ، وقد يكون قولا مرتضى فى حالة ما ، ولكنه كلام لا يؤذن به أن يأتى من رجل من رجال دولة مسئول ، والسبب فى ذلك عنده يوضح لنا نظرته العلمية الدقيقة والعميقة إلى المساواة : « فليس بهذه السهولة تعالج العلاقة ما بين الفقر والغنى ، فلو أن قوما فعلوا هذا يوما ، فى حى ، لتحول القوم وشيكا إلى قوم جياع عراة ، إن المجتمع الإنسانى أعمق من هذا وعلائقه ألف [علاقة]، إن اتضح لنا بعضها خفى علينا منها الأكثر ، وثروة الناس ليس ما يملكون ، وإنما ثروتهم ، ثروة الغد ، هى ما اختزنوا فى عقولهم من فن ، وفى أدمغتهم من مران ، وما هم قادرون على إنتاجه لو أن ثروة اليوم أطاح بها كلها حريق ماحق شامل و إلى جانب القدرة والموهبة العقلية الحوافز القلبية » .

« فالمجتمع الإنسانى لا يعالج هكذا بالسكين ، بهذه البساطة . إن الفقير العاجز له حق على الغنى القادر لا شك فى هذا ، ومن أول حقوقه أن يقيمه الغنى على رجليه فيعطيه القدرة على الكسب . . الصحة عند الولادة ، والطعام والكساء حتى يكبر وحق التعليم ، وحق الاحتراف أو الامتهان ليعمل ، وكل هذا بالمجان فى المجتمع القادر ، ثم ينزل فى المعترك يجاهد ويصارع . . المساواة بين الفقير وغير الفقير فنعم ، ولكنها مساواة فى فرص الحياة . ويدخل الكل ميدان العمل فيحتلون فيه بحكم الطبع وبحكم الذكاء والموهبة مراتب شتى ! ولن يكونوا أبدا كأسنان المشط ، كلها سواء » .

□

وهذا هو جوهـر معنى المساواة عند أحمد زكى : مساواة فى الفرص . وبعد هـذا فالموهبة تعمل عملها فى وضع الناس فى مراتبهم ودرجاتهم .

ولكنه لا يقف عند هـذا الحد فى فهمه للمساواة، ولكنه يـوجه النظر إلى أن عامـلاً ثانيا يأتى بعد هـذا : «ومع هذا فـالمجتمع الكريم ينظـر إلى حظوظ العـاملين، ويعلم أنه إلى جـانب المزايا الطيبة تعمل الأقدار فهو بالغرائب يقارن بين هذه الحظوظ » .

ومن المدهش أن أحمد زكى فى مقالـه السابق الإشارة إليه (مجلـة العربى : ١/ ١٩٧٣) قد أردف هـذه الحقيقة بحقيقـة أخرى لا تقل أهميـة عنهـا وهى الحقيقة العـاشرة التى حذر فى نهايتهـا من اللعب على أوتار التفرقـة بين طبقات الشعب المختلفة تحت أية دعوى، « إن الدولـة هى العاملون فيها ، وإن يكن للدولة معنى روحى فكل العاملين فيها هم أبناؤها . وأبناء الدولة الواحدة أخوة . لبسوا الأقمصة الزرقاء أو الأقمصة البيضاء . وكلهم لهم على الدولة السعة والرخاء ، توزعها بينهم سويـة من فضل ما يعملـون ، والذى يرفع من مـرتبة أزرق فـوق أبيض ، أو أبيض فوق أزرق إنما يدق فى كيان الدولة _ لاسيما المتخلفة _ الأسافين» .

ويبدو واضحًا أن أحمد زكى يـؤكد بهذه المعانى ما سبق أن تحدث عنه فى حـديث الشهر (مجلة العربى : ١٢/ ١٩٧٠) بعنوان « ديمقـراطية مريضة » حين هاجم مبدأ المسـاواة يطالب به بعض الذين يفهمون الـديمقراطية فهما خاطئًا فقال : « إن المساواة فى الفـرص لابد أن تفتح الأبواب لكل دارس، وكل طـالب ، وكل مجتهـد ، لا يعوق أحـدًا عن ذلك فقـر أو وضـاعة نسب أو فقـدان جاه» . وعبر فى عبارة أوضح فهما فقال : « الناس فى المداخل سـواسية، ولكنهم غير سواسية عند الخروج؛ لا فيما حصلوا ، ولا فيما وجب أن يرتزقوا . . نعم تتقارب الأرزاق ، ولكن لا تتسـاوى » .

ويضرب مثلاً « بـروسيا حين بـدأت بالمساواة فى الأجـر رغم اختلاف المحـاصيل التى حصلها العمال من دراسة ومن تدريب ثم تبين لها الخطأ الأكبر فى ذلك ، فما أسرع ما قضت بغير ذلك، لا يأخذ أحـد ما دون الكفاية ، وهـو الأجر الأدنى للعامل ، كـائنًا من كان . أما فـوق ذلك فيكون بمقدار الكفاية الفنية والتحصيل .

وكذلك المراتب لا بد فيها من التمييز : « ولكن هذا الفهم يعوز أهل الديمقراطيات الناشئة ، وهو قد يعوز العامل الصغير والعامل الكبير على السواء ، فتكون الطامة أكبر » .

□ « عندنا دكتاتوريات مقنعة » . . (الهلال : فبراير ١٩٤٧) .

□ « حب الأوطـــان » . . (الهلال : فبرايـــر ١٩٤٨) . (الفصل السـابع عشر من سـاعـات السحر) .

□ « الدنيا فى حاجة إلى زعيم » . . (الهلال : يوليو ١٩٤٨) .

□ «الحكم الصالح » . . (الهلال : نوفمبر ١٩٤٩) .

□ « حاجة الناس إلى الزعامة » . . (الهلال : ديسمبر ١٩٥١) .

□ « رابطة الثقافة أقوى من رابطة السياسة » (الهلال : ديسمبر ١٩٥٣) .

□ « السخف السياسى فى السياسة الدولية » (العربى : مارس ١٩٥٩) .

□ « التقى العاهلان » « وتنفس العالم الصعداء » (العربى : نوفمبر ١٩٥٩) .

□ « حرب أم سلام » (العربى : أكتوبر ١٩٦١) .

□ «الديمقراطية : حكم الناس بالناس » (العربى : فبراير ١٩٦٢) .

□ « كادت الحرب أن تندلع ولكن الله سلم » (العربى : فبراير ١٩٦٣) .

□ « الحقوق إنما تؤخذ فى هذه الدنيا غلابًا » (العربى : يناير ١٩٦٤) .

□ « الديمقراطية اتخذت منها دول الأرض ، زورا ، لقبا محببا إلى الناس » (العربى : يوليو ١٩٥٦) .

□ « الوحدة العربية ليست شعارًا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الأيام (العربى : مارس ١٩٦٦) .

□ « أصداء وأجواء . . الأحداث العربية أصداء لأحداث الدنيا » (العربى : مايو ١٩٦٦) .

□ « دنيا البيض ودنيا الصفر والسمر والسود » (العربى نوفمبر ١٩٦٦) .

□ « ديمقراطية البادية أصدق الديمقراطيات » (العربى : إبريل ١٩٦٧) .

□ « عبادة الفرد » (العربى : إبريل ١٩٦٧) .

□ « عقل الإنسان ميزان غير ثابت على الزمان » (العربى : يونيو ١٩٦٧) .

□ « المساواة ؟ نعم . . ولكن فى أى شىء ؟» (العربى : نوفمبر ١٩٦٧) .

□ « قصة فيتنام ، مأساة من مآسى الحياة الدولية آذنت باختتام » (العربى : مايو ١٩٦٨) .

□ « أزمة الملونين » (العربى : يونيو ١٩٦٨) .

□ « اشتدى أزمة تنفرجى » (العربى : فبراير ١٩٦٩) .

□ « القبعة تغيرت وظل الرأس واحدًا لم يتغير » (العربى : إبريل ١٩٦٩) .

□ « القوة القوة . . سياسة الأمم لا تعرف غير القوة » (العربى : يوليو ١٩٦٩) .

- « الزعامة والزعماء : الزعامة بعض طبائع الأشياء » (العربى : سبتمبر ١٩٦٩).
- « الصفقات السياسية » (العربى : أغسطس ١٩٧٠) .
- « لندن فى صيف ١٩٧١ » (العربى : سبتمبر ١٩٧١) .
- « الزعامة والزعماء » (العربى : أغسطس ١٩٧٢) .
- « حزبان ولكن » (العربى : سبتمبر ١٩٧٢).
- « حقائق عشر عن تخلف الشرق » (العربى : يناير ١٩٧٣) .
- « من أين وإلى أين يارجال العرب؟ » (العربى : إبريل ١٩٧٣).
- « منطق الحوار ومنطق القوة » (العربى : يوليو ١٩٧٣) .
- « اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر »

  (العربى : مايو ١٩٧٤).
- « هيئة الأمم المتحدة تركت الكرة فى الميدان ، وجلست تشهد اللعب مع المشاهدين » (العربى : أغسطس ١٩٧٤).
- « ميكافيلى : السياسى الذى لعنه الساسة »

  (العربى : فبراير ١٩٧٥) .
- « الحرب والسلم بينهما فرق شعرة ، هى الموت والحياة لآلاف من البشر »

  (العربى : إبريل ١٩٧٥) .
- « لا صلح بين الزعماء إذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب أعصى »

  (العربى : يونيو ١٩٧٥) .
- « قالوا المصلحة أولا ، وقالوا أما العواطف من تراحم وود ، ومن صداقات وحب فأشياء عفا عليها الزمان ، وبئس ما قالوا »

  (العربى : نوفمبر ١٩٧٥) .
- « أمنية » (العربى : فبراير ١٩٧٦) .

الفصل الثانى

الحرية

يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود

كان أحمد زكى ـ رحمه الله ـ يولى قضية الحرية أهمية خاصة ، وكان يركز على حرية الرأى : متى تباح ؟ ومتى تحظر ؟ ولماذا ؟ . . . كما كان يحرص على تأمل علاقة حرية الفكر بحرية لقمة العيش ، ويفيض فى تحليل هذه العلاقة . وكان لا يفتأ يدرس دور الحرية فى العلاقات الدولية ، ويقدم المفاهيم العلمية والواقعية من أذهان الناس ويضعها موضعها الصحيح . كما كان يتناول برؤية عميقة كل ما يتعلق بحريات الإنسان فى العصر الحديث والتطور التاريخى لتحقيقها على النحو الذى أتت به الثورات ، مستخلصا بهذا العبرة فى بناء كيان الدولة الحديثة .

وعن هذه الجوانب الخمسة التى تتعلق بمعنى الحرية ، وبحرية الرأى ، وعلاقة حرية الفكر بلقمة العيش ، ودور الحرية فى العلاقات الدولية ، وتاريخ حريات الإنسان سيكون هذا الفصل من هذا الكتاب .

منـذ الأربعينيات ، يعبر أحمد زكى عن إيمانـه الـراسخ بأن الإنسان إذا ولـد بـدأت مع مولـده القيود، قيود البيئة ، درى بها أو لم يدر .

وفى مقال « سـلاسل وأغلال » (مجلة الهلال : ١٢/١٩٤٨) يستنكر أحمد زكى قـول القائلين «إن الناس يولدون أحرارًا ، وإن الشقى يجنى على نفسـه الشقاء حرًا طليقًا ، وإن السعيد يكسب لنفسه السعادة حرًا طليقًا » ، ويؤثر أحمد زكى على هذا الرأى رأى فيلسوف فرنسا الشهير روسو أن الـرجل يـولـد حـرًا فإذا مشـى فى الأرض أثقلتـه الأغـلال : « وددت أمشى فى الأرض أبحث عن أغلالها ، فوجـدت فى كل طريق قيدًا : إن الرجل منا حـر له أن يأكل أو لا يأكل ، ولكن هذا لا يتأتى إلا أن يكون طعام . وهو حر لـه أن يشرب على أن يكون شراب ، وهو حر أن يزرع ليأكل ، على أن تكون أرضه ، وهو حر أن يعمل ويكتسب قـوت يومه ، على أن يكون عمل ، وهو حر أن يتعلم ، على أن تكون فى جيبه نفقة ذلك » .

واختصارًا لفقـرات كثيرة ومتعددة كتبهـا أحمد زكى فى هذا الموضـوع سنخلص إلى النتيجة التى خلص إليها أحمد زكى فى مقاله « بين الحريـة والكسب» (مجلة العربى : ٧/ ١٩٧٢) حين يقول : «إن الـذين قالـوا : إن النـاس ولدتهم أمهـاتهم أحرارًا ، إنما عنـوا أنهم ولـدوا متأهلين للحريـة ، يكتسبونها ، أول ما يكتسبون بالكسب » .

أما فكرة أحمد زكى عن مفهوم الحرية ومعناهـا ، فقد أفاض أحمد زكى فى الحديث عنها فى عدد من المقـالات والأحـاديث وبخـاصة مقـالـه « يطلبـون الحريـة والأصل فى الحياة القيـود » (مجلـة العربى : ٤/ ١٩٧١) وخلاصة أفكاره التى طرحها يمكن إيرادها على النحو التالى :

□□ فالأصل فى الحياة القيود . وهذا يجب أن يكون واضحًا فى أذهان الذين يطلبون الحرية .

□□ والإنسان مقيـد قبل أن يولد (لاحظ أن القيـد هنا امتد إلى ما قبل الميـلاد ، بعدما كـان منذ الميلاد فى مقـاله الذى نشره فى ١٩٤٨ ولاشك أن لهذا عـلاقة بتطـور تفكير أحمد زكى فضلا عن تقدم العمر به) وبعد أن يولد وإلى أن يموت ويضيق بالقيد ، فيطلب الحرية مع القيد .

□□ وما التقاليد إلا قيود تعين الناس على حمل أثقال الحياة .

□□ والإنسان مجبور مختار ، كالسجين فى رجليه القيد ، وفى رجليه مع القيد الحركة المحدودة .

□□ الجاذبية أول القيود التى تمنع الحرية .

□□ واللغة بعدها قيد ، فالإنسان إذا عرف لغته هذه فإنما انتمى ، وقد كان قبل اللغة إنسانًا مطلقًا ، فصار إنسانًا عربيا أو هنديا أو روسيا . . . صار صنفا من الناس ، والتصنيف قيد .

□□ والأسرة بتعليمها اللغة للطفل إنما تبدأ بتشكيل شخصيته ، والتشكيل قيود .

□□ والتقاليد قيود لأنك لا تستطيع أن تخرج عليها ، ولست حرا فى أن تسلك فيها أى مسلك تشاء ، هى راحة وهى قيد فى آن واحد . . .

□□ **حل مشكلة الجبر والاختيار** : إن الجبر يكون بالدخول غصبا فى زنزانة الحياة ، ولكن فى الزنزانات حركة تجريها إرادة حرة ، فهذا ما نريده عندما نقول إن الحياة اختيار .

□□ النظام لا يكون إلا بقواعد ترسم وقوانين . وكل قاعدة قيد وكل قانون كذلك .

□□ وإن تكن القيود طبعا ، فالتحرر من القيد كذلك طبع فى الإنسان ، فهما طبعان يتزاحمان ، كما يتزاحم الحلم والغضب والحب والكره والشجاعة والجبن فى قلب الإنسان .

□□ ومن الناس من يطلب التحرر من الحكومات جميعا ، وتلك هى الفوضى ، ولها مذهب معروف ويعرف أصحابه بالفوضويين ولسنا منهم .

□

ويبدو أن حديث ذلك الشهر قد أثار دوامات من النقاش حول أفكار أحمد زكى إن لم يكن مع الناس فمع نفسه ففى الشهر التالى (العربى : ٥/ ١٩٧١) يحدثنا الدكتور زكى ، فى حديث الشهر ، فى ذات الموضوع ، ويجعل عنوانه « ما وجدت الحكومات إلا لتحمى الحريات » ، وهو فى هذا المثال يحلل التعارض الظاهر عند الناس بين الحريات المطلقة ، والحريات عندما تقيدها الحكومات . ويتحدث عن النوازع الإنسانية ، وضرورات الحياة ، وطبيعة مناشطها ، ورغبات الناس ، وأهدافهم المتعارضة . يقدم بذلك كله للقول بحاجة الناس إلى حكومات لتحمى الحريات ، وحاجة الحكومات إلى قانون ينظم لها هذا الدور ، أو بوجوب وجود القانون ، ووجود قوامين على هذا القانون .

« إن الذى دعا إلى وجود شرطة أو حكومة ، إنما هو حاجة المجتمع إلى تنظيم ، وهو تنظيم يفرض على الناس الفروض فهو بذلك يزيد فى القيود . ولكنها قيود تقيد سلوك الفرد حتى لا

يعتدى على حرية الغير . إنى لو أطلقت لنفسى حريتى ، وكنت أنا القوى وأنت الضعيف لمددت سلطانى فى هذه الأرض حتى لا يكون لك رقعة تعيش فيها ، فالقانون يتدخل ليحد من حريتى ، لاشك فى هذا ، أو بعبارة أخرى هو يقيدنى . ولكن فى حدود نصيبى من الحرية . حتى يحفظ لك أنت الضعيف نصيبك منها » .

« إذن وجب أن يكون قانون ، وأن يكون لكل مسلك من مسالك العيش قانون . ووجب أن يكون على القوانين قوامون ، فتلك هى الحكومات من شرطة وإدارات . ونجمع كل هذه المسالك وكل هذه القوانين والقوامين عليها وأشتاتا أخرى من مرافق الحياة فى المجتمع ورجالاً ذوى مناصب صغيرة وكبيرة عديدة ، فذلك هو الكيان الضخم الذى نسميه بالدولة » .

ويستطرد الدكتور أحمد زكى استطرادًا مطلوبا ، يحدد فيه ضرورة الشرطة ، ضرورة القوة لقيام الحكومات :

« ولكن الحكومة صاحبة القانون لا تقوم بغير قوة . ولهذا كان لا بد لها من قوة شرطة ، وقوة جيش . والجيش أصلاً ليحمى الحدود ولكنه كذلك ليدعم الشرطة إذا عجزت عن حماية القانون والقائمين على حماية القانون . وتسأل ممن يحمون القانون ؟ ونجيب : من تلك الطوائف من الشعب التى لا ترضى من الحرية إلا بالقسمة الجائرة ، الكثير لهم ، والقليل لغيرهم والذين يعبر عنهم المتنبى بقوله :

« والظلم من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفة فلعلة لا يظلم »

□

ويعالج الدكتور أحمد زكى فكرة التوازن بين حرية الفرد وأمن الجماعة بقدر كبير من تأييد ضرورة الموازنة ، فإن يكن من تفضيل فلأمن الجماعة ، ولكن فى حدود . هذا هو لب رأى أحمد زكى فى المسألة ، وله فى هذا المعنى عبارة واضحة فى مقاله (مجلة العربى : ٨/ ١٩٦٩) حيث يقول : «فالإنسان فى الجماعة لابد أن يأخذ لأنانيته وأن يعطى منها ، وإذن وجب أن يكون لهذا الأخذ والعطاء تنظيم ، يدرك منه الآخذ والمعطى من قبل أخذ وعطاء ، ما يأخذ وما يعطى ، وكم يأخذ وكم يعطى » .

ويحظى جهاز الشرطة من أحمد زكى باهتمام خاص ، فيخصص له مقالا تحت عنوان « رجال

الشرطة بين حرية الفرد وسلامة الجماعة » (العربى : ٨/ ١٩٧١) ، والشطر الأكبر من «الافتتاحية الأخيرة» (العربى : ١٢/ ١٩٥٨) ، ونراه يكتب معللاً طبيعة العاطفة السائدة بين الجمهور والشرطة ، عاطفة قلة المحبة والود ، فيرجع ذلك إلى أن « الشرطة كابحة والحرية ترفض الكبح » . ويمضى فى تفصيل هذه الفكرة فيقول : « وحتى لو رجع الإنسان إلى حقيقة عمل الشرطى ، وأدرك أنه يحمى المنزل من السرقة ، ويحمى النساء من الاعتداء ، ويمنع الحى من اضطراب يقوم فيه ، لكانت حصيلة هذا التفكير احترامًا يكتسبه رجل الشرطة بين مواطنيه ، ولكنه قلما يبلغ فى المحبة ، لا سيما عند العامة ، الدرجة الواجبة ، وهو قد يبلغ هذه الدرجة عند الفلاسفة ويبلغها اصطناعًا بحكم الفكر لا بحكم العاطفة المرسلة » .

وعلى لسان أحد محدثيه ، يكتب الدكتور زكى فى آخر مقالاته منبها إلى أهمية « الأمن » فى المجتمعات ، والدور الذى لا بد للشرطة من القيام به أو لابد للقيام به من الشرطة فيقول : « إن هذه المدنية الحاضرة ، بل أى مدنية ، أثمن ما فيها الأمن بين الناس ، الأمن من غوائل الأقوياء . والقوانين التى تخطط لذلك لا قيمة لها إلا أن يقوم إلى جانبها شرطة تهابها الناس ، وقضاء له النزاهة ، وله من الناس الاحترام ومع الاحترام الخضوع » .

ويمضى أحمد زكى ليقول : « إن الجرائم الإنسانية تكاد ترد جميعا إلى الاعتداء بالقوة ، والشرطة هى مانعة الاعتداء فى الأمم ، والقضاء من ورائها يؤكد عدل الشرطة بين الناس ، وفساد الدول يبدأ عادة بفساد شرطتها وذهاب حيدة القضاء ، والحاكم الفرد المستبد يطلب من أولى وسائل حكمه السيطرة على الشرطة والقضاء » .

وإذ يؤكد الدكتور زكى هذه الأهمية المتزايدة للشرطة ، فإنه ينادى بضرورة تهيئتها لقيامها بهذا الواجب . ويتفرع الدكتور زكى - ونتفرع معه - إلى الاهتمام بتثقيف الشرطة ، وبترقية الشرطة :

« إن الشرطة أداة للتنفيذ ، وهى أوامر مجملة ، يظهر إجمالها عند التطبيق فى المواقف الحاسمة مهما احتوت تلك الأوامر من تفصيل وتفصيل ، فكثيرًا ما تتكشف المواقف عن تفاصيل لم يتنبه لها عند الصياغة حتى صائغوها . ويكون المعول بعد ذلك على رجال الشرطة أنفسهم . يترجمون ما غمض هدفا ويقدرون . وهنا لا بد لرجال الشرطة من ثقافة كافية . لا يكفى أن نأتى بالرجل من الحقل أو من الصحراء لنصنع منه رجل شرطة فى يوم وليلة » .

« والشرطى هو وجه الدولة الذى يراه الناس ، فإن كان مؤدبا فالدولة مؤدبة ، وإن كان شرسا فالدولة شرسة ، وإن كان هوانا فالدولة هوانة ، لا سيما فى عين الغرباء » .

« والشرطى إن كان حسن الهندام ، فالدولة حسن هندامها ، وإن كان مبتذل الثياب فالدولة

على شـاكلته . لهذا فإن كـان السخـاء يطيب فى شىء فهـو أطيب ما يطيـب عند البـذل للشرطى وإعطائه الراتب الجديد بمظهر الدولة » .

ويردف الدكتور زكى بالحديث عن المكانة المتميزة للشرطة فى البلاد الراقية، فيقول :

« يحترمونهم لأن فيهم ثقافة كثقافتهم ، ولا بد بهم وطنية كوطنيتهم ، وإن رجل البوليس يجلس إلى رجل الشعب ويتحدث إليـه ، فلا يدرك أنـه إنما يتحدث مع مخلوق لا يعـرفه جاء من جـزيرة سومطرة ، ذلك أن التعليم واحد والفكر واحد ومراتب العيش ومشاكله بينهم جميعًا متقاربة » .

« إن رجل الشرطة فى إنجلترا ليس حصيلة نفسه وحدها ، وثقافته وحدها ، إنه حصيلة بلده، وهو حصيلة تاريخ » .

□

على أنه مـراعاة لأوزان الفقـرات والفصول فى كتابنـا ، فلا بد لنـا من الخروج من الحديث عن الشرطة ، أداة لتنظيم الحرية ، إلى الجزئية التالية . ومراعـاة لنسب أخرى، فلا بد أن يكون مخرجنا مخرج رأى يصدق فى تعبيره عن جوهـر الرأى فى المسألة ، لهذا نضع أمام القـارئ فقرتين مهمتين مما كتبه أحمد زكى فى هذا الموضوع :

« حـرية الفـرد وأمن الجماعة مـوازنة صعبـة . وحـرية الفـرد إذا أطلق لها الضمان ذهبت بأمن الجماعة ، وأمن الجماعة إذا بولغ فيه ، ذهب بحرية الفرد ، ورجل البوليس عليه حراسة الممتلكات من السرقات ، وعليه أن يسود السلام فى الطرقات فلا يكون فيها الهرج والمرج ، وعليه تدبير المرور لسلامة المارة . . » .

والفقرة الثانية قوله : « ففى الدفاع عن الحريات ترجى الحكومات . والحكومة تحمى الشعب، وتحمى حـرياتـه فى الحياة . والشعب يحمى الحكـومة بجيش منـه حتى لا تأخذ بها فتنـزل بها عن منصة الحكم يد فحل من فحول بنى الناس طامع جبار » .

وكأن أحمد زكى يعلل لنا العـلاقة الغريبة بين الحكم ورجـال الشرطة فى دول الدكتاتـوريات، فيقول : « والمستبد لا يجد من الشرطة التى تعودت النظام والحكم الديمقراطى العون الكافى ، ولا الغلظة المطلوبـة ، لهذا هو يلجأ دائمًا إلى استحداث شرطة لـه خاصة ، تقوم بأغـراضه الخاصة ، وتعرف عادة بالمخابرات . وما من بلد إلا وبه مخابرات ، ولكنها مخابرات تكشف عن خطط تتصل

بنظام الحكم يخطط لها أعداء الدولـة ، فهى ليست مخابرات تستخبر أمور الشعب . وقد يستفحل أمر المخابرات لتكون نقمة آخر الأمر على منشئها المستبد » .

□

الحرية والمسئولية

ننتقل بعـد ذلك إلى الجزئية الثـانية من هـذا الفصل ، وهـو: حريـة الرأى متى تبـاح ؟ ومتى تحظر؟ فالدكتور أحمد زكى يـؤمن إيمانًا يقينيا بأنه **لا بد أن يكون مع الحرية إحساس بالتبعة أولا** ، وهو ثانيًا **يفرق بين حـرية الفكر فى سلام ، وحـرية الفكر فى حـالة الحرب** ، وهو ثالثا يقيد **حرية الرأى لا** بالحالة الحربية فحسب ولكن **بحال الجماهير من حيث النضج** .

وإليك تفصيل القول فى هذه النقاط ، ففيما ما يتعلق بالحرية والتبعة ، يقول أحمد زكى فى مقاله «حرية الفكر فى سلام وفى حرب» ، «حديث الشهر» (مجلة العربى : ٢/ ١٩٧٣) .

□ « **لابد أن يكون مع الحرية إحساس بالتبعة** » .

□ « **ليس لأحد بـاسـم الحرية أن يدعـو إلى الإجرام ، أو الفوضى ، وإذا هـو سئل فى ذلك يقول : دعونى فأنا حر . إنه حر فى نفسه . يفعـل بها وهو فى حجرة ذات حوائط أربع ما يشاء ، أما إذا هو خـرج إلى الناس ، إلى المجتمع فقـد اختلفت بالنسبة لـه معانى الحريـات ، ومعانى الحقوق** » .

□ « **ونقول اختلفت ، ولا نقول امتنعت ، فالمجتمع شىء مشاع . هو ملك للجميع** » .

□ « **ووجه الاختـلاف الواحد ، عندمـا يخرج من حرية الحجـرة إلى حرية الطريق ، هـو أن الحرية عندئذ يجب أن يصحبها شىء ، هو التبعة . فالـدعوة إلى الإجرام لا تبعة فيها ، والدعوة إلى الفوضى لا تبعة فيها** » .

□ « وإذا جاز أن نتجـاوز فى السلم عن النظـر فى أمر التبعـة ، فإن هذا لا يجوز والحرب قـائمة ، والحرب حـرب مصير ، فالتبعـة تسبق الحرية وتعلـو » . ونحن فى ذلك إنما نفعل ما فعلتـه الأمم الديمقراطيـة من قبلنا . « وضرب مثلاً بما حدث للفيلسوف البريطانى بـرتراند رسل فى أثناء الحرب العالمية الثانية من قبل السلطات البريطانية » .

وهكذا، يتخذ الـدكتور أحمد زكى من «التبعة» مدخلاً إلى التفريق بين حـرية الفكر فى السلم وحرية الفكـر والحرب على الأبواب . ونحن نلاحظ تقـديره الشديد لخطورة الحرب ، فهـو لا يقابل بجمل متوازنة ويقول حـرية الفكر فى السلم وحرية الفكر فى الحرب ، وإنما يتنـازل عامدًا عن هذا التوازن البلاغى ليعبر عن المعنى الخطير :

« أما والحرب قـائمة ، فحـرية القـول ، وحرية النقـاش ، لا بد أن تتأثـرا بكل موضـوع يثار ويتصل بالحرب ، من قـريب أو بعيد . ولكن لابـد من أن نطلق النقاش ، ونطلق حريـة الكلمة فيما لا يتصل بحرب وإلا خيم الظـلام ، وفى الليالى ـ إذا اتصل إظلامها ـــ ستر لكثير من صنوف الإجرام : من سرقة أعراض ، وأموال ، وضياع أمن ، وإهدار أرواح » .

□

الظروف المقيدة للحرية:

يبلور أحمد زكى أوجه الاختلاف بين الحالين (الحرب والسلم) ويـوْصل طبيعة هذا الاختلاف ، فيقول : « فى السلم الحريات تطلق فى صدور عامة الشعوب ، ووعيها ويقظتها أولا، ومن بعدها القانون . أما الحرب فالمسألة حلها فى أمرين : أن تحدد الحكومات بأقصى ما تحدد من حريات لا سيما فيما لا يمس الحرب وجهـودها فى سبيل دفع غـائلة الأعداء ، وأن يتـوخى الكتاب أقصـى ما يكون لـديهم من حذر ، مع إحساس عميق بالتبعـة ، فلا يتخذ الكـاتب منهم موضوعًا ظـاهره يتصل بحريـة فى القول معترف بها ، ولكن بباطنـه هدف آخر، كإثـارة الجمهور لحاجة خـاصة فى نفسه » .

وننتقل إلى الجانب التطبيقى من الموضوع فيما يتعلق بالقضية العربية ، وأرجو أن يلاحظ القارئ أن المقـال نشر فى مايـو عام ١٩٧٣ (أى أن أحمد زكى نشر رأيـه قبل المعركـة الفاصلـة فى أكتوبـر ١٩٧٣ بحوالى ستـة أشهر) وكان التمـزق قد بلغ مداه فى نفـوس بعض الصحفيين والإعلاميين . وكان أحمد زكـى ـ كما سنفصل القـول فى موضع آخـر ـ حـزينا أشد الحزن مـن هذا التمـزق الذى أصاب هـذه النفوس ففعل بها ما فعل ولهذا فإنـه ينطلق فى حديثـه هنا من ضمير الحرية المسئـولة ويقول : « وإنى لأقرأ اليوم فى صحف بعض الدول العربيـة ، الموسوم النشر فيها بالحرية ، أقوالاً

كثيرة لا تبعة فيها . فكاتب يكتب باسم الحرية عن جهل . وكاتب يكتب باسم الحرية عن حقد . وكاتب يكتب باسم الحرية عن عنصرية غير خافية ، وأخرى عارية . وكاتب . . . عن إقليمية جارفة . . وكاتب يكتب باسم الحرية ، وأكاد أستشف فى أسطره دوافع صهيونية ويمنعنى من الجزم أن حروف المقال حروف عربية . وكاتب يكتب باسم الحرية ، وهو إنما يهدف إلى خنق الحرية» . . . . .

ويعدد الدكتور أحمد زكى صنوفًا من هؤلاء . . ثم يقول قولة مدام رولان الفرنسية المشهورة «أيتها الحرية كم باسمك تقترف الآثام » !

□

على أنى أحب أن أنبه إلى نقطة جديرة بالتنبيه ، وهى أن هذه الآراء لأحمد زكى فى إشكاليات الحرية ، والحرية المسئولة ، والحرية بين الحرب والسلم لم تكن وليدة هذه الظروف الصعبة التى عاشتها أمتنا فى هذه المرحلة بين الحربين (١٩٦٧ ــ ١٩٧٣) وإنما كانت ذات فكر الرجل الذى تحدث من قبل بإفاضة فى هذا الموضوع فى أكثر من موضع كمقال : « مؤتمر القمة العربى الأول » ، (مجلة العربى : ٣/ ١٩٦٤) ، وهو المقال الذى قال فيه بصراحة : « إن الرأى يجب ألا يترك طليقًا لا سيما فى جماهير لم تبلغ بعد حد الكفاية من وعى أن الرأى الحر ليس من حقه الهدم والتخريب » وربما كان هذا هو جوهر النقطة الثالثة من الجزئية الثانية فى هذا الفصل .

□ « إن لك من الحرية بمقدار ما فى جيبك من مال » هكذا يقرر الدكتور أحمد زكى فى مقاله «بين الحرية والكسب » (العربى : ٧/ ١٩٧٢) ، وهو يردف العنوان الرئيس بقوله : «سألوه كم لك من الحرية فى هذا العيش ؟ فأجاب : أكسب فى الشهر عشرين دينارًا» . وحديث الدكتور أحمد زكى فى هذه النقطة ممتع إلى حد كبير ، ولا أظننى أوفيه حقه أو أوفيك حقك من الإمتاع إذا نقلته لك هنا سببا ونتيجة على نحو مباشر ، إنما تتأتى لك المتعة به إذا قرأته كله جملة ، فى موضعه . فالأمر فى نظر أحمد زكى ظاهر الصواب . غير أنى أثبت هنا ما قاله الرجل استطرادًا إلى موضوع حرية المرأة وعلاقتها بكسبها حيث يقول :

« لا ضمان إلى اليوم لحرية المرأة إلا بأن تكسب هى حريتها بالعمل المناسب لأنوثتها ، فإذا سئلت كم لها من حرية قالت : أكسب عشرين دينارًا أو مائة ، وفى هذا بلاغ » .

« من أجل هذا كانت حظوظ النساء من الحرية فى القرون الماضية القلة دون حظوظ الرجال ، وحتى اليوم فحظ الكاسب ليس كحظ المشارك فى كسب » .

ولا بد هنا من الإشارة إلى رأى لأحمد زكى قد لا يكون فى ظاهره متصلاً كل الاتصال بهذه النقطة من معانى الحرية ، ولكنه ليس إلا صدى أو إرهاصًا لهذه الآراء . فأحمد زكى حين يناقش قضية فقر الفقير وشقاء الشقى لا يحملهما تبعة ما هم فيه من فقر أو شقاء ، وإنما يلقى بالتبعية للمجتمع . فالقضية ليست فى حريتهم فى بقائهم على ما هم عليه ، لأن هذا ليس بيدهم ، ولا هو مسئوليتهم . واقرأ معى لأحمد زكى فى مقاله « سلاسل وأغلال » ، (الهلال : ١٢/ ١٩٤٨) ، والذى نشره مرة أخرى فى كتابه « ساعات السحر » حيث يقول فى وضوح وصراحة :

« يخيل إلى أن المسألة ليست رضا الفقير بما هو فيه ، ولكن رضانا نحن أنا وأنت ، بالذى هو فيه . أنا لا أكلف الفقير شططا فأطلب إليه أن يدرك ، ولا أكلف الجاهل شططا ، فأطلب إليه أن يفهم ولا أكلفه حتى أن يرضى أو لا يرضى ، ذلك أنى إذا كلفته أن يرضى قام علمى يكذبنى وضميرى يؤنبنى ، وأنا إذا كلفته أن لا يرضى ، وهو غير قادر على أن يتحول ، فإنما أزيد طينته بلة ، أزيد حسه بالسوء ليزيد حسه سوءًا ، أوقظه لما هو فيه ليتألم على اليقظة ، وأنت تريده أن يهنأ نفسا ، وهذا نوع من أنواع الرحمة الخفية الذى لا يدرك كنهه إلا الفطناء ! » .

ويزيد أحمد زكى هذه الفكرة توضيحا وتعميقا ، فيقول : « أقول إن المسألة ، ليست أن الفلاح ، وأشباه الفلاح ، يرضون عن حالهم أو لا يرضون ، ولكن المسألة أن نرضى نحن ، أنا وأنت ، عن حالهم أو لا نرضى . نحن لنا القدرة على الرضا ، أو غير الرضا ، ولنا الحق فى الرضا وغير الرضا ، وعندنا الأداة التى تؤهلنا لنرضى أو لا نرضى ، ولا أحسبنى ولا أحسبك ترضى أن هذا الرجل الجاهل الفقير ، واسمح لى أن أقول ـ التعس ـ ولو مرة فى غير مناقضة لفكرتك ـ هذا الرجل ينعتونه بأنه ابن جلدتك ، وهو كأنفك منك وإن كان أجدع ، فأنت إذن لا ترضى عن انجداع أنفك ، وإذن فأنت والله لا ترضى عن فقر رجلك وتعاسته . هذا حس جميل ، وإذن لابد من تغيير ، والتغير يجب أن يبدأ من أعلى ، حيث أنت قاعد يا عزيزى . إن الماء الذى يسيل من المكان العالى يهبط فى سهولة ويسر ، فيكون فيه السقى والرى . وغير ذلك الماء الذى يتفجر من المكان الخفيض » .

□

أما عن الحريات فى العلاقات الدولية فيتبلور لنا رأى أحمد زكى فى مقاله «حرية الصحافة»، (مجلة العربى: ٣/ ١٩٧٢)، إذ يقول فى معرض الحديث عن الحريات قبل التمحيص بالحديث عن حرية الصحافة :

« إن الحريات فى هذه الدنيا التى تعرف ، كالبضائع ، تشترى بالمال ، وما أكثر ما تدفعه الأمم ثمنا لحرياتها . السلاح وحده ، كم ثمنه ، وهو سلاح أرض ، وسلاح ماء ، وسلاح هواء ؟ وكم ألوف مؤلفة من الناس تقوم فى صناعته ؟ وكم ألوف مؤلفة من الناس هى اليوم قائمة فى الجيوش حاضرة لدفع غائلة ؟ الحرية إذن فى السلم ليست من طبيعة الأشياء ، حتى والحضارة حاضرة ، والثقافة بينة ، وذكاء بنى الناس غير منقوص . الحرية لا بد أن تشترى فى هذا العالم البشرى بالعرق الصبيب ، كالطعام والشراب سواء بسواء » .

وقبل هذا المثال بحوالى ربع قرن كان أحمد زكى يتحدث فى شجن وأسى عن «مصرع الحرية فى القرن العشرين» بمقال حمل هذا العنوان (مجلة الهلال : ٦/ ١٩٤٩). وما زال أحمد زكى بمصرع الحرية يتحدث عنه حتى وصل إلى القول بأن « الصراع القائم اليوم بين شرق الأرض وغربها، ليس صراعًا على الحرية ، فالكل مجمعون على ضروزة وضعها وراء قضبان من حديد ، ولكن الخلاف على مصيرها من بعد ذلك : فأهل اليسار يريدون أن يقتلوها بالسم قتلة عاجلة، وأهل اليمين يريدون أن يقتلوها ولكن مصابرة ومطاولة » .

وأكثر من ذلك يقرر أحمد زكى فى مقاله هذا أن الحرية ليست من قانون الوجود ، وأنها ما كانت ولا سوف تكون : « وإنه لا وجود للحرية فى قانون الوجود إلا بالقدر الذى يؤهلك لإدراك ما أنت عليه من قيد ، كالشىء الحلو تعطاه لتتذوقه ليدلك على ما كنت فيه من طعوم مالحة» .

□

ولعل هذا يدفعنا إلى التساؤل : إذا كان هذا هو حقا جوهر الحق فى أمر الحرية فى قانون الوجود، فأى ذنب جناه القرن العشرون على الحرية حتى يقول أحمد زكى بمصرع الحرية فيه ؟ أم إن المسألة أن أحمد زكى اختار هذا التعبير ليبرر ما حدث فى القرن العشرين ، وليقول إنه ليس بالشىء

الجديد ، وبخاصة أنه استعرض أحوال الحرية فى مصر القديمة ، وروما ، والنصرانية ، ودول الإسلام استعراضًا ممتعًا لا بد لك من أن ترجع إليه ، هذا بالإضافة إلى أحوال الحرية فى الجامعة وبين الناس وفى الطبيعة . . . إلخ؟ » .

ونعود مرة ثانية لنتأمل مع أحمد زكى تأثير المال على الحريات حتى فى السياسة الدولية ، ونقتطف هنا من مقاله « سلاسل وأغلال » ومن المثل الذى ضربه بقطة كانت لجارهم ، وكانت أقوى القطط . فكانت تحظى من الطعام بأكثره لهذا السبب . ونقرأ له قوله :

« والمسألة أن المال يحمل معه دائمًا طابع السلطان ، ويحمل الغلبة ، ويحمل القوة ، وحيثما هبط تنفرج له الصفوف ، وتتخاذل دونه العزائم . والمسألة فى ذلك مثل مسألة القطط تجتمع على الطعام ، فلا يكون الطعام إلا من نصيب قطة لها جسم ملء ورأس ضخم ، وأكتاف سمان ، وسواعد شداد ، ومخالب حداد ، ونفثة عن الشر مخيفة ، فهذه تدور تلم من النفايات الساقطة فى فمها ، هذه القطعة ثم هذه ثم هذه ، وسائر القطط واقفة ، واسعة العين ، تنظر ولا تجرؤ ، للذى بها من ضعف وهزال ، كل أملها أن تضل هذه القطة الكبرى عن قطعة فلا تراها » .

« هذه القطة فازت بالأنصبة جميعا أو بأكثرها ، لأنها أشبع ، ومن الشبع قوة . وسائر القطط فازت بالنصيب القليل ، أو بلا نصيب لأنها أجوع ، ومن الجوع ضعف . فى طبيعة الشبع سر زيادة الشبع ، وفى طبيعة الجوع سر زيادة الجوع » .

ويعقب أحمد زكى على هذه الفكرة بسؤال تقديرى من نوع خاص ، فيقول :

« أفلا ترى معى أن هذه الصورة ، التى تجدها فى حديقتى ، هى صورة صادقة مما يجرى فى حدائق العيش بين الناس ؟ » .

□

- الحريات والتطور التاريخى

بقى الأمر الخامس من أمور الحرية فى تفكير أحمد زكى ، وهو نظرته إلى التطور التاريخى للحريات فى القرون الثلاثة الأخيرة . وقد أفاض فى الحديث عن هذا التطور فى أكثر من مقال ،

ولكنه زاد الأمر تركيزًا أو بلورة و إفساحا للتفاصيل فى مقالات ثلاث متتالية :

□ « يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود » : (حديث الشهر ،مجلة العربى : ٤/ ١٩٧١) .

□ « ما وجدت الحكومات إلا لتحمى الحريات » (حديث الشهر، مجلة العربى : ٥/ ١٩٧١) .

□ « حريات الإنسان » : (حديث الشهر، مجلة العربى : ٦/ ١٩٧١) .

(ومن تصاريف القدر الجميلة أن هذه المقالات نشرت قبيل ما أعلنته مصر فى مايو ١٩٧١ من بدء عصر الحريات) .

على أننا سنجتزئ هنا فى هذا المقام بذكر عبارات عن أفكار أحمد زكى فى هذا الموضوع ، وهى العبارات التى تحمل فى طياتها عددًا من المعانى التى نود أن نشير إلى سيطرتها على فكر الرجل :

□ « فاز القرن الثامن عشر بالحريات السياسية ، وفاز القرن التاسع عشر بالحريات الاجتماعية » .

□ « الثورة الفرنسية أيقظت أمم الأرض بما يجب أن تكون علية كرامة الإنسان » .

□ « الثورة الصناعية كانت ثورة حضارية اجتماعية سياسية فى آن » .

□ « الحرية إذا زادت على حدها انقلبت إلى ضدها ، وهكذا فعل انطلاق رأس المال فى العمال » .

□ « إن اليوم له وجهان : وجه أبيض مشرق أسميناه بالنهار، ووجه آخر مظلم أسميناه بالليل . وكذا الثورة الصناعية كانت وجها من وجوه الإنسانية المتوثبة الطامحة مشرقا ، ولكن إلى جانب وجه أسود مظلم يتمثل فيما عاناه العمال فى هذه الفترة من بؤس وشقاء » .

□ إن رفع الحكومات يدها عن البرلمانات كان أولى الخطوات لاستقرار الحكم فى البلاد . وهنا يجب أن نلخص رأى أحمد زكى فى هذا الموضوع على أكثر درجات الاختصار ، فإن الفيلسوف الإنجليزى هبز «Thomas Hebbes» (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) أخاف الحكومة كل الخوف ، فقام الفيلسوف الإنجليزى لك «John Locke.» (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ففصل الحكومة عن البرلمان ، وجاء الفيلسوف السياسى منتسكيو « Montesquieu » (١٦٦٩ ـ ١٧٥٥) فاستقل بالقضاء ، ووضعت (١٧٠١) فى إنجلترا وثيقة القضاء الشهيرة «Act of settlement» ، وبذا تم فى الدولة الديمقراطية فصل السلطات .

□

وليس من شأنى هنا أن أحلل للقارئ نظرة أحمد زكى فى هذا الشأن وموقعها من الصواب والاراء الأخرى ، وليس هذا عجزًا ولا تواضعًا ولا اختصارًا ، وإنما هو مراعاة للمقام وبخاصة ونحن نتكلم عن الحرية المسئولة .

ولكن يبدو لى أنه من الأوفق أن أختم هذا الفصل بعبارات لأحمد زكى فى شأن الحرية أبلغ ما فيها هى نفسها وذلك حيث يقول :

« نشأنا جميعًا ونشأ العالم على تمجيد الحرية ، ولكن الحرية كالسيف ، تحمله فى يمناك ، فتعلم حين تقطع به أين تقطع ، وكذلك تحمله فى يسراك فتضرب به فقد يصيب رقبة ابنك » .

« وهكذا فعلت الحرية فى طليعة الثورة الصناعية ، ومعنى استعمال كلمة « Laisser Faire » ومعناها دعوا الأمور وحدها تجرى فى أعنتها ، أو اتركوا الصناعة وحبلها على غاربها تجرى ماشاء لها الجرى و إلى أية ناحية تجرى . . صار لأصحاب المصانع أن ينظموا مصانعهم على هواهم . .

كان من الطبيعى أن رجلاً مثل كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) ما كان ليولد فيعلن إعلانه الشيوعى « Manifesto Communinst » (١٨٤٧) ولا ليكتب كتابه « رأس المال » إلا فى قرن مثل هذا القرن التاسع عشر ، وفى أحوال ما كانت لتتمخض إلا عن مثله ومثل مذهبه » .

المصـــادر :

- « سلاسل وأغلال » (الهلال : ديسمبر ١٩٤٨) = (الفصل الحادى عشر من ساعات السحر) .
- « مصرع الحرية فى القرن العشرين » (الهلال : يونيو ١٩٤٩) .
- « أيتها الحرية كم باسمك تقترف الآثام » (الهلال : سبتمبر ١٩٥٠) .
- « المدرسة والحرية والحياة » (الهلال : أكتوبر ١٩٥٥) .
- « لابد للناس فى حياتهم من قواعد ومبادئ » (العربى : يناير ١٩٦٣) .
- « مؤتمر القمة العربى الأول » (العربى : مارس ١٩٦٤) .
- « الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون » (العربى : أغسطس ١٩٦٩) .
- « يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود » (العربى : إبريل ١٩٧١) .
- « ما وجدت الحكومات إلا لتحمى الحريات » (العربى : مايو ١٩٧١) .
- « حريات الإنسان » (العربى : يونيو ١٩٧١) .
- « رجال الشرطة بين حرية الفرد وسلامة الجماعة » (العربى أغسطس ١٩٧١) .
- « حرية الصحافة » (العربى : مارس ١٩٧٢) .
- « بين الحرية والكسب » (العربى : يوليو ١٩٧٢) .
- « حرية الفكر فى سلام وفى حرب » (العربى : مايو ١٩٧٣) .
- « قانون الطبيعة غذى حركات التحرير فى كل القرون ، (العربى : أكتوبر ١٩٧٣) .
- « الافتتاحية الأخيرة » (العربى : ديسمبر ١٩٧٥) .

الفصل الثالث

بعض ملامح الفكر الفلسفى

العقل والإيمان : عينان بهما يبصر الإنسان سبل الحياة ويهتدى .

هـذا هو الفصل الثـالث من البـاب الذى يتنـاول فكـر الدكتـور أحمد زكى . وإذن فليس من المتقبل أن يختص وحده بـالعنوان الذى يشير إلى أنه يتنـاول الفكر الفلسفى ، أو التفكير الفلسفى عند أحمد زكى . وقـد أدرك المؤلف هذا بـلاشك ، ولاشك أدركه القارئ عنـدما وجـد العنوان على النحو الذى هو عليه ، ذلك أن هناك موضوعات ، تدرج فى تصنيف المعرفة تحت عنوان الفلسفة ، رغم أن كل نظراتنـا إلى كل أوجه الحيـاة هى صورة من الفلسفة ، ولكن هنـاك قضايـا هى فلسفة الموضوع والنظرة . أو هكذا اعتاد المؤلفون أن يضعوها ، كمسألة القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والمادية والروحية ، وما وراء الطبيعة ، والحقيقة وأمور المنطق ، والعقل والعاطفة . . . إلخ .

أمـا هذا الفصل ، فيتنـاول من كل هذه الأمـور أمرين اثنين فحسب ، رأى المؤلف أن تنـاولهما

يعطينا فكـرة لا بأس بها عن نظرات الـدكتور زكى الفلسفية ولا أقـول عن تفكيره الفلسفى أو عن فلسفته، فذلك من شأن الباب الثانى كله بفصوله الثلاثة عشر .

□

١ ـ الحقيقـــــة

أول هذه الأمـور هو « الحقيقة » ، وعلى الأخص سبـل الوصول إليهـا . . فعلى حين كان أحمد زكى يقدر قيمة العقل والفكر والمنطق والعلم فى الوصول إلى الحقيقة ، وعلى حين أن عباراته فى هذا واضحة فى كثير جدا من المواضع ، إلا أننا سنركز معه على الجانب الآخر من القضية ، وهو الجانب الذى يطرح لنا سؤالاً يقول : متى لا تكون كل هذه الوسائل العلمية والمنطقية هى السبيل إلى غاية الإنسان من استجلاء الحقيقة أو استهداف الصواب أو طلب الحق . . إلخ ؟ .

هنـا نقرأ لأحمد زكى مقـالا قيما (الهلال : ٩ / ١٩٤٨) تحت عنـوان « الكرة التى تحمل فـوق عنقك » ، وقد أعاد نشره فصلاً مـن فصول كتابه «ساعات السحر » . ويحدثنـا فى مقاله عن زيغ الرأس ، الذى شبهه فى العنوان بالكرة التى تحمل فوق عنقك ، حديثًا طويلاً ثم يخلص إلى النتيجة فيقول : « أو لست أحسب أنى أريد من أحد أن يقلع عن زيغه ، فزيغ العقول صفة لها أصيلة لا يمكن أن يكـون عنهـا إقـلاع ، إن الزيغ من بنيـة العقل ، من تشكلـه ، ومن تصميمـه ، ككـرة الحشيش إذا دحـرجت عليه ، بها مـا بها من ثقل ، أو بها مـا بها من تحدب جانب دون جـانب لم يكن لها اختيار إلا أن تميل » .

والحل : « ولكنى أود لو يفعل الناس برءوسهم فعل مدحرج الكرة بكرته ، إنه يقدر ما فيها من زيغ ، ويحسب مـا فيها من عوج ، ثم هـو يطلقها طلقـة تتراءى عوجـاء ، ولكنها تصيب الهدف تمامًـا كما تصيبـه الكـرة الأخرى التى ليس فيهـا ثقل ولا زيغ إذا أطلقت مستقيمـة غير ذات أعوجاج» .

هكذا يطرح الدكتور أحمد زكى تصوره لحل هذه الإشكـالية ، لأنه يؤمن بأن زيغ العقول صفة فيها لابد لها منها ، ولهذا هو يريدك أن تفكر بها مع تقديرك لزيغها حتى لا يذهب بك الأمر إلى أن تكون من الذين يفكرون لا وفق ما يجب أن يكون ، ولكن وفق ما يجب أن يكون ، فيبلغون النتيجة التى يريدون دون تفكير، ثم هم بعد ذلك يعملون المنطق ليأتوا لها بما يبررها .

ومن نفس المنطلق يأتى تقدير أحمد زكى للخيال ، وهو بالطبع تقدير مشروط ، واقرأ له معى فى هذا المعنى من مقاله « حشاشون بلا حشيش » الذى نشره فصلاً فى ساعات السحر قوله : « إن أثمن ما فى الرجل منا الفكر ، ومن أثمن ما فى الفكر الخيال . والخيال جعل ليجمع به المرء من الأشياء أجزاءها ، ومن الحوادث أطرافها ، وليصور به لنفسه كيف تصلح الأمور . وهو خيال يتصل بالواقع ، ويتصل بالمنطق ، ويعتمد على الممكنات . وهو أداة المخترع حين يخترع ، والعالم حين يبتدع ، والشاعر حين يقصد القصيد ، والفيلسوف حين يقنن الأمور . . ولكن غير ذلك الخيال الذى تثيره حشيشة الليل ، وغير ذلك الخيال الذى تثيره حشيشة النهار » .

على صعيد آخر يذهب الدكتور أحمد زكى إلى تأكيد انتفاء العقل المطلق ، نفس المعنى الذى مسه من قبل ، وفى مقال له (مجلة العربى : ٦/ ١٩٦٧) يكتب تحت عنوان : «عقل الإنسان ميزان غير ثابت على الزمان» ، ليقول : إن « العقل المطلق لا وجود له فى الناس . إن العقل منطق ، ومنطقه البادء مستمد من حياة صاحبه ومن عاداته . والعادات مستمدة من جغرافية المكان وتاريخ الزمان على السواء . واختلف الزمان ، واختلف المكان فاختلفت العقول وتفاوتت » .

وفى عبارة أخرى يقول : « من المشكوك فيه أن ميزان العقل من الدقة ثابت الدلالة بين أيامه القريبة وأماسيه البعيدة ، ومن المشكوك فيه أن يزن الخير دائمًا فيجد أنه الخير ، ويزن الشر دائمًا فيجد أنه الشر ، وقد يدخل الشك إلى سجية هذا الميزان ، فيصبح يزن الشر الثقيل فلا يثقل به كثيرًا أو لعله يزن فيجعل الخير مكان الشر والشر مكان الخير » .

ويضرب أحمد زكى الأمثال على صحة رأيه بموقف البشرية وعقلها ، فى قضايا الرق والقتل ، والعفة ، والعمل ، وحتى الشوارب واللحى . . ثم استلفت النظر إلى الحقيقة الكبرى حين يقول : « لهذا جاءت أحكام السماء تثبت أحكام أهل الأرض وتنأى بها عن المزالق » .

وينتقل أحمد زكى إلى نقطة أكثر تقدمًا ليقول إن العقل حتى مع العلم (أى عقل العلماء) قاصر لسببين ، أولهما : قصر أعمار العلماء فالعالم يحصل ثم حتى إذا هو بدأ ينتج عاجله الموت ، وتزداد مدة التحصيل (كلما تقدم الزمن) كلما اتسع العلم ، وازدادت المفرازة عمقًا . والسبب الثانى « هو ذلك القصور الذى فى الذهن نفسه من حيث إنه جهاز له طاقة للنمو ينتهى عندها .

بل إن العقل نفسه ، لا يشكل إلا جانبًا واحدًا من جوانب النفس الإنسانية ، فللنفس الإنسانية جوانب أخرى إذا حاول العقل أو حاول المنطق دخولها فقد عمى ، إن العقل لا يكاد يرى من هذه الجوانب شيئًا . . ، نعنى بها العواطف ، والأحاسيس . وصوت فى الأعماق أدخل فى النفس وأعمق ، أو لعله لا مدخل له ولا مخرج ، وإنما هو صوت الكيان يتردد خافتا فى الأعماق» .

ومن نفس النبع كانت أفكار الدكتور زكى فى مقاله (**العربى** : نوفمبر ١٩٦٨) الذى يقارن فيه بين العقل والإيمان أو يجمع بينهما على أنهما كما يقول العنوان : « العقل والإيمان : عينان بهما يبصر الإنسان سبل الحياة ويهتدى» : فيقول ما ملخصه :

□□ العقل والإيمان ، سبيلان إلى المعرفة سلكهما الإنسان منذ كان قبل المسيحية ، وبعدها ، وفى دين ، . غير دين . أما العقل فمنك ، أما الإيمان فمن الله : إما أن يمن الله عليك به ، و إما أن يحرمك إياه . . « ازدواج طبيعى » .

□□ « وعند جاكوبى : إن الله الذى يمكن إثباته بالمنطق لا يمكن أن يكون الله ، لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل ، والخالق الأعظم لا يمكن أن نسيطر عليه ، أو يحتويه عقل . . إن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها الفكرة المنطقية تتلوها أخرى . . إن سبيلها تتكشف عن طريق الإلهام، وهذا الإلهام هو الذى يسميه جاكوبى وأضرابه بالإيمان » .

□□ إنهما « كالنظارة ذات العدستين : إذا طمست عدسة منهما ، قامت الأخرى تحل محلها أما إذا طمست العدستان معا ، كان العمى ، ومع العمى الحيرة التى لايدرى معها صاحبها إلى أين يتوجه . وهكذا فعلت الوجودية ، ومذاهب أخرى بالإنسان فى هذا الزمان» .

□□ « سر القلق فى العصر الحاضرما أحدثته تلك المبادئ الفلسفية المتضاربة المتشابكة المعاكسة التى ينفى بعضها بعضا ، والتى كانت ، قاصرة على المكتبات ، حبيسة فيها زمانًا لا يقرؤها إلا المختصون ، ثم هى نزلت بالنشر ، على اختلاف طرقه إلى القارئ العادى فى مدرسة وجامعة ، وإلى رجل الشارع من بعد مدرسة وجامعة » . .

« وقد كان لاستجلاء سبل الحياة عند المفكرين طريقان : طريق الإيمان المباشر ، وطريق العقل ، وسبق الضعف الفكرى إلى طريق الإيمان فى الناس فاضمحلت الثقة فى الإيمان . ثم قام رجال جدد من أهل الفكر يقضون على السبيل الباقية تلك ، سبيل العقل . . ذهبوا بالإيمان ونفوا العقل . فماذا بقى ؟ بقيت الحيرة تحتل أنفس الناس ، وظهرت فى الشباب أكثر لأنهم أكثر تأثرًا وأقرب ثائرة » .

□□ وانضم إلى هذا الخبال فى فلسفة الحياة : خبال فى حال الدنيا ، خبال فى المجتمعات وخبال فى حكامها . .

لهذا كله فإن أحمد زكى يعطى أهمية فائقة لضرورة الاعتماد على الإيمان ، والإبقاء على الإيمان ، والإيمان بالإيمان ، وأن تتوجه إلى نفسك تطلب منها الهدى : « وإذا عجز أهل الفكر ، وأهل

الفلسفة عن إثبات وجود ، وإذا رفض العلم الحديث البحث فى هذا الأمر بعد أن دفع بعدم الاختصاص لم يبق لنا إلا الرجوع إلى المصادر التى نهرع إليها دائمًا عندما تتعطل مصادر العقول .

□

وعلى هامش فهم أحمد زكى للحقيقة يمكن لنا أن ندرس آراءه فى القضية التى كانت مطروحة بشدة فى وقت من الأوقات وهى «حتمية التاريخ» هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أم لا يعيد ، وهنا سنلخص أفكار الرجل وأكثرها ورد فى حديث الشهر (العربى : إبريل ١٩٦٨) تحت عنوان : «التاريخ قال قائلون إنه يعيد نفسه ، وقال آخرون إنه لا يعيد» :

□□ إن قولهم بحتمية التاريخ « عبارة حلوة ، أجد فيها أنا نفسى روحا وريحانا ، وشميم أمل حتى واليأس كل اليأس جاثم » . « وهى عبارة ليست بنتيجة دراسة خرج الدارس بها : أن التاريخ يحتم ، إنما هى عبارة إيمان ، والإيمان قد يخرج من الرأس والإيمان قد يخرج من القلب ، وحتمية التاريخ صرخة من صرخات الإيمان التى تخرج من القلب . إنها صرخة الأمل . قد يفرزها ما يتواكب معها من أحداث الدنيا ، تلك التى تهدف جميعا إلى غاية واحدة فيها استبشار وبشرى .

□□ وهو يتحفظ على فكرة حتمية التاريخ منذ البداية لأن « التجارب العملية هى وحدها التى تعيد نفسها ، أى : إذا نحن أعدنا فى المختبر إجراءها عادت بنفس خواتيمها ، وغير ذلك التجارب الإنسانية وتجارب المجتمعات الإنسانية ، وتجارب التاريخ » .

□□ ولهذا فإن السبب فى عدم تقبله لفكرة الحتمية أن الإنسان هو أول شىء تفاعلى ، وليس كالإنسان مثل ، ينفى صفة الثبات كيفا وكما ، إنه الهوى المتغير ، والمطمع المتقلب ، والثقافة المتباينة ، والميراث الذهنى المتفاوت . . ليس جيلاً واحدًا ، بل جيلين وثلاثة أجيال اجتمعت كلها على صعيد من الزمان واحد . بل يصل الحد إلى القول بأنه لا يوجد فى التاريخ حادثتان متطابقتان أبدا ولو أسميناهما اسما واحدًا .

□□ « إن أبدية المتواصلة عند نيتشة تتمثل فى الدائرة . . على أن مقالته قد تصح فى غير إجمالها هذا المتناهى فى زمان محدد قصير من حياة البشر ولكن قديم ، أما اليوم فنحن فى زمان غير ذلك الزمان » .

□□ أما جوهر الرأى العلمى فى المسألة كما يبديه أحمد زكى بعد دراسة و تمحيص : « كل الذى يستطيعه الناظر عند المقارنة أن يحدس ، أى خاتمة تكون ، وهو يحدس حتى فى حياته الخاصة ولحياته الخاصة ، لا خاتمة واحدة ، بل عدة من خواتيم ، ربما تمثلت فى عدة من تجارب سابقة له ، وليس من الضرورى أن تكون وقعت لأخ أو أب أو قريب أو صديق أو حتى تسامع بها » .

□□ ومع هذا لا ينكر الدكتور زكى الفائدة التى أفادتها البشرية من هذا الرأى ، فيقول : «الرأى بأن التاريخ يعيد نفسه ، صح أو لم يصح ، كان له نفع لا شك فيه . من ذلك أن الناس تدرس التاريخ ، وترى أوضاعًا ماضية تشبه أوضاعهم الحاضرة ، وتخشى أن تحل بهم النتيجة التى كانت فيقومون فوق رجل واحد يحولون بينها ، وفى هذا نفع كبير » .

□

على هذا النحو كان أحمد زكى يتأمل علاقة الإنسان بالزمان مرة فى فهمه الواعى للحقيقة ، ومرة أخرى فى تقليبه لوجهات النظر حول حتمية التاريخ ، ثم إذا هو فى إطار ثالث يتناول بعدًا ثالثا للعلاقة نفسها ، وهذا هو ما نجده فى مقاله الذى نشره قبل وفاته بمدة وجيزة (العربى ١٠/ ١٩٧٥) تحت عنوان : « الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الإنسان من قديم العصور والأزمان » .

وأحمد زكى يتقدم لنا بثقة شديدة بوجهة نظر متميزة تجاه هذه الجزئية فيقول : « إن الإنسان خلق أعمى رغم ما له من عينين من قديم العصور أذن لهما فقط أن يبصرا ما أذن لهما أن يبصراه ، والإنسان قد يكون أشد جهلاً بالذى خرج منه النور أو وقع عليه النور ، والنور قد يبهر ، فيحسبه الإنسان علما ، ثم لا يكون إلا وسيلة لتغطية سر مكنون ، وكم فى الدنيا من خفاء يسطع من الغباء » .

« وإذا كان العلماء حاولوا أن يغوصوا بعلمهم فى غياهب الماضى فما اهتدوا ، فهم أقل اهتداء وهم يغوصون بعلمهم فى مجاهل المستقبل ، وهى أعصى وأخفى وأعسر » .

بقيت نقطة فى هذه الجزئية لا بد منها قبل أن ننتقل إلى الجزئية التالية ، ولعلها هى الحلقة الرابطة بين الجزئيتين ، ولابد لنا أن نعود مع أحمد زكى إلى مقاله عن التعميم والتخصص فى

الدراسات الجامعية (العربي ١٠/ ١٩٧٢) لنجده وهو يناقش قول الـذين يقولون إن أهل العلم الطبيعي أهل جفاء وقسوة ، ومـا يرتبونه على هذا القول من أن أحكـام أهل العلم بعيدة عما تبتغيه الإنسانيـة ، وهو يـرد في صراحة وقـوة ووضوح على هـؤلاء بقولـه : إن هذا القـول ضلال كبير . . وأصدق منه أن تقول : إن أهل العلم الإنساني ومنهم الأدبـاء هم أهل العاطفة الأشد ، والعاطفة قد تكون خيرًا ، والعاطفة قد تكون شرا. وهتلر ما كان عالمًا طبيعيا ، وما كان موسوليني . كلاهما كان ذا قلب خفاق ، نبضاته تتصل بـأحوال الإنسان دون علوم الأرض ، وهما صنعا من الخراب ، ما لم يسبق مثله على سطح هذه الأرض » .

أرأيت إلى هذا الحل البديع الذي حل به أحمد زكي هـذه المشكلة الفكرية التي لا تفتأ تراودنا في كثير من الأحايين ؟ .

□

ثنائية المادية والروحانية

يتنـاول أحمد زكي المادية والـروحانيـة من الجانب الذي عـرضت المسألة نفسهـا فيه على فكـر الشرقيين ، حين ثار السؤال التاريخي عن إمكانيـة الجمع بين حضارة الغرب وروحانيات الشرق . ولسنا في حاجـة إلى تفصيل القول في هذه الناحية ، بقـدر ما نحن في حاجة إلى الـولوج مباشرة إلى حيث نـاقش الدكتـور زكي هـذه القضية ابتـداء حين حلل أصلهـا في مقال لـه (مجلة العـربي : ٤/ ١٩٧٤) فقال : «ولعل الحقيقـة أن العلماء اهتموا بالمادة قـوانين ، واهتموا بها مظاهـر حياة ، وظواهر كون ، لأن عندهم الوسائل المادية لبحثها ، وسكتوا عن الروح لأنها أعصى من أن يتناولها بحث أو يحوزها مختبر ، فاتخذ أكثـر الناس من هذا السكوت عن الروح إنكـارًا لها . والحق أنه كان عند العلماء الأحدثين إيمان بـالروح بالقدر الذي عنـد غير العلماء إثباتا ورفضًا تبعـا لما آمنوا به من دين ، أو ما اتبعوا من فلسفة ، أو ما اتفق لهم من مزاج» .

« على أن الأمر تبدل أخيرًا ، وأدرك العلماء أنه ليس من الجائز عند عالم أن ينكر ما لا يعلم ، أو ما لا يستطيع علمـه . وغير ذلك اتضح للعلماء أن مسألة الـرفض لا تكون بهذه السهـولة ، وأن تسلسل الظـواهر الحيويـة ، وتتابع بعضهـا وراء بعض في منطق عجيب ، وهدف بـل أهداف في

الحياة واضحة ، تشير كلها إلى أن للحياة تخطيطًا وتـدبيرًا لا يمكن أن تقوم به وحدها المادة الصماء الخرساء » .

لهذا يبدو أحمد زكى وكأنه لا يتطرق إلى لب المسألة إلا بـالقدر الذى يعرض فيه لآراء ووجهات نظر أصحاب المذاهب فيها ، على النحو الذى نعهده منه حين يتناول القضايا الخلافية . ولكنه مع ذلك يعقب فى فبراير عام ١٩٧١ بقـوله : « على أنـه لا يفوتنى أن أذكـر أن الذين يقـولون بـالمادة والروح شيئين متفـاضلين أو بالجسم والعقل ، هؤلاء كانـوا أهدى سبيلاً وأكثر اتبـاعًا من الماديين الذين رفضوا الروح أو ارتابوا فيها » .

وأحمد زكى يعتقد أن القـول الفصل فى هذه المسألـة لا تملكه إلا « النفس » وهـو نفس منطقه فيما يتعلق بكثير من أمـور الغيبيات : « الحجـة الأقوى عندى هـى ما يجده كل إنسـان فى دخيلة نفسه . لكأنى والله بنفسى نفسان لا نفس واحـدة . وتحدث إحداهما الأخرى وتجادلها ، فكيف لا يكون لهذه النفس وجود رائع هو بعض وجودى » .

على أنه يبدو لى أن البحث عـن وجوه أعمق للحقيقة فى مسألة المادية والـروحية لم يكن الشغل الشاغل لعالمنا بـالقدر الذى كان يحتله أمر آخر ، استـولى على اهتمام أحمد زكى ، وهو إيمانه بأهمية إقناع العقل العـربى بأنه من الممكن أن يجمع إلى روحانيته خير المادة ، وخير حضـارتها . وهو فى هذا لا يـؤيد رأيه بالإيجابيـات التى حققتها الحضارة المادية ، يسردهـا على العقل العربى كما يفعل الكثيرون ، ولكنه يذهب مذهبًا آخر يبرئ فيه ساحة المادة نفسها مما ألحقه بها بعض أهل الفكر من عيوب واكبـت حضارتها ، فاستحقـت بسببها نقد هـؤلاء ، وخوف أولئك من تلـك المادة والمادية والحضارة المادية : «ولا أستطيع أن أقنع نفسى بأن إنسانا ـــ كان ما كان ـ يستطيع أن يتقرب إلى الله بذم خلق الله ، فـالأجسام مادة ، وهى من خلق الله . فكيف تكـون هى بعد ذلك شرًا فى ذاتها . وكيف يقرب إنسـان إلى الله بنفى مقاصـد الله فى مخلوقاتـه . إن شهوة الطعـام من صنع الله . وما صنعها إلا لهدف . وشهوة الجنس من صنع الله ، وما صنعها إلا لهدف . هدف الأولى وصل الحياة فى الفـرد . وهدف الثـانيـة مواصلـة إسكـان الأرض . وإن كان بهما مـا يعـاب ، فهو الإفـراط أو التفريط . ولا أكاد أصدق أن رجلا يؤمن بـالله يذم المادة أبدًا ، بمعناها الخلقى (بتسكين اللام) . أما معناها الخلُقى (بضم اللام) فهى الأنـانية والبخل والحرص ، فمقبول معنى ، مرفوض لفظًا . قل إن الـرجل بخيل ، أو محب للمال ، أو مفرط فى شهـواتـه ، أما إنـه مـادى : فلفظ فيه التبـاس كريه» .

ويتطرق أحمد زكى إلى مناقشة الأثر السيئ الـذى تركته تلك الفكرة على تصرفات وسلوك كثير

من البشر ، فتركوا العمل إلى اللاعمل . وعبارته فى هذا المعنى أوضح من أن نقدم لها ، وأشهى من أن نتأخر بها عن قارئنا . يقول أحمد زكى (مجلة العربى : ٧/ ١٩٦٦) : « ولا ننسى العرق الصبيب ، فهذه الحياة عرق صبيب ، إنه العرق الصبيب ، أو الفقر الذريع . ومن أجل هذا وجدنا أكثر شعراء هذا العصر فقراء ، لأنهم عدوا النزول من أبراجهم التى أقاموها عالية ، إلى الأرض الدنية يتفهمون الحياة كيف تجرى ، والمال كيف يحصل ، والإنتاج كيف يكون ، والأمعدة كيف تملأ ، والأجسام كيف تكسى ، إنما هو هبوط إلى عالم المادة ، عالم الانحطاط والتردى » .

□

ويبدو لى مرة أخرى أن الدكتور أحمد زكى ينظر إلى مسألة المادية والروحانية من منطلق صوفى عملى إن جاز هذا التعبير وهو يقول (مجلة العربى : ٥/ ١٩٦٣) عندما يتحدث عن هذه المسألة عرضا : « . . . . حياة المدنية الحاضرة التى يحلو لكثير من الرجعيين أن يسموها مدنية مادية ، تحقيرا لها وتهوينا من شأنها ، هى مصدر للروحانية قد يفوق المصادر جميعا . . . . » .

وفى موضع آخر يفصح الدكتور زكى عن هذا الرأى ويزيده إيضاحا ، فيقول :

« وعندى أن رجلاً عاملاً يقف الثمانى الساعات كل يوم أمام الآلة تتسخ يده بمسها ، وينال قميصه غير المحمود من زيتها ، ويعود فى آخر اليوم إلى بيته ، ينفق مما كسب على أهله ، طعامًا هنيئًا وكساء سابغًا ومسكنا طيبًا ، وترفيها ما استطاع ترفيها ، ويسجد لله يحمده على ما كسب ، هذا الرجل وهو يعمل فى المادة لينعم هو وأهله بالمادة ، روحانى فى الصفوف الأولى من الروحانيين ، وحسبه من روحانيته أنه أحيا بعمله فى المادة لإنتاج المادة أرواح ذرية مساكين ، وكل ذرية مسكينة لأنها على الصغر بالعجز موسومة » .

□

هل لنا بعد كل هذا أن نختم هذا الفصل بعبارات لأحمد زكى عبر فيها عن أمله فى أن تهتدى الإنسانية إلى وجه الحق فى مسألة المادية والروحانية (من جانبها النظرى) فيقول : « وكل الذى

أرجوه أن يتحقق عندى أن تكون أنفس هؤلاء الرجال ـ بعض أصحاب الرأى فى مسألة المادية والروحية ـ قد اطلعت من بعد موت على حقيقة الحال ، ووددت لو أنهم استطاعوا بعد ذلك أن يتصلوا بذوى القيمة من الرجال ، وأن يفضوا إليهم بالسر الأكبر الذى كشف لهم عنه الموت» .

« وذلك رجاء أن يهدئ الرجال الأحياء من جدلهم ، ويقدروا حقيقة ما يستطيع الفكر الإنسانى كشفه فى فترات من الزمن قصار ، هى فترات أعمارهم ، وأن يصبروا فما أسرع ما سوف تتكشف لهم الحقيقة عندما تفترق أجسامهم ، وهى مادة ، عن أرواحهم ، وهى لطافة ، وأحسب أنهم عند ذلك سوف يدركون أن الإنسان مادى وروحى فى آن » .

المصـــادر :

- «الكرة التى تحمل فوق عنقك» (الهلال : ٩/١٩٤٨) = الفصل الثانى عشر من «ساعات السحر» .
- « الذرة تشق طريقها إلى الصناعة وسائر مرافق الحياة شقا حثيثًا » (العربى : مايو ١٩٦٣) .
- «الجدل أكثره مجهود غيرنا » (العربى : أكتوبر ١٩٦٣) .
- « خدعوك فقـالوا : تغير الزمان ومـا تغير الزمان ولكن تغيرت أساليب البغى والعـدوان » (العربى : إبريل ١٩٦٥) .
- « عقل الإنسان ميزان غير ثابت على الزمان (العربى : يونيو ١٩٦٧) .
- « هذه المدنية زادت الناس تجميعا أم تشتيتا » (العربى : إبريل ١٩٦٨) .
- « التاريخ قال قائلون إنه يعيد نفسه وقال آخرون إنه لا يعيد » (العربى : إبريل ١٩٦٨) .
- « العقل والإيمان : عينان بهما يبصر الإنسان سبل الحياة ويهتدى » (العربى : نوفمبر ١٩٦٨) .
- « المادية والروحية عند الفلاسفة » (العربى : فبراير ١٩٧١) .
- « بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية » (العربى أكتوبر ١٩٧٢) .
- « المادة والمـادية والروح والروحـانية وسـؤال المادة والمـادية فى العـربية » (العربى : إبريل ١٩٧٤) .
- «الحضارة الحاضرة سبقتها حضارات كثيرة» (العزبى : يونيو ١٩٧٤) .
- « الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الإنسان من قديم العصور والأزمان » (العربى أكتوبر ١٩٧٥) .

الفصل الرابع

فن الحياة ومعناها

لا بد من الغاية فى الحياة ، وكيف يكون النجاح بدون غاية ؟ بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

يتناول هذا الفصل عشر جزئيات تدور فى فلك الحديث عن فلسفة الحياة عند الدكتور زكى . وقد تعرضنا فى الباب الأول لحياة الرجل وحرصنا على أن نبين فى كل موضع فلسفته فيما انتهجه فى حياته ، ولسنا هنا نفلسف لحياته من وجهة نظرنا بعد ما عبرنا عن وجهة نظره هو ، ولكننا نعرض فلسفته التى أراد للناس أن يأخذوا بها فى حياتهم . ولم تكن هذه هى الفلسفة التى صاغت حياة أحمد زكى ، ولكنها كانت الفلسفة التى صاغتها حياة الدكتور زكى الطويلة العريضة العميقة . وأولى هذه الجزئيات هى طبيعة الحياة ، الحياة على وجه العموم ، والحياة فى هذا الزمان . وثانيتها تتعلق بحظوظ هذه الدنيا ، وما فيها من ثنائيات قد لا تسر المرء فلا يرضاها ، ولكنه إذا أراد أن يعيش فلا بد له من الأمر ونقيضه ، والأمل وخيبته ، و . . . . ، . . . . وثالثتها تتعلق بترديد أحمد زكى فى شبه اقتناع لنظرية الأبقراطية فى أن امتناع الألم هو سبيل

السعادة، وأن انعدام الشقاء هو اللذة . ورابعتها تناقش معنى النجاح فى الحياة . وخامستها تركز على « الغاية » من الحياة ، وأهميتها فى صنع النجاح ، وفى تقدير النجاح .

ثم يتطرق بنا الحديث فى الجزئية السادسة من هذا الفصل إلى ما كان أحمد زكى يعتبره أنجح الوسائل لاختيار البديل فى طرق الحياة عندما تفترق بالإنسان ، وأنجح الوسائل عند أحمد زكى هى «الفطرة » . ولهذا فإن النقطة التالية (السابعة) تحلل فلسفة الحياة مع النفس ، على حين يدعو الدكتور أحمد زكى(فيما جعلناه ترتيبا (الجزئية الثامنة) إلى التركيز على الحاضر وضرورة الاستمتاع به . ثم تتناول الجزئية التاسعة آراءه فى علاقات المرء بالناس من حوله ، ونظريته فى ذلك أن العيش المعاملة (على وزن الدين المعاملة) . ونختم هذا الباب بتحليلات شائقة للدكتور أحمد زكى يناقش فيها مصائب الدنيا كيف تهون ؟ وهى مناقشة علمية طريفة سوف تمهد للفصل التالى إن شاء الله .

□

الحياة فن لا علم

كتب أحمد زكى مقالا يذخر بالحيوية (الهلال : ١٢/ ١٩٥٠)، تحت عنوان « الحياة فن عسير » جعل موضوعه قصة شاب نابه نابغ ، استكمل تعليمه فى كلية الطب ، وخرج إلى أوربا ، فعاد منها بأرفع الشهادات مستوى ، وكان له من العلم مستوى أرفع . فلما أخذ يعامل الناس كطبيب لم يحظ بالنجاح الذى حظى به من هم دونه بمراحل علما وخبرة وشهادات . هذا هو ما يعنينا من التفاصيل الطويلة التى رواها أحمد زكى فى أمر هذا الشاب ، وما ناقشه من أسباب فشله فى ممارسة الحياة . ولعلنا نأخذ هنا تلك العبارة البليغة المركزة المؤثرة التى روى بها أحمد زكى سبب فشل هذا الشاب حين قال : « **إنه خرج إلى الناس لا خروج إنسان ولكن خروج كتاب**» .

« ذلك أن الحياة علم ، وأن الحياة فن ، ولكنها علم لا تلقى دروسه فى حجرات المدارس ، وفن لا يتعلمه الإنسان فى مرسم أو منحت أو متحف فنون . وليس للحياة علاقة بشهادات المرء ولا مؤهلاته ، فهذه لا تغنى شيئًا عن صاحبها إذا اخترق الشارع خطأ فداسته سيارة ، وليس يعفيه من عاقبة خطئه أنه محام كبير أو عالم جهبذ ، ذلك أنه لا المحاماة ولا العلم تعلمان اختراق الطريق أو إحسانه .

وقد تجد رجلا لم يتعلم ولم يتفقه ، ولكنه فى الحياة ناجح وهو فيها سباق ، ذلك لأنه تعلم

الحيـاة لا مما تجمع مـن علومهـا وتبـوب ، ولكن من ذلك الجانب الأخفى الـذى يتعلمه الإنسـان ممارسـة بالعيش ، واحتكاكـًا بالناس ، وتـدربًا على تصريف الأمـور ، وهى فى مجاريها الطبيعية من سطح هذه الأرض .

□

ونعود مع أعداد مجلـة الهلال حوالى عشرين شهرًا لنقرأ لأحمد زكى مقالـه « الكذب : فى قديم الزمـان وحديثـه » ، (الهلال : ٤/ ١٩٤٩) ، وهو مقال يحفل بعقيـدته الراسخـة فى صعوبـة الحياة وسوف نجتزئ من هـذا المقال بقوله : «وصنـاعة العيش مرهقة ، والطبيعـة ، والطباع ، وأوضاع الحياة كثيرًا ما تكون مجحفة ، وهذه الأرض البسيطة ما بسطت ، لتكون أرضا حراما و إلا فما فضل المساجد والكنائس والبيع ؟ ! » .

هذا عن الحياة فى عمومها ، فماذا عن حياة اليوم ، حياة القرن العشرين ؟ هذا هو ما نقرأ أفكار أحمد زكى عنـه بعـد ربع قـرن مـن أفكـاره الأولى وذلك فى الجزء الثـانى من حـديث الشهـر (العربى : ٤/ ١٩٧٥) ، تحت عنوان « دنيانا هذه مريضة تزداد مرضًا عاما بعد عام » حيث يقول : « إن سرعة الحياة فى القرن التاسع عشر غير سرعتهـا فى القرن العشرين ، الحياة تتسارع على القرون ونعم تظل ضربات القلب فى إنسان القرون واحدة ، وعدد الأنفاس فى الدقيقة واحدًا ، ولكن غير ذلك ما تجرى به الأقدام وتختلج الأدمغة وتضطرب به القلوب والرءوس . . . » .

ولكن هذا لا يبرر الهرب من الحيـاة ولا من معاملة النـاس ، مع أن الحياة فن صعب ومعـاملة الناس هى أصعب أشياء هذا الفن مـراسًا ، وهذا هو ما يؤكد عليـه أحمد زكى فى مقاله «الحياة فن عسير» :

« وقد ينجح الهارب من الحيـاة ، ولكنه يكسبهـا ، عندئذ تبقى الحيـاة ، والهرب على كل حال هرب من تبعة ، والحياة ما كانت إلا لتحمل فيها التبعات ، والراحة آتية لا شك فيها ، وهى رقدة تطول لا تتغير فيها جنوب الراقدين ، فلم نستعجلها ، ولم ننكر الحياة ، وفى صدرنا أنفاسها؟» .

ويلتفت الدكتور أحمد زكى بعد هذا ليقول : « أقول هذا ليسمع عنى السامعون ، وأذنى بالذى أقول أولى » . أليس فى هذا تأكيـدٌ للمعنى الذى أشرنا إليه فى مقدمة هـذا الباب ؟ ألم يكن الرجل ينصح الناس بما وجده فى حياته وإن لم يكن قد التفت إلى أهميته فى بعض الأوقات

□

وفى مقال « تحرك الزمن ، فتحركت همومه » (الهلال : ١٢/ ١٩٤٧) ، وهو الفصل الثانى والعشرون من « ساعات السحر » ، يتحدث أحمد زكى عن نوعين من البشر ، ويقارن بينهما . ويعبر عن أمله أن يتعظ الناس برأى شيخ كان يرى فى الدنيا ثنائياتها ، ويؤمن بتتابع هذه الثنائيات ، وبتواليها ، وبوجودها معا : « حكمة بالغة تلك التى علمها إياى هذا الشيخ فى زمانه . إنى على الجوع لا بد أن أذكر الشبع ، وعلى الشبع لا بد أن أذكر الجوع ، وفى الخيبة لابد أن أذكر النجاح ، وعند النجاح لا بد أن أذكر الخيبة ، وفى كدر الصداقة لا بد أن أذكر صفوها ، وعندما تصفو الصداقة يجب ألا أنسى كدرها » .

وأكثر من ذلك ، يذكر الدكتور أحمد زكى لقرائه أنهم لو تكاشفوا بها فى حياتهم لوجدوا أن الجانب الذى لا يسر فيها أكثر من الجانب الذى يرتاحون له . ويصوغ عالمنا هذه الفكرة فى قالب مؤثر فيقول : « إن الله أعطى الإنسان اللسان يكشف به عن نفسه ، ولكنه أعطاه كذلك الصمت يستر به على نفسه . ولو تحدث الناس بالذى فى طواياهم ، وصدقوا ، لعرفوا أن حظوظ هذه الدنيا من خوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء أكثر من قسمتها مما يسر ، ولو أن الناس نطقوا وأفصحوا عن نية خالصة ، لهان الهم بالشركة فيه ، أو لهان بالتعاون عليه واستئصال أسبابه» .

ويتوخى أحمد زكى أن يضع تصويرًا (طبيعيًّا) لحياة الناس بداياتها ونهاياتها : « إن حياة الناس كأنها الأرض ، لها منبع ، وبها مصب . ومن البحار تعود فتنشأ الأنهار، ومن الأنهار القصير السريع ، لأنه يهبط من جبل ، ومن الأنهار الطويل المتهادى لأنه يجرى فى انبساط ، ومن الأنهار المستقيم ومنها المتعوج حتى لتحسبه عائدًا من حيث أتى ، ومن الأنهار ما يضيق مجراها حتى لتحسب أنها تنضب وتجف ، فإذا بلغت مداها اتسعت فلا تكاد تؤلف بين هذه السعة وذاك الضيق ، ومن الأنهار ما تعترضه الشلالات ومنها ما يدور حول جزر ، ولكنها كلها تنتهى دائمًا إلى المحيط الأعظم فتنسى ، وينسى معها وجودها ، وكل ما كانت قد لقيت فى مجراها » ..

« وكذلك الناس ، يلقون ما يلقون بين شروق الحياة وغروبها ، وعند الغروب يستوى العظيم والضئيل ، والكثير والقليل ، وذو اللون الزاهى ، وذو اللون المعتم ، إن الألوان تتوحد بدخول الظلام » .

□

معنى السعادة

« السعـادة هى انتفاء الآلام » : معنى فلسفى قـديم ، لم يفتأ أحمد زكى يكـرر روايته حينـا على سبيل الـروايـة فحسب ، وحينـا على سبيل الـروايـة مـع الترجيح ، وحينـا على سبيل الـروايـة مع الإعجاب ، وحينا مع التزكية .

وسنجتـزئ هنـا ببعض الفقـرات القصيرة مـن مقـالـه « هكـذا أدبنـا أشيـاخنـا » الهلال : ٥/ ١٩٥٠) ، ومقاله «تحرك الزمن فتحـركت همومه » ، (الهلال : ١٢/ ١٩٤٧) ، وأكثر من حديث من أحاديث الشهر حسب ما يطالعه القارئ فى قائمة المصادر فى نهاية الفصل .

□ «والعـدم خير من الـوجوه الـذى يكـون شقـاء ، ويكـون ألما ، وانعدام الشقـاء أول خطـوات السعادة ، وانعدام الألم أول السبيل إلى اللذة .

□«لقد أوجب أن تكون حياة العاقل منا لا سعيا دائما إلى لذة ، ولكن تجنبا دائمًا للألم . إن السعادة فى الحياة قد تكون بالذى تأتى به الحيـاة من أفراح ، ولكنها تكون أكثر من ذلك بالذى لا تأتى به من أحزان ، وما كدح الناس فى الحياة وراء الغنى إلا دفع للفقر لأنه ألم» .

ولا يقف أحمد زكى عند حدود الأبوقراطية القدمـاء وحدهم فى هذا الفهم ، ولكنه يبدى اقتناعًا بها فى فلسفة أرسطو حين يقول : « العاقل لا يهدف إلى اللذة فيطلبها ولكن إلى الألم فيتحرر منه » ، وفى أقوال فولتير حين يصور الأمر بطريقـة أخرى فيقول : « إنا نحس السـرور حالمين ، ولكنا نحس الأحزان أيقاظا » . أما القول بأن أحمد زكى كان من هؤلاء فأمر لا يزال دليلنا عليه يعوزنا .

□

معنى النجاح

وماذا عن النجاح فى الحيـاة ، إن أحمد زكى يخصص مقالا (مجلة الهلال : ٣/ ١٩٤٧) ، تحت عنوان « أصحابى الذين خابوا » يناقش فيه الأسباب التى حالت بين هؤلاء ، وبين النجاح .

ويلخص أحمد زكى عوائق النجاح بعـدما أفاض الحديث فيها على نحو لابد من الـرجوع إليها للباحثين عن النجـاح ، والمعانين فى سبيل البحث عنه ، ولكن لا بـد لنا من أن نجتزئ هنـا هذه الفقرة :

« فدون النجـاح فى الحياة عوائق ، هى ضروب ثلاثـة ، عوائق من طباع ، وعـوائق من بيئة ، وعوائق من فرص تأتى ثم تفلت ، وقد تتجمع فتجعل النجاح أعسر من دخول الجنة . ولكن كثيرًا ما يسعف الطبع وتسعف البيئة وتأتى الفرص فتقف عند بابك ، فتصبح الموانع من النجاح دوافع إليه ، وندر أن تجتمع كل هـذه دفعة واحدة لرجل ، إلا رجـلا اصطفته الآلهة ، كما زعم الإغريق ـ للإعزاز وللتدليل » .

ويبدو لى أن أحمد زكى بعـد ما حقق من نجاح ، وبعـدما استبـان له طريق الحيـاة بما فيه من دروب شاقة ، ومسالك وغرة ، وبعد ماجاءته الخبرة بالحياة قراءة وسماعا وملاحظة لخطى الناس ، ظل يؤمن إيمانًا لا شك فيه بضرورة المجاهـدة والمكافحة إلى أقصى مدى ، وفى كل لحظة وحين ، فـلا ميل إلى دعة ولا إلى هـدوء ولا ارتكان إلى صـدف أو ريـاح تأتى بما تشتهى السفن . ولعل فى هذه الفقرة ما يعبر عن حرارة هذا المعنى وتمكنه من نفس أحمد زكى .

« إن النجاح أكثر ما يكتسب غلابًا وصراعًا ، وكل رجل منا كالملاح فوق سفينته . فقد يسكن له الماء ويهب الريح على هواه ، ولكن الماء أكثر ما يكـون مضطربًا تنشره وتطويه الأمواج ، والريح أكثـر مـا تكون عـاصفـة هـوجاء ، فيعمـد الملاح عنـدهـا إلى مـا أسموه فى لغـة البحـار الصفح والإصلاح ، فيقتبس من الريح وهى تعارضه نصيبًا يدفعه ، يدفعه إلى حيثما يريد هو لا إلى ما تريد الريح ، ويصل إلى غايته أخيرًا ، وبعد مشقة وبعد زمن قد يقصر أو يطول ، وقد يطول الزمن فوق مـا يطول العمـر ، فيفنى الـرجل المجـاهد كما تفنى الموجـة فـوق سطح الماء ، وفى نفسـه لبانـة لم تنقض ، وفى قلبه من أجلها حسرة ، وقـد تنقلب به السفينة على الرغم من الجهـود الشاقة ، وعلى الرغم من المهارة والنية الصادقة ، لأن الموج كان أعتى وأغلب» .

□

الغاية وأهميتها

فى فهمه لمعنى النجاح فى الحيـاة يوافق أحمد زكى عامة. الناس إلى حـد كبير على فهمهم له بأنه النجاح فى الغاية ، فى النهاية ، يكسب السباق . هنا يكـون معنى الغاية وعلاقته بمفهوم النجاح

واضحين فى فكر الرجل ، وعبارته فى هذا صريحة : « والناس لا تفهم من الأشياء إلا غاياتها ، ولا ترى من هـذه المعارك الدائمة إلا خـواتيمها ، وهم فى سباق الحياة ، كما هم فى سبـاق القوارب ، يتكـوكبون عنـد الهدف الأخير يصفقـون للـرجل الـذى وصل أول واصل بأول قـارب ، أما سـائر القوارب فتنسى ، أو هى لا تنسى لأنها لم تذكر قط ، ولن تذكر أبدًا .

والنـاس من يلق خيرًا قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطئ الهبل»

ولكن أحمد زكى يتخذ من هذه النقطة بالذات مدخلاً إلى فكرة أخرى هى تقرير أهمية أن يكون للإنسان غـاية فى هذه الحياة ، يسعى إليها يـومًا بعد يوم ، وهذا هـو المعنى الذى كرره أحمد زكى مقالا بعد مقـال ، بل إنه يبدى تعجبه من أن يتحقـق النجاح وليس للإنسان غايـة يسعى إليها . وأحب أن أقول إن هذه الفكرة بالذات تبدو لى من أعظم أفكار مفكرنا الكبير ، ومن أروع الأفكار فى تفكيرنا العربى المعاصر، يظهر فيها واضحًـا أثر التفكير العلمى الذى يهدف فى الأصل والنهاية إلى إيجاد حل لمشكلة ! ! ويظهر فيها واضحًـا ـ من ناحية خرى ـ فكر الرجل الـذى كان يعرف ماذا يريد فحقق ما أراد .

لا بد من الغـاية فى الحياة . « وكيف يكـون النجاح بـدون غاية ؟ بل حتى كيف تكـون الخيبة بدون غـاية ؟ ذكرنى هذا بـالفتاة « أليس » فى الكتاب العالمى الشهير « أليس فى بـلاد العجائب » جاء فيه أن « أليس » وقفت عند مفترق الطرق ولا تدرى أى الطرق تأخذ ، وجاءت قطة تسعى . فنادتها الفتاة وسألتها : أى هذه الطرق آخذ ؟ قالت القطة : هذا يتوقف على أية غاية تقصدين ، قالت الفتاة : ليس لى غاية . فقالت القطة : إذن فخذى هذا الطريق أو هذا أو هذا» .

□

الاهتداء بالفطرة

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يسلك مسالك هذه الحياة الوعرة ؟ وما هو المعيار الثابت الذى يستطيع أن يقيس به الأمور إذا اختلطت عليه الأمور ، صـوابها وباطلها ، أو صوابها وصوابها ؟ إن أحمد زكى يؤمن بما يـدعو إليه الحديث الشريف من أن البر هو ما وافقـت عليه نفسك . وعبارات أحمد زكى فى هـذا واضحة صريحة لا تحتـاج إلى تعليق ، غير أننـا هنـا سنجتزئ مع إعـادة تـرتيب

لفقرات وعبارات الرجل فى هذا الموضوع وبخاصة تلك التى وردت فى مقاله « إلى أين المسير؟ »، (الهلال : ٢/ ١٩٥٠) :

□ «إن الذى أريده منك ، فيما ترتاب فيه ، أن تستوحى الفطرة ثم تسلم لها قيادك ، كما أسلمت الأم التى ترعى وليدها ـ ولو سألت المنطق لما وجدت سببا ، فحياتها ليست متوقفة عليه بل تسوء ـ فتخرج بك من الظلام إلى النور فتحسن العاقبة » .

□ « الفكر كالبصر له غاية ، وليس جواب « إلى أين المصير؟ » مما يدركه الفكر، ذلك لأنه جاوز تلك الغاية . وهنا تتدخل الفطرة فتهل حيث يعجز الفكر » .

□ « فطرتك هذه هى منار الهدى لك ، ما بقيت سليما ، هى مصباحك الذى ينير لك السبيل ما حافظت عليه . فلم تأذن لأحد أن يفسد زيته ، أو يعبث بفتيله ، أو يحطم زجاجه . فطرتك هذه هى فى داخلك تستخدمها وتستمد منها العون فتغنيك عن عون يأتيك من خارجك . إنك إذا تبعت ما توحى به الفطرة سلمت عاقبة » .

□ « وإنى بالفطرة أحس دبيب الفرح فى قلبى : إن هذا الخلق ما كان عبثا ، وإن هذا الفكر الذى أفكر به لا يجوز فى إحساس الفطرة أن يكون ثم لا يكون وإن هذه الدنيا لها ما وراءها» .

□ « ما خشيت الزمان ، وما خشيت الكهولة ، ولن أخشى الشيخوخة، لأنها الفطرة، والفطرة عودتنى ألا يكون منها إلا الخير. وأنا لن أخشى ما وراء ذلك لأن الفطرة تريده ، والفطرة طيبة خيرة ، فهذا ما علمت منها فى سابق الأيام » .

□

ومن الطبيعى إذا كان لفطرتك التى هى بعض نفسك كل هذا الدور فى تحديد مسار حياتك ، فلا بد لك من التوافق مع هذه النفس ، وأن تكون و إياها فى انسجام ، وهدوء بال . ولا يجد أحمد زكى حرجا فى أن يعبر عن هذه بمثل واقعى من الحياة ، وذلك أن الدكتور عبد الجليل الجوادى كان أستاذًا للنبات فى جامعة مصرية (هى جامعة الإسكندرية) وأصابه من الناس فيها عنت

ومشقة ، وأوذى فى عمله ، فظن أن فى الهجرة خارج مصر متنفسا له ولعلمه ، وترك البلد ، وسافر ، فعمل فى أمريكا ، وما لبث بها وقتا قصيرًا ، حتى كان أحمد زكى هناك فى رحلته التى استطلع فيها أحوال مراكز البحث العلمى فى البلد الكبير ، فطلب مقابلته . وقابله ، واستمع أحمد زكى منه إلى قصته ، وما عاناه ، وحاول أن يرغبه فى العودة إلى الوطن بعد عام أو عامين ، فوجد عند الدكتور الجوادى رفضًا وتصميمًا شديدين . ثم مرت فترة قصيرة ، وأتى الدكتور أحمد زكى الخبر بأن الدكتور الجوادى أنهى حياته منتحرًا . ويحكى أحمد زكى هذه القصة مشيرًا بصراحة إلى اسم العالم المصرى فى مقاله « هربوا من الحياة ، فلاحقتهم » الذى نشره فى الإثنين ، ثم أعاد نشره فصلاً فى كتابه «ساعات السحر » .

ويقول أحمد زكى : « إن صاحبنا الذاهب أصابه فى مصر من الناس لاشك شىء كثير ، ولكن أكثر ما أصيب به كان فى نفسه ، تلك النفس الحساسة ، القلقة ، المريضة ، التى أخذت تدفع لوم الناس بلوم ، وترد لهم التهمة بتهم ، وتتلقى البصقة القليلة تلوكها لتردها إليهم أكبر حجما وأكثر لزاجة ، حتى حصلت من خصومة الناس هم الحياة ، وشغلها المرض والقلق والحس المرهف عن القعود فى هدوء تدرس فيه أسباب كل هذا الشغب لتبدأ بنصيبها من إصلاحه ، بل لعلها عرفت بالحس الخفى ما سوف يؤدى إليه هذا القعود ، وكرهت نصيبها من الإصلاح ، فآثرت عليه لفحة الخصام ووطيس الحرب » .

« وذهب الدكتور المسكين ذلك المذهب البعيد ليبرأ من الناس ، وبرئ ، ولكنه لم يبرأ من نفسه ، لأنه لا يستطيع البعد عنها ، وكيف وهو يحملها بين جنبيه؟! » .

ويستطرد أحمد زكى من هذه النقطة إلى القول بأن الأسرة قد تكون هى الأخرى عاملاً تضيق به نفس الإنسان ، فيخرج عن طوقه . وقد تكون هذه النقطة بعيدة عن الترتيب الطبيعى لهذا الباب ، ولكن لابد لنا من أن نطالع فكرة أحمد زكى عن أثر الأسرة فى التوافق النفسى :

«وآخرون عرفناهم لم يضق بهم وطن ، ولكن ضاقت أسرة ، واتخذوا الزوجة من بعد الزوجة ، وحسبوا فيمن تركوا السوء ، وفيمن استجدوا الخير ، وتكذب التجربة ، فيعودون يطلبون الزوجة الصالحة ، وما فى الزوجة الفساد ولكن فى الزوج ، وأنى له أن يرى ؟! ولم تخلق بعد المرأة التى يرى بها الرجل نفسه كما يرى وجهه ، إذن لعلم أنه فى مهربه إنما يهرب من نفسه ، وهو لا يستطيع منها هربا ، وأنه لا يستطيع أن يجد الزوجة الصالحة ولو بلغ الزوجات ألفا ، وأن عليه أن يطلب أول ما يطلب ، النفس الصالحة » .

ويؤكد أحمد زكى على أهمية فكرة الرجوع إلى النفس للاستهداء بها فى كل ما تفترق فيه الطرق ، وهو هنا يؤكد على النسبة بين النفس والدنيا ، لا تقليلاً من شأن النفس ولكن تقريرًا لقيمتها الحقيقية ، وهى عظيمة !

«إذا ما ضقت أو قلقت ، فارجع إلى نفسك ، وانظر ما بها . ، إن الدنيا كبيرة عظيمة لا يمكن أن يغير الفرد ما فيها ، ولكن النفس صغيرة قليلة ، وهى ملك صاحبها ، إذا لم تكن غلبته تملكه ، وإذا ضاع اتساق بين كبير وصغير ، وكثير وقليل ، أعيد الاتساق بتعديل القليل الصغير ليتفق مع الكثير الكبير ، فعدل من نفسك تتعدل الدنيا » .

□

يحث أحمد زكى قراءه على ضرورة الاستمتاع بالحياة ، لا استمتاع اللاهى العابث ، ولكن استمتاع المقدر للحلاوة والمرارة والعامل للحياة وما بعد الحياة .

وفى مقاله « الحرب اليوم علم وتكنية » (مجلة العربى : ٣/ ١٩٦٩) ، لا يجد أحمد زكى بدًا من أن يقول فى وسط الحديث عن هذا الموضوع الخطير الذى هو الحرب :

«ويجب أن تستمتع بالحياة ، وتهمس لها . تستمتع بحلوها وملحها وبحاذقها ، ولا تجعد الوجوه تقززا من مرها لأنه كائن ، وكل كائن هو بعض الحياة . فإذا جاءنا المر ، ونحن فى نشوة من حلاوة ، وجب أن نقف بالحلو عند غايته ونقول للمر تقدم فما عليك من بأس » .

« نعم يجب أن يتعلم ــ الشباب منا والرجال ــ أن الدنيا ورد وأشواك ، وأن الله ما جمع الورد والشوك على ساق واحدة عبثا . إنها رمز الحياة » .

وفى حديث له عن الإجازات والاستروا‌ح ، بعنوان « أخذت إجازة من نفسى » (الهلال : ٧/ ١٩٥٠) ، يقول أحمد زكى : « إن أكثر ما يعكر على الإنسان صفو الحياة ، تلك اللفتة التى يلتفتها المرء إلى الوراء إلى الأمس ليذكر . . أو امتداد العنق لتنظر عليه إلى أمام إلى الغد» .

« إن الرجل فى إجازته يجب أن يتذكر حاضره . يجب أن يأخذ إجازة من نفسه ، من ماضيها ومن مستقبلها ، و ألا يعنى بغير الحاضر . يجب أن يحزم فى حقيبته ما شاء إلا الهم همًا سلف ، أو همًا يستقبل » .

□

يستلفت عـالمنا النظر إلى الأهميـة القصوى لحسـن العلاقة مـع الناس ، وهو يـؤمن بصعـوبة تحقيق هذا الخلق ، ولكنه يـؤمن أيضا بأنه ممكن وليس مستحيلاً ، وهو يسمو بمكـانة وقيمة هذا الخلق إلى درجة رفيعة ويؤكد على أهميته المرة تلو المرة ، وبخاصة فى فصول كتابه « ساعات السحر» التى كانت فى الأصل مقالات فى مجلتى الإثنين وفى الهلال فى أواخر الأربعينيات ، وهى الفترة التى بدأت فيهـا عناية الدكتـور أحمد زكى بالحديث عن فلسفة الحيـاة وفى هذا المعنى يقول : « قـالوا إن الدين المعاملة ، وأقـول إن العيش المعاملة . المعاملة بين الناس شاقـة حتى على النية الحسنة . إنه العيش المعـاملة بين شيئين قلما أن يكـونا خلقا ليتفقـا ، والتنسيق بين أمريـن قلما أن يكونـا وجدا ليتسقا ، والتعشيق بين ترسين من فولاذ فى مكنة الحياة ، قلما أن يكونا صبا ليتعشقا » .

وهكذا يمضى أحمد زكى ليقنعنـا فى عبارات مطولة بأننـا قد ننكر من الطبيعة الجامـدة أشياء كثيرة ، حـرا ، وبردًا ، ومطـرًا ، وجفـافًا ، وربما رمـالا ، ومع هـذا نصبر على أسواء الطبيعـة : الحياة، وأحداثها ، وأجواء الناس .

ويخلص أحمد زكى بنـا إلى الفكرة المحـوريـة حين يقـول : « إنك لا تستطيع أن تكون هـذا أو بعضه ، إذا أنت لم تكـن قادرًا على أن تجعل ما بينك وبين النـاس عامـرًا ، وأن تجعله مـوصولاً ، وتجعله صافيًا ، أو إذا هو تعكر ، أن تحتمل العكر ، وتحتمل القذى ، وتحتمل الأذى » .

« إنك يـا صـاحبى ذو حس مـرهف ،تسيئك الكلمـة النـابية ، والنظـرة الجافيـة ، والفعلـة النكراء، فتجفل منها ، وتعطى ظهـرك للدنيا . إن الذى أريده منك أن تفعل كـالقطط ، تقذفها الناس بـالأحجار ، ولكنها تثبت على البيت الـذى خرج منـه الحجر ، لأنها تعلمت بالتجـربة أن البيوت كلهـا بها محصول من الحجـر وافر. سـوف لا يغنيك أن تتحول عما أنت فيـه ، فإنك حيثما تحولت ، ستجد الأرض هى الأرض ، والسماء هى السماء ، والناس هم الناس » .

□

قد لا يكون من قبيل التكرار أن نستشهد هنا فى معرض الحديث عن تهوين الدكتور أحمد زكى لمصائب الدنيا بقولٍ له تناولنا معناه فى الجزئية الثانية من هذا الفصل حين أردنا أن نعبر عن فهمه لثنائيات الحياة ، وهذه الطبيعة الثنائية فيها ، يقول أحمد زكى : « إن الله أعطى الإنسان اللسان يكشف به عن نفسه ، ولكنه أعطاه كذلك الصمت يستر به على نفسه . ولو تحدث الناس بالذى فى طواياهم ، وصدقوا ، لعرفوا أن حظوظ هذه الدنيا من خوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء أكثر من قسمتها مما يسر، ولو أن الناس نطقوا، وأفصحوا عن نية خالصة لهان الهم بالشركة فيه ؛ أو لهان التعاون عليه واستئصال أسبابه » .

وجوهر فلسفة التهوين فى الفقرة السابقة هو المشاركة (الشركة) أو التعاون . على أن هناك فلسفتين أخريين للتهوين : الثانية عبر عنها الدكتور أحمد زكى فى مقاله « تحرك الزمن فتحركت همومه (الهلال : ١٢/ ١٩٤٧)، وتكمن فى توحد المكان على نحو ما يحدث فى ميدان الحروب حين يموت الجمع مرة واحدة :

« والإنسان يفقد أمه أو أباه ، أو يفقد ولده ، ولا يكاد يخطر له فى بال أنه فى تلك الساعة ذهب عن الدنيا ألوف من آباء وأمهات وأولاد ، جمع بين أحداثهم الواحدة ، الزمن الواحد ، وفرق بينها المكان . ولو توحد المكان ، لهان من الأمر ما هان ، لهذا كان موت الميدان ، فى الحروب ، أخف من موت الفراش فى الأسرة ، هؤلاء يموتون جماعة ، وهؤلاء فرادى . ومن الأحداث ما يجمع بينها المكان الواحد ويختلف الزمان ، ومن ذلك ذهاب الجد والأب والولد من بيت الأسرة الواحدة يمضون على أحقاب متفرقة ، فيزيد فى ألم الشتات اختلاف الزمان ، لارتباط بحاضر ، وتعلق بماض ، وتربص بمستقبل » .

أما الفلسفة الثالثة فتكمن فى الإحساس بالزمن الجارى الذى لا يدع لك فرصة للتفكير الطويل فى مسألة الفاجعة : « إن الإحساس بالزمن الجارى ، يذهب عن الناس بشىء كثير من مواجعهم ، ويذهب كذلك ببعض مفارحهم ، وهو فى الحالين كسب ، لأن مبناه فى الحقيقة الشعر والخيال » .

□

ولنا بعد هذا كله أن نسأل القارئ هل وجد فى هذا الفصل ما قد يفيده فى فن الحياة، أو فى أن يحيا الحياة كما أرادها الله ، أو كما يريدها لنفسه ، أو كما أرادها أحمد زكى ؟ أو هل خرج القارئ بنتيجة تيسر عليه أن يفهم بعض فلسفة هذه الحياة الدنيا ، أو بعض أمور الحكمة فيها ؟ أو هل أضاف إليه شيئًا يستطيع به أن يحكم على موقفه من حياته أو أن يتحكم به فى مسارها؟ . أو هل أضاف هذا الفصل شيئًا إلى ثقافته ، ثقافته العامة ، أو ثقافة الحياة ؟ هل فتح عينيه على سعادة لم يكن يجدها ، أو على باب للسعادة لم يكن يعرفه من قبل؟ لو كان لهذا الفصل بعض هذا فإن للمؤلف أن يسعد ، ولو لم ينل هذا الفصل من قارئه بعض هذا أو لو لم ينل به قارئه بعض هذا، فإن أمام المؤلف ثلاث فلسفات للتهوين من أمر المصائب قد سردها المؤلف عن قرب فى الجزئية العاشرة، مع إيمان المؤلف أن أعماله مهما بلغت لا تصل إلى هذه الدرجة من الأهمية !

- « أصحابى الذين خابوا » (الهلال : مارس ١٩٤٧) = (الفصل الثامن عشر من ساعات السحر) .
- « تحرك الزمن فتحركت همومه » الهلال : ديسمبر ١٩٤٧ = (الفصل الثانى والعشرون من ساعات السحر) .
- « سلاسل وأغلال » (الهلال : ديسمبر ١٩٤٨) = (الفصل الحادى عشر من ساعات السحر)
- « دنياك لا تخشها أبدًا » (الهلال : يناير ١٩٤٩) = (الفصل السابع من ساعات السحر)
- « الكذب » (الهلال : إبريل ١٩٤٩)= (الفصل الثالث عشر من ساعات السحر)
- « إلى أين المسير؟ » (الهلال : فبراير ١٩٥٠)
- « هربوا من الحياة فلاحقتهم » الفصل السابع والعشرون من ساعات السحر، نشر قبلاً بمجلة الإثنين .
- « الحياة جسر لا بد أن يعبر » (العربى : مايو ١٩٥٩) .
- « هكذا أدبنا أشياخنا » (الهلال : مايو ١٩٥٠) .
- « أخذت إجازة من نفسى » (الهلال : يوليو ١٩٥٠) .
- « الحياة فن عسير . . استفد من تجاربى » (الهلال : ديسمبر ١٩٥٠) .
- « سألت عن السعادة » (الهلال : فبراير ١٩٥١) .
- « النجاح فى الحياة حظ » (الهلال : يونيو ١٩٥٦) .
- « الحرب اليوم علم وتكنية » (العربى : مارس ١٩٦٩) .

الفصل الخامس

العروبة

لا يخلص العـــرب فى النكبـــات غير العـــرب ، وغير التمسك بالوحدة عندما تمهد النكبـة للفرقة ، شريطة أن يكون عند كل بلد عربى ما يؤهله للوحدة .

سنحاول إن شـاء الله أن نركز الأفكار فى هـذا الفصل إلى أقصى حد ممكن ، بعدمـا أفضنا فى فصل سابق فى الحديث عن الفكر السيـاسى لأحمد زكى ، وقبل أن نتعرض فى الفصل السادس إن شاء الله لآرائه فى قضيـة الإسلام والعصر الحديث ، ولا بد أن نشير هنـا إلى أنه لا بـد للقارئ لكى يستكمل الصـورة فى آراء أحمد زكى فى مسألة الـوحدة العربيـة أن يرجع إلى الفصلين الـذين أشرت إليهما توا .

وربما تأتى أهميـة رأى أحمد زكى فى الـوحـدة العربيـة من سيرة حيـاتـه شخصيًا ، فهـو عـالم مصرى ، ذهب فأقام فى الكويت ، ليرأس تحرير مجلة تصدر للعرب أجمعين وتحمل اسم العربى .

والأهمية ليست شكلية فحسب ، ولا نظرية فحسب ، وإنما هى بالطبع أعمق من هذا وذاك .

تحدث أحمد زكى برأيه فى الوحدة : وجودها ، وحقيقتها ، وسبلها ، وكيف الوصول إليها ، فى كثير من أحاديث الشهر ، ولن نسرد هنا كل ما قاله ، ولا كل مقالاته ، وإنما سنمضى على نحو لا يرتبط بالترتيب التاريخى ، ولا بالاستقصاء ، ولكنه يرتبط بالقدرة على الإبانة عن أفكار الرجل فى هذا الشأن .

□

كتب الدكتور أحمد زكى فى افتتاحية المجلة (العربى : ١/ ١٩٦٦) يتحدث عن الأعوام السبعة الماضية من حياة مجلة العربى ، فأشار إلى أن هناك موضوعات تغلق دونها أبواب النشر فى العربى ، إذ لا يمكن معالجتها ودخول « العربى » بها فى كل البلاد العربية مع المزاج الفكرى الحاضر . وضرب مثلا بالاشتراكية ، ومثلاً آخر « بالوحدة العربية »، وذكر أنه إذا تحدثنا الآن عن الوحدة ، وتحدثنا صادقين ، وخلعنا أدب السياسة والساسة والعقائدية ، لقلنا إن الوحدة الشاملة الكاملة تراجعت اليوم فى حسبان العرب إلى حيث تراجعت بها التجربة المرة والأحداث . «والحديث اليوم أولى أن يكون فى وحدة كل قطر ، الوحدة الداخلية التى لا تكون وحدة خارجية إلا بها ، وحدة الكيان الذى فيه بناء الدولة . هذه الوحدة الداخلية فى حاجة إلى رعاية كثيرة فى أكثر البلاد العربية ، وإلى بحث كبير، وإلى حديث كثير، إذ كيف يمكن التوحيد بين وحدات هى فى داخلها متصدعة؟!» .

وبعد شهرين عاد الدكتور أحمد زكى (العربى : ٣/ ١٩٦٦) ليجعل عنوان حديث ذلك الشهر : «الوحدة العربية . . ليست شعارًا سياسيا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الأيام» ، فذكر أن كثيرًا قد أرسلوا يعاتبونه على هذا الكلام الذى كتبه . وأضاف أن أحدهم ناقشه فى رسالة ، ثم قال له فى آخرها : . . هب هذا حقا ، فما كان لرئيس تحرير «العربى» أن ينطق بمثله ! ! ولم يجد أحمد زكى حرجا فى أن يسخر من هذا الرأى بقوله : « عنده أن رئيس تحرير « العربى » يجب أن يكون حامل شعارات فى الأمة العربية ، دائمًا يصرخ بأخبار الشعارات ، ولو كذبا ، حتى تصبح الأمة ذات يوم فتجد العدو عند عتبات دورها يدق بكعوب بنادقه الأبواب» .

(ولنا أن نلاحظ أن هذا النص نشر قبيل النكسة بعام وشهور) .

ويؤكد أحمد زكى بعد هذا فى مقاله أنه ليس شىء أحق بالقول من هذا الذى قاله رئيس تحرير العربى فى ذلك المقال .

بل إنه يزيد فيقول : « إن الوحدة العربية فى ظروف التاريخ العربى الحديث ، ومع رواسبه ، هى كوارث » .

ويحذر من أنها « شىء لا يمكن أن يتقبله الناس على مستوى عواطف الجماهير والشعور العام وحده ، لأن وحدة تبنى على هذا المستوى تكون الشىء الطافى ليس لها قرار . ليس لها عمد متأصلة فى قاع البحر تعمدها . . إن تذوق الجماهير الوحدة تخيلاً غير مذاقها فعلاً » .

□

الإقليمية والوحدة

ويرجع الدكتور أحمد زكى السبب فى انهيار الوحدات القائمة على عواطف الجماهير إلى الإقليمية المتأصلة فى طباع هذه الجماهير . ولكنه مع هذا ينظر إلى هذه الإقليمية نظرة موضوعية ، ويقرر أنها بعض صفات النفس الإنسانية ، حتى فى البلد الواحد . ويضرب الأمثلة الكثيرة على هذا المعنى . فدمشق أحب للدمشقيين من حلب . . . إلخ . ثم يفرق بين إعلان الحرب على الإقليمية وإعلان الحرب على الغلو فيها : « إن الإقليمية مزاج طبيعى محمود فى اعتداله ، مرذول فى غلوائه ، وما القومية إلا نوع من الإقليمية السليمة ، ومنها حب الأوطان » .

« وللإقليمية حتى فى البلاد المستنيرة حساسية تجاه كل غريب عن البلاد ، لا سيما فيما يتصل بالسكان فى البلاد . لقد كره الفرنسيون وجود الجنود الأمريكيين فى فرنسا بعد حرب ، وهم مخلصوهم من نكبتهم . . » .

ويتناول الدكتور أحمد زكى العلاقة بين القومية والوحدة العربية فى صراحة ووضوح ، فيقول : «إن الوحدة الكاملة الشاملة الدستورية التى تشيع فى أفهام الناس تتطلب نزول البلد الواحد عن بعض وجوه السيادة فيه ، فكيف يرجى من تلك الإقليميات التى نعرفها اليوم فى البلاد العربية أن ترضى بهذا ؟ هذا إذا كانت حرة فى اختيارها ، فكيف إذا لم تكن ؟

« إن سنين من التوعية طويلة يتطلبها التحضير الشامل للوحدة الدستورية الكاملة الشاملة ، إن تكن هذه حقا فهى خير مظلة تستظل بها البلاد» .

لهذا فإن أحمد زكى يـؤكـد على ضرورة قيام كل بلـد بـالتحضير ، بالعمـل على التشابـه « علما وأدبا ، وثقافـة ولغة وتنشئة أجسام وتـربية أفهام ، ومعالجة مـال ، واستثمار أرض وتصنيع موارد، بحيث يجعل كل وجه من وجوه الحياة هنا شبه أخيه هناك إلا فيما تدعو إلى الخلاف فيه مصلحة » . ومعنى هذا « ممـارسة التعاون على طـول الخط » ، وهذا هو السبيـل المفضل من أجل تحقيق هذه الغاية .

□

تقـويـة الأجـزاء :

«ولا بد فى هـذه السنوات من اشتغال كل أمـة بأمور نفسها اشتغـالاً كاملاً حثيثـا تحاول به أن تسبق الزمان سبقًا ، تزرع البلاد إذا لم تكن تزرعت ، وتصنع إذا لم تكن تصنعت . . » .

« إن الوحدة إذا تعثـرت قليلاً ، أو إذا هى تجهم لها الدهر قليـلاً أو كثيرًا ، فخير ما تنفق البلاد فيه زمانها ـ دون أن تنسـى الوحدة ـ هو قيام كل بلد عـربى بالعناية بأمر نفسه ، بـإرساء مقومات الحياة فيه ، أساطين عريضة ، تحمل مطالب هذا العصر الحديث وحاجاته الثقيلة ولا تتزلزل » .

ويلخص أحمد زكى فكـرتـه فى هـذا المجال فى عبـارة أروع من عبـارة نسبت إلى سعـد زغلـول ومصدر الروعـة فيها أنها استمدت التقريـر والتقدير من الدرجـات لا من مفهوم الأبيض والأسود حيث يقول : « ولنـذكر دائمًا ، أن الوحدة ، التى تضم آخـر الأمر نياقا ، غير الـوحدة التى تضم فيلة وفهودًا وآسادا » .

أليس ذلك خيرًا من القول بأن الصفر والصفر صفر كبير !.والواقع واحد أو يكاد ؟! .

ونـواصل عرض آراء أحمد زكى فى مـوضوع الـوحـدة العربيـة « فى مقالات أخـرى ، ولكن على طريقتنا هذه فى التبويـب» :

□

الشعـوب والوحـدة :

وكان أحمد زكى لا يفتأ يـدعو إلى توعية الشعـوب بمدى التضحيات من أجل الـوحدة، حتى يتبين استعدادها : « علموا الشعوب أن الوحدة الشاملة أخذ وعطاء ، وهذا حق ، ولكن علموهم أيضًـا أن الوحـدة الشاملـة ستجمع بين السباع والـذئاب والنعـاج ، وأن النعاج لا بـد مأكولـة . وعلموا الشعوب التى عندها مـا تعطى ظاهرًا وليس عندها ما تأخذ ظاهـرًا بأن الوحدة غرم عليها واستغلال . (العربى : ١/ ١٩٧١) .

□

التقســيمات والمحـــاور :

وكـان الدكتـور أحمد زكى لا يفتأ يتحدث عن خطـورة التقسيمات إلى اشتراكية وغير اشتراكيـة وملكيـة وجمهوريـة . وكـان يناقش هـذه الآراء فيمحصهـا ويبين أن النفع ليس فى الشكل ، وإنما المضمون .

وكان يـرى أن الحل فى هذه الأمور هـو معالجتها بهدوء : « إنها صنـوف من الاختلاف تمنع من ائتلاف ، إما أن نعالجها بحكمة ، وإلا فعلى العروبة والإسلام كليهما السلام» .

□

ومن هذه المقدمـات كلها يصل أحمد زكى إلى أن يستنتج ويقرر أنـه « لا يمكن أن تكون هناك وحدة اندماج تكون فيها للعرب حكومة واحدة تنظر فى شتى أمورهم وتدفع عنهم غائلة الأيام من الخليج إلى المحيط . إلى هذا يجب أن ننتهى ، وبهذا نصرح ولا نخدع الناس » .

« وتبقى الـوحـدة الكاملـة الشـاملـة أمـلاً عسى أن تخطئ الآراء وتتغير بها لا نستطيع أن نتنبأ الأحوال » .

« وصلة العروبة لا يمكن أن تزول ، كما أنها ، على التقـدير الحاضر للأمور لا يمكن أن تنتهى إلى وحدة كتلك التى نعتها بالكاملة الشاملة » .

« و إن لم تكن وحدة واحدة شاملة كبيرة ، فلتكن وحدات مجزأة صغيرة » .

□

وحدات لها أولوية

ونعـود لنتأمل فى هدوء وسرعـة ــ إن جـاز هذا التعبير ــ آراء أحمد زكى فى عنـاصر الوحـدة ، والطريق إلى الـوحدة الشـاملة ، هذه الآراء التى أبـداها لحسن الحظ وجـاهر بها مع انعقـاد مؤتمر القمة العـربى الأول فى عام ١٩٦٤ . . كان أحمد زكى يرى أن هنـاك وحدات كثيرة أولى بالرعـاية . . . والوحـدة الثقافيـة أولى هذه الـوحدات بـالرعـاية ، وهى أسهل شىء تحقيقًـا فى مثل عـالمنا العربـى ، لسان واحـد ، وتاريخ واحـد ، وعادات مـوروثة واحدة ، وجهـاد واحد للخـروج من تخلف آثاره فى الوطن العربى كله واحدة ، والثقافة تتأقلم ولكن لا يبلغ بها التأقلم حد التنافر .

والوحدة الاقتصادية : كالوحدة الثقافية من حيث الخطورة ، فـالثقافة حاجة الروح والاقتصاد حاجة البـدن ، ولعل حاجة الأبدان أكثر ربطًا لـلأقدام من حاجة الأرواح . والوحـدة الاقتصادية العربيـة بالطبع لا تسد النوافـذ على أسواق الدنيـا الواسعة العريضـة . تأتى بعد ذلك الوحـدتان الدفاعية والسياسية ، ولهما أهداف سواء .

الصفاء مع الفرس والباكستان :

سيجد القارئ فى الفصول التى تناولت الفكر السياسى لأحمد زكى أننا تناولنا ما تعرض له أحمد زكى من الحديث عما بعد الحرب ، ودعوته إلى الانفتاح على العالم بدءًا بالجيران الأقربين ، و إلى التوسع فى معنى العروبة والاتجاه إلى الإسلامية . . والحق أن أحمد زكى لم ينادِ بهذه الدعوة بعد نصر أكتوبر فحسب ، ولكنه كان ينادى بها منذ ما قبل عام ١٩٦٤ على الأقل ، حيث كان يدعو إلى إعادة النظر فى العلاقات مع الفرس والباكستان ، و إصلاح شأن هذه العلاقات ، وكان يقول : « إن أقدامًا مست الأرض فى القرن العشرين ، يجب أن تحمل رءوسها معها ، فلا تتركها ترعى المر والحنظل من زرع ماضيات القرون» . وفى موضع آخر يحث أحمد زكى على إصلاح شأن هذه العلاقات فيتساءل : « لقد وسعت سماحتنا بل وصداقتنا أمم الأرض . . فكيف لا تتسع لشعوب شاركتنا فى صنع أمجاد لنا ولهم قديمة ، وقاسمتنا أرزاء للزمن حاضرة»؟! ويحذر بصوت عال من أن نخضع هذه الأمور للجدل « لا سيما إذا استعين فيه بنبش الماضى بعيده والقريب ، حينذاك يتغبش ويصبح الحق وكأنه الباطل . (هل كان الرجل ينظر من وراء حجاب إلى ما حدث بعد وفاته بسنوات فى حرب الخليج الأولى) ؟!

□

هل العروبة عروبة دم ؟:

مع عدم استقرار أحمد زكى على تحديد معنى دقيق للعروبة إلا أنه كان يجاهر فى صراحة (العربى : ١١/ ١٩٧٠) بأن العروبة ليست عروبة دم أبدًا ، ولا عروبة عروق موروثة ، وأكثر ما يقال فى هذا الأمر وأوضح ما يقال : إن الدم العربى دخل على القرون الطويلة شرايين الكثير ممن ينطقون اليوم بالعربية . وسواء دخل كثيرًا أو دخل قليلاً ، أو حتى لم يدخل أبدًا ، فإن دخول الدم الأجسام لا يعنى عند العلماء شيئًا ، حتى اختلاط الانساب لا يدوم أثره أكثر من ثلاثة أجيال أو أربعة أو خمسة ثم يمحى » .

دور اللغة فى تحقيق الوحدة :

ومع هذا فقد كان، أحمد زكى يرى (العربى : ١١/ ١٩٧٠) أن اللغة لغة الناس، هى المكون الأول لقوميتهم ، فهى الوعاء الذى يحمل حاضرهم بكل ما فيه مما يسر وما يسىء ، وهى الوعاء الذى يحمل ماضيهم؛ وما الحاضر إلا إرث من الماضى، وهى الوعاء الذى تجد فيه كل آمال القوم، وكل آلامهم ، والحوافز التى تحركهم جميعًا فى مسالك الحياة جميعًا : كيف يسلكونها، وإلى أى الغايات يسلكون ؟ « لكادت اللغة والقومية أن يكونا شيئًا سويًا » .

لهذا كان تركيز أحمد زكى شديدًا على هذا الدور الذى تلعبه اللغة ، فهو يقدره حق قدره، ويدعو إلى الاهتمام به ، ويجعل له المنزلة العظمى فى مسألة القوميات .

فأما عن تقديره له، فقد سقنا فى الفقرة السابقة بعض عبارات تشى بهذا التقدير العميق. وأما عن دعوته إلى الاهتمام به، فهذا هو موضوع فقرات تالية حول المشرق العربى والمغرب العربى كيف فرقت بينهما اللغة . وأما إن أحمد زكى يجعل للغة المنزلة العظمى فى مسألة القوميات، فقد سبق أن أوضحنا هذه النقطة بكثير من التفصيل فى الفصل الأول من هذا الباب وهو الفصل الذى تناول الفكر السياسى للدكتور أحمد زكى وتحديدًا فى الجزئية الخاصة بالقوميات.

ومن الواضح جدًا أن أحمد زكى كان يرى ، لا فى سياق كتاباته فحسب ولكن فى «نصوص العنوان» وبأكبر بنط ، أنه « من وحى رحلة فى المغرب العربى لصيف عام ١٩٧٠ . . . اللغة العربية إن شقت الوطن العربى شقين . . . فشق ينطق بالضاد ، وشق ينطق بغير الضاد . . فذلك قضاء الله لا دافع له » . وهو يذكر أن المغرب العربى قد عانى من الاستعمار الفرنسى «اللاتينى » الذى عرفنا من خصائصه حب صبغ مستعمراته بلون ولغة . . وهكذا عانى مغربنا العربى من هذا التغير الخطير .

ويمضى أحمد زكى فى شرح أبعاد المشكلة وحلولها وكيف أن الأمل فى حلها كبير ، وخصوصا للأسباب الآتية :

□□ إن الريف ، وهو أكثر البلاد لا يتكلم إلا العربية ، ولو عامية محلية .

□□ إن الذين يتكلمون لغة المستعمر فى العواصم من الجمهور لا يتكلمون من هذه اللغة ولا يعرفون منها إلا القدر الذى تستوفى حاجات الشوارع والأسواق والجارى السارى من المعاملات .

□□ إن المستعمر خلف البلاد فى جهالة غامرة ، وإذن لا بد من أن يبدأ تعليم السواد من جذوره، وحيث بدأنا من الجذور وجب أن تكون البذور عربية .

□□ إن طائفة الـوطنيين المثقفين ثقافة فرنسية ، وهـم قلـة لهم كل عطف بحسبانهم ذلك ، فهؤلاء أمرهم يسير، ليس فيهـم من يعجز عن أن يستدرك من لغـة آبائه مـا فات ، ولن يسـاء أحد بسبب اختلاف الدهور وتقلب الحظوظ .

ومع ذلك فإن أحمد زكي يركز على الاختلاف الناشيء بين ضلعي الوطن العربي ، وأثره السيئ فيما يتعلق بمسألة الوحدة العربية .

ويعنينا من هـذا الحديث ذلك الفهم التطبيقي للأثر الخطير الـذى هو للغة فى صنع القـومية وقيام الوحـدة ، ونحن نشير على القارئ بالرجـوع إلى هذا الحديث للاستمتـاع بهذا الأثر الفكرى الرائع .

□

الانسجام مع الجماعة هو السبيل إلى الحياة :

يهدف أحمد زكي من هذا الشعار الذى رفعه فى أوليات مقالاته بالعربي إلى أن ينسجم الفرد مع رأى الجميع حتى لو عرف بضلاله ، وأدرك خطأه . ويمضى يـذكر لنا أمثلة ومواقف من التاريخ العربي ، كان من أبطالها الشاعران الكبيران دريد بـن الصمة ، ومحمود سامى البارودى ، يدركون أن الجماعة تـذهب بعيدًا عن الصـواب ، فكانوا يـذهبون معها ، حتى لا يفتحـوا بابـا للشقاق ، ولكنهم سجلـوا بأشعارهم أنهم كـانـوا على صواب ، وبقيت لنـا هـذه الأشعار تبرئهم من فسـاد الرأى ، وتذكر لهم فضل الانسجام مع الجماعة .

□

ولكن لا بد للعمل الجاد من أجل الوحدة :

وعبارات أحمد زكي فى هذا المعنى غنية عن التعليق . وعن مقال له (مجلة العربي : ٣/ ١٩٦٤) نقل قوله : « إن السماء لا تستجيب لـدعاء إلا أن يعمل له الداعى أولا فـوق هذه الأرض . ولقد نظـرنا فى أسبـاب الفكر الـذى كان ، فـرضيناهـا قـواعد تترك لكل بلـد أعنته فى أيـدى رجالـه ، ونتواصى ، ولكن على الرفق ، ونجعلها حلبة سباق تسبق فيها الجياد الضامرات الفضليات فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وفى حلبة السبق يتعلم أصحاب الجياد الشىء الكثير » .

« واختصارًا نعود إلى المزاج العربى الذى كان سائدًا عام ١٩٥٦ ، حين لم يكن بين العرب روابط إلا روابط قلوب ، حين وقع الاعتداء المسلح ، فاهتز له الوطن العربى بمثل ما لم يكن يرجى له أخيرًا أن يهتز ، والدعوة إلى « الوحدة الشاملة » قائمة مسمعة تصم الآذان » .

□

مخاطر ضياع الوحدة :

ليس من خاتمة فى هذا الموضوع أبلغ أثرًا من خاتمة التحذير والتنبيه فى قول الرجل : « وبضياع الوحدة تكون مرارة فى الأنفس شديدة عميقة ، لو كانت فى اللسان ما ذهبت بها حلاوة يجتمع على استخلاصها النحل من زهر الأرض جميعه . والعاقبة للصابرين » .

□

المصـــادر :

- « رابطة الثقافة أقوى من رابطة السياسة » (الهلال : ديسمبر ١٩٥٣) .
- « الجامعتان العربية والإسلامية » (الهلال : نوفمبر ١٩٥٤) .
- « القومية العربية تجتاز محنا ثلاثا » (العربى . إبريل ١٩٥٩) .
- « النكبة الكبرى نكبة فلسطين » (العربى : يونيو ١٩٥٩) .
- « العروبة ليست رابطة دماء » (العربى : يناير ١٩٦٠) .
- « الشعوبية نعرة عنصرية وتفتيت قومية » (العربى : فبراير ١٩٦٠) .
- « أمجاد العرب هى أم أمجاد المسلمين » (العربى : فبراير ١٩٦٤) .
- « مؤتمر القمة العربى الأول » (العربى : مارس ١٩٦٤) .
- « العروبة والإسلام » (العربى : يونيو ١٩٦٤) .
- «بدأنا السنة الثامنة مباركة فى حياة العرب» (العربى : يناير ١٩٦٦) .
- «الوحدة العربية ليست شعارا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الأيام» (العربى : مارس ١٩٦٦) .
- «نحن العرب : لا خوف علينا اليوم ولا غدا، ولا بعد غد ولا نحن نحزن» (العربى : يناير ١٩٦٩) .
- «المجتمع العربى» (العربى : أكتوبر ١٩٦٩) .
- «رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا : القومية والدين» (العربى : إبريل ١٩٧٠) .
- « من وحى رحلة فى المغرب العربى لصيف عام ١٩٧٠» (العربى : نوفمبر ١٩٧٠) .
- « إن تكن ماتت الوحدة الكاملة الشاملة . . فلنحى أجزاء فى ظل العروبة متكاملة» (العربى : يناير ١٩٧١) .
- «حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما» (العربى ديسمبر ١٩٧٢) .
- « الانسجام مع الجماعة سبيل العروبة إلى الحياة» (العربى : ديسمبر ١٩٧٣) .
- «الانفتاح على الدنيا ضرورة» (العربى : فبراير ١٩٧٤) .
- « إذا جمعت الحرب فلابد أن يفرق السلم» (العربى : مارس ١٩٧٤) .
- «اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر» (العربى : مايو ١٩٧٤) .
- « لا صلح بين الزعماء إذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب أعصى» (العربى : يونيو ١٩٧٥) .

الفصل السادس

الإسلام والعصر الحديث

« لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية جديرة بأن تكون هى الحضارة الجديدة تعتنق الجديد اللازم لهذه العصور الجديدة ، وذلك بكل ما تضمنته من خير عظيم ، ومن ديمقراطية هى فى أصل حياتها وثيقة وفيرة ، ولكن فاتها ما لم يفت أهل أوربا من ضرورة تحرير الفكر قبل التفكير فى التخطيط والتدبير » .

لعل فقرة الإطار السابقة تلخص فى تركيز شديد الجزء الأكبر من أفكار هذا الفصل ، ولكنها مع ذلك قد لا ترضى البعض ، وهى على هذه الصورة من الإجمال والتعميم ، ومن هنا تأتى فرصة المؤلف فى هذا الباب ، لا بالأطناب أو الأسهاب أو التعليق على ما لا يحتاج إلى التعليق ، ولكن بتناول الجوانب والنواحى والمزايا المختلفة لهذه القضية من خلال أفكار الدكتور أحمد زكى فى عدد من مقالاته الصحفية المختصة .

وتأتى أهمية الطرح الفكرى للدكتور أحمد زكى فيما يتعلق بهذا الموضوع من حيث كان الرجل ـ بلا جدال ـ مفكرًا إسلاميًّا غيورًا على دينه ، مهتما بأمره ، مدركًا كيف يكون التوافق بين الدين والحياة ، دارسًا وقارئًا للتاريخ ومدركا لطبيعة التطور .

وقد لا يجد القارئ فى هذا الفصل حلاً لكل المعضلات التى تواجه الفكر الإنسانى فى العصر الحديث فيما يتعلق بهذه القضية ، ولكنه سيجد أسسا فكرية تمكنه من أن يبنى عليها من المواقف ما قد يساعده على الوصول إلى وجه الحقيقة فى كثير من هذه الجزئيات .

وسيلاحظ القارئ فى العبارات التى ننتقيها للدكتور زكى شيئًا من البلاغة الواضحة فى إعجابه بالدين الإسلامى وسماحته وقدرته على الاستيعاب والتوجيه والبناء . ويبدو لى أن هذه العبارات لا تنم عن عاطفة الدكتور أحمد زكى فحسب ، وإنما هى فى المقام الأول تعبر عن اقتناعاته الفكرية .

وفيما يتعلق بالدعوة إلى إنشاء جامعة إسلامية (توسيعا للجامعة العربية) أو بادئ ذى بدء ، فقد أشرنا إلى هذه الفكرة لأحمد زكى فى الباب السابق من وجهتى النظر السياسية والعربية . أما هنا فسوف نشير إلى الفكرة من وجهتى النظر الإنسانية والإسلامية .

وقد يخرج القارئ من هذا الفصل وهو يشعر بقصره ، ولكننا نرجو ألا يشعر القارئ بقصور فيه ، فهذا ما بذلنا جهدنا من أجله قدر إمكاننا .

□

وقد يلاحظ القارئ من مطالعته لقائمة المصادر فى نهاية الفصل أن بعض العناوين التى أخذنا عنها لا تمت إلى الموضوع مباشرة . والواقع أن هذا يعود إلى أن أفكار أحمد زكى فى هذا الموضوع المهم لم تقتصر على مواضع معينة من مقالاته وأحاديثه ، وإنما كانت تفرض نفسها على قلمه فى كثير من المواضع .

يؤكد أحمد زكى بشدة على أهمية عنصر حرية الفكر . وهو يجاهر فى مقاله « معركة الفقر والغنى » (العربى : يوليو ١٩٧١) بأن مشكلة الإسلام جاءت من بعض الذين اتخذوا من الدين صناعة ، وضيقوا على الناس أبواب الفكر ، وحرموا الفلسفة ، فى حين أن الإسلام هو أكثر الأديان تكريما للفكر والعقل ، والجدل فى الإسلام أساس الإيمان :

« لقد أعطى الله العرب والمسلمين دنيا سمحة ، وآفاقًا للرأى واسعة ، وسعت الدنيا والآخرة ، وأعطاهم من الرجال المتحررين مثل من يقول لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟! ولكن قوما صار لهم الدين صناعة ، وما جاز الدين الإسلامى أن يكون صناعة لأحد ، عمدوا بحكم الصنعة إلى تضييق السبل وتعسير السبل فيها ، وإلى المبالغة فى الحذر، حتى سدوا على الناس أبواب الفكر ، وجعلوا الفلسفة بابا كتبوا عليه « ممنوع الدخول » زيادة فى الخشية حينا ، وجهلا بالفلسفة أحيانا ، ولو علموا أن الفلسفة كالفكر قد تؤدى إلى الإيمان كما تؤدى إلى الكفر ، لما ألحوا وثابروا على ذمها إلى اليوم . هذا فى حين أنك لن تجد دينا كرم الفكر ومجد العقل . كما كرمه ومجده الإسلام . والجدل فى الإسلام أساس الإيمان » .

ولأحمد زكى فهم متميز فيما يتعلق بجزئية وهو يقول فى وضوح رؤية شديدة : السماحة فى الدين ، ومعناها وعلاقة هذا المعنى بالإسلام كدين للمسلمين فى هذا العصر

« الدين الإسلامى سمح ، والدين السمح هو الذى يقول نعم أكثر مما يقول لا» .

« لا » لا بد منها ، ولكن لا نقول « لا » إلا بعد فكر كثير ، وحذر شديد ، وأخذ بها نؤمل للعرب والمسلمين فى مستقبل أيامهم ، لا من نعمة وخيفة هازلة ، ولكن من طيب حال وطيد ، وعزة وقوة وصفة لا تطيب بغيرها حياة أبدا ، ففى الآخرة عنها عوض أن الله أوجدنا فى الدنيا لنبتئس بها وليكون أجر بؤسها فى الآخرة !!

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ . [الأعراف : ٣٢] .

و الإصلاح الدينى فى نظر أحمد زكى ليس إعادة تشكيل أو إضافة بقدر ما هو تخليص من التراكمات على نحو يخلص الإسلام مما أحاط به فى عصور متتالية ويرجع به إلى الدين يوم كان النبى ﷺ قائما فيه :

« الإصلاح الدينى فى الإسلام هو الرجوع إلى الدين يوم كان محمد ﷺ قائما فيه والاكتفاء بما كان من دين فى عهده ، وإلى وفاته . فلماذا ندعى بأن إسلامنا لا يصح ، إلا إذا عدنا إلى المؤلفات الكثيرة والمذاهب العديدة التى صنفتها القرون من بعد ذلك ، وهى قرون اختلفت والقرن الذى عاشه النبى ﷺ ، واختلفت وقروننا نعيش فيها اليوم » .

ولا يجد أحمد زكى حرجا فى تحديد العلاقة بين الدين والحياة على نحو يتيح للأخذ برؤيته فى هذا الصدد نوعا من التوفيق العقلى . وعبارة الدكتور أحمد زكى فى هذا المعنى جازمة حاسمة على الرغم من أن موضوعها متسع فضفاض . وهو يعبر عن هذا المعنى فى مقاله «الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » (العربى : ٣/ ١٩٧٥) فيقول :

« علم الله لا أقر دينا لا يعمل فى صالح من هم به مؤمنون ، فالمصلحة أولا ، ورأى الرائى فى تفسير النصوص يأتى فى المقام الثانى . وأعلم أن رأى الرائى فى تفسير النصوص يتلون بلون زمانه ، وللأزمنة ألوان شتى . وأعلم أن الناس تتطور ويتطور عيشها ، وتتطور أنظمة حياتها ، وتتطور مشاكل لها فلا يبقى مما تعتمد عليه من مقالة قديمة للحكماء ، أو رأى سديد كان لبعض البلغاء إلا ما اتصل بقواعد الحياة الأساسية الأولى التى يحاول الدهر أن يغير منها ويبدل ثم لا يكاد » .

وفى موضع آخر يرد أحمد زكى على مَنْ يسميهم بالمتحذلقين الذين رأوا فى الدين وفى الإيمان تخلفا ورجعية ، ومناقضة للتقدم ، ويختم حديثه الذى يواجه به هؤلاء بقوله : « حتى الإيمان لا يكون إلا بعد تفكر. والإيمان درجات ، لا أحسب أن رجلاً ، ذا دين ، يتفق فكره كله مع ما جاء بدينه حرفا حرفا ، ولا يخرجه ذلك عن إيمانه » .

□

وفى هذا الإطار يأتى فهم أحمد زكى للتعارض الذى قد ينشأ بين الدين والحرية أو بين التدين والتحرر ويتعرض الدكتور أحمد زكى فى مقال عن الحرية (العربى : ٣/ ١٩٦٩) للاتجاه إلى رفض الحضارة الأوروبية بحجة « معارضتها مع الدين » لما تحتويه من بعض التجاوزات فى الناحية الأخلاقية التى يكثر الرافضون من ذكر أمثلتها ، ويفند الدكتور أحمد زكى المزاعم التى تغذى هذا الاتجاه على مدى فقرات مطولة ، وينهى حديثه بقوله :

« هذا إفك وبهتان ، فالصالح صالح فى كل زمان ومكان ، وهم يقبسون للتشهير بالمدنية الحاضرة ما فيها من شر ، ويصمتون عما فيها من خير ليحسب الناس أنه هكذا كل ما فى الوعاء ، وما عرفنا مدنية إلا وكان فيها الطيب والخبيث بحكم أن الإنسان مصدر الخير والشر صاحبها » .

وعن ذات المعنى يحسم أحمد زكى الرأى فى قضية أخرى من القضايا المتصلة بالموضوع ، وهى العلاقة بين الولايات المتحدة والعرب ، حين كانت الولايات المتحدة تستعلى بقوتها على العرب ، وعلى حل القضية الفلسطينية فى الفترة ما بين الحربين (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣) وكان هناك قوم يردون ذلك إلى أن فى العلم شرا أو شيئًا من هذا القبيل ، وكانوا يوردون هذا المثل فى معرض الحديث عن العلم والأخذ به ، وكان أحمد زكى يجاهر رغم خفوت دعوة هؤلاء بأن الأخذ بمنطق تفكيرهم يعد شرًا كبيرًا حين نترك العلم إلى الجهل لأننا نرى قوما صار لهم مع العلم شىء من الشر ، ولا ينى الدكتور أحمد زكى عن أن يبين حقيقة طبائع الأشياء فيقول فى وضوح وحزم وجزم :

« إن الإنسان خلق ومعه الخير والشر ، والعلم والتكنية فيهما الخير والشر معا ، بل هما أداتان عجماوان ليس فيهما إرادة الخير أو إرادة الشر ، ولكن فى الإنسان كالسكين نقطع بها الثمر من شجر ، أو بها قطع الرقاب ، كذلك العلم والتكنية مطيتان طيعتان يركبهما بنو الناس ليسلكوا بهما الطريق إلى الله أو الطريق إلى الشيطان وما أكثر ما يتعمى على البشر الطريقان » .

ولهذا كله كان من الطبيعى أن يكرس أحمد زكى جهده لإقناع قرائه بضرورة إيجاد التوازن بين العلم والإيمان ، وبضرورة الجمع بينهما فى توازن وتواؤم وتعاون يتيح التقدم الذى يستند إلى القوة الذاتية ، والقوة الداخلية التى لا تزعزعها عواصف الزمان .

وعلى حين كان أحمد زكى ينعى على الجامدين جمودهم فى سبيل العلم ، وكفهم عن الجهاد فى سبيله فإنه فى الناحية الأخرى لم يكن يقبل ما يفعله « التقدميون » ممن ظنوا أنهم بدرجاتهم العلمية قد أصبحوا مؤهلين للحكم فى أمور الدين والدنيا ، فذهبوا يرمون الدين وأهله بالرجعية والتخلف . و ها هو ذا يقولها فى صراحة وقوة :

« ومقالة أقولها لبعض شباب العرب الذين أخذوا من الدكترة شارة يتقدمون بها إلى السذج من أهلنا ، يتهمونهم بالرجعية ، وينسبون هذه الرجعية إلى الإيمان بالله ، ويشككون فى الأديان جميعا . أقول لهؤلاء : فما بالكم وضمائر هذه الأمم التى لا تجد لها إلى اليوم أساسًا صالحا تقوم عليه غير الدين . ما بالكم بها هكذا تصفون ، وإياها تهدمون ؟! وإذا هدمت فماذا للناس بديلاً عنها تقدمون ؟!» .

□

الضمير والولاء

يتناول الدكتور أحمد زكى « الضمير» فى مواضع كثيرة من كتاباته ، وقد أفردنا لحديثه عنه إحدى جزئيات فصل « البناء الاجتماعى» الذى سيأتى ضمن فصول هذا الباب ، ولكن ما يعنينا هنا هو ذلك التأكيد الذى يقدمه مفكرنا عن مكانة الضمير فى الإسلام والأخلاق الإسلامية وفى القرآن ونصوصه . ويشى لنا هذا بمدى اقتناع أحمد زكى ويقينه بأخلاقيات الإسلام وإمكاناتها غير المحدودة ، على الرغم مما قد يتصوره البعض حين يقرءون له رأيه القائل بأن الدين ليس مصدرًا للسلوك الإنسانى ، أو حين يتجاوزون فى فهم هذا الرأى النظرى الذى عبرنا بالتفصيل عن حقيقته فى موضعه . واقرأ للدكتور أحمد زكى فى مقاله عن الضمير قوله :

«وفى الدين الإسلامى ، وفى القرآن الكريم ، ما يملأ دساتير الضمائر بأصولها الأولى ، من

عـدل ورحمة ، وزاد فى الكشف عن كلمـة العيش مفاهيم تخفف على النـاس فى دنيـاهم كثيرًا من أثقال السنين . والإسـلام ، كما جاء به الرسـول الكريم ﷺ ، لا كما صار إليه من بعـده فى وجوه شتى، دنيا ودين . ومعنـى ذلك عندى أنه عقيـدة وفريضـة . ثم هو حضـارة ، حضارة سبقت زمـانها بعدة من قـرون لو أن الله كـان قيض لها كفاة من أهلهـا لما بزتها إلى اليـوم حضارة كـانت أو تكون» .

وهناك جانب آخر يحرص أحمد زكى على استلفـات النظر إليه فى ديننا الحنيف ، حين يتحدث عن الـولاء ، ويحلله لنـا فى دراسة تـاريخية واجتماعيـة شاملـة ، ويتعرض للـولاء فى الإسلام فيبين بمنطق واضح وأدلة نـاطقة كيف نجح الإسلام فى التـوفيق بين الولاءات ، وكيف أعطى لكل ولاء حقه المناسب ، المناسب للولاء ، والمناسب للإنسان نفسه ، وهو يقول على سبيل المثال :

« والولاء العاطفى اتسع له الإسلام اتساعا كبيرا ، ولكن لم يتسع كل هذا الاتسـاع للولاء الوطنى المحلى السياسى ، و إن احتمله بمقدار ما يحتملـه الطبع الإنسانى ، ولكنه تجاوز الوطن الأوسع إلى أرض الله الواسعـة . فحيثما ذكر اسم الله فهذا هو الـوطن على اختلاف لون ، واختـلاف لسان ، ومن أجل هذا كثرت فى الإسلام الأوطان » .

« وينزل العـالم ببغداد أو بـدمشق أو القاهرة أو القيروان أو قـرطبة ، وهـو حيثما حل يجد وطنا واحدًا ، وولاء واحـدًا ، وترحيبًـا واحدًا ، وكثيرًا مـا زاد فأين ولد ابن خلـدون ؟وأين درس؟ وأين عبـداللطيف البغـدادى؟ وأين علم ؟ والكندى، وابـن الهيثم ؟ ، وهو حيثما حل ، عنـده الـولاء يعطيه ، وله الولاء يعطاه » .

ثم يكتب أحمد زكى عبـارة من عباراتـه الخالدات ، التى لا بـد من الاعتراف بأن المؤلف أمضى الـوقت يفـاضل بينها وبين العبـارة التى وضعت فى صـدر هـذا الفصل أيهما يضع ، حتى غلبتـه طبيعته فى ذكر العبارة التى تغطى وجهين فى صدر البـاب ، والإبقاء على العبارة التى تصور جوهر رأى أحمد زكى فى لب الفصل .

وعبارة أحمد زكى تقـرر حقا لا ريب فيـه حين تقول إن الإسـلام كان أقـوى روابط البشرية على الزمان :

«إن إنسان هـذه الأرض ما ربطـه فى قديم الـزمان إلا ربـاط الإسلام . وأنـا لا أتحدث هنا عن الإسلام عقيـدة ، ولكن عن الإسلام حـركة إنسانيـة ، جمعت من الإنسان ، وربطت بينـه ، ما لم يكن سبق مثله ربط ولا جمع » .

☐

هل لنا أن نستطلع رأى العـالم الذى قال فى عنـوان مقاله فى الخمسينيـات : « إن عبادة الله بغير علم كعبـادة الأصنـام » ، والذى كـرر نفس المقـولة فى حـديثـه مع سـامح كريـم (مجلة الإذاعـة والتلفزيون : ١٩٧٤) هل كـان صاحب هذا الرأى القائل بأن البـاحث فى العلم إذا استهدف به بعض جوانب الله فهـو أكبر عابـد ؟ مشجعا لأولئك الذين يخلطـون العلم بالـدين ، على النحو المسمى بـالتفسير العلمى للقرآن ، ومـا إلى ذلك من الأمثلة التى يعـرفها القـراء الأعزاء . . فلنقـرأ مبرراته فى مقاله «حضارتان عـريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » (مجلة العربى : ١٢/ ١٩٧٢) إذ يقول :

« وجاء عصر العلم الحديث . فقـام قوم باسم العلم ، يعمـدون ما خالـوا أن فقهاء المسلمين غير عامديه ، فربطوا الدين بخرافات من العلم حديثة . زعزعت من إيمان أهل الإيمان واليقين . لـووا عنق العلم مرة ، ومـرة أصاب اللى عنق القـرآن الكـريم . كل هذا ليلتقى الاثنـان وساء لهم التقاء . وقالت زمرة طيبة من خيرة من الفقهاء ما هذا بدين ، وما كان كتاب الله كتاب علم تستفاد منه تفاصيل المظـاهر الكونية والقوانين . فقلـت لهم اصدعوا برأيكم ، واصرخوا إعـلانا ، وارتفعوا بالقـرآن عن تلك المهاوى ، فهى إن زادت جمهـرة الجاهلين إيمانا بشعـوذة زادت جمهرة أهل العلم شكا وريبة . قلت اصدعوا برأيكم ، ولكنهم عادوا بالسكوت والصمت يلوذون» .

□

الدين والقومية والعلمانية

كتب أحمد زكى فى هـذا الموضوع كثيرًا جـدًا فى حـديثه عن الآثـار الخطيرة لهذه العـلاقة سلبـا و إيجابا فى السلم والحرب ، ثم هو يخصص مقالاً كاملاً لهذا الموضوع (العربى : ٤/ ١٩٧٠) وكان قد بلغ من العمر ما يتيح له قدر الحكمة الأقصى وهو يجعل عنوانه : « رباطان هما مساك الأمم لا ينحـلان أبـدًا : القوميـة والـدين » وكـان حـريصا كما يشـى العنوان على أن يتنـاول الموضـوع من عمومياته لا من خصوصية الإسلام والقوميـة العربية فحسب ، وقبل أن يتناول العلاقة بين الإسلام

والقومية، يتعرض لليهودية التى كانت « دينا مغلقا وقومية مغلقة فلم تمتد فى أرجاء الدنيا، ولعلها بسبب هذا عانى أهلها ولا سيما من أهل الغرب، ما عانوا، من معاملة لم تكن من أحسن المعاملات »، على حين كانت المسيحية « دينا مفتوحًا وقومية مفتوحة امتدت فاحتوت الكثير من أرجاء الدنيا ».

وينبه أحمد زكى - من باب الاعتبار - إلى أثر الزمن فى الديانات ورجالها، فيقرر فيما يتعلق علاقة الكنيسة بالدولة فى العصور الوسطى مقررًا أن جوهر الصراع والعلاقة كان مسألة زمن ومسألة بشر ويقول:

« أى إدارة كنسية أو غير كنسية إنما يديرها رجال، والرجال تخطئ وتصيب وتصلح وتفسد، ويختلط صالحها بفاسدها. والزمان الذى يأبى على الطعام أن يبقى طاهرًا مطهرًا فيصيبه العفن، والزمان الذى يأبى على الشباب أن يظل على الصحة والقوة والقدرة فيصيبه مع الشيخوخة بالمرض والضعف والعجز، هذا الزمان كأنما يأبى أن يترك شيئًا على حال واحدة ».

وينتهى إلى ظهور « العلمانية » فيبين عن فهمه للأمر فيها بقوله: « إن الخشية من الأديان ظهرت فى دساتير الأمم الحديثة لاسيما دول أهل الغرب، وذلك للذى عاناه المجتمع الأوربى من حروب سببها اختلاف الأديان (حروب الثلاثين عاما والمائة عام) وكلها اختلطت فيها الأطماع الدنيوية بالمذاهب الدينية. مظهر الخشية عند هذه الأمم حذف ما كانت تجرى به الدساتير من أن الدين دين هذه الدولة أو تلك ».

ثم يقرر أن « حذف الدين من الدساتير إنما يفيد عندهم (هكذا ذكر لى ذاكر منهم) أن الأديان لديهم سواسية، وإنه لا يجزى مواطن بينهم جزاء خير أو شر بسبب (نبيه). ولكن بإمكاننا الرد على هذه النقطة بالذات فى بساطة شديدة، فنقول إنه كان بالإمكان أن تبقى هذه الدول فى دستورها على النص على دينها ثم تضيف إليه هذين المعنيين: سواسية الأديان، وعدم ربط الجزاء بالدين».

على كل فإن أحمد زكى لا يـذهب فى هذه المسألـة إلى أبعد من هـذا الحد ، لأنه كان يـؤمن فى الـوقت نفسـه بأن إشكـاليـة الديـن ما زال لها الأثـر الكبير فى عقليـات ونفـوس الأوربيين ، وأن علاقتهم بـالحروب الصليبية التى قـام بها أجدادهم فى الماضى لا تزال قـائمة ، وأن الأمـر فى هذه الحروب وإن تـوارى إلا أنـه لا يزال راسبـا فى أعماق الـوعى أو أعماق الـلاوعى قابـلاً للظهـور فى المناسبات .

«وهـو يقـول بكل صراحـة إنها أحقاد تهبط مـن الوعى إلى الـلاوعى حتى تـأتيها المنـاسبـات فتطفو . سلطان اللاوعى هو المحرك الثابت الدائم على الزمان » .

ولهذا كان أحمد زكى يدعو إلى قيام جامعة إسلامية ، وأن تكون هذه الجامعة « سياسية هدفها الدفاع عن العقيدة ذاك الحق الذى سجله العصر الحاضر ، والديمقراطية الحاضرة ، وهو حق من أبرز حقوق الإنسان » .

ويدعو أحمد زكى إلى إعـادة النظر فى العلاقات مع أوربـا من هذا المنطلق . وعنده أن الحق فى هذه الأمور يجب أن يكون واضحًا عندنا وعندهم ، وأنـه لا بد من أن تظهر صورة الإسلام ساطعة ناصعة قـوية بمثل القوة التى فيه . ولا يجد أحمد زكـى حرجًا فى قيام أى قوميـة على أساس دينى ، على أساس الإسـلام مثلا ، ويضرب الأمثال فيقـول : إن الدين هو حـافز اليهود اليـوم مهما حاول الصهاينة أن يقنعوا العالم بغير ذلك (ومن التاريخ القديم يذكر الدكتور أحمد زكى أن إبراهيم عليه السلام لم تمنعه مكانته عند الله من أن يكون شيخ قبيلة بدويـة يريد لها ما يريد من قومية ، وموسى كان رسولاً نبيا ولكن لم يمنعه ذلك من أنه كان زعيم قومه ، وأنه خرج بهم من عبودية) .

□

الإسلام والغرب:

ولابـد لنا أن نتنـاول فكـر أحمد زكى فيما يتعلق بـالعلاقـة بين المسلمين وأوربـا ، وسنبين بعض ملامح فكره فى هذه الناحية بفقرتين من مقاله القيم والمهم : « من أين وإلى أين يارجال العرب؟ » (العربى : ٤/ ١٩٧٣) ،

□□ أولاهما قولـه : « من الـواجب أن يقوم المسلمـون بالـدعايـة الواسعـة ليثبتوا بها أن الحروب الصليبية ما كانت إلا حروبا استعمارية ، شىء كهذا ، كان يذهب بالكثير من الكراهية التى

فى قلـوب أهل الغـرب للعـرب وللمسلمين منهم خـاصة ، وسيعجب المسلمـون ، عنـدمـا يعلمـون أن أكثـر مسيحيى أوربـا يعتقدون أنهم وثنيـون ، فهكـذا سـاهـم مسيحيـو القـرون الوسطى وتناقلوا هذه التهمة عبر السنين » .

□□ والفقرة الثانية هـى قوله « سبب آخر جعل بيننا وبين هؤلاء الأقـوام جفوة ، لا تزال إلى اليوم تعلم فى مدارسها التاريخ ، ومن التاريخ الحروب الصليبية » .

« ولا عبرة للقـول بأن المسيحية ضعفت فى أوربـا ، ونحن نأسف لضعف دين من أديـان أهل الكتاب بين أهله ، فـالدين عماد ، والدين خير ، والدين محبـة ، ولكن ضعف العقيدة بين نصف أهل أوربا لا يؤثـر فى عواطف الرجال عنـدما ما يكبرون ، فالعقل هاربـا أو ضالا قد يقول لا ، وقد تقول العاطفة الدينية والكراهية : نعم » .

وهكذا يبدو لنا بـوضوح أن أحمد زكى وهو رجل عاشر الغرب طيلة حياته الفكـرية كان منتبها إلى الـرواسب القديمـة التى مـا زالت تحكم تـوجهـات الغربيين تجاه المسلمين ، وهـو لهذا السبب حريص على أن يبذل قومه جهدهم فى هذه الناحية الأساسية التى لا تقوم علاقات حسنة بدونها .

□

الإسلام والنهضة

ولكن هل كان أحمد زكى يملك رؤية واضحة لما يمكن أن نسميه بالخطوات التنفيذية للنهوض بالمسلمين فى العصر الحديث؟ لا شك ترتبط مثل هـذه الرؤية بالواقع الأليم الذى عـاشه المسلمون والعـرب حين كان أحمد زكى على قيـد الحيـاة يعـانى فى أكثر العمـر من الهزائم التى منينـا بها ومن ساعـات الضيق والشدة ، ولكن هـذا لم يمنعه من أن يرى النـور وسط الظلام ، وأن يـرى طريق الخلاص ، وأن يلخص ذلك فيجعل أهـدى السبيل هو حـرية الفكـر (وهو نفس مـا عبرت عنه الفقرة التى فى صـدر هذا الفصل) . وعلى سبيل المثال ختم أحمد زكى حـديثًا له عن المتنـاقضات والمؤلمات العربية بقوله :

« ومع هذا أختم القول بأن العرب اليوم فى أحلك أيامهم ، وقد تشرق الشمس غدا ، أو بعد غد ، ولكن لا بد لإشراقها من إصلاح ذلك الخلل الأول فى بناء الناس ، ذلك الذى حال بين أهل الرأى ، وجماهير الناس . فأهل الرأى عليهم رقابتان ، رقابة الحكومة ، وقد تكون جائزة ، ورقابة الجمهور المتخلف ، وهو كثيرًا ما يرفض الخير لجهالة ضاربة فيه . ولنذكر دائمًا تلك النسبة التى اتسم بها العرب فى القرن العشرين ، تلك أن بهم سبعين فى المائة من الأميين» .

بل إن أحمد زكى فى الأعقاب المباشرة لنكسة ١٩٦٧ وقبل أن يفيق العرب من هول ما حدث كتب فى مقاله الافتتاحى (العربى : ٧/ ١٩٦٧) يقول :

« لنعد أسرع ما نستطيع إلى التحدى . نعود إلى التحدى العاقل هذه المرة ، العامل هذه المرة ، الصادق هذه المرة ، الصابر هذه المرة ، الناظر لما يقرأ أو ما يسمع هذه المرة ، المشارك مشاركة فعالة فى خلق الأجواء ، جو العمل فى الحقل والمصنع والمكتب والمتجر ، وجو الفكر فى مدرسة وجامعة ومسجد ومعبد . . الجو الحر الطليق الذى لا يخشى الحرية فطالب الحرية كيف يخشاها؟! » .

« إن وقائع هذا الزمان تصرخ فى آذاننا تريد أن تقول لنا إن عندكم أيها العرب أشياء كثيرة تحتاج إلى إصلاح ، والكثير منها الخافى الذى يخاف حتى عقلاء الناس أن يذكروه . . عليكم أولا أن تتبينوها ، ولا يكشفها إلا الفكر الطليق » .

« الفكر العربى فى الوقت المناسب القريب لا بد أن ينطلق أبيضه وأسوده وأزرقه وأحمره من كل أرض ، ومن كل كوخ ، ومن كل قصر ،ومن كل حامل سيف أو مشرط أو قلم أو كتاب أو فأس . ويجب أن نسمع الرأى من ذوى العقول الراجحة ، وتلك التى تتراءى لنا غير راجحة ، ونسمع من العقول الملتزمة وغير الملتزمة ، والتى مزاجها الحفاظ ، والأخرى التى مزاجها التحرر على السواء » .

« كل الآراء يجب أن يؤذن لها أن تقال ، ثم يقلب الرأى الواحد الذى أقنع رأسا على عقب لعل نقيضه هو الأهدى سبيلاً » ،

«وأمور نشأنا على اعتبارها بعض قوام الحياة لابد أن نبدأ اليوم ندرسها من جديد ، حتى الغذاء ، حتى الهواء يجب ألا نفرض فيهما الصحة والنقاء فمن يدرى ؟ .

وفى الشهر التالى (العربى : ٨/ ١٩٦٧) كانت نفس الفكرة ما تزال تسيطر على أحمد زكى وتدفعه إلى قدر أكبر من الثقة بالله وبالنفس فى مجابهة الهزيمة ويؤكد أحمد زكى على هذا المعنى حتى فى عنوان المقال نفسه : « الفارس الذى سقط منه عند النزال سيفه . . لا يزال سليم القلب والجسد » .

وفى موضع آخر ينتبه إلى ضرورة البحث عن الذات وعن ديننا وأخلاقنا ويقرر فى كل وضوح وقوة وصراحة : « لا حاجة بنا إلى أخلاق نستوردها ولا دين . . إن ديننا مصدر من مصادر الخلق عندنا مبين مكين » .

□ « الجامعتان العربية والإسلامية » (الهلال : نوفمبر ١٩٥٤) .

□ « الإسلام والمسيحية هل يمكن التوحيد بينهما ؟ » (الهلال : يناير ١٩٥٥) .

□ « كنا زمنا سادة فلنكن اليوم أسيادًا » (الهلال : يناير ١٩٥٦) .

□ « عبادة الله بغير علم كعبادة الأصنام » (الهلال : مايو ١٩٥٦) .

□ « النكبة الكبرى نكبة فلسطين » (العربى : يونيو ١٩٥٩) .

□ « أمجاد العرب : العرب حملوا مشعل الفكر قرونا » (العربى : نوفمبر ١٩٦٣) .

□ « أمجاد العرب هى أم أمجاد المسلمين » (العربى : فبراير ١٩٦٤) .

□ « العروبة والإسلام » (العربى : يونيو ١٩٦٤) .

□ « النكسة الكبرى ثالث النكسات فى ٢٠ عاما » (العربى: يوليو ١٩٦٧) .

□ « نحن العرب : لا خوف علينا اليوم ولا غدا ، ولا بعد غد ولا نحن نحزن » (العربى : يناير ١٩٦٩).

□ « الحرب اليوم علم وتكنية » (العربى : مارس ١٩٦١) .

□ « ١١ عاما من حياة العربى » (العربى : يناير ١٩٧٠) .

□ « الولاء » (العربى : فبراير ١٩٧٠) .

□ « رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا ـ القومية والدين » (العربى : إبريل ١٩٧٠) .

□ « معركة الفقر والغنى » (العربى : يوليو ١٩٧١) .

□ « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » (العربى : يوليو ١٩٧٢) .

□ « حقائق عشر عن تخلف الشرق » (العربى : يناير ١٩٧٣) .

□ « للجدل آداب لابد من إحيائها » (العربى : فبراير ١٩٧٣) .

□ « من أين وإلى أين يارجال العرب؟ » (العربى : إبريل ١٩٧٣) .

□ « الحضارة الحاضرة زيت وفحم » (العربى : يوليو ١٩٧٣) .

□ « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » (العربى : مارس ١٩٧٥) .

الفصل السابع

مكونات البناء الاجتماعى
(الغرائز ـ العادات ـ الأخلاق ـ التقاليد ـ الضمير ـ القيم)

«إن أصحاب الضمائر هم قادة الأمم الصامتون، وهم الذين يحركون ـ حتى على الصمت ـ الركب الإنسانى نحو غاية أريدت له مرجوة، فإن نطقوا كانت الحركة أكبر وأسرع» .

كان أحمد زكى دائم التأمل فى طبيعة النظم التى تحكم العلاقات بين الناس ، وكان دائم الكتابة عما قد يستنبطه بفكره من قواعد تقنن هذه النظم . والذين يتأملون التطور فيما كتبه الرجل ابتداء من مقالات الأربعينيات فى الهلال ، أو ما قبل ذلك بقليل، سيلاحظون نمو الفكرة الاجتماعية فى كتاباته حتى أصبحت منظومة القيم والنظم واضحة المعالم والحدود تماما فى كتاباته الأخيرة .

ولو كان من عادة أحمد زكى أن يعيد النظر فيما كتب من فصول ومقالات مختلفة ليؤلف منها أعمالا متكاملة فى موضوعاتها لخرج من مقالاته التى تناولت هذا الموضوع بأكثر بكثير من هذا الفصل الذى نقدمه إلى القارئ .

ومن نافلة القول إنه لم يكن من الصعب على القراء الذين تابعوا مقالات الرجل أن يحيطوا بأفكار أحمد زكى ومقالاته ، ولكن لأن هناك أجيالاً لم يتح لها هذا الحظ فإن هذا الفصل يقدم فكرة عن المعانى لكل المتعطشين إلى قراءة فكر عالم ، عاش الحياة ، وفلسفتها ، وأراد للناس أن يعيشوها على خير ما تكون .

ولن يكون من الصعب علينا فى هذا الفصل الإشارة إلى مصادرنا من مقالات أحمد زكى ، فى أى مقال وفى أى مجلة ، فى كل فقرة من الفقرات ، ولكننا سنضطر أنفسنا إلى أن نتنازل عن هذا الخلق بعض الشىء ، لنتيح للأفكار التى تتناول حياة الناس الاجتماعية انسيابية تقربها من انسيابية حياة الناس الاجتماعية ، وسيجد القارئ فى نهاية هذا الفصل ـ كالعادة ـ قائمة بالمصادر التى نقلنا عنها فيما يتعلق بفكر الرجل ورؤاه .

□

فى حديث للدكتور أحمد زكى عن مصادر السلوك الإنسانى ، لخص رأيه فى هذه المصادر فى عنوان فرعى ، وقال إنها ثلاثة : الغرائز ، فالعادات فالضمائر . . وقد اختار أحمد زكى مدخله إلى الحديث قصة جلسة عند واحد من الأصدقاء إذ جاءه خادمه فقال له إن فلانا يسأل عنه فى التليفون حتى إذا كان فى الدار جاءه على التو لزيارته ، فقال صاحب الدار للخادم : قل لفلان إنى تركت المنزل منذ دقيقتين قاصدا إلى المدينة ، و إنك لم تستطع أن تلحق بى لتخبرنى بمجيئه ! فتعجب الحاضرون ونظر بعضهم إلى بعض و إلى مضيفهم وابتسموا . فقال الرجل إنه ما أراد أن يجمع بين هذا الذى تكلم وبين أحد الجلوس لأن فى اجتماعهما جمعا بين الزيت والنار، «فكذبناها كذبة بيضاء ندفع بها من السوء الشىء الكثير » . فيسأل واحد من الحضور : وما هى الكذبة السوداء؟ فيجيبه الرجل : « أن تكون من مستأجرى أرضى ، وتجمع الحصاد ، وتبيع من الثمر ما تبيع ، وتلقانى وأسألك عن الإيجار ، فتقول لى إنك فى حرج من ضيق ، وفى جيبك حشوة من مال وفير » . وأضاف رجل آخر من الجلوس : إن هناك كذبة لا لون لها . فسألوه : ما تلك ؟ فأبان لهم عن أنها تلك التى نتفوه بها جميعا حين يلقى بعضنا بعضا كل صباح ، ويسأل الواحد أخاه :

كيف الحال ؟ وفى كل صباح يجيب بأن الحال عال والحمد لله . « ولا يمكن أن يكون الحال كل صباح عالا ، وأنت تعلم أنه لا يمكن أن يكون كل صباح عالا ، وأنا أعلم أنه لا يمكن أن يكون كل صباح عالا. فهذه كذبة نأتيها جميعا باتفاق عام، ما كذبتك وما كذبتنى ، فهذه الكذبة التى لا لون لها » .

ثم استأنف أحمد زكى حديثه يضرب على لسان واحد من شخصيات حكايته ألوانا من الكذب التى تقع فى الحياة كل يوم : الزوج يسأل زوجته عن هدية أهداها إياها ، كيف وجدتها ، فكيف تقول ؟ زائر زارك فى المساء وحتى انتصف الليل ، ثم ذكر وهو يغادر بيتك أنه ربما أثقل عليك ، فأى شىء تجيب؟ . . إلخ ، وعقب بقوله : « أمثلة فى الحياة لا تعد ، يقف منها الإنسان منكرا ، ولا يقول إلا حمدًا ، أو حامدًا . . » وانتقل بعد ذلك ليضرب المثل بالرجل فى الحرب يقابله عدوه وهو خارج من البيت فيسأله : أفى البيت أحد ؟ والعدو لا يقصد إلا قتلهم . ويصف الدكتور زكى هذه الكذبة بأنها « كذبة جلت عن أن تكون بيضاء » . فهى فوق صنوف الصدق جميعها !

ومضى أحمد زكى ليتأمل فى معنى الفضيلة ، ومعنى الرذيلة ، وجعل تأمله على هيئة حوار بين الجلساء على هذا النحو :

«ثم سأل أحدهم : من قال إن الصدق فضيلة ، و إن الكذب رذيلة؟ ألا ترون معى أن أكثر ما يمارس الناس فى حياتهم العادية الكذب ، وأنهم جميعا يعرفون أنه الكذب ، وأنه لا يلوم أحد منهم أحدا فى ذلك لأنه الكذب؟ . لا بد من الرجوع إلى المصادر التى قيمت مسالك الإنسان لنعرف منها الحكمة أو الحكم التى من أجلها رأى الناس ، أو شاع فيهم أن هذا المسلك فضيلة وأن هذا رذيلة ، فلعلنا نجد أن كثيرا مما يساق على أنه رذيلة ، ينفع الناس ، فحق إذن أن يكون فضيلة .

والسؤال إذن : ما الأصول التى تحكم مسالك الناس وأخلاقهم ؟

وفى الحقيقة فإن هذا بالتحديد هو السؤال الذى يدور حوله حديث عالمنا عن مصادر السلوك الإنسانى، وقد جاء به بعد هذه المقدمة الطويلة التى لخصناها ، بعدما استطاع أن يستلفت بها النظر إلى أهمية الموضوع من حيث صار خلقا لا أحد ينكر فضله ، وموضوعا للتفاضل عند الأخذ به ! فهو أى الصدق مهلكة فى حالة كحالة الحرب ، مجاف للذوق والخلق الكريم فى حالات أخرى ، ليس من المستحسن الأخذ به فى كثير من الأمور التقليدية ، ومدعاة لجلب الخلافات فى أحوال أخرى، إذن فهل هو مطلوب ؟ أو هل هو مطلوب على الدوام ؟ وما الحكم فى هذا ؟ ومن الذى يحكم على سلوك الإنسان ؟

فى ثقة بالرأى، كان أحمد زكى يستبعد أن يكون « الدين » أصل الأصول فيما هو فضيلة ورذيلة ! ! ومذهبه فى هذا أنه من الجائز أن يهتدى الإنسان وحده إلى مسالك العيش حتى إذا تخلف عنه عون السماء ! ! ويدلل على هذا بدليل قاطع حين يذكر من حال الناس الذين اختاروا أديانهم فى قديم الزمان أنهم قد رضوا أديانهم بقدر ما عرفوا فيها من حسن سلوك :

« ندرك هذا من قصص القوم الذين دخلوا فى الإسلام أو فى المسيحية أو غيرهما، يعرض عليهم الدين فينظرون فيما قدمه لهم الدين من عقائد ومن أخلاق ومن معاملات بين الناس ، أى مسالك عيش ، وهم يرضون الدين بسبب ما يرضون من هذه الأمور، وإذن فهم عارفون الأخلاق الطيبة والمسالك الخيرة قبل أن يكون لهم هذا الدين أو ذاك ، عرفوا ذلك من حياة الإنسان التى سبق أن عاشوها . . وهذا يؤكد قولنا إن الإنسان مهتد إلى ما تدعو إليه الأديان من مسالك قبل أن تكون الأديان . . . إنها بذور الخير التى بذرها الرحمن فى الإنسان ليتعرف بها الحياة . ويتعلم خطاها ، ويهديه فى كل ذلك الطبع الخير إذا تخلف عن اللحاق به الرسول الهادى ! ! » .

وإذن فأحمد زكى لم يكن يعتبر الأديان مصدرًا من المصادر التى حكمت السلوك الإنسانى لسبب بسيط هو أن معتنقيها حين اعتنقوها واقتنعوا بها صدروا فى ذلك عن إيمانهم وتقديرهم لنواحى الخير فيها ، وإذن ـ مرة ثانية ، فما هى الأصول التى بُنى عليها سلوك بنى الناس ؟ يرى أحمد زكى أنها ثلاثة :

- ◻◻ الغرائز البشرية .
- ◻◻ العادات القومية .
- ◻◻ الضمائر الإنسانية .

وهو يرتبها هكذا على مذهب البعض فى ترتيب وجودها تاريخيًا ، ولكنه يعتمد فى مذهب الذين يقولون بأنك تبحث عن المسلك الإنسانى الواحد ، فى الرجل أو الفئة من الرجال ، فلا تدرى ما سبق إلى تكوينه : غريزة هى ؟ أم عادة وتقاليد ، أم ضمير ؟ وعندهم أن الثلاثة تفاعلت معا فأنتجت ما أنتجت من مسالك للسير رضيها الناس .

◻

وخلاصة قـوله فيها إنها أول مصادر السلوك الإنسـانى ، ولكنها غير كافية من هـذه الناحية ، لأنها تحتـاج إلى أمور أخـرى ، فلو سلك النـاس حياتهم بها وحـدها ، مـا نتج عنها إلا الصـدام والمجابهة . ومن ناحية أخرى ، فإنك لا تستطيع أن تعيب أو تحمد سلوكا إنسانيا يقوم على الغرائز وحدها . . واقرأ قوله :

« إن الإنسان منا يبدأ الحياة ومعـه أقوى دوافعها ، تلك الغرائز . إنها تعلمه ، كيف يصنع فى الحياة ، ومنها غريزة الطعام ، فالطفل يمد إلى الطعام يده عندما يجده ، وهو لا يسأل أهو طعامه أم طعام غيره . . وهكذا »

و « مسالك الحيـاة المطلقة الأولى مع الغـرائز الأولى ، لا ينتج عنها بين النـاس غير الصدام ، وغير المجابهة ، والحرب الدائمة » .

وأى نسق فى السلوك الإنسانى ، يقوم على الغرائز وحدهـا ، فى مراتب الحياة الإنسانية البدائية الأولى ، لا يحمد ولا يعـاب ذلك أنك لا تستطيع أن تذم الجائع الـذى يطلب طعامًـا فلا يجد إلا رميك بـالنبل إليــه سبيـلاً ، ولا تستطيع أن تـرد مَنْ رمـاك بسهم إذا أنـت قمت تمنع عنـه الماء . ويضرب أحمد زكى مثلا عمليا فى مقال آخر فيقول :

« إذا كنت فى جزيرة وحـدك فلك أن تكون أنانيا ما شـاءت لك الأنانية ، وأغلب الظن أنها لا تضرك ، وهى عنـدئذ لا تكـون من الأخلاق المحمـودة أو السيئـة المرذولـة فى شىء ، وإنما تصبح كذلك إذا سكن مثلك فى الجزيرة رجل أو رجلان عندئذ تتضارب الأنانيات » .

□

العـــــادات : المصدر الثانى من مصادر السلوك الإنسانى

لا يذهـب أحمد زكى فى تعريف العـادات إلى أكثر من أن يضرب مثـلاً لتكون العادة بـأطفال صغار رآهم «قد خرجوا مع أبيهم يرمون الورق المستهلك من سبت صغير بيده ، ويضعه فى برميل

طويـل أقيم لاحتواء الـزبالة ، فـأخذ الـولدان اللذان يبلغـان من العمر حـوالى السنتين والخمس يقلدان والـدهما فيها يفعل . «إنه التقليد الذى هـو بعض الشر» . وكان لون شعـر الطفل والطفلة أصفر وما كان ليختلف لو أن الشعر كان أسود وأحمر» .

«إنه التقليـد الذى يصنع فى الأمم العـادات ، فإن صار عادة فهـو مسلك رضيه النـاس وهو بعض مسالك القوم» .

«والعادات عشرات ومئـات يمارسها الناس ، ابن عن أب ، وأب عن جـد ، وتصبح عادات طعام وعادات شراب ، وعادات ملبس ومسكن ، وعادات بيع وشراء ، وعادات تمس الأخلاق فى الصميم ، وأخرى تمس الأخلاق مس الأديم . . الأديم» .

«والطبع البشرى يتقبل العـادات دون التوقف للنظـر فيها ، خشيـة أن تنقلب الحياة كلهـا إلى تساؤل فى هذه العادة ، وتساؤل فى تلك ، فلا يكون فى الدنيا عمل حسم ولا لحظة اطراد» .

□

النظرية الاقتصادية فى العادات :

هنا لا بد أن نتطرق لنذكر ما حرص أحمد زكى على تكراره والتأكيد عليه دائماً، من أن العادات اقتصـاد ، لأنها تـوفر على النـاس مجهـودًا كبيرًا فى التفكير ، وتغنيهم عن النظـر فى الشىء الـذى يصفونه . ومـواقف الحياة تتكرر ، والمواقف المتشابهة كثيرة ، يلقى الإنسـان الموقف الجديد الذى سبق أن وقف مثله ، وتصرف فى مثلـه ، وعندئذ لا يكون عليه فى هذا الموقـف الجديد إلا أن يعيد تصرفـا كان لـه فى الماضى ، وبذلك يختصر الجهـد والفكر والـزمن ، «ومن هنا فإن للعـادات من حيث الاقتصاد دورًا كبيرًا فعالاً» .

وإذا كانت العادات اقتصادًا ، فكذلك التقاليد ، وسنعود إلى هذه الفكرة بشىء من التفصيل فى جانـب آخر من جـوانبها ، عنـدما نتحدث عـن الأثر الـذى أحدثته التكنـولوجيـا فى التنظيم الاجتماعى ، وذلك لأن أحمد زكى ينطلق من نفس الفرضيات والنتائج .

ويتفـرع حـديثـه عن العـادات إلى الحديـث عن العـادات الشخصيـة والعـادات الاجتماعيـة كنموذجين مختلفين لطبيعة العادات :

□□ فالعادات الشخصية : صنف من صنوف العادات ، وهى تمس الشخص بمفرده ، ولكن الاختلاف فيها قد يؤدى إلى متاعب غير قليلة ، « لأنه ما من شىء يعتبر شخصيا فى أكثر صفاته إلا وهو متصل بالحياة العامة من حيث يدرى صاحبه أو لا يدرى » .

وخذ مثلاً لذلك حلاقة الذقن ، « لو أن الناس تعودوا عادة واحدة ، وهى الشفرة فى الحلاقة صباحًا ، لكان صدى هذا فى الصناعة فى الأمة صدى كبيرًا إذن تصنع الشفرة بكثرة ، وإذن تصنع أجود ما تصنع ، وتباع بأرخص الأثمان » .

«ومثل هذا فى الطعام والشراب ، وفى توحيد الذوق تسهيل الأمر على الصانع والخابز فى كل مرفق من مرافق الحياة » .

« إنه المجتمع الإنسانى ، والاجتماع لا يكون إلا بين أشباه ، وكذلك العادة ، وإنما هى الخط الواحد والأنماط الواحدة التى تلبسها الأشياء » .

□□ والعادات الاجتماعية : وهى التى تتصل بالحياة فى المجتمع ، تتصل بالمعاملات ، بالبيع ، والشراء ، وبالتعليم ، والصحة ، والزواج ، والطلاق ، والولادة ، والموت ، والأفراح ، والأتراح فهذه من الضرورى أن تضمها وتلمها صور من العادات واحدة ، وهذه العادات تتصل بالزواج ، والجنس ، وبحسن المعاملة ، وكل ما درجنا على تسميته بالأخلاق .

□

أثر الزمن فى العادات :

استحوذت هذه النقطة بالذات على اهتمام أحمد زكى فى عدد كبير من مقالاته ، وله الحق ، ولها الحق ، لأنه فى تقرير طبيعة أثر الزمن فى العادات ، تقرير لحياة العادات ، هل هى شىء وقتى ؟ أم شىء يتغير مع الزمن ؟ أى أن طبيعتها تتغير مع طبيعة الزمن ؟

والجواب عنده أن الأمر يختلف من عادة إلى عادة ، وأن الناس تنظر إلى العادات نظرة براجماتية تبتغى منها النفع ، وهى غير مطالبة بأن تقدس عاداتها على مر الزمن . وهذه هى فقرات مختلفة من مقالات أحمد زكى فى مواضع مختلفة :

□ «ومن العادات ما هو دائم النفع يصلح لكل زمان ، كعادة العمل ، ولكن من العادات ما يصلح لزمان دون زمان ، كوسائل المواصلات ووسائل العلاج . . إلخ . فقد استبدلنا بالجهل فى هذه الأمور علما على الزمان الطويل» .

□ « والعادات تدوم ما رضى بها أهلها وتتغير الظروف المعاشية ، والأعمال المهنية والمسالك الاقتصادية والمجتمعات الإنسانية ، فلا يلبث سكان المدينة أو القرية أن يحسوا الحاجة إلى التغيير. فتتغير العادات رويدًا رويدًا . وفى التغيير استرضاء لمطالب الحرية بتوسيع مجالات الحركة فى العيش » .

□ « والعادات باقية فى قبيل الناس ما بقيت تعطى نتائجها المرضية من التعاون والتآلف وحمل التبعات معا وبالسوية » . فهذه الرتابة الراضية تسرق من الناس الفكر فى صلاح هذه العادات أو فسادها .

□ « والعادات راحة ، والتقاليد راحة ، وفيها راحة الروتين وترك العقل خاليًا ليفرغ لتقدم الحياة وأسعارها » . « ولكن تقدم الحياة على هذا النحو يغير من صور الحياة ، وقد تتغير عادات على هذا النحو وبسرعة هذا التغير فلا يكاد يحس به أحد، ونخدع فى ذلك ونقول مثلاً إن عادات اليابان وتقاليدها رغم تقدمها الصناعى ظلت على ما كانت عليه ، والحقيقة أنها تغيرت كثيرًا بسرعة لم يحس به راكبو قطارها » .

هكذا يحدد أحمد زكى فى وضوح طبيعة اختلاف العادات بمرور الزمان ، ويقرر أن العوامل التى تستطيع تغيير العادات ليست أقواما من الناس « استعجالا للخير أو ما يحسبون أنه الخير، فيفشلون»، « وإنما ينجح فى تغيير العادات : ظروف الحياة المتغيرة بعنفها وجبروتها ، وينجح تطور التعليم ، وينجح تواصل الأمم » .

□

الضمير

إذ يتحدث أحمد زكى عن حكم العادة ، يتطرق إلى الحديث عن الضمائر. وحينئذ يعرف الضمير تعريفًا غامضًا بعض الشيء حين يربطه « باستيقاظ الحفاظ على العادات. . . وهو حفاظ طبيعى الأصل فيه معارضة التغيير لأن التغير غير مأمون العاقبة ، وباستيقاظ هذا الحفاظ

على العادات عند الكثيرين ، يستيقظ فى بعض أفراد الأمـة الضمير، تلك القدرة النفاذة التى تنام فى الناس طويلاً حتى توقظها دقة الأجراس المنذرة بالمخاطر » .

وعلى الوجـه الآخر فـإنه « إذا حدث أن جماعـة قامـت تعرض على فرد مـن هؤلاء الأفـراد ما لا يرضى بـدأ استيقاظ الضمير الـرافض ، الضمير الذى يقـول لا ، ولو قـال من حولـه ألف لسان نعم . فأصحاب هذه الضمائر كانوا يركبون راحلة العادات مركبًا سهلاً ، فلما رأوا أنها إنما تسير بهم إلى أضرار لا يـدركهـا إلا ذوو العقول النـاقـدة نـزلـوا عن المركب السهل واتخذوا ضمائرهم المركب الأخشن» .

«والمسلك الطيب عنـد ذوى الضمائر هـو الـذى يحكم عليـه بأنـه المسلك الطيب فى محكمـة الضمائر ، تلك التى لو شئت أن تتخذ لها مقرًا لجعلته حبات القلوب » .

□

الضـمائر والتقاليـد :

يدرس أحمد زكى الصراع بين الضمائر والتقاليد وينتهى إلى رأى شبـه قاطع يقول فيه : « ليست محكمة الضمائر ، بـالمنصوية دائمًا لتعارض محكمـة التقاليد فحسب ، فهذا هـو السخف البعيد ، ولكن محكمة الضمير هـى التى تتخذ من عقل صـاحبها ، ومن فهمه ، ومن رقيـق حسه ، ومن لطائف طبعه ، ومن علمه فى الحياة وخبرته وثقافته مـوارد قانونية تستند عليها فى أحكامها ، وكثير من هذه الأمور لا يحتاج فى أحكامه الموضوعية إلى الغوص البعيد فى المراجع » .

« وأوضح مثل على ذلك هو مـا نذكـره من أمر الرجل العـربى البدوى الـذى نشأ فوجد قـومه يعبدون وثنا ، ثم استيقظ ضميره عندما رأى ثعلبا يبول عند رأس الرب ، ففكر ، فحكم فقال :

أربٌّ يبـــول الثعلبـــان بـرأسـه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وهذا أمـر لا يحتاج إلى ضمير نفـاذ (نلاحظ هنـا أن مثل هذا الحدث عنـد الكثيرين من أهل الرأى والفكر ليس أمر ضمير وإنما هو أمر عقلى ، ولكن أحمد زكى يتسع بالضمير فيشمل به مثل هذه الأمور) .

ويمضى الزمن فيحس الدكتور أحمد زكى - قبل أن نحس - أن كلامه هذا فى موضوع الضمير الذى جاء عرضا عند الحديث عن العادات والتقاليد ، لا يوفى الضمير حقه ، ولعله كعادته بحث ، بدءًا بقواميس اللغة فى أمر الضمير ، فلما استقرت له الفكرة كتب عن الضمير مقالا كاملاً (مجلة العربى : ٣/ ١٩٧٥) وجعل عنوانه « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب».

من هذا الحديث بخاصة ومن غيره تأتى أفكار الرجل التالية فى مسألة الضمير .

التعريف الجديد للضمير:

هذا هو تعريف الضمير عند أحمد زكى (فى ١٩٧٥) وهو يتفق فيه تمامًا مع تعاريف جمهرة علماء النفس ، ولعل هذا الاتفاق جاء نتيجة أنه جاء بعد قراءة ودراسة ، لا بعد تأمل نفس وتفكر. ليس غريبًا إذن أن يعرف أحمد زكى الضمير فى مقاله(العربى: ٣/ ١٩٧٥) بأنه « الوازع الذى يزع الإنسان عن ممارسة السوء »، وأن يردف قائلاً : « والوزع هو الكف والمنع »، « والوازع الزاجر يزجرك عندما تريد مقارفة الشر » .

هذه الفلسفة فى النظر إلى الضمير على أنه رقيب يمنع الشر ويحول دون السوء والفساد . . إلخ . . هى جوهر ومظهر نظرة أحمد زكى إلى الضمير . وإنى لأعجب كيف جعل أستاذنا الدكتور أحمد زكى الضمير فى هذه المنزلة فحسب ، ولم يذهب إلى الناحية الأخرى ليجعله دافعًا إلى الخير . وإنى واثق كل الثقة بأن أحمد زكى بالذات لو عبر عما فى نفسه لذهب هذا المذهب ، ولكنه فكر فى المسألة على نمط من التفكير لا بد أن ينتهى به أو بغيره إلى هذه النتيجة .

الضمير والشيطان:

يذهب أحمد زكى مذهب القائلين بأن وجود الشيطان فى النفس ووسوسته لها بالشر، اقتضيا وجود عامل آخر يقوم فى النفس أيضًا ، ويهمس لها بالخير ، ويزجرها عن الشر زجرًا، وذلك كى تتزن موازين الأمور . إنها الزوجية التى وجب أن تكون فى كل شىء . . خير وشر . . نهار وليل . حياة وموت . . ثراء وفقر ، عز وذل ، حلو ومر . وهذا العامل الآخر الذى يوسوس بالخير ، أو يقوى فيزجر عن الشر ، إنما هو الضمير بالمعنى الحديث .

ولو أكـد أحمد زكى على قوله « ويهمس لها بـالخير » ، وانطلق من هذه النقطـة ، لجاءت رؤيته للضمير على نحو أعمق ، ولكنه فيما يبدو كـان يفضل أن يذهب إلى القول بأن الضمير ، وازع ، رادع ، رقيب إلى الحد الـذى يشبه فيـه الضمير بـالرقيب فى الصحف ، ويمضى فى تفصيل هـذا التشبيه على نحو يستطيع القارئ لو أحب أن يرجع إليه فى موضعه .

□

الضـــمير أشـمل من القـوانين :

يقارن أحمد زكى بين الضمائر والقوانين من حيث مقـدرتها على الرقابة على الـذنوب ، ويذهب إلى القول بأن الضمير أكثر تأثيرا وأشمل من القوانين وليس فى هـذا جديد بالطبع . ولكن مثل هذا الحديث كان له مقصده الواضح فى عصور شمولية اعتمدت تمامًا على القوانين وحققت بها نجاحا كبيرًا فى ضبط الحياة الاجتماعية ومع هذا فإن أحمد زكى ينبه إلى الحقيقة ويقول :

«قوانين الدولة لا تشمل الذنـوب جميعا ، ولكن تشملها الضمائر. إن القوانين تحمى الناس من القتل غيلة ، ومن سرقـة المال ، ومن انتهاك العـرض ، وما إلى ذلك من الجرائم الواضحـة البينة . ولكن كثيرًا من هذه الشوائب قد تخفى على القوانين وعلى الشرطة ، ولكنها لا تخفى على الضمائر ، ولا تحمى منها القوانين ولا الشرطة ولكن تحمى الضمائر » .

«وإن من الذنوب ذنوبًا لا يمكن أن تـدخل فى قوانين لأنه لا يمكن تحقيقها ، ولا تكييفها ولا وزن لها ولا قيـاس . فماذا تصنع القـوانين فى رجل قيل إنـــه عق أبـاه ، أو أزرى بأمـه أو شتم بين الجدران زوجته ، أو سامها سوء العذاب ، وما كل عذاب يظهر على جسد » . « كل هذه الذنوب لا تغطيها قوانين الدولة ، ولكن تغطيها ضمائر الناس عندما تصح أو تسوء » .

ويتوج أحمد زكى هذه الفكرة بحكمة من مأثوراته فيقول :

« فإذا نزلت بقـوم ، فلا تسأل كم عنـدهـم من قوانين ، وكم لهذه القـوانين من نفاذ ، بل أولى بك أن تسأل كم بأنفس أهلها من ضمائر » .

ويعود الـدكتور أحمد زكى ليؤكـد معنى التفريق بين القوانين والضمائر ــ منتصرًا للضمائر ـ من زاوية أخرى ، فيقول :

« الشرطة والمحاكم قائمة على نفاذ القوانين مما تستطيع الدولة تقنينه وتصنيفه وتكييفه . أما الضمائر فهى رقباء على نفاذ كل القوانين ، ما خالته الدولة وما لم تخله ، وما استطاعته وما لم تستطعه ، وما يدخل تحت معنى القانون أو يدخل تحت معنى الذوق والجمال والمواساة والرحمة وكل مسلك من مسالك الخير » .

المبادئ التى يسير عليها الضمير :

يجيب أحمد زكى مباشرة فيقول :

« إنها قيم الحياة ، فى مراتبها العليا ، وفى تلك المراتب الأخرى السفلى ، تلك القيم الكريمة النبيلة الواحدة التى لا تأبى أن تحل فى قلب رجل حل به الفقر ، أو رجل صاحبه الثراء ، ولا رجل رفع به العلم ما رفع ، أو نزل به الجهل ما نزل . إنها القيم التى ترتفع بالناس فوق أرزاء الدنيا ، وفوق آلامها ، وفوق آمالها وأحلامها ، والتى بها وحدها يحكم المرء على نفسه يوم الرحيل الأخير: أنجح فى هذه الحياة الدنيا أم فشل فيها » .

□

كيف يتكون الضمير ؟ :

أما هذه الفقرت التالية المنتقاة من كتابات أحمد زكى فهى أروع ما فى حديثه عن الضمير وسنتولى تقديمها بالصورة التى تحدثنا عن تكوين الضمير دون تعقيبات ولا استطراد :

□ «الضمير لا يبدأ إلا حينما تحصل علاقات بين الإنسان والإنسان . بعد الثالثة يأخذ الطفل يعى أنه ليس وحده يملك الدنيا . فهناك صبى ، وصبى وصبى ، فلا بد ينسجم . . وعلى أمثال هذا ينشأ الكثير من الضمير » .

□ «الضمير يبدأ ملء دستوره فى البيت ، ويتابع كتابة دستوره فى المجتمع . إن المجتمعات تحمى نفسها بأشياء كثيرة منها « الاتباع » ، والاتباع عامل فى ملء دستور الضمير له أثر كبير» .

□ «هناك أمثلة تضربها من ظواهر الأمور . وهناك أخرى أخفى منها ، وأذهب فى النفس

الإنسانية عمقا ، وأكثر فى الفكر الإنسانى اختلافًا ، ومنها الآداب العامة ، وأشد منها وأعمق العادات القومية ، وأعمق من هذه العقائد الدينية » .

☐ «ودساتير ضمائر الناس ليست كلها نسخة واحدة ، لأن الناس فى أجسامهم ، كما فى أنفسهم، أشباه ولكن ليسوا فى جسم أو نفس سواسية» .

☐ «والإنسان فى المجتمع يمر بأطوار الصبا والمراهقة والشباب، وأكثرها أطوار تقليد يصنع الإنسان فيها ذاته بالتقليد لما حوله . وفى الإنسان مقدار من التقليد يضارع أو يشابه ما فى القردة من ذلك . وبعد دور التقليد والانصياع لطقوس المجتمع وعاداته، يبلغ الإنسان السن التى عندها يأخذ يدخل فكره إلى التقاليد ليرى كم هى تقع من الفكر السليم بحسبان أن فكره هو، هو الفكر السليم ، وعندئذ يدخل الحذف والمحو والتصحيح فى دستور الرجل الذى يأخذ يهديه ضميره ، وهو يسلك به فى مسالك العيش» .

☐

المصادر الأخرى للضمير :

على نحو ما فعل أحمد زكى فى مناقشته لمصادر السلوك الإنسانى ، نجده هنا يتأمل المصادر فيما يتعلق بالضمائر. ونلخص آراءه هنا فننقل عنه قوله :

« إن فى أديان الأرض كثيرًا من الروادع التى تتألف منها دساتير الأرض » ، « ولكن القواعد التى سنها الفلاسفة لا تصلح لأن يقام عليها ضمير . ذلك لأنهم اختلفوا فنفى بعضهم بهذا الخلاف بعضا ، ولأنهم فكروا فحينا أصابوا وحينا أخطئوا ، وضلوا ضلالا بعيدًا » . وإذن فالعلة فى عدم صلاحية الفلسفة لتكوين الضمير تقود إلى الاختلاف البين وإلى التفكير ، والتفكير لا يؤدى إلى الصواب دائمًا . ويفيض الدكتور زكى فى تفصيل هذه النقطة وضرب الأمثلة لها على نحو ممتع يجدر بالقارئ أن يعود إليه فى مقاله عن الضمير والمقالات الأخرى التى أوردناها فى قائمة المصادر الخاصة بهذا الفصل .

☐

الضمير وتقدم الأمة :

نجا أحمد زكى من أن ينظر إلى ضمير الجماعة ، نظرة الذين يحللون ، أموجود هو أو غير موجود ، وما هى طبيعته . وقد كان السر فى هذا أنه كان دائمًا ينحاز إلى الجانب المرتبط بالإصلاح والتقدم ، من حيث أهمية الضمير لهذين الجانبين . . فنراه يركز على أهمية يقظة الضمائر ، من حيث كانت هذه اليقظة ضرورة أولى للإصلاح والترابط والتماسك .

ويمضى أحمد زكى فيصف أحوال الجماعات والأمم فى غيبة الضمير ، وصفا يؤكد على أهمية الضمير ، وأهمية العناية به .

ثم يتطرق أحمد زكى إلى الرشوة (الناحية الإصلاحية العلاجية الوقتية فى مقالات عالمنا الجليل ذات الصفة الشهرية) وعن علاقتها بالضمير، ويرد ذلك منذ البداية إلى أن الفقر يضعف الضمائر . ضمائر الأفراد . وقوله هنا « الفقر كافر والضمير إيمان » درة من درره .

□

وهذه بعض فقرات لأحمد زكى على نحو مسرود فى سرعة وترتيب :

□ «ولكن للضمائر مقدارا من اليقظة إذا هى لم تبلغه ، لم تبلغ الأمة ما وجب أن تبلغه من إصلاح . ولم تبلغ ما وجب أن تبلغه من ترابط وتماسك . فما يكون فى غيبة الضمائر إلا الظلم وإلا الاعتداء ، وإلا إضاعة الحقوق ، وإلا ذهاب القوة فى الدولة من حيث إنها قائمة دائمًا فى ميدان صراع بين دول أكثرهم به عداوة وله أطماع » .

□ «إن الفقر يضعف الضمائر ، ضمائر الأفراد . والفقر كافر ، والضمير إيمان ، وفى الفقر يشمل المرء ما لا يشمله على الغنى . ودعوة الوعاظ إلى التمسك بالصبر ، على الفقر ، بأن الله رازق ، قلما تشبع من جوع وتغطى الجسم العارى بلباس» .

□ «والفقر كان حظ الدولة العربية فى دور الاستعمار الذى كان ، ولكم امتد فيها بعده من سنين ، والاستعمار كان فقرًا وكان جهلا ، والجهل يسد باب الغنى ويسد باب الضمير .

وغابت الحرية . . وفى مظلة الاستبداد تكثر السرقات ، وتباح الحرمات » .

□ «لهذا كان من رحمة الله أن تجول الأبصار اليوم فى الدول العربية فلا تزال تجد فيها من الضمائر

بقيـة باقيـة . إلا أن أكثرهـا ضمائر عـاجزة . تـرى المنكر وتضعف عن تغييره، إلا بقلـوبها ، والتغيير بالقلوب أضعف الإيمان. إن أكثر الضمائر تقبع حيث يقبع الذل ، والذل أخرس» .

□ «ولكثرة ما شاعت الرشوة فى الناس حتى صارت أصلا من أصول العيش ، اقترحت أن يحذف من القوانين العربية حيث الرشوة شائعة النص بعقوبة المرتشى والراشى» .

□ «وإلى جانب الرشوة الاختلاس . ويختلس وهـو آمن أو يكاد . يأمن القانون . . ويأمن الناس أن تسفك دمه أو تحرق بيته . . جزاء عن الآلاف الكثيرة التى اختلسها من شعب فقير. وذلك لأن ضمائر الناس ألفت أن تسمع ثم تقول لا حول ولا قـوة إلا بالله . مع أن الله أعطـاهم كل حول وكل قوة» .

ولكن ما هـو الحل؟ هنا لا يجد الدكتـور أحمد زكى بدا من أن يقـولها بملء فمه : إنه التربية . وهو يرد أولا على الذين ينادون بمثل ما حدث فى الصين من « ثورة ثقافية » فيقول :

« ولكنى لا أحسب أن بهذا تنصلح الأمور . فالضمائر تحيـا بالتربية فى المنازل وفى المدارس وفى المساجد وفى المجامع ، والدعوة إلى تصحيحها تخرج من بوق من أبواق الدعاية ، وفى كل كتاب إلا أن يأتى القوم نبى ، فيبدل من أنفسهم تبديلاً . نبى من بنى البشر لا رسول من رسل السماء» .

□

مع الزمن: أحمد زكى يعدل بعض آرائه

انتهينا مع أحمد زكى من واقع مقالات متعددة، لعل أبرزهـا المقال الذى جعل عنوانه «مصادر السلوك الإنسانى» وانتهى إلى أن هـذه المصادر ثلاثة هى الغرائز فالعـادات فالضمائر . . وفهمنا عنه أن المنطق ليس بمصدر ، وأن الدين ليس بمصدر للأسباب التى ذكرنا بالتفصيل .

ولكننا نجـد للرجـل بعد ذلك مقـالا كامـلا عنوانه« الأخـلاق ، والقيم ، والعـادات فى حياة الناس . ما مصادرها ؟» وعلى سبيل التلخيص السريع الذى لا بد منه لفهم الأمر كلية بادئ ذى بدء ، يمكننـا القول بأن أحمد زكى عـاد ليجعل مصادر الأخـلاق والقيم والعادات أربعـة مصادر رتبها على النحو التالى :

□ الفكر الإنسانى وما احتواه من منطق .

□ الطبيعة التى يعيش فى أحضانها الناس .

□ الجبلة الإنسانية التى لا تكاد تعتمد على فكر.

□ أديان البشر جميعًا .

وهكذا يبدو وكأن أحمد زكى قد تركنا فى حيرة . أيها مصادر السلوك ؟ الثلاثة الأولى الغرائز فالعادات فالضمائر، أم الأربعة التالية : الفكر والطبيعة والجبلة والأديان .

وقد يبدو أن الاختلاف فى العناوين قد يحمل بارقة أمل ، فالثلاثة الأولى هى مصادر للسلوك الإنسانى ، على حين أن الأربعة التالية هى مصادر للأخلاق والقيم والعادات . ولكن ما الفرق؟ لا شك فى أن هناك فرقا بين السلوك الإنسانى وهو شىء واقع ، وبين الأخلاق والقيم والعادات ، وهى أشياء يفترض فيها أن تحكمه أو تحاول أن تحكمه ، أو تفسره أو تحاول أن تفسره .

ولكنى لا أظن أن هذا الفرق يبلغ الدرجة التى تسوغ هذا الاختلاف بين المصادر فى كلا الحالين .

فلننظر أى المصادر تكررت فى الأمرين .

عندئذ نجد الغرائز (فى الأولى) قد عبر عنها بالجبلة (فى الثانية) وهناك فرق ما بين الاثنين سأتحدث عنه فى حينه . .

ونجد العادات (فى الأولى) مصدرًا ولكننا نجدها فى الثانية من الأشياء التى تتطلب المصدر.

ونجده فى الأولى ينفى أن يكون الدين مصدرًا ، ثم يجعله (فى الثانية) المصدر الرابع . .

ويبدو إذن أنه (على مثل هذا النحو من المقارنة والمراجعة) لن يتأتى التوفيق الذى يؤدى بنا إلى فهم فلسفة أحمد زكى فى هذا الموضوع .

ولكنى أزعم أنى فهمت الموضوع على نحو رياضى ، يستند إلى روح علم التفاضل ، ولست أبتغى تعقيدًا للموضوع ولكنى ابتنى تبسيطًا له .

ذلك أننا نجرى عملية « التفاضل » فى الرياضيات على نحو قريب مما يسميه العامة بالتفصيص ، أو على نحو ما يفهمه الكثيرون من سلسلة الأمور فعبد الله بن عبد المطلب ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله ، وهو ابن عبد المطلب أيضًا (ولكنها ليست بنوة مباشرة ، ليست بنوة ناتجة من الخطوة الأولى فى تعاقب الأجيال) . . وهكذا تمضى العلاقة التفاضلية أو العملية التفاضلية على نحو يتيح لها أن تكرر نفسها على الناتج الذى أنتجته من المعطى الأول .

لا على القارئ مما تقدم ، ولينظر معى إلى السلوك الإنسانى ما مصادره ، فليكن مصدره أى شىء ، ولكن ما مصدر هذا الشىء المصدر ؟ إنه المصدر (الجد) . . ولكن مصدر السلوك

الإنسـانى ليس واحدا وقـد يكـون أكثر من شيئين أو ثـلاثة ، وقـد يكـون لمصدرين من مصـادر السلوك مصدر واحد أعمق ، وهكذا . .

لو فهمنـا هذه القـاعدة التفـاضلية لأدركنـا أن أحمد زكى لم يخلط حين جعل مصـادر السلوك الإنسانى هى الغـرائز فالعادات فالضمائر، ثم أعـاد النظر يرى ما هى مصـادر العادات والأخلاق والقيم فوجدها الأديان والجبلة والطبيعة والفكر .

بل أكثر من هـذا فقد جعل الدكتور مصـادر الأخلاق فى مقاله (العربـى : ٨/ ١٩٦٨) ثلاثة هى من ذات التى نتكلم عنها ولكن مع اختلاف فى الترتيب :

- ☐ الديـن
- ☐ قانون الطبيعة .
- ☐ الجبلة البشرية .

أقول هذا هنا بعدما أخرتـه إلى هذا الموضوع لكيلا يزيد اللبس ، ولكنى متأكد الآن أن لا لبس ولا تلبيس .

ولا علينا مـن هذا الترتيب التفاضلى ، لأنـا لا نهدف فى المقام الأول إلى جعل هـذا الفصل بل والكتاب كله تكامليا بالـدرجة الأولى ، ولكننا نهدف إلى أن نستكمل على نحو ما البحث والتأمل فى جزئيات فلسفة أحمد زكى فى جوانب النظام الاجتماعى ، لهذا سنسرع إلى الحديث عن القيم ثم نتفرع بالحديث إلى الأصول الأربعة :

القـــيم

وهى عنـد أحمد زكى تلك التى « يقيـم بها الإنسـان أشيـاء الحيـاة ، ممـا يتصل بحـوافـزهـا ، وأهدافها، والأمانى التى يحاول الإنسان أن يبلغها» .

تعريف ليس هو تعريف الفلاسفة ، ولكنه قريب إلى حد بعيد منه .

ويتفرع الحديث بالدكتور أحمد زكى ليحدثنا عن نوعين من المجتمعات :

المجتمعـات المسـتقرة :

وهى تلك التى قلما تتـاح لها الفـرصة فى التريث قليـلاً لتنظـر فيما هى صـانعة ، وفى مـوضع

صنعها من الصحة والخطأ ومن الحق والباطل . » ومثل هذا المجتمع عنده أن عـاداته حقة ، وأن نقيضهـا هو البـاطل ، وأنها حقة لأنها عـادات ، وأنها عادات فإذن هى حقـة ، وإلا ما حفظهـا الزمان » ومثلها مجتمعاتنا الشرقية .

المجتمعـات غـير المسـتقرة :

وهى تلك التى يصحو الناس فيها ويمسون ، وهم يفتشون فى عاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم من كل نـوع . ومثلهـا المجتمعات الأوربيـة . ويـذكـر الناس من أمثلـة القـلاقل التى وقعت فى المجتمعات الأوربية الثورة الفرنسية ، وقبلها كان التحـرك الفكرى الذى قاده فلاسفة الفرنسيين فى أوائل القرن الثامن عشر وفى أثنـائه وهو كما عبر عنه باسم التنوير، وقبل عصر التنـوير كان عصر النهضة ، وكان عصر الثورة الدينية ، ومن بعد الثورةالفـرنسية جاءت الحركة الرومانسية . . أمواج متلاطمة فى البحر الذى افتقد السكون . تلك البيئة الأوربية فى القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية .

وكان أثر هذه الـزوابع التى وقعت فى الغرب فى حياة الناس فى أمم الغرب أثـرًا بالغًا فى مساكن النـاس ، ومـلابسهم وطعـامهم ، وعـاداتهم ، وآرائهم العلميـة والاجتماعيـة والنفسيـة والماديـة والروحية .

□

ويستأنف أحمد زكى حـديثه ليناقش إلى أى مـدى بلغ تأثير ما حـدث فى الغرب على الشرق . ولنناقش معه مصادر السلوك والأخلاق فى أمم الأرض .

مصادر الأخلاق والسلوك

١ ـ الفكـــر

بعد أن يضرب عـدة أمثلة على نحـو ما فعل فى مقـاله (العربـى : ٢/ ١٩٧٢) يقرر أحمد زكى صراحة أن مبـادئ الأخلاق ، وقواعـد السلوك لم تكن من نتائج الفكـر ، أو على الأقل من نتائج الفكر العارى والمنطق السليخ وحده . لابد أن الناس قد اعتمدوا فيها على مصادر أخرى .

وليس معنى هذا أن أحمد زكى لم يكن يعتبر الفكر مصدرًا من مصادر السلوك ، ولكنه يريد أن يؤكـد أن الفكر العارى أى الفكـر المجرد ، والمنطق المطلق (بتعبيره : السليخ) ليسـا هما المصدر

الـوحيد للسلـوك الإنسانى . . صحيح أن عبـاراته فى هـذا ليست واضحة بـالقدر الكـافى ولكن سيأتى بيان هذه النقطة فى موضع آخر من كتابنا هذا إن شاء الله .

٢ ـ الطبيعة

يسرد أحمد زكى نماذج الطبيعة التى يستلهم منها الناس سلوكهم ، ففى الحيوان تعاطف ، وفيه ميل بين الـذكر والأنثى ، وفيـه أمومـة ، والقط يأبى القـذارة ، فلهذا يلعق شعـره دائمًا ، والكلب يحسن ولاءه للنعمة ، والشجرة تزرعها حيث ضوء الشمس قليل فتميل لتخرج إلى الضوء . . وكل هذه دروس للإنسان .

ولكن الدقة العلمية تجعل أحمد زكى لا يمضى دون أن يـذكر الجانب الآخر من الموضوع ، فإن فى الطبيعـة ظواهـر جـرى النـاس فى أخلاقهم على نقيضهـا . ففى الحيـوان افتراس دائم ، يأكل القوى الضعيف ، ويـأكل الكبير الصغير ، والناس لا ترضى هـذا ، أو هى على الأقل تحاول ألا ترضاه ، فتنشئ معانى من العدالة ومن المساواة ، لا يعرفها عالم الحيوان .

وينتهى أحمد زكى نهايـة أقرب إلى مـا ننتهى إليـه فى أمر الفكـر كمصـدر من مصادر السلـوك الإنسانى فيقول : « وليست هذه المعانى مصدرهـا الفكر والمنطق ، وليس مصدرها الطبيعة يعيش الإنسان فى أحضانها » .

٣ ـ الجبلة الإنسانية

يبرز هنا سؤال مهم ، هل أراد الـدكتور زكى أن يعاود القول بأثر الغريـزة ، فاختار لها اسما آخر هـو الجبلة؟ قـد يكـون . ولكنـه ضرب مثلاً يسـاعـدنا على فهم الجبلـة على أنها شىء آخـر غير الغـريزة ، فهى شىء فى الإنسـان الذى نما فى المجتمع الإنسـانى ، أمـا الغريـزة فهى تلك التى فى الإنسان الذى ولد فجسب ، هذا هو ما فهمتـه شخصيا من ضربه المثل بالرجل يأكل طعامه على ناصية الطريق فيمر به المحروم فتدفعـه جبلته ـ إن ظلت صحيحة ـ إلى أن يجود ببعض طعامه لهذا المحروم .

وينتهى أحمد زكى فيما يتعلق بالجبلة إلى رأيه القائل بتأكيد ما ذهب إليه من قبل من أثر الغريزة أو الجبلة أو الطبيعة فى سلـوك الإنسان ، وعباراته فى هذا واضحة : « هـذا هو أنت أيها الإنسان ، ولا تقل من أى جنس أنت ، ولا من أى أرض ، إن كل الناس الأسوياء فى هذا سواء ، فتلك هى الجبلة الإنسانية ، وكدت أقول الفطرة التى تهدى الناس سواء السبيل » .

٤ ـ الدين

ولعل رأى الدكتور أحمد زكى فى مسألة الدين هنا أقرب إلى الصواب من رأيه السابق (الذى أشرنا إليه فى موضعين سابقين فى هذا الفصل وفصل سابق) عندما تحدث عن مصادر السلوك الإنسانى ، نافيًا أن تكون الأديان من هذه المصادر ، لأن الناس تقبلوا الأديان بقدر ما وجدوا فيها من توافق مع ما عرفوا من قواعد السلوك السوى .

وقد يكون هذا صحيحًا فى شأن أولئك الذين أتتهم الأديان فى ماضى الزمان ، ولكن ما بال أولئك الذين يولدون فيجدون أنفسهم على دين آبائهم ، وهم كل الذين يعيشون عصورنا اليوم ؟

لهذا كان من الصواب أن يعود الدكتور أحمد زكى ليؤكد على الدور الإيجابى للأديان فى تكوين السلوك ، وطبيعة هذا الدور ، على النحو الذى نجتزئ منه بقوله : « جمعت الأديان ـ إلى العبادات والعقائد ـ محاصيل القرون من الأخلاق ، ورسمت طريقًا معبدًا سهلاً ، وفر على الناس اضطراب الفكر ، وريبة المنطق ، وأشياء يستوحيها الإنسان من بيئته ، ومن الطبيعة التى يعيش فيها ، أما الجبلة الإنسانية فانتقلت خلاصتها طاهرة مطهرة إلى الأديان تكاد تتحدث بها » .

« والفضائل الأساسية فى الأديان واحدة أو تكاد تكون » .

ولكن ماذا عن **التقاليد** ؟ إنها الشىء الذى لم نتناوله حتى الآن بالتفصيل بعدما تناولنا مع الدكتور أحمد زكى : الغرائز ، والعادات ، والضمائر ، والقيم ، وكلها من عناصر البناء الاجتماعى . ها هو ذا الدكتور أحمد زكى يختص التقاليد بمقال كامل فى حديث الشهر (العربى : ٧/ ١٩٧٤) ، ويجعل عنوانه « التقاليد : يذكرها من أهل اليمين من يذكر فيرفعها إلى الذروة ، ويذكرها من أهل اليسار من يذكر فينزل بها إلى الحضيض » . ومن هذا المقال ، ومن فقرات أخرى نلخص للقارئ آراء أحمد زكى فى التقاليد من زوايا مختلفة .

التقاليد بين أهل اليمين وأهل اليسار :

لأهمية هذه النقطة نقدمها فى الحديث كما قدمها أحمد زكى من قبل حيث يقول :

«التقاليد لا تختلف فى قيمتها بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنها تكاد تكون من العوامل المفرقة بين أهل اليمين وأهل اليسار . فأهل اليمين ينظرون إليها على أنها عمد من أعمدة الحياة ، تتقوض الحياة بتقويضها ، وعند أهل اليسار هى أسوأ أدواء يجب أن تتخلص منها الحياة لتصح وتتطهر» .

ما هـي التقــاليد :

يعرف أحمد زكى التقاليد طبقا لمفهومـه الأشمل المتعلق بمنظومة البنيان الاجتماعى على النحو: « أنماط من السلـوك تواضع عليها مجتمـع من الناس ، لتنظم الحيـاة بينهم ، فلا تكون فـوضى ، ولكى يعــرف كل من فى المجتمع حين يحل بـه أمــر ، أو يشكل عنـده مشكل ، أو يقع لـه من الأحـداث ما يحب أو مـا لا يحب ، كيف يتصرف كما يتصرف النـاس لا بـد من أسلوب واحـد أو أسلوب متشابه يتعوده الجميع فى شتى ما يكون بينهم من علاقات » .

وأبسط مثل للتقاليد هو السلام . على اختلاف صور التحية التى يحيى بها الرجل من يلقاه ممن يعرف ، وهو « تقليد دفع إليـه الطبع عند لقاء الناس بالناس . إن الـرجل لا يلقى الرجل وكلاهما كالحجر جامـد أصم ، لا بد من حركة ، من إشارة من كلمة من تحيـة ، ولا بد من الاتفاق عليها ليفهم معناها . وهذا هو التقليد عند اللقاء ، وفاء بحاجة الإنسان » .

ويجيب الـدكتور أحمد زكـى عن سؤال يطـرحـه « كم عـددالتقاليـد : هل هى مـائة ؟ هل هى ألف؟ » فيقول إنها عـديدة لا يكاد يحصرها حصر ، وهى تشمل جميع منـاشط الحياة . ويمضى فى تفصيل ذلك على نحو نتركه للقارئ فى مقال الدكتور زكى .

معـنى التقـاليد :

هذه فقرة مهمة يعبر فيها أحمد زكى عن رأيه الشخصى فى التقاليد ، وعن معنى التقليد . ومن الطريف أن هـذه الفقرة بالـذات وردت فى مقاله « الأكل : فن وفلسفة » وهـو أحد فصول كتـابه «ساعات السحر » . فاقرأ معى الخلاصة الأولى للرأى : « أحسب أن الأساليب شىء عظيم ، وأن أطرزة التقاليد لم تكن عبثا ، وأنها دائماً أبدا ترمى لمعنى ، قد يكون صريحا أول الأمر ، ثم هو ينبهم من بعد ذلك ، فيقـول التقليد وحده من بعـد ذلك ، فيظنه الناس عبثـا ، وما هو بـالعبث ، إنه لفظ فقد معناه ، أو انبهم معناه ، ولكن يبقى له جرسه المسموع المألوف الحبيب » .

مَنْ يصنـع التقـاليد ؟ :

«إنها مؤلفات فقدت أسماء كتـابها ، ولعل ذلك كان بسبب كثرة من اشترك فى تأليفها ، وينشأ الناشئ فى المجتمع فيحسب أن هذه التقاليد خلقت فى المجتمع مع ظهور الشمس والقمر » .

كيف تنشأ التقاليد ؟ :

ويضرب لنا أحمد زكى فى أكثر من موضع الأمثال لنشأة التقاليد . وهو حريص على أن يؤكد أن التقاليد فى نشأتها لا تعرف المنطق ، والمثل الكلاسيكى عنده لهذا ، هو السَّنة القمرية : « فابتدعنا السنة القمرية ، وهو معنى مصنوع ، وهو لا يتصل بجرم من السماء ، السماء تعرف سنة الشمس ، ولا تعرف ، وما عرفت للقمر سنة فقط . على كل حال هذا استطراد أشبه بالثرثرة . فليمض الناس على ما هم فيه فللتقاليد قوة فوق المنطق ، لا سيما إذا عززتها وغرستها وصانتها فى قلوب الناس السنون . فلنسر مع القمر ، فى صحبة وثيقة ربطت أواصرها القرون » .

□

التقاليد والقانون :

وينتقل الدكتور أحمد زكى إلى علاقة التقاليد بالقانون فيذكر أن من التقاليد « ما يرى المجتمع أنها بلغت من الضرورة مبلغ الإلزام فيجعل منها المجتمع قانونًا ملزما » . « ويقع هذا أكثر ما يقع فيما يتصل بين الناس والناس من معاملات وخصوم » .

« على أن أكثر القوانين ، بل الكثرة الكاثرة منها ، إنما ترسم للناس جميعا فى حياتهم الجارية كيف يسلكون ، ويرضاها الناس حتى لتصبح فيهم تقاليد ، بمعنى أنها تصبح فيهم عادة ، وخطوطا للعمل يمشون عليها غافلين عما تضمن القانون بها خاصة من ثواب وعقاب » .

«وعلى الجانب الآخر، فإنه إلى جانب هذه التقاليد التى يعمدها القانون ، تقاليد أخرى عدتها ألف لا يعمدها القانون ، ذلك لأن القانون كالسيف القاطع ليس مما يفيد المجتمع أن يعلق فوق كل حائط ، وكذلك من شئون الحياة ما يجب تركه لضمائر الناس لتقضى فيه ، تستخدم فى حكمها ما وهبت من عقل ، وما قسط المقسط لقلوبها من رحمة ، وذلك لأن الهدف الأكبر من التقنين ، وإن طال زمانه أن يقوم مقام الضمائر حتى تبلغ غايتها من النضج ، لهذا يجب استخدام

الضمائر وتدريبها ، حتى يأتى الزمان الذى يكون فيه الضمير هو القانون الذى يحكم ليحتكم إليه الناس » .

□

تقاليد الزواج : مثل للتقاليد الشائعة :

يستعرض أحمد زكى بعضا من تقاليدنا الشائعة ويقف منها بعض وقفات التأمل ، سنعفى القارئ من أكثرها فى هذا المقام، ولكننا سنستمتع معه بالاستماع إليه وهو يتحدث عن تقاليد الزواج فيقول : إن الزواج ازدواج ، والعروس والعريس عند الازدواج يغفلان عن كل هذا ، ووجب أن يغفلا ، إنه الحب بينهما ، وإنه العشق ، وإنه الشهوة أو ما شئت من أشياء . . إن الإنجاب واحد من أشق الواجبات زيفته الشهوة التى تبدؤه . إنها كشهوة الطعام لولاها ما قام أحد إلى مائدة . ويستطرد ليقول « إن التزييف نوعان ، أن تجىء الخسيس تحت غطاء من ذهب ، وتكشف عنه غطاءه ، فلا تجد إلا شيئًا خسيسا ، ولكنك أيضا قد تجىء الشىء الثمين تحت غطاء من فضة وتكشف عنه غطاءه ، فتجد من دون ذلك ذهبا خالصا » . وهكذا الإنجاب عمل يغرى به الإنسان فقشرته من فضة ، ولو كشف عنه قشرته ، لوجده ذهبًا خالصًا ، وقل من الناس من يتوقف ليكشف .

□

التقاليد والحروب :

لأحمد زكى آراء متنوعة فى هذه الجزئية نورد بعضها فيما يلى :

□ « وللتقاليد جذور ثابتة فى الشعوب وقد عرفت أوربا قبل الحرب تقاليد تكاد تكون ثابتة ثبوت الدهر ، ثم تبدلت أسرع تبدل عقب الحرب العالمية الأولى وجاءت الحرب الثانية فزادت تلك التقاليد تبدلا ، حتى كان التبدل ثورة » .

□ « وتنتهى الزلازل المتلاحقة وقد تقطعت روابط الناس بالناس ، والذى لم يتقطع شك الناس فيه ، وإنه النافع حقا ، وتتغير بتصدع الإيمان غضبا » .

□ «ومع هذا فللكثـرة من سكان أوربا وسكان أمـريكا كان لا بـد من تقاليد . أهى جديـدة؟ قد تكـون ، ولكنهـا على كل حـال تضمنت الكثير من القـديـم فإن الطبيعـة الإنسـانيـة لا تأبى الانفصام والمجتمعات الإنسـانية تأبى إلا الانسجام ، فإن ذهبت تقاليد فـلا بد أن تحل محلها تقاليد ، وإلا صارت الحياة فوضى ، فى منـزل ، وفى شارع ، وفى سوق ، وفى كل مكان تدفع الناس إليه خطاهم» .

□

التقاليد بين الريف والحضر :

وينبه أحمد زكى إلى اختلاف التقاليد بين الريف والحضر ويضرب المثل لذلك بالإقراض فهو فى الريف دون صك ، فإن اتبعت هذا التقاليد فى الحضر فأكبر الظن أنه لن يعود إليك مقترض مال ، ولن يحمدك على عملك هـذا حامـد . هذا فى الريف حسن ثقـة وخلوص نيـة ، وفى الحضر سفه وغفلة وقلة إحساس بالتبعة .

والحضر ذاته درجات ، فهنـاك حضر صناعى وحضر زراعى ، وحياة هـؤلاء غير حياة هؤلاء ، وتقاليد هؤلاء لا يمكن أن تطابق تقاليد هؤلاء .

□

التقاليد والمصالح :

« إن التقاليد وجودهـا مرتبط بأنها مع تيسير عمل الناس فى الحياة بتوحيـد مسالكهم فيها تقوم بخـدمة مصـالح الناس » . والتقـاليـد ما خلقت فى بـدء خلقها إلا لتفـى بحاجـة من حاجـات العيش ، وهى قد تتوسط معاملات الناس وقد تكون بـدءًا فى هذه المعاملات وقد تكون انتهاء وما خلق تقليد أبدًا لمضرة الناس ، إذن لما كان تقليدًا رضيه الناس » .

التقـاليد البـالية :

ولأننا نعيش فى عصر تتغير ظروفـه وحاجات الناس تتغير بتغير الأزمان « فـلا مانع مطلقا من إبدال جديد من التقاليد بقـديم ، على أن يكون التقليد من الأصالة فى العيش بحيث يستأهل كل ما يبـذل فى ذلك من جهـود وعلى شرط أن يكون للنـاس وأخص السواد ، أن يكـون لهم مصلحة محققة فى هذا الإبدال والتغيير » .

□

أثر التعليم فى التقاليد :

إنه يحدث انقـلابا فى التقاليد وحسبك أمـره فى مسألة السفور وواجبنـا أن نفتح الأبواب لتعليم الرجال والنساء « ويسروا للناس الأعمال ليرتزقوا الرزق الحلال الطيب المجزى ، تتطهر المجتمعات من كثير من التقاليد ، لا نقول البالية ولكن « الضارة » قديمة كانت أو حديثة » .

« إن للجهل تقـاليد تخفف عن الجهلـة أثقال الحيـاة ، حتى ليكـون أحيانًـا من المضرة سلبهم إياها ، إنها المخدر الـذى يذهب بالآلام ، وكذلك الفقر له تقـاليد تخفف عن أهله مرارة العيش ، وقد يكون من القسوة تجريعهم كأس العيش بمرارته الكاملة » .

□

التقاليـد والمستقـبل :

وقد يكـون من حسن الختـام أن نختمَ حديثنا عـن التقاليد وعـن منظومة البنـاء الاجتماعى فى فلسفة الـدكتور أحمد زكى بالحديث عن أمل الـدكتور أحمد زكى فى تطويـر التقاليد وخصـوصًا أن الفقرتين قبل الأخيرتين من هذا الباب تحدثانا عن التقاليد البالية ، وأثر التعليم فى التقاليد .

لاشك أن ذلك من حسن الختام ، وخصوصًا إذا كنا نقتبس من الرجل الذى كان يحسن الختام ، وقد أحسن الله خاتمته .

روى الدكتور أحمد زكى أنه حدث رجلاً جاهلاً فقيرًا فى شىء يشبه ما يتحدث عنه الناس من تقاليد ، فقال ذلك الرجل موجهًا حديثه إلى أحمد زكى : « عادات إيه وسخام إيه . ما لها عاداتنا ، إنها على قدنا ـ . . إن كنتم تريدون عمل شىء لنا ، فعلموا أولادنا كيف تكتب وتعمل وترتزق ، واملئوا أفواههم باللقمة السخية حتى يملئوها هم بأيديهم » .

ويشير الدكتور أحمد زكى إلى أنه من اللطيف أن الرجل ذكر الأولاد ولم يذكر آباءهم ، لعله ظن أن النجدة بحسبها أن تصل إلى الأولاد ، وأنه ليس فى الأمر متسع لأكثر من هذا « فهل نفعل ؟ » .

المصـــــادر :

□ « عقل الإنسان ميزان غير ثابت على الزمان » ـ (العربى : يوليو ١٩٦٧) .

□ « هذه المدنية زادت الناس تجميعا أم تشتيتا » ـ (العربى : إبريل ١٩٦٨) .

□ « الأخلاق ، إذا عجز العقل عن القول فيها ، قامت معايير أخرى تدعم قواعد السلوك والأخلاق » ـ (العربى : أغسطس ١٩٦٨) .

□ « العقل والإيمان : عينان بهما يبصر الإنسان سبل الحياة ويهتدى » ـ (العربى : نوفمبر ١٩٦٨) .

□ « الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون » ـ (العربى : أغسطس ١٩٦٩) .

□ «مصادر السلوك الإنسانى ثلاثة : الغرائز والعادات والضمائر » ـ (العربى : فبراير ١٩٧٢) .

□ « الأخلاق والقيم والعادات فى حياة الناس » ـ (العربى : نوفمبر ١٩٧٢) .

□ « توحد المذاهب والمشارب والعادات فى الأمة الواحدة يسهل مسيرة الحياة فيها »

(العربى : أغسطس ١٩٧٣) .

□ « التقاليد » ـ (العربى : يوليو ١٩٧٤) .

□ « أهل اليمين وأهل اليسار » ـ (العربى : أكتوبر ١٩٧٤) .

□ « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » ـ (العربى : مارس ١٩٧٥) .

□ « سوق عكاظ أيكون له نشر من بعد انطواء » ـ (العربى : أغسطس ١٩٧٥) .

الفصل الثامن

المجتمع

الإصلاح عندى لا يبدأ من أسفل ، ولكن يبدأ من الأعالى إلى الأسافل أو هكذا هو يجب أن يكون .. إن الإنسان أوثق قدما وأثبت موضعًا وهو فى الدور السفلى من ناطحات السحاب ، «فإذا أنت علوت ثم علوت حتى بلغت الدور الأربعين أو الخمسين من البناء ، ونظرت إلى أسفل ، هالك المنظر ، وضاعت عند ذلك وثاقة القدم ، وذهب ثبات الموضع. وأنت إن بقيت هناك طويلاً نسيت ما العيش ، مع سواء الناس ، على الأرض الجامدة».

الفقر

كان « القضاء على الفقر » بمثابة أهم عنصر من عناصر الاصلاح الاجتماعى فى فكر أحمد زكى (الذى تولى وزارة الشئون الاجتماعية) . . وكان ينظر إلى الفقر على أنه مشكلة كبيرة جدًا تؤثر فى

مقومات البنيان الاجتماعى حتى إن الأخلاق كانت فى رأيه نوعين : أخلاق على الفقر ، وأخلاق بعد القضاء عليه . وعباراته فى هذا المعنى واضحة ، ومنها قوله فى (يوليو عام ١٩٧٢) : «القناعة تكون بعد الثراء لا قبله ، ولا بأس من البحبوحة فالناس ناس » .

والفقر فى تقديره مأساة تؤثر حتى على الإيمان (العربى : ٧/ ١٩٥٩) : « الجوع كافر ، فلا تأت لكافر، كفره الجوع ، فتحدثه عن إيمان . إن سبيل الإيمان عنده الرغيف والإدام . إن هذه هى الطبيعة ، وهكذا خلقنا الله » .

والفقر فى رأيه مأساة تؤثر فى الإنسانية أيضًا ، فتنزل بها عن المستوى الذى أراده الله (العربى : ٧/ ١٩٥٩) : « الإنسان على الجوع المتصل نزل فى الفهم إلى مستوى البهيم » .

والفقر كذلك سبة (العربى : ٧/ ١٩٧٢) ، سبة للفرد لأن مع الفقر الضعفين : ضعف الجسم ، وضعف النفس ، وكلاهما سبيل الضعة والمذلة . فالفقير لا يكاد يرفع يديه ليرفع بصرًا ، لأنه تعود النظر إلى الأرض » .

والفقر سبة للجماعة أيضا كما هو سبة للفرد، وسبة للأمة التى أكثر أهلها فقراء فى عصر حضارى .

□

ولكن على مَنْ يقع وزر الفقر ؟ إن أحمد زكى (وهنا موطن التفرد أو التقدم فى فكره) يلقى به صراحة على عاتق الدولة (العربى : ٣/ ١٩٦٧) : إن وزر الفقر على الدولة ، ووزر البطالة ، وهى فقر ـ على الدولة . والدول الواعية اليوم تدرك أنه ما من بطالة إلا وهى سوء تنظيم وتخطيط . « إن تيسير اللقمة النظيفة لتصل إلى أفواه المواطنين هى فى حسبانى أول واجبات الدولة » (العربى : ١٢/ ١٩٧٤) .

وفى هذا المعنى يقول أحمد زكى : « لا لربط الفقر بالمذاهب . إنها طبخة الطابخ ، هذا يحبذ أن تطبخ فى نحاس ، وهذا يحبذ أن تطبخ فى حديد . . فى فخار ونسوا الطبخة نفسها . . والطبخة قيمتها ليست فى وعائها ولكن فيما تحويه من لحم وشحم ، وما الوعاء إلا عارية» . «والناس تقضى أمساءها والأصباح فى مذاكرة المذاهب ، ولو أنهم صمتوا عن هذه المذاهب ونزلوا إلى الحقول يعملون لأغناهم العمل ، وأنتجة العمل ، عما كانوا فيه مجتمعين » . «أخطر من المذاهب

الاقتصادية الاقتصاد نفسه » . « لابد من عمل الناس كافة ، فلا يكون بينهم قادر كسول عالة . يأكل بلا عمل ، أو يأكل من عمل غيره ، عمل الناس » .

ويضرب أحمد زكى الأمثلة التى يؤيد بها وجهة نظره : « لقد زرت ألمانيا بعد نكبتها بسنوات ، فوجدتها كخلية النحل لا تهدأ عملاً ، والنحل يعمل نهارًا ، وهؤلاء كانوا يعملون ليلاً ونهارًا ، فى «الرور » . . فى « الرين» . . فى «كولون » . . إلخ » . . «صفوف كصفوف النحل رائحة بأعمالها غادية ، ومنهم من أعطى فوق حصته عملا ، ورفض أن يأخذ عليه أجرًا . إنه يبنى أمة . إنها روح الجهاد ، شملت الناس كافة هناك ، ولم أقف لأتساءل : ما كان مذهبها الاقتصادى عند ذاك » .

«وإن تعجب فاعجب من قوم يرون فى المذاهب أنها الغاية . المذهب عندهم هو الأول والآخر . يعتنقون المذاهب أى مذاهب ، ثم ينظرون إلى السماء علها تمطر ذهبا . إنها معركة الفقر أقل سلاحها خطرا المبادئ والمذاهب ، وأعظمها خطرًا عمل العامل وجهد الجاهد » .

وما الحل؟

إذن الحل هو العمل ، والإنتاج ، ولكن أى نوع من العمل والإنتاج؟ إن أحمد زكى يركز على ضرورة التصنيع . وحتى الزراعة لا بد من دخول التكنية إليها ، وهو يفيض فى شرح المعنى الذى يفرق بين الناتج النهائى من الزراعة أو العمل اليدوى ، وبين ذلك الناتج بعد التصنيع . وسنورد هنا فى اختصار شديد بعض فقراته فى هذا الصدد .

□□ « والحقيقة التى أريد أن يعلمها العرب - وأكثرهم لا شك أيقاظ لها ، بها عارفون — أنه لا سبيل إلى أن تكون للعرب صناعة إلا من هذه المدخرات التى أتتهم من البترول . ولست أريد للعرب زمانًا صناعيا ضنكا كالذى كان للشعب الإنجليزى فى القرن الماضى ، ولا كالذى كان للشعب الروسى فى القرن الحاضر ، ولكن أريد أن أقول إن إنشاء الصناعة العربية يحتاج إلى تضحية ، من أقلها ترك البذخ والإسراف فى اقتناء السيارات وبناء القصور، ويكفى العرب إلى حين أكثر مما كفى الإنجليز والروس فى نشأة صناعتهم » (العربى : ١/ ١٩٧٣) .

□□ « أكاد أقول إن البلاد التى لم تتصنع ليس من حقها أن تشترى من هذه المدنية الصناعية ما تشاء بغير حساب ، لا سيما فى البلاد التى إذا اشتريت فيها سيارة ذهب ثمنها بطعام مائة أو

ألف من الناس ، لا سيما سيارة لا يركبها راكبهـا إلا لينتمي ظاهرًا إلى المدنية الحاضرة وهو ليس منها وهي ليست منه » . (العربي : ١١/ ١٩٧٤) .

□□ « المصانـع اليوم صـارت أبواب الثـراء وأبواب الاكتفـاء وأبواب الـرخاء ، وأبـواب العزة لمن يطلب العزة ، والقوة لمن يطلب القوة . والعزة التي بناؤها القوة هي اليوم المتكأ الأول لمن يخشى في الحياة ذلة » (العربي : ١٠/ ١٩٦٦) .

□□ « المكن المكن يـاسادة العـرب ويا دهماءهم . تمكنـوا بالمكن ، فليس اليـوم في حاضر هـذا العيش من مُكْنة سواه . إن الذراع الذي يعمل اليوم من حديد ، و إن بقي ذراع من عظم ولحم يعمل إلى اليوم فهو ذراع البقر والخيل والحمير» .

«الشرط الأول للتجهيـز لـلإنتـاج الميكني : أن يقـرأ العـامل وأن يكتب ، فيعـرف كيف يعمل المكن؟ ثم كيف تحسن إدارته ويحسن الإنتاج به عامة؟ » (العربي : ٣/ ١٩٧٠) .

□□ ويعلق على الذين يفخرون بإقامة مجموعة مـن المصانع والصناعات تبلغ خمسا أو ستا وتكون هذه فخر مواطـن بوطنه ويقول : « وأحسبها فخرا لصناعـة بادئة ، ولكنه يجب أن لا ننسى أن هذه الصناعات ألف وألف ، لا بضع خمسات أو عشرات . وعلى هذا المواطن أن يراجع قوائم الصناعـات في البلاد الصناعية ، ويحتـاط حتى لا يتورط في انهيار عصبي شديـد » (العربي : ١/ ١٩٧٣) .

□

هل لنـا أن ننتقل بعـد هذه الفقـرات ، التي أضـاءت لنـا فكـرة أحمد زكي في مكافحـة الفقـر بالتصنيع ، إلى الجانب الثاني من جوانب الإصلاح الاجتماعي ، وهي مسألة متصلة أشد الاتصال بالجانب الأول من حيث أهمية العلاقة بين الأجور والإنتـاج ، لأنه لا بد من مراعاة « أن كل محاولة لرفع الأجـور الحقة فوق ما يأذن بـه الإنتاج ، أو خفضه دون ذلك لا بـد أن تنتهي بالفشل ، وتعم المأساة حين يصل تأثير هـذا الخفض في سائر الإنتاج فتفسد به الأجـور ويتعطل العمال . والنتيجة التي لا مهرب منها إنما تكون زيادة الأسعار ، وزيادة الأسعار عقوبة للشعب » .

ويصل اقتنـاع أحمد زكي بهذه الفكـرة إلى حـد أن يجاهـر (العـربي : ٩ / ١٩٧٣) بأن «كل مؤسسة عـامة أو خاصة لا تحسن الإنتاج ـ كثيرًا مـا يكون إغلاقها خيرًا لأنها تنزل بـالأجور وترتفع بالأسعار ، والفقر يرقد في كليهما والإفقار » .

ويلجأ أحمد زكي إلى فكرة جيدة من حيث هي معيار للتقييم فهويقيس الإصلاح الاجتماعي ،

والنجاح الاقتصادى المسبب له بالمستوى الأدنى الذى يكون فى البلاد . بعبارة أخرى ، يذهب الدكتور أحمد زكى فى تعريف الفقر إلى أنه غياب الضروريات . « والضرورة هنا ليس معناها أن الشيء هذا الذى نسميه بالضرورى إذا غاب هلك الإنسان ، ولكنه ضرورى بمعنى أنه إذا غاب افتقده الإنسان افتقادًا شديدًا » .

بعبارة ثالثة أقرب إلى علم الحساب والرياضة ، إنه يجعل حد الفقر هو الحد الذى يكون من تحته فقيرًا ٧ بدلا من ٣ وهكذا .

ونحن نجد هذه المعانى فى حديثه عن الصناعة وعلاقتها بالحرية ، وهانحن نختار من حديثه فى هذا المعنى ثلاث فقرات من إحدى مقالاته (العربى : ٧/ ١٩٧٢) :

- □ « الرجل القنوع هو الذى يأكل ولكن دون أن يشبع ، ويطلب الطيب من ثمرات الأرض ويقف دون الكثير حتى يكون لغيره نصيب ، وهو الذى يلبس الثياب نظيفة مريحة لا بهرج فيها ، ويفى بمطالب العيش ولكن فى اعتدال » .
- □ « والرجل القنوع هو الذى يقنع بالعيش المحدود ، شريطة أن يكون هو الذى يحد منه . والرجل القنوع هو الذى يرضى بالعيش القليل ، شريطة أن يكون هو الذى يقلل منه ، ليبقى منه شيء ينتفع به ذو رحم أو ذو صداقة أو ذو ميزة أو ذو جاه » .
- □ «وليس من القناعة أن يقنع المرء بالعيش الزرى الذى تفرضه عليه الأيام فرضا ، ذلك الذى نسميه بالفقر ، فما كان الفقر يوما بزينة . وما كان صبر على فقر له أجر فى دنيا أو آخرة ، والرجل قادر على تغييره . أما أن يطلب الفقر عمدًا ، فى اليوم الحاضر رجاء أجر مرجو غدًا ، ففكرة تعجز عن فهمها العقول » .

وأروع من هذه الفقرات الثلاث ، فكرة ذكية لأحمد زكى يرد فيها على أولئك الذين يرضون لشعوبهم — أو لغيرهم أو لأنفسهم - الفقر تحت شعار الزهد ضاربين الأمثال بالزهاد الكبار فى تاريخ الإنسانية والإسلام . فيقول أحمد زكى إن هؤلاء عملوا ولم يرفضوا أجر عملهم ، وإنما أجلوه - إلى يوم القيامة - فهو نسيئة .

□

وفى النهايـة ، فإن أحمد زكى كان يجاهـر بأنه ليس فى عالم اليـوم مكان للضعفـاء ، على النحو الذى يجده القارئ مفصلاً فى الباب الأول . . وهـو يتحدث فى مقاله (العربى : ٦/ ١٩٦٨) عن أحكام القانون الدولى فى شأن الدول المتخلفة . ثـم يقول عن هذه القوانين إنها صارت كلها كسائر قوانين أهل الأرض ، إن كنت ضعيفًا وتخشى الملامـة فأنت تتقبلها وتحاول فيها ظهر منك أن تخضع لها ، وإن كنت قويا فمنذا الذى سوف يطالبك من بعد حساب؟ » .

المصـــــادر :

- « الفقر داء عز دواؤه » (الهلال : مايو ١٩٤٨) .
- « معركة الفقر قائمة » (العربى : يوليو ١٩٥٩) .
- « فقر الدولة من فقر أفرادها وغناها من غناهم » (العربى : يوليو ١٩٦٤) .
- « ألف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها لتصنع الرجال » (العربى : أكتوبر ١٩٦٦) .
- « الفقر . . الفقر » (العربى : مارس ١٩٦٧) .
- « الدولة الخيرة ترعى أبناءها من يوم يولدون إلى يوم يقبرون » (العربى : ديسمبر ١٩٦٨) .
- « فقر وغنى » (العربى : مارس ١٩٧٠) .
- « التربية كيف تمارس على التخلف والفقر » (العربى : فبراير ١٩٧١) .
- « هموا إلى الإصلاح » (العربى : مارس ١٩٧١) .
- « معركة الفقر والغنى» (العربى : يوليو ١٩٧١) .
- « بين الحرية والكسب » (العربى : يوليو ١٩٧٢) .
- « حقائق عشر عن تخلف الشرق » (العربى : يناير ١٩٧٣) .
- « الأجور وكيف اختلفت بين الناس » (العربى : سبتمبر ١٩٧٣) .
- « الأسعار . . الأسعار » (العربى : نوفمبر ١٩٧٤) .
- « الفقر أكثر أسباب التخلف أصالة » (العربى : ديسمبر ١٩٧٤) .

الفصل التاسع

المرأة

« أحب المرأة التى تقول لا ، ولا أحب التى تقول نعم دائمًا لأنها تعيش على الظلم ، ولا التى تقول لا دائما لأن هـذا ينافى طبائع الأشياء ».

يناقش هذا الفصل نقاطًا قد تبدو منفصلة بعضها عن بعض ،أو تبدو كل واحدة منها منتمية إلى عنوان كبير غير الذى تنتمى إليه النقاط الأخرى ، ولكننا مع ذلك نجمعها فى هذا الباب الذى يحمل عنـوانا لـه الصـدارة من حيث أهميته على بقيـة العنـاوين ، من حيث كانت المرأة طبيعـة ، وللطبائع السبق عند التقسيم، وأفضل التقسيمات هى تلك التى تخضع للطبيعة .

ومن هذه القضايا حـاجة الرجل إلى المرأة : طبيعة هذه الحاجة ومـداها وسرها ، ويعرض رأى

الرجل فى تحرر المرأة وأى نـوع من التحرر يجيز وإلى أى درجـة يوافق ، ويعرض أيضًا مـذهبه فى أن الأسرة باقية ، وأن الإباحيةلن تستمر إلا إلى حين مؤقت ، وإلى حد معين . والأمـومة ، ودورها فى تربية الإنسـان ، ربابة البيت كمهنة المرأة الأولى ، طبيعة المرأة التى تضيق بالعـرى والإباحية : كل هذه أيضًا رءوس موضوعات يتناولها هذا الباب على نحو نرجو له أن يلقى القبول .

ويستمد هـذا الفصل أفكار أحمد زكى من فصـول ومقالات متعـددة يجد القارئ قـائمة بها فى نهاية الفصل .

على أنه ينبغى لنا قبل أن نمضى مع أفكار أحمد زكى فى هذا الفصل أن نشير إلى أمرين :

□□ **أولهما** : أن أحمد زكى كان مـن أنصار المرأة ـ إن صح أن للمـرأة أنصارًا وأعـداء ـ كـان يدافع عنها فى العهد الـذى كان الدفاع عنها فيـه شىء غير مألوف من الرجال ، وكـان يفخر بالمرأة المصرية فى كل مجال ، وكـان يدعـو إلى التقدم المحسوب بـالمرأة العربيـة ، المحسوب ولكن فى جميع الميـادين . وكان يعتب على المرأة نفسهـا أنها لا تنهض ببنات جنسهـا النهوض الـواجب عليها نحوهن . كان أحمد زكى يقدر فضل المرأة على ولدها جنينًـا ورضيعا وطفلاو شابا يافعا ورجلاً . . وكـان يعتز بفضل أمـه عليه ويـوليها من حبه أكثـره ، وكان يقـدر لزوجـه صبرها وتحملهـا وجلدهـا ورعـايتها لـه . . وكان يصرح بـذلك فى فخـر . وكان يحترم المرأة فى بيتهـا وعملها ، وكان يشجعها فى الجامعة وهو أستاذ وفى مصلحـة الكيمياء وهو مدير ، وكان يهتم بأمرهـا فى مجلة العربى وفى مجلـة الهلال من قبل ؛ يخصص ركن الأسرة والمرأة ، يعنى فيه بكل الأمور المنزلية والصحية .

□□ **ثانيهما** : أن أحمد زكى كان من المقتنعين تمام الاقتناع بأن الأسرة باقية ما بقى الزمان ، أو بتعبيره ما بقى طير قادرًا على بناء عش لم يتعلم كيف يبنيه . وكان ينظر إلى كل موجات الانحلال على أنها عوارض ستزول ، وكانت له فى ذلك فلسفته التى سنقرؤها بعد قليل .

هذان الأمران ستتناولهما الجزئيات القادمة من زوايا مختلفة . فلنبدأ :

□

حاجة المرأة إلى الرجل :

١ ـ **إن المرأة لا بد لها فى الحياة من سند .** . رجل كل ما ترجوه أن يكون سنـدا معوانا ، فيه الود والحب ، والفهم معه الرحمة . وكل هذه صفات تناهض فيه القوة وعنفوانها وغطرستها .

٢ ـ « إن المرأة قد تكسب حق التصويت فى سياسة ، وقد تكسب ما تراه نصيبها فى إدارة ، وقد تكسب حق العمل ، وحقوقا لها فى زواج ، وحقوقا فى طلاق ، وقد تخاصم الرجل خصومة تقول أنت لشدتها : ما بعد هذا الخصام وئام ، ولا بعد هذا الانفصام التئام ، ثم تنفض الجلسة وتأتى للاستراحة فترة تبحث فيها عنه وعنها فتجدهما وراء الكواليس قد جمعتهما قبلة » .

« إن الغاية لا تستغنى أبدا عن وسيلتها ، والرجل وسيلة المرأة ، والولد غايتها . هكذا قال زرادشت » (الهلال : ٩/ ١٩٤٩) .

٣ ـ « المرأة ترضى بغضب الرجل لأنها بدونه سوف تلقى من البشر الذئاب ، وهو إن مات عنها تحرشت بها السباع والضباع . فهى مع زوجها ، كما قال الشاعر وأحسن ، الأعشى : «ويلى عليك وويلى منك يارجل » (العربى : ١/ ١٩٧٥) .

☐

حاجة الرجال إلى المرأة : الأمومة :

يؤمن أحمد زكى إيمانا يقينا (العربى : ٦/ ١٩٦٦) بأن الإنسان يولد ليموت لولا أمه ، فإن فقد الأم فأبوه ، وذووه . إنه لا يدرى ما يأكل ، ولا كيف يأكل ، فتعلمه الأم ما يأكل وكيف يأكل . . وكذلك الشرب والمشى والتعبير . . ويكبر الطفل ، وفى أثناء ذلك تعلمه الأم الكثير من ثقافة العيش الأولى . واللغة . . ومع اللغة ثقافة القوم .

والمرأة روح البيت لا الرجل . إنها ساكنته ، وإنها حارسته ، وإنها الحانية على فراخه ، ولهذا وجب أن تتثقف كتثقف الرجل أو فوق تثقف الرجل ، وأن تفتح لها بالتعليم على الدنيا ألف نافذة .

والتعليم والتثقف ليسا تعرية نحور ، ولا كشفا عن ظهور ، ولكنهما كذلك ليسا اختباء فى جحور ، والتثقف وقاء من شرور الدنيا ، وإلا فثقافة الطبع أولى وأحكم .

والأمومة فى الحياة عامة إذن ليست بالواجب الحقيقى (العربى : ٣/ ١٩٧٢) . أنها أصل الكون ، وأصل الحياة المركبة فى شتى درجاتها على سطح هذه الأرض ، ولكن أشق الأمهات عبئا إنما هى أم الإنسان .

والأم فى المدنية واجبها أكبر ، عليهـا أن تصنع من الأولاد ما يتفق وهذه المدنية وفقـا لما أخرجه علماؤها ويخرجونه كل عام من كشوف تتصل بنشأة الأطفال .

الأمومـة إذن دراسة . . الأم ليست وعـاء حمل فحسب ، ولا مرضعـة فحسب . . إنها تشكل الرجل . . تشكل جهاز النفس .

ويستلفت الدكتور أحمد زكى النظر إلى أهمية الموازنة بين حقوق الزوجية والأمومة . وفى هذا يقول إن جهـاز الأمومـة ليس من فـولاذ ، إنه لحم ودم وأعصـاب ، يضع الـولد الـواحـد فيه فى العـام الواحد ، ثم هو لا بد أن يستريح لأعوام .

والمجتمع لا يكون إلا بالأسرة ، والأسرة لا تكون إلا بالزوجة ، والزوجة لن تشبع مطالب الأنوثة إلا بالأمومة . فلا تقيمه إلا امرأة أخرى . . المرأة إذن هى البيت فى الإصباح والإمساء .

« الأمومـة شاملـة فى ذاتها على الثراء ، فكيف بها على الـدخل المحدود ، وعلى الـدخل الذى يزداد كل يوم تحددًا؟ » .

□

ربابة البيت هى مهنة المرأة الأولى :

لأنها كما يعبر أحمد زكى فى العناوين الفرعية لإحدى مقالاته الأخيرة (العربى : ٩/ ١٩٧٥) :
«أول مهنة . . وأقدم مهنة . . وأثقل مهنة . . وأكرم مهنة » :

إنه مبدأ تقسيم العمل ، هذا المذهب الحديث الذى اعتنقه كل ناظر فى الاقتصاد من الناس ، علام قالوا إنه مذهب حديث ، وهو أول المبادئ التى طبقها الإنسان بفطرته على نفسه ؟

والإنسان الأول لم يكتشـف هذا المبدأ عـن علم واسع أو تكنية مسـاعدة . إنه اكتشفـه بحكم الطبع ، لا بحكم الفكر .

وليس معنى هذا أن أحمد زكـى يريد أن يقصر عمل المرأة على ربـابة البيت ، ولهذا فهـو يسارع فيقول : « إن ربابـة البيت ليست هى المهنة الواحدة المفتوحة للمـرأة التى تجُبّ سائر المهن أو سائر

الأعمال ، فإن المرأة - فى نظره - على رقتها (ويتحوط فيقول : ولا أقول ضعفها) يتسع وقتها للحمل وأشياء غير الحمل . وليس من هم الرجل أن تظل المرأة تحمل له العام بعد العام ، فلا تكون هناك فترات راحة واستجمام . حتى المكنات الصماء لا بد لها من إجازة تتأتى بها العمل . والمرأة تنتج بمقدار ما تحمّل جسمها ، وبمقدار ما يتسع رزقها ورزق زوج . . ثم إن الأطفال يكبرون ، وتقل عنهم رعاية الأمومة .

□ فالمرأة إن ملأت رعاية الزوج ، ورعاية البيت والأولاد وقتها كله ، فأنعم بذلك ، وأنعم بمهنة امتهنتها هى أشرف مهن المرأة على الإطلاق .

□ «والمرأة إذا فاض وقتها عن رعاية البيت ، وطلبت إلى مهنة البيت مهنة أخرى ، فأهلا بذلك وسهلا . وليس فى هذا جديد ، فالمرأة من قديم الزمان خرجت عن بيتها لمعونة المرضى ومواساة الفقراء ورعاية الأشياخ الضعفاء ، وخرجت حتى مع الخارجين إلى الميدان لتعالج الجرحى وتحمل المئونة والسلاح . . ومنهن من تسلحن وأخذن يدفعن مع الدافعين» .

□ «والمرأة اليوم تمتهن التمريض ، وتمتهن التدريس ، ومهنا أخرى كثيرة اتضح أن الأنوثة أدق أداء فيها وأحسن إنتاجًا ، ولا بأس عندى أن تخرج المرأة إلى كل عمل يأتلف وطبيعتها . ولكن فى الرجال مروءة تأبى عليهم أن يروا امرأة تكنس الشوارع أو تحفر الأرض أو تسوق قاطرة بخارية ، أو يروا امرأة متمددة على الأرض تحت سيارة تحاول أن تصلح فيها ما فسد» .

□ «إن مهن النساء تعددت اليوم ، وهى مهن كريمة : فى الطب . . فى علم الحياة . . فى العلم جميعا وفى الجامعات . . وفى البنوك ، والشركات وفى الصحف والإذاعات » .

□ «ولكن فى كل هذه تحتاج المرأة إلى حماية ، وإلى حماية تأتيها من الرجال . من المجتمع ومن كل ذى شارب وكل حليق » .

□ «إن حرية المرأة لا يكفلها فى المجتمعات إلا كبح جماح الرجال . فإن من الرجال رجالاً كان من الخطأ إدماجهم فى الجنس البشرى ، وهم كانوا بالظهور فى أجناس الماشية أولى ، بل إن فى الماشية احتراما للأنثى أكثر من احترام نراه فى بعض المجتمعات الإنسانية » .

□

الأســرة باقيــة :

يخصص أحمد زكى حديث الشهـر (مجلة العربى : ١١/ ١٩٧١) لـدراسة موسعة تنـاول فيها التطور التاريخى للأسرة عبر العصور والأزمان ، وفى الأديان ، وعند الفلاسفة ، ويناقش كل موقف من هـذه المواقف ، ويحلل الإباحيـة المتفشية اليـوم ، وينتهى إلى أن الاتـ ـال الإباحى ــ إن يكن مهربا للرجل ، فهو مهرب إلى حين ، فالجنس فى الحياة ليس كل شىء ، والجنس ينطفئ لهيبه على السنين . ثم يبحث الرجل عن طمأنينة الحياة بتقدم السن فيفتقدها : الصحبة الصادقة ، المشاركة فى السراء والضراء ، الأنس فى الوحدة ، فى غـربة وغير غربة ، وفى وحـدة النكبات ، فى كل هذه لا يكون لارتداء الشهـوة مكان ، وفى الأزمات تتراءى الشهوة على حقيقتهـا : إنها الأنانية . وإنها أنانية الرجل خاصة . وإنها الكراهية الخبيئة فى قلب المرأة » .

الإباحية يغالبها الإنسان . . . ولـلإنسان خصائص لا يمكن أن يتخلص منها لأنها معجونة فى كيـانه . فهـو لا يستطيع أن يستعير طبع الكـلاب طـويلاً ، فيلقى بشهـوتـه ، كما يلقى الكلب ببوله ، وهو عابر سبيل ، فالشهوة للبقاء لا للهرب ، والحياة ذكرى ، والحياة تمسك بالأيام وتعلق ، والإنسان منـا ذاهب ، يعمل فى الأرض لإرساء أقـدام لاحق . وشر الذاهبين من قـدروا ولم يلحق بهم أحد .

لا ، لا ، إن الأسرة باقية ما بقى طير قادرًا على بناء عش لم يتعلم كيف يبنيه ، أو حيوان وحش يطلب جحرًا يطويه . أو إنسان يأوى إلى كهف يسكنه أو بيت يحتويه .

□

حـرية المـرأة :

من مقـال مبكـر (الهلال : ١٢/ ١٩٤٩) ننقل هنا بـالنص رأى أحمد زكى فيما يتعلق بحـريـة المرأة . وهو رأى واضح صـدر عن صاحبـه فى مرحلـة مبكرة ممـا يدل على تقـدمية واضحـة كانت الطابع المميـز لفكره الاجتماعى ، وفضلا عن هـذا فإن أحمد زكى ينطلق فى هذا الرأى من منظـومة قيمية ثابتة الأركان . يقول الدكتور أحمد زكى :

« الخير كل الخير أن نقر تحرر المرأة ، وأن نقـر سفورها ، وأن نقـره لا شعور قلب فحسب لكن شعور عقل وشعور فكر وشعور لســان وشعور اختلاط ، وأن ننظم هذا الاختلاط فنخلق من ذلك أعرافـا جديـدة مكان العرف القـديم . وأن ننظمه بحيث نهدى الفتـاة الطيبة إلى الفتى الطيب ، ونزيـد الفرصة للقاء طـالب بمطلوب على براءة وحسن مقصـد ، فيبنى الزواج الذى هو غـاية كل حى ، على اختيار متكـافئ ليس فيه مشتر ومشترى ، ولا بائع ومبيع . وسوف تتطلب منـا حتى هذه الحرية المنتظمة قربانا ، فلنتقرب به عن رضا ، ولنتذكر دائمًا عند التقرب به أن للنظم جميعا ما تحرر منها وما تقيد ضحايا وقرابين اقتضاها الزمان من كل الأمم وكل القرون » .

□

دفـاع عن المـرأة :

يدافع أحمد زكى عن المرأة فيطالب بألا تكلف فوق طاقتهـا ، انطلاقًا من مبدأ المساواة ، الذى يريد البعض الانتقام به له منها .

وتشتـد الحملة على المرأة فى بعض الأحيـان ، وتُتهم فى خلقهـا ، فيجـاهد أحمد زكى قـائلاً : «ينسى الشرق أن الأنثى عندمـا تبتسم فى لطف ، أو تغمز بعين ، لا تطلب العاشق العـابر ولكن تطلب العاشق المقيم ، تطلب الـزوج وتطلب الولد ، وتطلب من حيث تـدرى أو لا تدرى عمارًا يكون بإعطائه طفـلاً يولد مكان شيخ يمـوت ، وينسى الشرق وينسى ذكوره أن المرأة لا يمكن أن تفسد إلا إذا فسد فى قبالتها رجل» .

ولو ذهبنا نستقصى للقارئ ما لخصناه واستنبطناه من حديث أحمد زكى فى شأن المرأة ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، لا أقصد سبيل قدرة ، ولكن أقصد سبيل تواؤم مع الخطة الزمنية التى قسمنا عليها وقت هذا الكتاب . . لهذا سنسرع لننهى هذا الباب بعد دقيقتين نروى فيهما ما يرويه أحمد زكى من حلم رأى فيه نفسه فى مزرعة العراة ووجد النساء أكثر هذه الجموع ضيقًا ، وأكثرهن سخطا ، «فقلت لهن : أفما كانت هذه الغابة التى رمت إليها أكثركن؟! قلن : قبحت من غابة!! . . لقد كنا نتخذ من الثياب ستارًا للمصائب نخفيها ، وإطارًا للمفاتن نبديها ، وكنا نملأ بها الفراغ ، ونخفف بها عن الملآن ، والزوايا نحشوها فنصطنع منها الدوائر، والذيل نجره أحيانًا ، والمعطف نعطفه فتنة ودلالا. قلت : والرجال ؟ قلنَ : قبحهم الله !! لقد كان الرجل منهم يدخل بيوتنا ، فأول ما ينادى : (ياستار) ! فما أولاهم اليوم بهذا النداء!! وما أولى بهذه الكروش الورمة والصدور المعشبة ، وتلك السيقان النحيلة العوجاء التى كأنها تمشى القرفصاء، ما أولاها الآن أن تصرخ تطلب الستر من الله !!» .

المصـــادر :

- « للنساء حروب ناعمة » (مجلة الهلال : سبتمبر ١٩٤٩) .
- « الخاطبة » (مجلة الهلال : ديسمبر ١٩٤٩) .
- « اللهم نسألك الستر » . . الفصل العاشر من « ساعات السحر » (١٩٥٠) .

ونشر فى مجلة الاثنين قبل ذلك .

- «عتاب» (مجلة حواء : ١/ ٣/ ١٩٥٦) .
- « الأمـومة » (العربى : مارس ١٩٦٢) .
- « حجر الأم أول كرسى فى مدرسة الحياة » (العربى : يونيو ١٩٦٦) .
- « أحب المرأة التى تقول لا وتقول نعم » (العربى : فبراير ١٩٦٨) .
- « الأسرة بين عصرين : زراعى قديم ، صناعى حديث » (العربى : نوفمبر ١٩٧١) .
- « مكانة المرأة فى سائر الأمم عبر القرون » (العربى : يناير ١٩٧٥) .
- « ربابـة البيت أول مهنة ، وأقدم مهنة ، وأثقل مهنـة ، وأكرم مهنة امتهنتهـا الأنثى فى شتى العصور، ولسائر المهن فى حياة المرأة المكان الثانى » (العربى : سبتمبر ١٩٧٥) .

الفصل العاشر

تنظيم الأسرة

> **«إن الأمة قد يكون لها مصادر طبيعية للثروة كثيرة، ولكن ليس كالثروة البشرية ثروة. إن الإنسان ثروة، وهو قد لا يكون ذا قيمة كبيرة وهو خامة، ولكن قيمته هى القيمة الكبرى من بعد تصنيع».**

تثور الدهشة فى نفس المطالع للببليوجرافيا حين يجد شيئًا من التعارض فى عناوين مقالات أحمد زكى. فبينما يجد كثيرًا من هذه الموضوعات تدعو عناوينها صراحة إلى الحد من النسل وتنظيمه، يجد على الصعيد الآخر بعضها يدعو إلى التناسل والتكاثر. ومن الطريف أن هذه الموضوعات التى يدعو فيها الرجل إلى التناسل هى آخر موضوعاته. وهكذا يصبح من السهل على الذين ينادون بالتناسل والتكاثر أن يضعوا أحمد زكى فى قائمة المعارضين لتحديد النسل،

ويصبح من السهل أن يقال فى بساطة : إن الرجل العالم انخدع طيلة عمره ، ولكن الله هداه فى النهاية . فكتب يقول : «أيها العرب . . . تناسلوا ، تكاثروا ، حتى تملئوا البر والبحر عربا»!

ليس يعنينا هنا أن نضع الرجل فى هذه القائمة أو تلك ، أو على رأس هذه القائمة أو تلك ، أو أن ننتقل به بين القائمتين . وإنما يعنينا أن ندرس فكر الرجل محللين ومقارنين ومتوصلين إلى جوهر رأيه فى الموضوع . فالجوهر واحد وإن كانت الصور التى تظهر له متغيرة . المبدأ واحد ، أما المواقف التى تنشأ عن المبدأ الواحد فيجوز لها أن تتغير ، هذا هو كما نعرف بعض الفرق بين المبدأ والموقف . كلاهما صورة للرأى ، وكلاهما يتخذ الرأى ضورة ، وكلاهما يتخذ صورته فى الرأى . ولهذا كان عنوان هذا الفصل من رأى أحمد زكى فى تنظيم الأسرة ، ولم نقل مبدأ لأننا لن نقتصر فى التناول على الجانب النظرى من فكر الرجل ، ولم نقل موقفا لأننا لن نبرر مواقفه الأولى والأخيرة ، وإنما سنناقش فكرة الرجل وكيف أوقفته مواقفه التى وقفها ، ووفقته إلى آرائه التى أبداها .

وسوف يناقش هذا الفصل أربعا من النقاط الأساسية ، يتحقق بمناقشتها مجتمعة فهم فكر الرجل فى شأن تنظيم الأسرة .

□□ الوجهة الدينية فى الموضوع :

كان أحمد زكى من المؤمنين أنه ليس فى تنظيم الأسرة تعارض مع الدين ، ولا مع الإيمان بأن الله هو الرازق .

وهو يؤكد على هذا المفهوم غير مرة فى مقالاته فى أول حياته وفى آخرها . ويكفينا أن ننقل هنا عنه قوله فى إحدى مقالاته (مجلة العربى : ٤/ ١٩٦٧) .

« وهم يؤكدون لك أن عليك أن تلد وأن الرزق على الله » .

« أما إنها إرادة الله فلا علمْ لنا بأنها إرادته ، إنما الذى يعلم أن الملايين تموت كل عام جوعًا فى الأرض ، حيث لا يكون النسل ضابطًا حابسا بالقدر الذى فى الموارد من وفاء » .

« أما إن الله يرزق من يشاء ، فإنه يرزق حقا وصدقا ، ولكنه لا يرزق الجاهلين العابثين غير الحاسبين من عباده إلا الفقر . وإنه جعل فى الخلق قوانين لا يخرقها ، وجعل لكل شىء سببا» .

ويمضى أحمد زكى ، فيؤكد على المعنى الذى تضمنه حديث رسول الله ﷺ فى أمر دابة الأعرابى ، حين قال له : اعقلها وتوكل .

ويكرر أحمد زكى ذات المعنى بأسلوب آخر فيكتب بعد حوالى ثلاث سنوات مقالا آخر (العربى : ٣/ ١٩٧٠) تحت عنوان « فقر وغنى » ويقول فيه بكل صراحة : « لن يقول أحد بإطلاق النسل لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ذلك، أن الله أول ما رزق الإنسان رزقه العقل، والعقل يقضى بأن زيادة السكان مع ثبات الإنتاج يؤديان إلى زيادة الحرمان، والتاريخ دليل ذلك » .

ويعقب بقوله : «وأنا أؤمن بإطلاق النسل وزيادة الإنتاج والجمع بينهما . فدون ذلك فناء العرب، ولكنْ لهذا حديث آخر » .

□□ طبيعة دعوته إلى تنظيم الأسرة :

ينبغى أن نشير إلى أن أحمد زكى كان مهتما بهذا الموضوع أشد الاهتمام ، كوزير سابق للشئون الاجتماعية . أما عنه شخصيا، فقد ذكرنا فى الباب الأول أنه كان له ابنة واحدة ، فى حين كان هو أكبر ستة أشقاء .

وهو يفرد مساحة كبيرة من حديث الشهر (العربى : ٢/ ١٩٦٦) للحديث عن تزايد السكان فى حين لا يزيد الإنتاج (على النحو الذى قال به من قبل علماء الاقتصاد) . وهو يؤمن إيمانا شديدًا بقول الخبراء : إن الخطورة فى مسألة تزايد السكان أشد ، والنكبة فى هذه الناحية أقرب فى الأمم المتخلفة وحدها . وهذا هو ذات المعنى الذى عبر عنه من قبل حين تولى وزارة الشئون وخرج يطالب بتحديد النسل حيث يوجد الفقر والتعاسة . وهو يرى أنه لا فائدة حاسمة ترجى من معونة القادر لغير القادر، والغنى للفقير إذا لم يقم العاجز الفقير نحو نفسه بما يجب عليه من التدرج فى مدارج الرخاء وأولها ضبط النسل .

وبتفكير علمى يتميز بطول النظر ، ومن أجل تقصى المشكلات وحلها من جذورها ، نجد أحمد زكى يجاهر فى العناوين الفرعيةَ أن « لا مخلص إلا التوعية، ومع التوعية الحبوب واللولب » .

أما التوعية « فيكون هدفها إقناع الأم بمخاطر الأمومة التى تتضاعف مثنى وثلاث ورباع . . وثمان وتساع . . مخاطرها على صحة الأم نفسها وذبول زهرتها بهذا التكاثر ، ومخاطرها على الأولاد الذين سوف تنجب للفقر ، لنصف طعام ، ونصف كساء ، وللحقير من الإيواء ، وما يصاحب هذا، وما قد صحبه فعلا عند ملايين من سكان بعض من نعرف من الأمم الحاضرة، من هبوط فى طاقة أجسام وضعف فى مدارك أفهام ، جلود على عظام ، تسير بها على الأرض سيقان

كالعصى تكاد تنكفئ بهم على الأرض ، سكارى ولكن من جـوع ، وما يدرك ما سكر الجوع من لم يعرف حياته غير الشبع » .

« يجب أن تعى الأم أن الطعام فى مستقبل الأيام ، إذا ظل حال النسل فى الدنيا على هذا الحال ، سوف يعز فى الدنيا فلا يشتريه حتى المال » .

« يجب أن توعى المرأة بأن مع اليوم غـدًا ، وأن تُعوّد ألاّ تنظر فى يومهـا فحسب ، وتحت قدمها الحاضرة فحسب ، ولكن كذلك إلى الأغداء البعيـدة بعد العام ، والعشرة والعشرات من الأعوام ، وحينها يكون أطفالها رجالا ، سببت هى وجودهم على الكثرة فى هذه الدنيا ، فضاقت بهم الموارد ، رغم التشمير عن السواعـد ، أو جاءت بهم قلـة فنعموا بمقدار مـا يأمل أن ينعم الإنسان بـالذى يبذر ويحصد من طيبات هذه الأرض» .

« ومع توعية النساء لا بد من توعية الرجال ، ومع التوعية حبوب ضبط النسل ولوالب » .

وينبغى لنا أن نشير أيضًا إلى أن عالمنا قد خصص الصفحـات العديدة من مجلة العربى يكتب فيها بقلمـه وبقلم غيره ، لمتابعـة آخر مـا وصل إليه العلم مـن استكشافات فى مجال وسـائل منع الحمل .

□□ خفض سن الزواج لا رفع سن الزواج :

ولكن هناك وسيلة من وسـائل تنظيم الأسرة لم يكن أحمد زكى يرتاح إليها ولا يحبـذها ، بل كان يسعى إلى نقيضهـا على خط مستقيم ، و هى المطالبـة بسن تشريع يرفع سن الـزواج « إلى عشرين مثلاً للفتـاة وأربعة وعشرين للفتـى » . وكان أحمد زكى يعـارض هذه الـوسيلة بكل شـدة ، وقد جعل لهذا النصيب الأكبر من حـديثى الشهر (العـدد ٤١) و (العدد ٧٨) وهو يجاهـر بهذا مع علمه بأن هذا القـول قد حظى برضا الكثيرين ، « ووافق عليه بعض أهل العـروبة ، وصادق على أقوالهم الأطبـاء ، وصادق العلماء ، والمهندسـون ، وصادق النفسـانيون ، ولم يبق أحد إلا قـال له آمين . ومن ذا الذى لا يقول آمين ، لأول وهلة ، وقد فجأه حـل تراءى ، أنه يقف سدا يمنع هذا الفيض الـذى يهلك بعضه بعضـا من خلق الله » . لكن أحمد زكى مع هذا يـرتاب فى فعـالية هـذا الإجراء للأسباب التالية :

□ لا ينجح قانـون ليس وراءه رأى عام فى الشعب يدعمـه ، وإن كان الشعب يؤمن حقا بنظـرية احتمال انفجار المكان بالسكان ، إذن فما الحاجة إلى القانون ؟

□ إن القانون يتـدخل فى شهوة طبيعية ، تكون عارمـة فى بعض الناس ، وقد تكون مجنونـة ، يريد القانـون كبحها فـلا تكبح ، وفى هذا خطـر كبير. ولنذكـر دائمًا أن طالـب الشهوة قسرًا ، لا يطلبهـا للطفل الوليـد يأتى من بعدهـا ، وإنما هـو يطلبها ليخفف عن نفسـه قسوتها ، تمامًـا كالجوعان يطلب الطعام ، لا يعفيه من ألمه أن يقول لـه القانون اصبر على الجوع يوما أو بضعة أيام .

□ إن القانون المطلـوب سوف يحرم الزواج ليمنع النسل ، ولكنه سـوف يمنعه فقط فى زواج ، ولن يمنع النسل يأتى فى غير زواج ، إذا تراضى الطرفان .

□ إذا منع القانون اتصالا بين الفتى والفتاة فى زواج ، اتصلا فى غير زواج ، وعين القانون تنظر ، ويده تعجـز عن عمل ، ثم يخشى الفتى وتخشى الفتـاة مغبة الطفل ينتجـانه فى غير ظل الله ، فيعمدان إلى منع الحمل بالحبوب الواقيـة ، واللوالب المانعة ، إذن فما كان أولاهما أن يعمدا إلى الحبوب واللوالب على الـزواج ، فسيبقى القانون المطلوب إلى أهـدافه وهى الحد من النسل مع إباحة الزواج بدون حد .

□ إن المرأة تسـتطيع الإنجاب عادة فيما بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين ، وفى هذه الثلاثين من السنين يستطيع بعض النساء إنجاب العشرة من الأخـلاف فما فوقها ، فإذا نحن رفعنا سن زواج الفتاة إلى العشرين فكم يكون قد وفرنا من النسل ؟ الولد أو الولدين ؟ وتستطيع المرأة بين العشرين والخامسة والأربعين أن تأتى بالثمانية من الأولاد فما فوقها .

□ يـذكر المحبـذون للقانـون أن أمم الغرب رفعـت سن الزواج ، فلم لا نـرفع مثلها ؟ وهنـا يحذر الدكتـور أحمد زكى بشدة مما وصلت إليـه الحال عند هؤلاء الـذين فعلوا هذا فى بـلاد الغرب . ويضرب مثلاً بـالسويد التى ارتفع عنـدها سن الـزواج إلى ٢٨ أو ٢٩ عند قيام الحرب العـالمية الثانية . . وصل الأمر بها إلى ما صار من إباحية .

□

ويحذر الدكتور أحمد زكى من انتشار ما حدث فى السويد إلى غيرها نتيجة عاملين :

□□ **الأول** : هو ضغط الحياة الاقتصادية الحديثة ، وطول الزمن الذى يتجهز له الفتى والفتاة للتعليم فالكسب .

□□ الثانى : « ما يقول به الكثير من النفسانيين فى الغـرب بأن إطلاق الشهوة قبل الزواج هى للنفس أشفى ، وعلى الصحـة النفسيـة أعـون . ومن أجل هـذا الـرأى الخطير ، وقبل أن يصلنا نحن أهل الشرق شره المستطير، دعـونا لا إلى الـزواج المتأخر ولكن إلى الـزواج المبكر يعقد حتى بين طـلاب الجامعات وطـالباتها ، زواج يمنع فيـه النسل ، حتى تتيسر القدرة بـالتعليم على كسب الرزق ، والنسل يمنع بـالـوسائل الطبيـة المستحدثـة ، وهى لا شك ناجحة مهما شكك فى أمرها المشككون» .

ويعرب الدكتـور أحمد زكى عن سعادته عندما قـرأ أن فكرته هذه قد لاقت نجـاحًا وانتشارًا فى جامعات أمريكا ، حتى إن منها ما شمل نحو الثلث من طلابها ، ولعله سهل من أمره عندهم أن الطلاق فى حالات الشقاق صار أيسر مئونة .

ويلخص الدكتـور أحمد زكى مزايـا النظام الذى يـدعو إليـه بخفض سن الزواج لا بـرفعها فى ثلاث نقاط يكتبها بالبنط الثقيل :

١ ـ شهوة جامحة اشتفت .

٢ ـ شرائع الله رضيت .

٣ ـ أنسال منعت .

ويعود أحمد زكى فى مقال تالٍ (العربى : ٧/ ١٩٧٠) ليتحدث عن الطعام والجنس باعتبارهما الغريـزتين الكبريين فى حياة الإنسان . وبعـد أن يفصل القول فيها يتعلق بغريـزة الجنس ، يناقش نفس القضية التى نحن بصددهـا ولكن من بداية أخرى تتصل بغريزة الجنس كغـريزة ، ويقول إن المدنية الحاضرة خططت لكل شىء إلا الجنس . .

« وكان من بعد تـرك أمر الجنس على عواهنه تصنع بـه ريح الزمان الهوجاء مـا تشاء أن ظهرت الإباحيـة فى بعض الأمم التى تدعى التقـدم . . » . ونتجاوز وصفـه للمشكلة إلى رأيـه فى حلها ، حيث يقول : لـو أن هؤلاء الناس نظروا ثم خططوا لـوجدوا أكثر من حل حاضر . ثـم يشرح لنا ما ارتآه هو من بعد نظر ، فيقول : إن المشكلـة اليوم تكمن فى طول فترة التأهل للزواج ، وعلى الناحية الأخرى فإن « إباحية اليوم حيث هى من شمال الأرض لا تـرتبط هذه الإباحية بالكسب» . ويضع حله فى صورة تساؤلات :

□ «فماذا لو غيرنا من مفاهيمنا التقليديـة ، وحلت العقدة بالسيف يقطع ما بين الزواج وقدرة الزوج على الكسب من رباط ، وإذن يحدث الزواج فى عام مبكر من العمر؟» .

□ « وستسأل من يعول ؟ وأقول : مـا داموا فى جامعة أو مدرسة فالعـائل لكل منهما هو العائل القديم وهما كـلاهما فى مدرسة أو جامعـة ، ما دام الأب رضى بالنفقـة على ابنه حتى يبلغ العشرين أو الخامسـة والعشرين ، فحاضره أن ينفق سـواء كان ولـده أعزب أو لـه علاقـة بـالزواج لا يضمهما سقف دار خـاص به . ومـا يقـال عن الفتى يقال عن الفتـاة ، إن فى الزواج المبكر منجاة » .

□ «وستسأل من يعـول الأولاد ؟ والجواب حاضر . حبس النسل اليـوم فى مكنة الـزوجين إلى حين ! حتى المسيحيين الـذين لا يجيـزون العقـاقير حـابسـا ، عنـدهم طـريقـة التـوقيت والتزمين» .

□

وهكذا يمضى أحمد زكى يدفع الاعتراضات التى تقوم فى وجه افتراضه .

□ « وستسأل فيما يقول به بعض علماء النفس من أن الأنفس على الصغر لا تـدرى ما يلائمها من الأزواج ، فيؤدى الـزواج الباكـر إلى الإخفاق . فأقـول إن علمى وخبرتى تدلان على أن الأنفس إذا لم تـدر مـا يـلائمهـا من زواج ، فهى هكـذا تفعل على صغـر وعلى كبر على السواء . على أن السن الكبيرة أفضل فى تخدع صاحبها » .

□ وآخـرون يقولـون إن الجسم لا يكـون فى الزواج البـاكر قـد نما النمـو الكافى لإنتـاج البنين والبنات إذا هـم شـاءوه ، وتسهلت سبله . ولهؤلاء نقول ، إنـا لا نقول بالزواج عنـد الخامسة عشرة أو السـادسـة عشرة حتى ، ولكن وراء ذلـك بقـدر مـا يستطيع الفتى أن يصمـد على الفردية . . وهؤلاء أذكر بأن العالم منذ وجد لم يعرف إلا الزواج الباكر ، وأنتجة القرون الماضية من أجسام ومن لحم وعظـام ومن عقول وفت لا شك بحاجـات الزمان ، وكـان فى الناس العمالقة ، وكان القوم الشداد ، وكان الذكاء وكانت الفطنة النادرة » .

ويعود أحمد زكى ليكرر القول بأنه «فى غريزة الجنس لا هناءة إلا بالوفاء بها ، فإن هناءة العيش إنما تكون بالاستجابـة إلى الغرائز ، فواضعها إنما وضعها لفائدة العيش ، وهـو وضعها فينا للهدى و إنارة السبيل ، وعلى الإنسـان العاقل أن يفهم الغـاية منهـا وأن يبذل لها بمقـدار ما يصل بها إلى غايتها ، فإذا زاد فعليه وزر ذلك » .

وفى موضع آخر يرد أحمد زكـى على مَنْ ناقشوه فى رأيه فقالوا له مستنكـرين : وما رأى الدين فى منع النسل عند الولـد يتزوج مبكرًا ؟ ويقول الـدكتور أحمد زكى فى رده على هؤلاء : «إن المقبل على الموت إذا أعطى سبيلاً للخلاص منه ، لا يذكر الحلال فى ذلك والحرام . والفجور إن لذ الشباب

منه أول جرعة ، فهو يغص بألف جرعة من بعـدها ، وتبتذل المرأة خاصة من بعد ذلك فى الطريق كقشرة الموز بعد أن زال عنها لبهـا ، فتأخذ تدوسها الأقـدام . فمن أجل تجنيب الفتاة هذا المآل لا تسألنى ما الحلال فى حبس النسل هنا وما الحرام » .

□□ لماذا دعا أخيرا إلى التناسل والتكاثر ؟ :

وأما دعوة أحمد زكى الأخيرة إلى التناسل والتكاثر: « أيها العـرب تناسلوا تكاثروا حتى تملئوا البر والبحر عـربا » (مجلة العربى : ٥/ ١٩٧٥)، فلم تكـن تنصلا من دعوته الأولى ، ولا خـروجاعن إطارهـا وخطها العام ، وإنما كـانت دعوة سياسيـة اقتضتها ظـروف العرب الذين كثـرت عندهم الخيرات كثرة هائلة بحيث زادت عن طاقتهم، لا فى الانتفاع بها على الوجه الأمثل فحسب ، ولكن زادت عن طـاقتهم فى الـدفاع عنهـا . وإذن فـلا مبرر هنـا إذن للحد من النسـل ولا للدعـوة إلى تنظيمـه ، وإنما يدعـو الفكـر العلمى المستنير المستقيم فى هـذه الحالة إلى الاستـزادة من السكـان باعتبارهم يمثلون القوة البشرية .

وينبه أحمد زكى إلى حاجـة الوطن العربى إلى العون المستمـد من القوى البشرية لسببين : أولهما أن العرب ليسـوا من أحب الأمم إلى الأمم . . أما أوربـا فعداؤها للعـرب قديم ، بـدأ منذ الحروب الصليبية ولم ينته بعد . . وسوء السمعة هذه الكاذبة بكل صنوفها لا يرفعها العرب عن أكتافهم إلا بالشموخ ، والشموخ الصـادق قوة . أما الأمر الثانى الذى يدعـو الوطن العربى إلى الاستزادة من العون المستمد من القوة البشرية فهو إسرائيل . .

ينـاقش أحمد زكى فى هذا المقـال الذى هـو من أخريـات مقالاتـه (العربى : ٥/ ١٩٧٥) قـول الشاعر الذى يذهب إلى أن الكرام قلة ، ويقول إن الاعتداء على القلة هنا اعتذار شاعر ، فالكرام يكونون فى الأمة على القلة ، وكذلك على الكثرة .

على أنه يبدو لى أن من الأفضل قراءة أفكار الرجل فى هذه النقطة بالذات فى فقرات ثلاث :

□ « إن الأمة قـد يكون لها مصادر طبيعية للثـروة كثيرة ، ولكن ليس كالثروة البشريـة ثروة . إن الإنسان ثروة ، وهو قد لا يكون ذا قيمة كبيرة وهو خامة ، ولكن قيمته هى القيمة الكبرى من بعد تصنيع » .

□ « إن الدعوة مؤسسة بوجه عام على العلاقة الكائنة أو التى ستكون ، بين الأرض ـ أى أرض

ـ وسكانها . فإن زاد السكان على مـا تطيقه الأرض ، فالحد وارد ذكره ، ووارد بحثه . وإن قل السكان عن الأرض ، فـلا معنى للحد ، ولابـد للنسل أن يزيد مـا دامت هناك أرض صالحة هى وعاء حياة » .

□ « وأرض العرب أكثرهـا الصحارى ، وفى أجزاء كثيرة من الصحارى ينـزل المطر ، ولا يلبث أن ينزل إلى مخازنـه فى بطن الأرض . وهذه ظاهـرة جديـدة تعرف عليها العـرب وأخذوا بها يستقون ، ومن مائها يزرعون . والسعودية تضرب الأمثال الطيبة فى ذلك » .

وهكـذا يستبين لنا أن الـدافع الحقيقى وراء دعوة أحمد زكى هـذه ، هدف سيـاسى واجتماعى واضح لا لبْس فيه يـدعو إليه أحمد زكى من هذا الطـريق ومن طرق أخرى كالهجـرة فيما بين أرجاء الوطن العـربى . وهو يستعرض المحاولات العـربية فى هذا الصدد ، ويشير إلى السـودان والعراق وغير ذلك من التجارب ، ويقـرر أن الأمر فى مسألة الهجـرة فى الوطن العربى لا بـد من أن يعتمد على نتاج التجربة : « فعنـدما ظهرت لأول مرة سارت مسار كل الأفكار الجديـدة تتلقاها الشعوب بالرفض لغرابتها ، ولأن العقل لم يتسع لدرسها ، ولأن العـاطفة البادهة صدمتها فقضت عليها . ثم يتسع الـوقت للفكـر ويتسـع للـدرس ، ويتسع لخبرة الأيـام ، وللثقـة التى يعطيهـا الـزمـان والاطمئنـان ، فإذا المرفوض مقبـول ، وإذا به لا صـواب سـواه . وكذلك كـانت فكرة الهجـرة فى الـوطن ، سارت من الـرفض إلى القبول والممارسـة » . وعنـد هذا الموضع يحذر أحمد زكى من الأثـر السيئ الذى قد يحدثه تعكر العلاقات فى سير مثل هذه التجارب .

وفى موضع آخـر يتناول الدكتـور أحمد زكى نفس الفكرة بقـدر أكثر من الصراحة والـوضوح ، ويقـول : إن تجربة التهجير الجماعى « هى فى رأيى ، وأنـا واحـد من ألف ، تجربة فيهـا الكثير من الريبة ، ومع هذا أدعـو لها بالنجاح ما دام هدفها زيادة ثروة العرب حيث الطـاقة البشرية أقل مما يجب ، وزيادة فى الرجال الذين يدفعون عن العرب غائلة التعدى من أية طائفة من البشر جاء » .

وفى صراحة أكثر : « إن الإيمان بـالتهجير إيمان بالوحدة العربية تكـون أو لا تكون . إن نجاح التهجير امتحان لإمكانية الـوحدة ، وإخفاقه يجعل العرب يقفون من أمر الوحـدة الشاملة موقف التريث الطويل » .

□

خـاتـمـــــة :

يتضح لنا من هـذا الفصل كما اتضح فى غيره من الفصول والموضـوعات أن أحمد زكى لم يكن من ذوى الأفكـار الجامدة ، ولا الآراء المتصلبـة ، و إنما كان من أصحـاب العقليات النـاضجة ، والأفكار المتفتحة . وكان يدعو إلى ما فيه الخير لوطنه : يدعو إلى التحديد حيث الفقر والتعاسة ، و إلى التزايد حيث الحاجة إلى مَنْ يدافع عن خيرات أنعم الله بها على عباده العرب .

ولم يكن عالمنا يعنى بـالفكرة ذاتها فحسب ، ولكنه كان معنيـا أشد الاعتناء بالـوسائل الكفيلة بتحقيقها سواء فى ذلك ، الوسائل العلمية على نحو مـا ذكرنا من فضله فى هذا المجال ، وتسخيره للصحافـة والإعلام فى أداء دوره الرائد فى هـذا المجال ، والوسـائل الاجتماعية التى ناقشهـا بقلمه وفكره ودعا إلى الوسيلة الأنجح .

يبقى أن نختم هذا الفصل بقوله فى إحدى مقـالاته : حديث الشهر (العربى : ١٢/ ١٩٧٢) تحت عنوان «حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » :

«إن الرأى عندنا أن ندرس موضوع الجنس عمليا كما درسه القوم هناك ، وأن نستنبط فى ظروفنا وفيما يأتلف مع تقاليدنا غير ما استنبطوا ، وأن نخرج الشباب بجنسيه من هذا الحرج الذى لا شك فيه والذى زادته المدنية الحاضرة حرجًا ، بما يحفظ على الفتى والفتاة ماء الوجه ، وعفة النفس والعزة التى هى عـزة الشرف غير الجريح » . فهذه هى الـوسيلة التعليمية ، والوسائل التعليميـة أنجح الوسائل على مر الأزمان والأجيال .

المصادر:

□ « وزير الشئون يدعو إلى هجرة المصريين ويطلب تحديد النسل حيث يوجد الفقر والتعاسة» (الأخبار : ٧/ ٧/ ١٩٥٢) .

□ « أقراص لمنع الحمل أم لتشتيت الشمل ؟» (العربى : إبريل ١٩٦٢) .

□ « أرقام تدغدغ الأفهام » « خفضوا سن الزواج لا ترفعوها » (العربى : فبراير ١٩٦٦) .

□ « المسكن . . المسكن » (العربى : إبريل ١٩٦٧) .

□ « الدولة الخيرة ترعى أبناءها من يوم يولدون إلى يوم يقبرون » (العربى : ديسمبر ١٩٦٨) .

□ « فقر وغنى » (العربى : مارس ١٩٧٠) .

□ « الطعام والجنس » (العربى : يوليو ١٩٧٠) .

□ « معركة الفقر والغنى » (العربى : يوليو ١٩٧١) .

□ « الأسرة بين عصرين : زراعى قديم ، وصناعى حديث » (العربى : نوفمبر ١٩٧١) .

□ « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » (العربى : ديسمبر ١٩٧٢) .

□ « مكانة المرأة فى سائر الأمم عبر القرون » (العربى : يناير ١٩٧٥) .

□ « أيها العرب تناسلوا تكاثروا حتى تملئوا البر والبحر عربا » (العربى : مايو ١٩٧٥) .

الفصل الحادى عشر

التعليم الجامعى

القمر يطلبه كل الأطفال ، ولكن الرجال تعرف ما ينال .

سنتنـاول فى هـذا الفصل ، بإذن الله ، الآراء التى استقـر عليهـا أحمد زكى فيها يتعلق بـالتعليم الجامعى ، وسوف يلاحظ القارئ أن مصادرنا فى هذا الباب تغلب عليها الحداثة . ومما هو جدير بالـذكر أننـا عبرنا بـذلك عن مصدر آرائنـا ليس إلا ، ويأتى هذا من حـرصنا على أن نسجل آراء الرجل الأخيرة أو مـا عبرنا عنه فى الجملـة الثانية من هـذا الباب بعبارة : « التى استقـر عليها أحمد زكى» . وليس معنى هـذا أن الـرجل كـان دائم التغيير فى أفكـاره فى هـذا المجـال ، ولكن السبب الحقيقى يرجع إلى أن الـرجل وهو جـامعى أصيل ظل طيلة عمره مهتما بـأمر التعليم الجامعى من جميع الزوايا : كيف يبدأ؟ وكيف يستمر؟ وكيف يقوم ؟ وكيف تكون علاقته بما قبله من تعليم عام وما بعده من حياة عامة ؟وكيف يمول؟ وكيف يستقل؟ وما هو المستوى الذى يجب أن يكون عليه

التعليم الجامعى ذاته وخريجه؟ وبأى لغة وعلى أى منهاج؟ وأيها يفضل : التخصص أم التعميم . . إلخ . هذه النقاط التى سنعرض لفكره فيها . وكان أحمد زكى فى رحلاته وقراءاته حريصًا على أن يوفى هذه النقاط جميعا حقها من البحث والاستقصاء .

فإذا جاءت صفحات هذا الفصل متعرضة لكل هذه القضايا فى هذا القدر من الإيجاز، فإنه لا بد لنا من أن نشير إلى القدرة التعبيرية الهائلة فى تلك الألفاظ والعبارات التى صاغ فيها الدكتور أحمد زكى الآراء التى نعرضها له هنا بعد الانتقاء والانتخاب . وسوف نشير إلى أهم المقالات والأحاديث التى صنفنا منها أفكار أحمد زكى فى هذا الفصل فى نهايته .

١ ـ ضرورة الجامعة :

□ يؤمن أحمد زكى بأن الجامعة هى أول حاجات الاستقلال (العربى : ٥/ ١٩٧٢)، لأنها تخرج الفئة المثقفة المختارة التى تدير رحى العيش فى الدولة الجديدة (يقصد بعد استقلالها) . ويستعرض أحمد زكى تاريخ الأمم النامية فى هذا المجال ، والظروف المتغيرة التى مرت بها هذه الدول بعد خلاصها من الاستعمار .

□ يشير أحمد زكى إلى ارتباط ديمقراطية التعليم بالقوميات ، ويتتبع تطور هذا الارتباط فى أوربا بعد العصور الوسطى ، وأهم عباراته فى هذا المعنى قوله (العربى : ٦/ ١٩٧٢) : «والظاهر أن فكرة الديمقراطية ، ولو أنها فكرة قديمة ، لم تحظ دولة بتطبيقها ، من حيث الشمول فى الخدمات كخدمات التعليم إلا بعد العصور الوسطى فى أوربا الحديثة » .

«نشأت فكرة الديمقراطية بمعناها ومبناها مع فكرة الوطنية لما أخذت أوربا تتفاضل إلى أمم لها لغات خاصة بها ، وملوك يرعون أمورها ، وفروق تفرق بين أجناسها ، فهذا فرنسى ، وهذا بريطانى وهذا . . وبنشوء الدولة الوطنية نشأت فكرة اللغة القومية ، ونشأت معها الحاجة إلى التعليم . وقد بدأ التعليم فى أول أمرة محدودا تقوم به جمعيات خاصة وهيئات ، ولاسيما الهيئات الدينية ، ثم أصبح رويدا رويدا من بعض واجبات الدولة » .

ومن هذا المنطلق كان تأكيد أحمد زكى (العربى : ٢/ ١٩٦٨) على أن التعليم اليوم حق الدولة على كل فرد فيها (لاحظ التقدمية فى فكر أحمد زكى الذى لم يتوقف عند قول القائلين إن التعليم حق الفرد على الدولة) . . وأكثر من هذا يرى أحمد زكى أن التعليم هو أحد الواجبين

الأساسيين للمجتمعات الإنسانية وهما «السعى للعيش لوصل الحياة ودفع الموت، وتنشئة جيل قادم يحل محل هذا الجيل الحاضر الذى هو لا بد ذاهب وذلك لكى تتصل الحياة باتصال الأجيال».

□ وكان الدكتور زكى يتابع بقلمه كثيرًا أخبار التعليم الجامعى فى الخارج ، وخصوصا فى إنجلترا. وفى مقال له (العربى : ٢/ ١٩٦٧) تحدث عن رفع إنجلترا لرسوم الدراسة وبدء تنفيذ هذه الزيادات على الأجانب، ثم أهاب بالعرب أن يسارعوا إلى إنشاء جامعاتهم « وأن ينشئوها سريعا ، وأن ينشئوها أكثر وفاء بالعتاد والرجال للقاء المستقبل الذى لن تكون فيه سوق الجامعات الأجنبية سوقا مفتوحة على مصراعيها » .

ويمضى فى تحذيره، فيقول: « لقد أوشكت الأبواب أن تسد ، ومنابع العلم المفتوحة التى يغترف منها الآن من يشاء ما شاء ، لا تلبث أن يقف عندها حارس يأذن لبعض ولا يأذن لبعض. وقد يكون من أسباب ذلك الولاء السياسى أو غير الولاء. إن العلم سيصبح نادرًا، فعلى العرب أن يبنوا له صروحه » :

وينتهز الفرصة ليعبر عن سعادته بإنشاء جامعة الكويت: « وبهذه المناسبة أقول مرحى للكويت أن بدأت بجامعتها على خير ما تكون الجامعات. وهى بدأتها ككل الجامعات فى الأمم النامية، وفى جامعة القاهرة خاصة، بأساتذة من غير أبنائها . . ثم يفعل الزمان فعله ويرث ذلك الجيل جيل من أبناء البلاد لاحق » .

٢ ـ استقلال الجامعة :

وفى مقاله عن الجامعات فى الأمم المتخلفة، يتعرض لقضية استقلال الجامعة، من وجهة نظر مختلفة تمامًا عن وجهات نظر الذين تناولوها من مفكرينا العرب ــ فأحمد زكى يعتبر أن مشكلة الأعداد الكبيرة هى الخصومة الكبرى بين الجامعات والحكومات، وأنها أخطر الأمور على الاستقلال : « على أن الخصومة الكبرى التى بين الجامعات والحكومة خصومة حلها مستعص على جامعة وعلى حكومة على السواء: ذلك ضغط الحكومة على الجامعات أن تفتح أبوابها لكل من أراد أن يدخل جامعة ، ولو لم يحصل على النصاب الأوفى ، والحكومة تنزل بالمستوى الذى يجيز للطالب دخول جامعة ، لأن الشعب وراءها يطلب لأبنائه أن يدخلوا الجامعة ، لأنها فى نظره ،

هى الطريق الـوحيد لحياة أفضل . فنـزول بمستوى التعليم عند دخول الجامعـة يجتمع فى الجامعة بمدرسين جـامعيين اسما ، وهم غير كفاة لما يتصدون لـه من التعليم . حالان ، الجمع بينهما يخرج الخريجين وهم أنصاف متعلمين ، وهؤلاء يـدخلون فى مرافق الدولـة يديرونها ، وهم غير أهل لها ، وتكـون العاقبـة خسـارة جـامعة شـاملـة . . الشعب لا بـد أن يرضـى . . والجامعات لا بـد أن تخضع . . والمرافق لابد أن تسوء » .

أمـا عن التعـريف المألوف لاستقـلال الجامعـات ، فأحمد زكى مطمئن تمام الاطمئنـان إلى أن الحكم فيه هو الزمن ، وهو تطور المجتمع وتطور فهمه وممارسته للحرية ، و إن كان فى نفس الوقت لا يقف مسلما ١٠٠٪ باستقلال الجامعات فى أعظم الدول تقدمًا وهو يقول فى هذا المعنى :

« ولكن واقع الأمـر ، أن الشعـوب المتقـدمـة ، جـرى فيها استقـلال الجامعـات مجرى سـائر الحريات التى تتطلبهـا الديمقـراطية و يتطلبهـا العلم والمعرفـة فى هذه الحضـارة العصرية القـائمة فالحكومات اليوم ، دفعت من نفقات الجامعـات أو لم تدفع ، لا تتدخل فى شئون الجامعات حتى يتواصل النظام فى الحرم الجامعى ، و إذا استدعى ذلك استـدعاء رجال حفظ النظام ، لم يدخل فى الحرم جندى واحد إلا إذا كان مدير الجامعة هو الذى استدعاه وأذن له بدخوله .

«هذا هو العرف فى الأمم المتقدمة ، ومع هـذا فلا بد لى من القول إننا الآن فى زمن أسهل شىء فيه العبث بالأعراف » .

٣ ـ أيهما أولى : التوسع فى الجامعات أم القضاء على الأمية ؟

طرح الدكتور أحمد زكى هذا السؤال قبل أن تطرحه الظروف والأحداث العلمية فى وطننا العربى مع الزيادة المضاعفة التى شهدتها أعداد الجامعـات وأعداد الطلاب فيها فى العقد الأخير وقد دعا أحمد زكى فى مقالـه الافتتاحى (العربـى : ١٠/ ١٩٧١) إلى إنشاء «جامعـة الهواء » على غرار تلك التى فى بريطـانيا . واستطرد فى مقالـه إلى مناقشة الآثـار التى قد تنشأ نتيجة تنفيذ هـذه الفكرة ، وأولها زيادة عدد الجامعيين مع مازلنا نعانى منه من أمية . وقد رد على هذا التساؤل فى وضوح وقوة يبين عنهما قوله :

« وسيقول قوم كيف تأذن للتعليم العـالى أن يمتد هكذا ، وأكثر العـرب أميون؟ ! وهذا حق ، وكان المنطق يقضى بأن نـزيل الأمية قبل أن نرتفع بـالتعليم ونحدده ، ولكن أعداء العرب قـائمون

من حولهم كالسباع لا يعطون التى أكثرها الخراف والنعاج ، فهى طعام لها طيب وفير ، لا يعطونها الزمن الكافى لتتطور وتتحسن أحوالها وتستأسد مـن بعد ذلك . لهذا وجب أن نعالج الأمة العربية من طرفيها ، الطـرف الناهض لنملأه علما ولنزيده ولنتسع ، والطرف المتخلف لنـرفع عنه أميته ، طلائع تـرتفع بأمتها وتصون وحـدتها عن علم لا دجل فيه ولا خداع ، وتضرب عنـد الجد وتدفع الأعداء بـآخر ما ابتـدعه العلم من سلاح ، وطـوائف فى الجانب الآخر كالنمل عـددًا تعينها على الخروج من وحل الجهالة التى رطمها الزمان فيه» .

٤ ـ ماذا تضيف الدرجة الجامعية إلى صاحبها؟ :

يجيب أحمد زكى عن هـذا السؤال ، فيضرب مثـلاً بالحداد ، ويقول : « ولا أحسـب أن هذه الدرجة ستجعل منه حدادًا أكثر حدادة ، ولا أمهـر فى حدادته كثيرًا ، وهى لن تحوله عن حدادته إلى سبيل للرزق غيرها ، فـلا بد فى الناس من حدادة . وإنما سـوف تجعل منه إنسانًا أكثر عـرفانا ، وأوسع إدراكا ، وأقدر على التفتح للحياة ، والاستمتـاع بمتع العقل والقلب فيها ، ما كانت تتهيأ له وهـو على الحديد والنـار . وفوق ذلك ، وأخطـر من ذلك أنها سوف تجعل منـه لأمته ، مـواطنا صالحا » .

ويستطرد الـدكتور زكى فيقول : « إن آمـاله هذه قد تكـون أحلامًا ، ولكن حـاضرنا أن نحلم ونحلم ونحلم ، لعل نفس الأيـام أن تحقق لنا حلما يكـون واحدًا بألف ، والـذى لا يحلم أبدًا ، لا يصدق له حلم ، ولا يتحقق أمله » .

٥ ـ الحفاظ على المستوى الرفيع لتعليمنا الجامعى :

يؤكـد أحمد زكى فى كل المواضع ـ وإن لم يواظب على هـذا التأكيد فى مقاله الأخير ــ على أهمية العنايـة بمستوى خريجى جـامعاتنا ، وعباراتـه فى إحدى مقالاتـه (العربى : ٥/ ١٩٦٩) صريحة واضحة حادة حيث يقول : «ألاَّ تخرج الدولـة جامعيين وفنيين خير من أن تخرج أنصاف جامعيين أو أنصاف فنيين . إنهم صانعـو الدولة فى غدها ، ولا نـريد دولة نصف مصنوعـة فيها الأطباء ، ولكن أنصاف ، والمهندسون ولكن أنصاف ، والفيزيـائيون والكيميائيون والذريون ولكن أنصاف وأرباع وأخماس» .

وفى مقالة لـه (مجلة العربى : ٥/ ١٩٧٠) يؤكـد أحمد زكى رأيه ويوضح فكرتـه من هذا الرأى بقوله :

« إن هذه المنتـوجات الإنسـانية لا تستهلك فى عام أو عـامين . . إن الطبيب الماهر بـاق معنا ننعم بمهارته ثلاثين عامًا أو أربعين . . وكذلك الطبيب العاجز باق معنا نعانى من عجزه ثلاثين عامًا أو أربعين » .

« فالضبط والربط يجب أن يبدأ حيث يبدأ الخلق فى الجامعات . الجامعات تختبر ، ولكن قبل أن تختبر يجب أن تختبر . « تختبرها الأمة لتتأكد من أن النتاج الـذى سوف يأتى أخيرًا سيكون نتاجًا بحمد الله طيبًا حميدًا ، وحديثًا ، مواكبًا لزمانه » .

«ولهذا ، وجب على الأمة العربية أن تقوم بتقويم ما عندها اليوم من جامعات : كم هى؟ وأين هى تقع من مـراتب جـامعـات الأرض؟ وعلى أى شىء نبنى تقـويم جـامعاتنـا : على كلمـة من صحفى ، أو خبر شـارد علمى؟ أم على قرار للجنـة محايدة فـاحصة ، عـارفة عـادلة ، صـادقة صديقة ، نستدعيها من أقصى الأرض ، يكون أكثر صداقتها وصدقها فيها تكشفه لنا فى جامعاتنا من نقص مع مـا تـذكر من جـودة ، وإذن نسير وفى أيـدينا مصـابيح تهدى ، نـرسم على ضوئهـا الطريق الذى نسلكه فى غد ليس كله بنور الشمس غامرا » .

ولهذا أيضـا يدعـو أحمد زكى ويكـرر دعـوته إلى امتحـان الطبيب والمهنـدس والمعلم كل ١٠ سنـوات للتأكد من أن كـلا منهم ما زال يـلاحق العلم الجديد كلما نبت فيـه فى الطريق نـابت . . وهذا هو ما يعبر عنه باختصار عنوان مقاله « المعلم كالسيارة هى من طراز ١٩٣٠ أو ١٩٥٠» . . بل ويدعو أحمد زكى إلى امتحان البرامج وأساليب التعليم والأجهزة .

٦ ـ بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية :

يقصد أحمد زكى بالتخصص ، ذلك الأسلوب الذى أخذت به حديثًا الجامعات الأمريكية من تطعيم الدراسات الإنسانية بالـدارسات العلمية الطبيعية والعكس . . وما إلى ذلك من الأساليب المستحدثة فى التعليم . وقد ناقش أحمد زكى فى مقـاله بمجلة العربى « ١٠/ ١٩٧٢) أصل فكرة التخصص وتطورها على مدى التاريخ ، وعرض لآراء القائلين بأهمية وضرورة التخصص ، وعرض لرأيـه فى تطبيق هذه النظم فى جامعـاتنا العربيـة ، وانتهى إلى أن : « البلاد العربيـة لا تزال فى أول الطـريق ، والبلاد العـربية بها نحـو ٧٠٪ أميون ، فأين نحن من الترف العقلى أو القلبى الـذى لا

يخطر إلا على بال أمة اكتملت فيها الدراسات الجامعية فى نواح كثيرة . . وبلغت مستويات عالية ، ووصلت بمعارفهـا إلى القمر، وهى تطلب المريـخ . . وكثرت كذلك أمـوالها فهى تفيض على أهل الأرض بالمعونـات التى يرضاها الله أحيانًا ، ويـرضاها الشيطان أكثر الأحيـان بها تفيض . . والرفه الدراسى المقترح يكلف الدولة أمـوالاً طائلة ، والدولة العربية يعد فيهـا الفقراء كثرة ، فقر غذاء ، وفقر كسـاء ، وفقر مسكن، وفقر رءوس كثيرة من أهلها لم تـزود بعد بالأقساط الضروريـة للحياة الحاضرة من معارف وعلوم » .

وعلى الرغم من أن هـذا الرأى قـد يبدو متعارضًـا مع طموح أحمد زكى وأحـلامه خصـوصًا فى التعليم الجامعى ، وهى طموحـات تعرضنـا لها بالتحليل والسرد منذ لحظـات ، إلا أن الحقيقة فى هذه المسألـة على ما يبدو لى أن أحمد زكى كـان يريد للتعليم الجامعى العـربى أن يمضى فى سبيله الطبيعى ، بالتقدم الذاتى ، وبـالتجريب المتناسب مع ظروفه و إمكانـاته بعيدًا عن الطفرات التى هى فى الواقع ليست من أنسب الأمور للعلم والتعليم الجامعى .

بعبارة أخرى كان أحمد زكى يريد للتعليم الجامعى أن يـرتبط بالبيئة التى هو فيها ، حتى يكون صـادقًـا فى الأجيال التى يعمل عملـه فيهـا ، ومـؤثرًا فى الأجيـال والأعمال التى تتعـامل مع هـذه الأجيال .

وعلى الصعيـد الآخر كـان أحمد زكى يعتذر عن قصـور إمكـانات التعليم بـالقصور الـذى فى إمكانات البيئة على النحو الذى سنتناوله فى الفقرات التالية .

٧ ـ التعليم الجامعى والمجتمع :

عبر أحمد زكى عن أنـه مقتنع تمام الاقتنـاع بأن التعليم ـ حتـى فى البلاد المتقـدمـة ـ لا يتطـور بالسرعة التى يتطور بها المجتمع هناك ، وهو يرى أن من الطبيعى أن يسبق المجتمع العلم .

وفيما يتعلق بحالنـا يقرر أحمد زكى أن الفقـر هو علـة تخلفنا الكبرى فى كل جبهـة ، وليس هو العلة الواحدة ، ولكنها العلـة الأخفى بين العلل جميعا . « أثر الفقر يتراءى فى كل منشط علمى ، وفى كل اقتراح نتقدم به للتقـدم التكنى ، ولكنه يتراءى خفيا فى أيسر الأمور التربويـة وأظهرها . . فالفقر . . الفقر ! فليـذكره الذاكرون عندما يجتمعـون فى مؤتمرات التربية . . اجتمع فيها وزراء أم خبراء أو مدرسون عاديون » .

« والجامعات إنما تحيـا بمقدار مـا فى البيئة من مـوارد حياة . . وتموت بمقـدار ما فى البيئـة من أسباب موت » .

« والذى يسأل أين جـامعاتنا من جـامعات الغرب . . إنما يسأل عن بيئتنـا أين تقع من سائر هذه البيئات » .

«نحن نحتاج إلى الفنيين تخرجهم الجامعات المختلفة ، ولكن « اقتصادهم اليوم ليس فى حاجة إلى تدريب خـاص لمهنة خـاصة بقـدر ما هو فى حـاجة إلى رجـال ذوى ذكاء وذوى فطنـة ـ حتى الـذكاء البـالغ هم لا يطلبون أن يكـون فى كل من يريـدون ـ فعنـدهم أن صنوف الخبرة متعـددة ومتغيرة ، وكثير منهـا لا يستدعى ذلك القـدر من الـذكـاء الذى يقيسـه علماء التربيـة بالمقيـاس المعروف عنـدهم بمقياس الذكـاء ، فعندهم كذكاء الـرأس ، ذكاء اليد ، وذكـاء العيش ، وذكاء الأذن ، وذكاء العصب فى ساعد ، وفى قدم ، حتى ذوو العاهات لهم فى التطبيق أماكن » .

٨ ـ التوافق بين إمكانات الطالب ودراسته :

بقيت نقطة لا بد للشباب ولموجهيهم من الاستفادة بثاقب فكر أحمد زكى فيما يتعلق بها ، وهى ضرورة وضع الشاب المنـاسب فى المكان والمهنة المنـاسبين لإمكانـاته العقلية والتعليميـة . . وهذه فقرات من رأيه فى هذا المعرض نضعها أمام الأبصار .

يشبـه أحمد زكى فى مقالـه (الهلال : ٧/ ١٩٤٨) التعليم العام بـالطـريق السلطانى الـواسع العريض ، ولكنـه يوشك أن يكـون له انتهـاء ، وعند الانتهاء يتفـرع فروعًـا عدة ، يقف عنـدها المتخير حيران ، لا يدرى أيها يسلك ، وأيها أهدى إلى العيش الرخيص والحياة الهانئة .

ويستطـرد معبرًا عن واقع الحيـاة ، فيقـول : « لكل شخـص طـريق لا يطلبـه ، ولكل طـريق شخص لا يطلبـه ، وسر النجـاح فى الحيـاة هـو ذلك التـوفيق بين طـالب ومطلـوب ، وهـو سر غامض ، من أجله النجاح فى الحياة وعر » .

« خير للطالب أن يطلـب التل إذا تعذر الجبل واستحـال ، والقمر يطلبه كل الأطفـال ولكن الرجال تعرف ما يُنال ، وما لا يُنال ، فنفسك الحكم الأول فى كل ذلك » .

« وأول مـا توائم فى نفسك ذكـاؤك العـام الذى يجىء بعضـه من التعليم وبعضـه من الطبع ،

فليست المهن كلها تحتاج لقـدر من الذكاء واحد . . واذكـر دائمًا أن الحلاق الناجح خير ألف مرة من الطبيب الخائب . . وأن النجاح فى حد ذاته متعة وهناءة وفرحة وسرور لا يغيض منبعه أبدًا» .

« إن وضع الشـاب الصحيح فى المهنة الخاطئـة ، هو ، على مـا يقول المثل الأجنبى ، كـوضع الخابـور المدور فى الخرق المربع لا يكون للشـاب منه استقـرار ، ولكن يكـون منه القلق ، وهـو لا يشقى وحده بذلك ، ولكن أسرته وبيئته وأمته تشقى به » .

وأظن أن هذه النقطـة بالذات قـد لا تقل فى أهميتها فيما يتعلق بمـوضوع التعليم الجامعى عن النقاط السابقة الأخرى ، وإن كنت قد أخرتها إلى هذا المقام ، ففيها العبرة الأولى والأخيرة .

المصادر:

- « الطريق السلطانى وما وراءه » (الهلال : يوليو ١٩٤٧) .
- « التعليم كم منه للثقافة ؟ وكم منه للرزق ؟ » (العربى : أكتوبر ١٩٦٢) .
- « شبابنا وثقافة العصر » (العربى : يوليو ١٩٦٦) .
- « ألف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها لتصنع الرجال » (العربى : أكتوبر ١٩٦٦) .
- « جامعات الغرب مفتوحة الأبواب اليوم وقد تضيق فى وجه أهل الشرق مسالكها غدا »

  (العربى : فبراير ١٩٦٧) .
- « المعلم كالسيارة هى من طراز ١٩٣٠ أو ١٩٥٠ » (العربى : فبراير ١٩٦٨) .
- « الدولة الخيرة ترعى أبناءها من يوم يولدون إلى يوم يقبرون » (العربى : ديسمبر ١٩٦٨).
- «الكتاب العربى : سبب التخلف الحضارى والتخلف العلمى والتكنى فى روضة أو مدرسة أو جامعة» (العربى : مايو ١٩٦٩)
- « الجامعات بين قديمها والحديث » (العربى : ٥/ ١٩٧٠) .
- « التربية كيف تمارس على التخلف والفقر » (العربى : ٢/ ١٩٧١) .
- « جامعة الهواء » (العربى : ١٠/ ١٩٧١) .
- « الجامعات فى الأمم المتخلفة » (العربى : ٥/ ١٩٧٢) .
- « تربية ابنك كانت تبعتك فصارت تبعة الدولة » (العربى : ٦/ ١٩٧٢) .
- « بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية » (العربى : ١٠/ ١٩٧٢) .

الفصل الثانى عشر

فى الثقافة والإعلام

« وعلموا الطابعين أن الجهال قد يشترى بأبخس الأثمان . . وأن الكتـاب كـامـرأة هــذا العصر أجمل مـا تكـون وهى فى أبسط الثياب» .

مع أنى قـد أؤمن بضرورة الفصل بين الثقــافـة والإعـلام ، فإنى لا أفهمـه على أنـه فصل بين متناقضات ، ولا بين أشياء ينشأ عن اجتماعها آثار مدمرة ، أو آثار غير مرغوبة ، وإنما هو الفصل الـذى يتيح لنا أن نـركز على كل من الثقـافة والإعـلام فى خطط التنمية بـالأسلوب المنـاسب لكل منهما ، وبالقدر المطلوب ، بل وأكثر منه .

لهذا السبب كـان فى خطـة المؤلف أن يجعل من هـذا الفصل فصلين : فصـلاً يتعلق بالـرؤيـة الثقافية لأحمد زكى ، وفصـلا للمفاهيم الإعلامية ، ولكنـه وجد أن تركيز أحمد زكى فى كتـاباته التى تناولت الحياة الثقافية كان على مسألة القراءة والكتاب ، وأن تركيزه فى كتاباته التى تناولت المسائل

الإعلامية كان على الصحافة والإعلام الصحفى . . القضية إذن فى القلم ، والقلم هو جوهر الثقافة والإعلام ، وهو البؤرة التى تلتقى فيها جميع إشعاعاتها ، بل هو البؤرة التى تخرج منها تلك الإشعاعات .

وآراء أحمد زكى فى الثقافة والإعلام لا تحتاج إلى كثير من التعليق ، ولا إلى أى قدر من الإيضاح . وجزئيات هذا الفصل واضحة التميز لا تحتاج إلى كثير من الربط ، إنما ينصرف الجزء الأكبر من جهد المؤلف فى هذا الباب إلى إعادة ترتيب الأفكار ، والخروج بالمتشابه على النحو الذى لا يجعل القارئ ينصرف بعد قراءة الباب إلا بفكرة واضحة على نحو ما كانت أفكار أحمد زكى ، فى حجم قد يكون العشر أو أقل من العشر بالنسبة لما كتبه أحمد زكى فى هذا الصدد ، هذا فضلا عن دورات ثلاث من الاختصار اضطر إليها المؤلف فى هذا الفصل وفى غيره من الفصول .

□

يؤمن أحمد زكى بأن الدعاية علم ، كالنهر ، تمده بالماء روافد من المعرفة شتى : معرفة تتصل بأنفس الناس ، ما هى ، وكم هى ، وما مزاجها ، وكم سرعتها فى تقبل المعنى والخبر وكم هى من التشكك والحذر ، وأين هى من العلم ، وأين هى من الجهل ، وما صنع التاريخ بها ، وكم ضيع من آمالها ، وكم أحيا ؟» .

□ « وأنت تستطيع أن تصل إلى الناس عن طريقين : طريق العقل والمنطق ، وطريق الانفعال والعاطفة ، وأغلب الظن أنك سوف تحتاج إلى العقل والعاطفة معا» .

□ « والدعاية فى الدين كل دين ، دعاية تخرج عن عقل ، ودعاية تخرج عن عاطفة . ويصل المعقول منها أهل العقل فيكون الرضا ، ويصل المعطوف منها أهل العاطفة فيكون الرضا . ولقد مر بخاطرى يوما رأى خبيث عن الخرافات التى أدخلها الجهال فى سائر الأديان ، فقلت لنفسى : وما ضرر ذلك إذا كان فى الخرافة إحياء أمل أو طمأنينة من بعد خوف؟ وخيل إلى أن بعض الفلاسفة ، حتى من المسلمين سبقونى فى هذا الرأى فيما سبقوا » .

□ «والرأى عندى أن الدين ، أى دين ، لا تأتلف وإياه الدعاية إلا أن تكون حقا . أما التحبيب والتحبب فى الدين فتهريج لا يستقيم مع عقول تطلب حقيقة الكون الكبرى : حقيقة الله سبحانه» .

□ « ولكل نشيدوطني من هذه التي في بلاد الغرب ، ولكل سلام قومي قصة امتزجت بدماء ، أين منها أناشيدنا ، أناشيد الشرق تلك التي وكلنا أمرها إلى قاعد منا يقعد في حجرته ليضع لنا لحنا من عنده ، فاترا ، مأجورا ، وتدق به بيننا الطبول في الاحتفالات ، فنقوم له في غير كثير من احتفال ، إذ ليس له في القلب صدى » .

□ **وقد تقدمت الدعاية تقدمًا كبيرًا في الحرب العالمية الثانية عنها في الأولى:** « حدث تحول في دعاية الحرب من الغلو إلى الاعتدال ، فاقتربوا بالصدق ما أمكن ، وعرف القارئون للصحف ، والسامعون للإذاعات من أمر هذه المصادر ما عرفوا فأقبلوا عليها . وبالطبع نجد أن الأمم مع القوة ، أقدر على الصدق ، وهي مع الضعف تتوارى في الكذب ، وهي تكذب على أهلها سواء بسواء » .

□ **والثورات تهتم كثيرًا بالعلاقة بين الدعاية والتعليم :** « فالدعاية في حجرات الدراسة وبرامج التعليم هي أنجح الدعاية ، وتستوى في استهداف ذلك ثورة اليمين ، وثورة اليسار . وأول العلوم ملاءمة للدعاية ، الدروس التي ننعتها بالأدبية ، وأسرعها استجابة علم التاريخ ، فصاحب الدعوة يستطيع أن يبدل فيه ، فيثبت ما ليس فيه ، ويحذف مما فيه ، وفقا للدعوة التي يريد ، ووفقًا للأهواء العاطفية التي يريد أن يزرعها في الطلاب » .

□ « وإن يكن **التعليم الرسمي** بين الحوائط الأربعة يتخذ وسيلة للدعاية ، **فالتعليم الطليق** وسيلة أفعل وأوسع دائرة وأبعد مدى » . يقصد الصحف والإذاعات والتليفزيون : « ومن أجل هذا احتوته على الأخص الحكومات التي لها في الدعاية أهداف تستهدفها ، ومذاهب تشيعها وتنشرها» .

□ « وباحتواء الحكومة كلا النوعين : التعليم والإعلام (التعليم الطليق) تستطيع إذا هي أرادت أن تخلق الإنسان الذي تريد . ونحن في العصر الصناعي نصنع الخامات المعدنية ، وكذلك نستطيع إذا أردنا أن نصنع الخامة الإنسانية ، فننتج منها الخراف ، والأسود ، والحمائم ، والصقور ، وما لم يخطر ولا خطر ببال أحد » .

□ «**إن الإعلام من العلم** ، والمدارس والجامعات تعطي العلم ، والدنيا تعطي العلم ، والإذاعة والتلفاز جامعتان عظيمتان يظل يستمد منهما تارك الجامعة بعد تركها ، علما وأدبا وفنا ، وخبرة حياة ، ليس شيء منها من الصنف الذي تعطيه المدارس والجامعات عادة » .

□ « **إن أجمل شيء في الحضارة الحاضرة العلم والمعرفة والاستنارة إجمالا** ، وأخطر ما في العلم والمعرفة والاستنارة مصدرها ، ومن أخطر هذه المصادر ، مصدر الكلمة المذاعة ، والصورة المذاعة ، بهما تخلق خلقا جديدًا ، وبهما تتغير مقادير الشعوب » .

□ « **الرأى العـام صار يصنع كما تصنع البضـائع** ، بـالشكل الـذى يـريـدون ، كما يحيل الخزاف صلصاله ، فهو يصنع منه مزهرة لعطر ، أو مبولة لطفل . . » . « وهو لا يمكن أن يعمم وقد نشأ النـاس أمـزجـة ومشارب شتـى ، وليس كل فـرد فى جماعة بقـادر على إبـداء رأى ، وقـد يستطيعه الفرد القادر ولكنه يبنيه على الخبر الكاذب » .

□ « **إنما هى الصحف تمارس لأمها ما يمارسه الطبيب النفسانى** الذى يحاول أن يذهب بالقلق عن مريضه ، فأحيانا هو بالعقاقير المسكنة يهدئه ، وأحيانًا هو يعطيه حقنة من أنسولين تصدعه ، أو لعلها شحنة من كهرباء تهز كيانه » .

□

ويبالغ أحمد زكى فى تقـدير دور الإعلام إلى الحد الذى يصفـه فيه بأنه أخطر عـامل يهدد بقيام حرب عالميـة جديدة : « والرأى عنـدى أنه والحرب بالكلم قد وقفت عنـد هذا الحد أنه لن تنطلق قنبلة ذريـة أو غير ذرية إلا من بعد مفاوضـة . هذا إذا حبست الصحافة فى كل البـلاد ألسنتها ، وكظمت ما فى صـدرها ، وسكت كذلك كـلاب الحرب ، وكفوا عن نبـاح لا يجنى منه الموقف إلا شرا » .

وإذا أراد القـارئ أن يطالع رأى أحمد زكى فى إشكـاليـة حريـة الصحـافة فى أثنـاء الحرب . . فليرجع إلى الفصل الثانى من هذا الكتاب حيث المفكر الذى يكبح جماح نفسه .

«ونحن فى البلاد العـربية فى حاجـة ماسة إلى إعلام فعـال بقضيتنا . هذا لاشك فيـه ، ولكننا «أحوج إلى إعلام عربى فى البلاد العربية نفسها » .

وأحمد زكى يعتقد «أن رجل الإعـلام غير رجل الشرطة ، وغير رجل المخابـرات . رجل الشرطة ورجل المخابـرات يجب أن تتوفر فيهما كفايـات كبيرة ، ولكن لتظل فى الظلام محجوبـة ، أما رجل الإعلام فمصباح نصنعه ليشع بنوره ، هكذا إعلانا حيثما حل » .

وهو يأسف لهؤلاء الصحفيين الشبان « الذين يكتبون أكثر مما يقرءون » .

وهو لا ينظـر إلى حريـة الصحافة نظـرة منفصلة عن الجو العـام : « إنما هى حريـة واحدة من حريات عشرات نعـرفها فى هذا العيش الحاضر. وحرية الصحافـة إنما هى معنى متفرع من معانى

الحريـات عامـة ، وبقـدر مـا يكون فى النـاس من إيمان بمعـانى الحريـات الأصيلة يكـون إيمان بالفروع ، والإيمان بالحريات ، لا يكفى وإنما لا بد مع الإيمان من ممارسة » .

والجانب الآخر من القضية لا يغفلـه أحمد زكى : « والذين يتحدثون عن رقابـة الحكومات على الصحف ، ينسون ، أن هناك رقابة مثلها توازنها ، تلك رقابة الصحف على الحكومات» .

« إن الصحيفة تأتى للناس بالأخبار من داخل البـلاد ومن خارجها ، وتنشر فى الناس الرأى ، وهو رأى فيما تجرى به الأيام من أحداث . ومن أمس أحداث اليـوم بالناس هى أحداث تتأثر أشد التأثر بعمل الحكومات ، لا سيما بعد التطور الكبير الذى طرأ على واجبات الحكومات بعد قلاقل القرنين الماضيين ، فالصحافة أصبحت اليوم ، قائمة برقـابة على الحكومات لعلها أخطر من رقابة الحكومات على الصحف . . ولكن من عجيب أمر هذه الرقابة ألا يتحدث عنها من الكتاب غير قليلين» .

«وهناك معنيان لحرية الصحافة والنشر عامـة ، أحدهما هو الأشهر ، وهـو الأوضح وهو حرية الصحـافة فى أن تنشر مـا تشـاء ، لأن الخطأ التـاريخى الأكبر كـان فى كبت الحكـومـات حـريـة الصحافة ، وعلى زعم أن صـوت الصحف هو صوت الشعب ، فهذا الكبت إنما كـان كبت حرية الشعب أن يقول ما يقول » .

«أما المعنى الآخر الأخفى فهو محافظة الصحف على حرية الشعوب أفرادًا وهيئات ، فـلا تنال أحدًا بسوء اعتمادًا على ما لها من قوة هى فى آخر الأمر مستمدة من الشعوب » .

« وقـد نضيف إلى هذين المعنيين معنى ثـالثا ، وهـو محافظة الصحف على حريـة الحكومات . فالحكومة التى يقيمها الشعب على الأسس الديمقراطية من حقها أن تنال حريتها فى القول والعمل فلا تهاجم افتراء وادعاء . . حتى من معركة قائمة . . » .

□

يتحدث أحمد زكى عن الصحافة فى البلاد الواقعة تحت الحكم الكلى (الشمولى) ، وهو الواقع الذى عاشته معظم البـلاد العربية والنامية ولا يزال أغلبها يعيشـه : « والصحافة تحت هذا الحكم جزء منه ، والصحفيـون عندئذ موظفون فى الـدولة ، وموظف الدولـة مطيع . . لهذا لا أرى وجها للذين يلومون رجال الصحافة فيما كانـوا صنعوا وهم غير أحرار ، إنه لوم غير جائز إلا إذا جاز لوم

سائق القاطرة أو ضابط الشرطة ذلك أنهم جميعا ضربوا على نغمة واحدة قادها رئيس الجوقة الموسيقى ، وفى يمناه عصا القيادة ، ومن ورائه « مسرور » صاحب نطع الرشيد وسيفه ، وويل لمن خرج عن الصف فضرب نشازًا » .

« ذلك أن الحريات أخذ وعطاء ، وميزانها العدل بين شعب وصحافة وحكومة فى الأحوال السوية ، والإسراف فى إعطاء الحريات تبذير ، وكل تبذير مفسدة » .

ويدرك أحمد زكى حقيقة متاعب الكاتب من جهل الشعوب « الشعوب كالقطط تنتظر منك أن تمر بكفك مرًا خفيفًا على شعرها فى اتجاه واحد . . فإذا أنت غيرت هذا الاتجاه نالك من مخالبها الشيء الكثير » .

وفى قضية الرقابة على الصحف والرقيب يقول : « الفكر لابد له من ضابط ، وخير ضابط للفكر كتابه ومن الكتاب من لا يقدر تبعة ما يكتب . . فيكون كالفرد فى المجتمع الذى يعمل ما يشاء على هواه ، ولا يقدر تبعة ذلك ، فيقف له رجل الشرطة بالمرصاد » .

والذى يشكوه الكتاب ، والصحف والكتب « ليس هو قيام الرقابة ، ولكن مقدار ما تعطيه الرقابة لحرية العمل وحرية الفكر والكتابة من رحابة » .

الحلال بيّن والحرام بيّن ، ولكن الأمر يختلف من رقيب لآخر ، وكثير من الرقباء فيهم كثير من سعة الفكر ، والكثير من النبل .

المصادر

١ـ «قصة العربي كيف نشأ» العربي : ٨ / ١٩٥٩.

٢ـ «الصحافة : انحرافات تذهب بسمو الرسالة» العربي: ٤/ ١٩٦١.

٣ـ «حرب أم سلام» العربي: ١٠ / ١٩٦١.

٤ ـ «يومان: يوم للاعلام ، ويوم للوقاية من العمى» العربي: يونيو ١٩٦٧.

٥ـ «الرأى العام : صار بضاعة تصنع فى الناس» العربى سبتمبر ١٩٦٧.

٦ـ «البروباجندة: لفظ برىء صاف كالماء فى الزجاج ، تدخله السياسة فيتلون» العربى : ديسمبر ١٩٦٧.

٧ـ «القبعة تغيرت وظل الرأس واحدا ، شهر انتظار واصطبار وترقب» العربى : أبريل ١٩٦٩.

٨ـ «الكتاب العربى: سبب التخلف الحضارى والتخلف العلمى والتكنى فى روضة أو مدرسة أو جامعة» العربى : مايو ١٩٦٩.

٩ـ «١١ عاما من حياة العربى» العربى: يناير ١٩٧٠.

١٠ ـ «هذا شهر حزيران» العربى: يونيو ١٩٧٠.

١١ ـ « اسموه إعلاءا ، وما هو إلا مواصلات بين أرواح وأفهام .. من بعد مواصلات بين أجسام وأجسام» العربى: ديسمبر ١٩٧١.

١٢ـ «عصر الضياع .. إنها حيرة الشباب فى كل عصر» العربى: يناير ١٩٧٢.

١٣ ـ «حرية الصحافة» العربى: مارس ١٩٧٣.

١٤ ـ «الكتاب العربى بين أمية فاشية ، وقرصنة باغية» العربى: أبريل ١٩٧٢.

١٥ ـ «للجدل آداب لابد من إحيائها» العربى: فبراير ١٩٧٣.

١٦ ـ «الدعوة ، الدعاية ، الإعلام ، البروباجندة» العربى: مارس ١٩٧٣.

١٧ ـ «حرية الفكر فى سلام وفى حرب» العربى: مايو ١٩٧٣.

١٨ ـ «اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر» العربى : أبريل ١٩٧٤.

الباب الثالث

القـدرات والآثار الأدبيـة
للدكـتـور أحـمـد زكـى

الفصل الأول

نظرة على مكانة الدكتور أحمد زكى
فى الأدب العــــربى المعـــاصــــر

كان الدكتور أحمد زكى ـ رحمه الله ـ كاتبا غزير الإنتاج ، وكانت كتابته فى العلم وفى غير العلم نموذجا رائعـا للكتابة الأدبيـة التى تعتمـد على المعانى فى جوهـرها ، وعلى البيان فى عـرضها ، كـما تستعين بالبديع على بيان المعانى ومعانى البيان.

وليس من شأننا هنا أن نـحصى للقارىء عدد مـقالات الدكتـور زكى لنثبت له مدى غـزارة إنتاج الرجل ، ولكن الباب الرابع من هذا الكتاب «الببليـوجرافيا» سوف يقوم بهذا الجهد خيـر قيام وسيجد القارىء فـيه القـوائم الطوال التى تحاول أن تحصـر إنتاج الرجل وتحـاول قدر الطاقـة أن تجد إلى ذلك سبيلاً.

على أن المؤلف لا يزال يعتقد أن تقدير المرء (عالما أو أديبا أو سياسيا) لا يقاس بمقدار ما أنتج ، ولا بنوعية هذا الإنتاج فحسب ، وإنما ينبغى أن يقاس الكم والكيف (أو المقدار والنوعية) فى ظل المقارنة مع المعاصرين ، فإذا كانت الحال مع أحمد زكى وجب أن ننظر إليه ضمن نظرة أكثر شمولا تحيط بالآثار الأدبية والعلمية والفكرية لمعاصريه .. فلنحاول إذاً أن نوازن بين أحمد زكى وأعلام المعاصرين:

أولا: ففى المجال العلمى كان الدكتور زكى مع مشرفة باشا علمين خفاقين من أعلام العلم الحديث فى مصر ، وكان ا لرجلان يؤمنان بدورهما الرائد ، ويريان أن الكتابة للجماهير من الواجب عليهما ، وقد أتيح لأحمد زكى أن يعيش بعد وفاة مشرفة ربع قرن وشهوراً ، فلا محل للمقارنة بين الإنتاج الغزير للدكتور زكى وبين الآثار القليلة (نسبيا) للدكتور مشرفة ، ولا أظن أن المتوسط الحسابى يغنى فى هذا ، فقد كانت معدلات الإنتاج الأدبى والفكرى مختلفة عاما بعد عام ، عند كل من العلمين ، وليس هذا ـ هو ما يعنينا ، إنما يهمنا أن نركز على طبيعة الإنتاجات الفكرية لكل منهما ، فعلى حين كان أحمد زكى يوجه الشطر الأكبر من اهتمامه إلى تبسيط الثقافة العلمية ، وعرض العلوم الطبيعية على الناس ، والبحث والتنقيب عن تلك الموضوعات التى تحتمل هذا العرض ، فإن مشرفة كان معنيا بالكتابة فى القضايا العلمية الكبرى التى ترتبط بعلاقات العلم بالحياة ، والدين ، والأخلاق ، والقومية ، واللغة العلمية ، والصناعة ، والبحث العلمى ، والحياة العامة.

وليس فى هذا غرابة إذا ما تأملنا مثلاً المواقع الوظيفية التى شغلها الأستاذان ، فأحمد زكى قد تولى مسئوليات تنظيم العلاقة بين العلم والمجتمع ، والتطبيق العلمى فى الحياة العامة فى مصلحة الكيمياء ، وفى مصلحة الصناعة ، وفى مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث ، فكأنما كان يتمم واجبه العلمى الذى تأهل له بالشرح والتحليل ، وهو فى كتاباته كان وكأنه يشرح لطلبة أوسع عددا ، ويشرح فى عبارات أبقى على الزمان.

على حين كان الدكتور مشرفة مسئولاً فى المقام الأول عن تخريج تلاميذه فى كلية العلوم التى ظل أستاذاً بها وعميدا لها إلى أن انتقل إلى الحياة الآخرة ، وكان له حظ المشاركة فى اللجان والمجالس التى تنظم تلك العلاقات العلمية ، ولكنه فيما يبدو لم يكن سعيدا بما تنتهى إليه تلك اللجان مع طبيعة البطء التى تسود أعمالها ، ولهذا فإنه كان يحاول أن يكّون الرأى العام ، وأن يوقظ الرأى الخاص بأفكاره وآرائه.

وقد لا تكون هذه النظرة إلى طبيعة الفروق بين الكتابتين كافية لتفسير الموقف مائة فى المائة ، ولكنها على كلٍ حال تستطيع أن تلقى الضوء على أكثر من خمسة وسبعين فى المائة منه.

أما الجوانب الأخرى لهذه القضية فقد تعود إلى انشغال مشرفة فى وضع الكتب المدرسية العديدة التى لا تزال تمثل المرجع الأول فى الرياضيات بكل فروعها ، على حين لم تكن علوم الكيمياء قد لاقت ذلك الاهتمام الواسع فى مراحل التعليم العام حتى وفاة الدكتور زكى فى ١٩٧٥.

وقد تعود هذه الفروق أيضا ، بل إنها بالتأكيد تعود ، إلى تلك القدرة الهائلة التى كانت للدكتور زكى فى الاستيعاب والتحليل والشرح على هذا المستوى المتوسع من الثقافة العلمية وتاريخ العلم للجماهير ، على حين كان الدكتور مشرفة مشغولا ومأخوذا بتفسير وفهم التطور الذى حدث للعلوم فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين ، وفيما قبل النسبية وبعدها.

ومع هذا كله ، ومع غيره فإنك لا تستطيع إلا أن تثبت أن العلمين كانا يتمتعان بطبيعة متشابهة فيما يكتبان من أدب : صدقا ، ورقة ، وروعة بيان ، ودقة وصف ، ونقاء قلم ، وبعدا عن الأغراض ، والتزاما بالحقيقة مهما تكن.

ولا ينكر المؤلف أنه قبل أن يكتب هذا الباب قام بمراجعة ما كتبه من قبل فى الباب الخاص بقدرات مشرفة البيانية فى كتابه «مشرفة بين الذرة والذروة» فوجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه حين أدرك أنه لو تناول أحمد زكى من الزوايا التى تناول بها قدرات مشرفة البيانية لجاء هذا الباب صورة أخرى من الباب الذى كتبه من قبل عن مشرفة ، ولهذا فقد أخذ المؤلف نفسه بمنهج آخر فى تناول الدكتور زكى ، يتلاءم مع الجوانب الأخرى فى شخصية عالمنا.

❑

ثانيا: وفى مجال الكتابة عموما فإنه لا يسعنا على سبيل المثال مع احترامنا لمجموعة كتابنا الأدباء الكبار وفى مقدمتهم الأستاذ العقاد والدكتور طه حسين إلا أن نسأل: أيهما كان أجدى على الثقافة العربية ؟ تلك المقالات التى كتباها فى تأييد هذا الحزب أو ذاك الزعيم أو مهاجمته ، أم تلك التى كتبها الدكتور زكى فى قصة اختراع ، أو شرح دورة حياة ، أو مكافحة ميكروب ، أو ترسيخ مفهوم علمى ، أو تبسيط فهم صناعة من الصناعات.

وقد قلت فى سؤالى «الثقافة العربية »، خروجا بالقارىء إلى الإقرار بفضل الدكتور زكى فى هذه الناحية ، ولا أظن الأمر يختلف كثيرا إذا ما قلت الأدب العربى ، غير أنى فى هذه اللحظة سأواجه الذين يقولون بفضل المعارك الأدبية ، ولكنى أعتقد أنه إن كان للمعارك الأدبية أثر إيجابى ، فإن هذه

الإيجابية تتضاعف إذا جاءت المعارك بعد مستوى من التقدم الفكرى والسياسى لا قبل هذا التقدم الذى لا يقوم ولن يقوم إلا على العلم. والمعارك شأنها شأن كل عناصر الحضارة سائرة إلى التقدم مع مرور الزمن ومرور العلم .. ولهذا فإنا لا نجد حرجا من أن نقول إن فضل أحمد زكى ومشرفة وزملائهما على الأدب العربى بما كتبوا من مقالات علمية ، أضافت إلى أدب العربية وقاموسها اللغوى ما يفوق فضل أعلام الكتاب فى مقالاتهم السياسية التى تركت العقول غير الناضجة فى حالة تشكك لا تقبل لها بديلا.

❑

ثالثا: على الصعيد الفكرى لا نستطيع أن نضع أحمد زكى من ناحية كونه فيلسوفا فى المرتبة السامقة التى نضع فيها الدكتور محمد كامل حسين مثلا ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن السبب فى هذا كان أنبل من الغاية ذاتها. ذلك أن الفكر الذى أخرجه الدكتور زكى لمجتمعه لم يكن من ذلك النوع الفلسفى دقيق الفهم ، غزير المعانى والنتائج والمقدمات على النحو الذى نلقاه مثلا فى «التحليل البيولوجى للتاريخ» أو «وحدة المعرفة» أو «الوادى المقدس» ، ولكنه كان من ذلك النوع الذى يرتبط فيما يستهدفه بمرحلة محدودة من الزمن هى الحاضر الذى عشناه ، والمستقبل القريب الذى نؤمله ، ولهذا كانت كتابات الدكتور زكى فى الجانب الحى من الحياة من الحياة ، وفى ملاحقة الأحداث ، والأزمات العربية والدولية (وخاصة أزمة فلسطين ، والظواهر الاجتماعية والمشكلات الناجمة عن التحولات .. إلخ).. سواء فى هذا مقالاته فى الصحف عامة وفى الهلال وفى افتتاحيات العربى بصفة خاصة.

لهذا كله وبهذا كله كان أحمد زكى مصلحا ، وكانت له فلسفة فى الإصلاح ، وكان إصلاحه يستقى معظم كيانه من الفلسفة ، ولهذا كان قولنا إنه لم يكن ولم يشأ أن يكون فيلسوفا من أصحاب الفلسفات العميقة ، لأنه اتخذ الفلسفة سبيلا إلى الإصلاح والعلاج ، وليس على الطبيب الذى يعالج الحالات البسيطة أن يستعمل المركبات الدوائية المعقدة التى لا حاجة إليها ، لهذا كانت بساطةالفلسفة التى اتخذها أحمد زكى سبيلا إلى الإصلاح ، ولو أنه اتخذ الفلسفة سبيلا إلى الفلسفة لنبغ وبرز فى هذا المجال ، ولكن السبب فى هذا كان كما قلنا أنبل من الغاية نفسها.

وأنا لا أدافع عن أحمد زكى بهذا ، فإن كلامى نفسه يقول إنه فى هذه الناحية أعظم من كل دفاع ، ولكنى أبغى توضيح حقيقة أرادنى الكثيرون من زملائى أن أوضحها لهم ولغيرهم حين وجدوا تفكير

محمد كامل حسين الفلسفى وكأنه قمة ليس إلى المقارنة بها من سبيل ، وسألونى هل كان عند مشرفة وأحمد زكى انتاج فكرى من هذا النوع ، ولا أظنهم يجدون هذا الطراز عند أحمد زكى أو مشرفة ، وليس فى هذا ما يقلل من قدر فلسفة مشرفة أو فلسفة أحمد زكى أو فلسفة على إبراهيم ، كما أنه لا ينقص من قدر كامل حسين ألا يجدوا عنده من هذا الطراز الذى أفاض فيه أحمد زكى من عطائه تبسيطا للثقافة العلمية ، وتفكيرا بالعلم فى نواحى الحياة الاجتماعية ، ذلك أن السبب فى هذا ـ وأكرر ـ أن السبب كان أيضاً أنبل من الغاية نفسها.

وهكذا يتضح لنا إلى أى حد كان أحمد زكى فى عصره الزاهر وبين هؤلاء الأقطاب الأربعة ، ولا أظن أننا فى حاجة إلى أن نقارنه بعد ذلك ببقية الأقطاب ، إلا إذا ذكرنا له من الفضل بإنشائه العربى ما يوازى فضل صديقيه الكبير أحمد حسن الزيات بالرسالة ، وأحمد أمين بالثقافة ، أقصد فضل نشر الثقافة بالصحافة ، وأن تكون هذه الثقافة ذات رسالة عليا ، وأن تمتد آثارها ما امتد اللسان العربى ، وأن تستقى مواردها من كل منهل ، وفى هذه الخاصة الأخيرة فإن أحمد زكى بلا شك وبلا جدال وبلا محاجة كثيرة قد فاق الأحمدين الآخرين. وليس هذا محلاً لتفصيل القول فى طبيعة فضل «العربى» على أختيها السابقتين (الرسالة والثقافة) وبخاصة أننا تناولنا هذا المعنى فى الباب الأول بفقرات مفصلة.

❑

ومع أن ترجمة الآثار الأدبية المكتوبة فى لغات أخرى ليست من المجالات التى يضع التفاضل فيها صاحب السبق فى الصف الأول ، إلا أننا مع ذلك لا نستطيع أن نتجاهل فضل أحمد زكى حين ترجم «غادة الكاميليا» و«جان دارك» ، وأعتقد أن هذا الفضل يضاف إلى أحمد زكى مع أفضال أخرى فى نفس القائمة التى وضعته فى الصف الأول بين كتابنا الكبار ، وأحمد زكى فى قصصه ليس رجل العربية الأول ، ولكنه مع ذلك من رجالها الأوائل ، وإنى لأعجب لأولئك الذين ذهبوا يبحثون عن ريادة القصة القصيرة كيف يغفلون الإشارة إليه وإلى قصص «بين المسموع والمقروء» ، غير أن عجبى هذا يتلاشى عندما أجد البيليوجرافيات المصرية للقصة تغفل قصص الدكتور زكى وكأنه كان واجبا عليه حين نشر هذه القصص فى الدوريات أو فى الكتاب أن يكتب قبل عنوان القصة أنها قصة حتى لا يتجاهلها نقاد الأدب والببليوجرافيون وهم يظنون أنها مقال ، ومن ثم لم يعرفوا للرجل أياديه فى هذا المجال.

وسوف نتناول في الفصول المتتالية من هذا الباب بعض القصص بقدر يسير من التفصيل والتحليل والنقد ،ولن نغفل أيضًا بقية القصص التي لن تتناولها فصول هذا الباب بالتفصيل وإنما سنعرض لها على نحو سريع يعطي ا لهيكل العام في القصة ، والهياكل الخاصة الأخرى التي نود استلفات النظر إليها بما يتسق والفكرة من هذا الباب الذي نعرف فيه بآثار أحمد زكي الأدبية.

لعلي استأذن القارىء أن أكتفي بهذا ، مشيرًا إلى أن للدكتور زكي عدد آخر من القصص المنشورة ضمن منشوراته في المجلات ، منها «المطلقة» (الهلال: ٧/ ٤٩)، وهي قصة قصيرة تتناول في تحليل عميق لحظة الطلاق وشعور المطلقة في هذه اللحظة ، و«وصاحت صيحة أخيرة : بالله كل الأحزان إلا حزني هذا ، وكل الوجائع إلا وجيعتي هذه ، ويزيد في وجيعتي أنها من صنع يدي. فأنر لي الطريق يارب الأنوار جميعا . ارفع فتيلا في سراجي ليخرج منه النور ساطعا ، فقد عمشت عيني ، واختلطت عليها المسالك».

ولا ينبغي لنا أن نغفل الإشارة إلى القصص العلمية التي روى فيها الدكتور أحمد زكي أبرز النقاط التي تحول عندها مسار العلم الطبيعي والبيولوجي وقد بدأ عالمنا خطواته في هذا الاتجاه منذ مرحلة مبكرة ، ومن قبل أن يترجم كتاب العلامة الكبير كونانت عن المواقف الحاسمة في تاريخ العلم ، أو كتاب أستاذه جافي عن قصة الكيمياء . وإن كانت هذه القصص قد جاءت ، من ناحية أخرى ، بعد ترجمته قصة الميكروب على صفحات الرسالة على مدى سنوات متصلة.

الفصل الثانى

بعض الخصائص الفنية فى أسلوب أحمد زكى

نستطيع أن نشير فى سرعة وإيجاز شديدين إلى أن أهم هذه الخصائص (فى نظرنا ، وبعد دراسة مستفيضة لتطور هذا الأسلوب) تتمثل فى تطوره مع الزمن من **دقة اللفظ إلى سلاسة اللغة، ومن إحكام اللفظ إلى تعبيريته ، ومن تقليدية التركيب إلى دقة البناء..**

هذه الأمور الثلاثة تعطينا المؤشر الواضح عن طبيعة أثر الزمن فى أسلوب أحمد زكى.

أما الرصانة فهى فيه بادىء ذى بدء ، وعودا على بدء ، والجمال فيه جمال الشباب ثم جمال الشيخوخة ، والعلم فيه علم الشاب المحصل ثم علم العالم الشيخ المحنك ، ولكننا مع هذا نود أن نطلع القارىء على بعض فقرات من مقال الدكتور زكى «ماذا أفدت من الإنجليز» الذى كتبه قبل وفاته بخمسة وثلاثين عاما، ثم نترك للقارىء أن يعود إلى أى مقال من أحدث مقالات الدكتور فى مجلة العربى المتاحة فى معظم بيوتنا ومكتباتنا.

هذه بعض فقرات من المقال القديم عن الإنجليز:

«كنت فى القطارأنتظر تحـركه . وكان مقـعدى فيـه وثيرا ، ومس هواؤه وجهى ويدى دافـئا لذيذا. وزاد فى لذاذته تلك النظرات التى كنت ألقيها عـبر النوافذ المغلقة لأستشرف ما وراءها فـيحجبه عنى بخار متكاثف على زجاجـها يحدث عما وراءه من برد قارس شديد .. ومددت يدى أمسح زجاجها فتـبين فى الضباب السـائد أشباح الرائحين والغـادين من رجال ونساء وعـمال يسيرون فى اخـتلاط ، وزئاط فى هذا الجو المعتم البليل ، وقد زاد البرد فى وزن ملابسـهم كما زاد فى سرعة خطاهم. وكان الوقت ضحى ومع هذا أنارت المصـابيح فى سماء المحطة الفـسيحـة. وجاءت فتيـات حسناوات فى ملابس واحدة تشـق بين الناس ، وتجر أمامها عـربات خفيفـة عليها الفناجين والفطائر وقـد تصاعد بخار الـشاى من أباريقـه ، فسطعت نفـحاته فى العين بأحـسن مما تسطع فى الأنوف. وصـفر الصـافر فتـحرك القطار فمـشى دبيبا ، ثم خـببيـا ، ثم انطلق مسرعـا إلى العراء الواسع فلم يبلغـه إلا بعدحين طويل. فقلت :إلى اللقـاء يا لندن ، لقاء غريب ما سلم حـتى ودع. غريب أشعت فى نفـسه الإجلال والإكبار لا الحب والهيام ، فحب المدن غير حب العذارى ، لا تقتل فيه النظرة العابرة الأولى».

«ومضت بنا فى القطار الساعة تلو الساعة ونحن نتجه شمالا إلى الريف. وأخذت أبحث عن هذا الريف فيما انكشف من الأفق فلم أجد شجرة قائمة أو عود نبت يهتز. ووجدت الطبيعة قد تعرت من كل شيء، والأرض قد نزلت عليها عناصر الأجواء القاسية كمـا ينزل الجراد فمسحتها مسحا من كل أخضر ، فـتراءت واحدة اللون سوداء تتـقسمها أسـيجة كثيرة متلاقيـة كرقعة الشطرنج، تقـوم عليها لتحـرس غير مـحروس ، وتخفـر شيئـا غير مـوجود. فكانت كأرض عـاد وثمود. وانتـصف النهار ، واكتهل ، ولم تظهـر للشمس شعاعة. وخيم الظلام عـصرا فحسبت بالساعـة خللا. فقلت فى نفسى هذا بلد القحط والبرد والظلام لا يعيش فيه وخوم كسلان».

«فهـذا ما تعلمته فى هـذا البلد الكبير. بل هو أجل مـا تعملته : العمل وقـدسيتـه ، العمل الكامل الشامل الذى يتجه إليه المرء بقلبه ثمنا لقوته ، وأداء لواجب حياته. العمل الذى يستغرق أكثر ساعات النهار. العمل الذى لا يأذن فى العام إلا بإجازة تتراوح بين الأسـبوعين والأربعة. العمل الذى اشترك فـيه من السكان الجنسـان فيـصـبح به إنتاج الأمة إنتاجين ، وثروتـها ثروتين. العـمل الذى لا يطلب الكفاف ، بل ما وراء الكفاف ليرتفع بالعيش عن مستوى البهائم. العمل الذى أساسه «ذل مَنْ قنع ، وعز مَنْ طمع». العمل الذى يـقوم به صاحبه دفاعـا عن أسرته فى تنافس الأسر ، ودفاعـا عن أمته فى تنافس الأمم. العـمل الذى هو مطمح الرجولة والأنوثة على السـواء ، مطمع الإنسان الذى يسـتكمل كونه يؤدى به رسالته فى هذا الوجود على ابتهام الغاية واحتجاب الغيب».

«والعمل الكثير المتلاحق على هذه الصورة العامة لابد له من النظام ، فتعلمنا إلى جانب العمل النظام.. تعلمناه فى المنزل ، متابعة لأهل المنزل فى قيامهم وقعودهم وطعامهم وخروجهم ودخولهم ، وتعلمناه فى الجامعة ، مسايرة لأهل الجامعة فى الدرس والرياضة والحفلات. وفى الملاهى تعلمنا الوقوف على الأبواب فى الطوابير ، ووقف فيها معنا الكبير والصغير. وتعلمنا الوقوف عند أعتاب الترامات ومواقف السيارات ونوافذ التذاكر فى المحطات. والبيئة المنتظمة يُنظم مَنْ دخل فيها غصبا خشية أن تفوته القافلة ، ثم يصبح الغصب عادة سهلة. ومع النظام تعلمنا قراءة الساعات ، نقرأ عقاربها الكبرى بمثل ما نقرأ عقاربها الصغرى ، ونعنى بالدقائق عنايتنا بالساعات ، وذلك فى تقدير الزمن وإنفاقه ، وفى تحديد المواعيد والبر بها».

«والعمل يقتضى حسن المعاملة ، فتعلمنا حسن المعاملة وآداب اللياقة. فالإحسان يُشكر ولو جاء من خادم يؤجر. والإساءة يُعتذر عنها ولو إلى أفاق فقير. ولكل كتاب جواب .. وساعد على حسن المعاملة تقارب ما بين الأفهام فى بلد ديمقراطى عمه التعليم. والتعليم يعرف المرء قدر نفسه وقدر غيره ، فهو لا يبالغ فى تناسيها. والتعليم إذا عمّ الأحقاب ساوى بين الطبقات من الوجهات الاقتصادية تساويا كبيرا . وعلى هذا التساوى ، أو إن شئت التقارب فى الماديات ، والتقارب فى العقليات ، تقوم الديمقراطيات ، وإلافهى دكتاتوريات متشعبة الرءوس تتزيا بزى الديمقراطية لأنه زى جميل خداع يسهل على الطغاة قيادة الأمور. ففى هذا البلد الذى نصف صغُرت الطبقة الفقيرة الجاهلة التى ينعتونها بالدنيا صغراً نسبيا كبيرا وصغُرت الطبقة الغنية صغرا نسبيا كثيرا. وتضخمت الطبقات المتوسطة تضخما عظيما كما تتضخم نواة الخلية فتملؤها. فعلى هذه النواة الضخمة ، على هذه القاعدة العريضة قام صرح الحكم ، وصرح النظام ، وصرح الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، فلم يكن من المستطاع إلا أن يكون صرحا شعبيا دستوريا. وكان على ضخامته فيه اتزان لاتساع قاعدته ، فلم يخشوا عليه العوادى. وأمنوا عليه فلم يعنوا بوصفه وتحديده بألوف المواد ومئات القوانين ، حتى القوانين التى تصفه اختاروا لها الثوب الفضفاض الذى يتسع لآراء كثيرة مما تحتمله الرءوس العاقلة فى الظروف المتغيرة الكثيرة. وقد يجدون فى هذا الصرح الضخم على الزمن تصدعا فلا يرتاعون له ، وإنما يجمعون له المعاول والفئوس ليصلحوه فى تؤدة على أسلوب الزمان الجديد بما لا يتنافر كثيرا مع الأسلوب العام للبناء القديم ، ويسهل عليهم إصلاحه لأنهم هم بانوه».

يدرك أحمد زكى أسرار المقالة إدراكا لا سبيل إلى الإحاطة بكل جوانبه ، فهو منتبه إلى صياغة المقال لابد أن تعتمد على التنويع ، وخصوصا إذا كان فى المقال بعض الوحدات المتكررة ، لهذا فهو لا يمضى على نمط واحد فى مقاله ، وإنما يتنقل بين الوسائل المختلفة التى تعينه على بلوغ غايته.

وأحمد زكى يدرك هذا الخلق منذ بدأ الكتابة ، كما قد أدركت من مطالعة تلك الفقرات الطويلة التى نقلناها عن مقاله «ماذا أفدت من الإنجليز» ، ولكنه كان مع تقدم الزمن وتراكم الخبرة يزداد قدرة على تحقيق هذا التنويع. وهو فى هذه التنويعات لا يخطىء اختيار القالب للفكرة ، بحيث يظهر براعة أخرى فى التوفيق بين الفكرة وقالبها ، أو الفقرة وقائلها.

وقد كان فى نية المؤلف ـ بل فى مسوداته ـ أن يعرض للقارىء أمثلة من هذه القدرة لأحمد زكى ، ثم وجد أن الإشارة إليها فحسب بعد هذا التنبيه خير وأولى ، اختصارا وتقديرا.

وقد يؤخذ على مقال أحمد زكى ، إذا ما قيس بمعايير الزمن الحاضر ، إفراطه فى الإطناب فى كثير من الأحيان ، وبخاصة فى تفسيره للموضوعات العلمية ، والواقع أن مرجع هذا إلى طبيعة المعلم فى الرجل ، تلك الطبيعة التى تحمل صاحبها ـ حتى من دون أن يدرى ـ على أن يبذل الجهد والجهد حتى يصل إلى إفهام أدنى المتلقين عنه ، فى الوقت الذى قد يعبر فيه بعض النجباء من القراء (أو المتلقين) عن ضيقهم لهذا الوقت الضائع.

❑

وعبارة أحمد زكى واضحة ، فإن لم تكن واضحة للوهلة الأولى ، فهى واضحة من اللحظة الثانية ، وكل عباراته لا تحتاج لحظة ثالثة كى تتضح عندها.

أما لماذا كانت بعض هذه العبارات أوضح فى الثانية من دون الأولى ، فذلك راجع إلى طبيعة أخرى فى أسلوبه تتعلق باستعماله للألفاظ ، فقد يكون اللفظ غريبا أتى به أحمد زكى ليجرى على ألسنة الناس ، وقد يكون اللفظ نفسه معبراً عن معنى غريب عن أفهام الناس فإذا هم يقرءونه عند أحمد زكى للمرة الأولى فى قراءاتهم ، فتكون الغرابة عندئذ غرابة العلم الجديد ... وهكذا...

إلا أننا مع ذلك كله لا نستطيع أبدًا أن ننكر وجود نسبة لا يستهان بها من غرابة الأسلوب أو قل اختلاف الأسلوب فى أدب أحمد زكى ، وقد نتعرض لها بشىء من التفصيل فى موضع آخر.

وأحمد زكى يدقق فى اختيار العناوين التى يضعها لمقالاته وهو لا يلزم نفسه بعدد للكلمات لا يتعداه العنوان ، وإن كان مع ذلك يدرك أهمية الاختصار فى العنوان لهذا تجده هو نفسه فى الفهرس (سواء فهرس العدد ، أو الفهرس العام لمجلة العربى) يختصر العنوان الطويل.

والإثارة فى عناوين مقالات أحمد زكى لها طابع خاص فهى إثارة صادقة لأنها تحمل للقارىء الشىء المثير والموجود فعلا ، وذلك على عكس الإثارة الكاذبة التى قد تشد المرء إلى شىء ما «حتى إذا جاءه لم يجده شيئا».

ومع تطور الزمن ومساعدة تكنيك العصر بدأ أحمد زكى نفسه يضع العناوين الفرعية فى مقالاته فى مجلة العربى وكانت هذه العناوين أيضا خير تعبير عن الفكرة التى عنونت لها.

أحمد زكى من قمم الكتاب القادرين على التصويرفى أدبنا العربى الحديث وبخاصة إذا ما تناول حديثه الحواس والمشاعر والأمور الدقيقة والماديات على ماديتها ، ولكن تصويره للمرأة (على سبيل المثال) فى كتاباته ليس فيه هذا العمق الذى تجده عند آخرين من رواد فنون القصص والمسرحيات إنما هو تصوير نابع من الحواس الخارجية إن جاز هذا التعبير ، ولك أن تنظر ، على سبيل المثال ، إلى عباراته حين يصف بعض النساء اللاتى رآهن فيقول:

«رأيت الحواجب مزججة ، ورموش العيون مسودة ، والخدود موردة ، والشفاة معنبة ، والصدور تزينها العقود ، وتزينها النهود ، وعلى المعاصم أساور ، وعلى الأصابع جواهر.. دمية حقا من بعد دمية من بعد أخرى تطلب اللاعب فمن يلعب بها»؟

ألا ترى أن هذه العبارات التى أراد بها التصوير لم تتمخض إلا عن أسلوب لا يزيد على وصف واحد من الفتيان يصف النساء لأخته الصغرى بعد حفل سهرة.

ولكن انظر معى ، من زاوية أخرى ، إلى هذه الصور التجسيدية الرائعة وتكاملها حين يصف المثل الأعلى الذى يتمناه للشباب فى مقالته «يعجبنى الشباب» فيقول:

«يعجبنى الشباب إذا هو استقام واستطال ، ثم انفتل ، عضل مشدود يستطيع أن يرتخى وذراع ممدودة تستطيع أن تنطوى ، ورأس مرفوع ، وصدر مفتوح يستقبل الريح باردة ويستقبلها لافحة ، وظهر عريض يحمل الأثقال ابتساما ، وقدم ككرة المطاط لا تمس الأرض حتى ترد عنها ، ومفاصل كمفاصل الفولاذ أغرقت فى الزيت ، جسم صحيح سليم كالدينار ، إذا ضربته على الرخام رنّ ، له متانة الحديد ، وليس به مسه».

❑

وعلى كل الأحوال فسوف نستعرض مع القارىء - فى فصل خاص - التصوير البيانى فى قصص الدكتور أحمد زكى حيث آثرنا أن نختار عددًا محدوداً من القصص التى كتبها أحمد زكى ونتأمل خصائص الناحية التصويرية الغالبة عليها.

يستشهد الدكتور أحمد زكى بالشعر كثيرا ، ولكنه لا يأتى به إلا فى موضعه الأمثل حتى إنك تجد فى نفسك إعجابا بهذه القدرة على التوفيق بين المعنى والبيت الذى استشهد به ، وقد يتفوق هذا الإعجاب على إعجابك بالبيت أو بالمعنى ، وليس هذا إلا صورة من صور التواؤم العقلى الطبيعى الذى كان من أخص خصائص أحمد زكى والذى ساعده بالتالى على بلوغ هذه الدرجة الرفيعة من روعة الإسناد !

أقول التواؤم العقلى الطبيعى لأن هذا الاستشهاد لم يكن يأتى نتيجة جهد جهيد بذله أحمد زكى فى أى وقت من أوقات حياته ، وإنما جاء كنتيجة طبيعية لكل الجهد الذى بذله أحمد زكى طيلة حياته فى تكوين شخصيته وعقليته والاتساع بمداركها حتى توافقت مع الكون الذى خلقه الله متوافقا مع بعضه بطبيعة الحال.

وكان أحمد زكى قد صرح فى أحد أحاديثه أن أكثر استشهاداته الشعرية من قول المتنبى ، ولكننا بعد النظر فى كتابات عالمنا ، وجدنا أن قوله هذا يحتاج إلى نظر.

ولكن هذا لا يمنعنا من النظر فى طبيعة التوافق الذى وجده أحمد زكى فى نفسه مع شعر المتنبى ، والإجابة عن هذا السؤال قد تحتاج الليالى الطوال ، فأحمد زكى رجل متواضع ، إذا ما قورن بالمتنبى ، وأحمد زكى نال ما تمنى من غير إرهاق لنفسيته ، على حين أن المتنبى لم ينل ما تمنى لحياته حتى بعد أن أرهق نفسه ، وبعدها أرهقت نفسيته حتى كان منه ما يعرفه قراء العربية أجمعون ، وأحمد زكى رجل مدقق ، والمتنبى كان يطلق القول على عواهنه وعلى قوانينه - إن جاز هذا التعبير .. وهكذا ...

ولو أننا ذهبنا نبحث الأمر من هذه الوجهة وهذا المنطق ما أدركنا من الصواب شيئا ، إنما يتأتى لنا فهم جوهر هذه المسألة على الوجه الأكمل إذا ما اتخذنا لها مدخلا آخر فنجيب عن سؤال محدد: بأى من شعر المتنبى أعجب أحمد زكى واستشهد ؟

تسهل الإجابة بأنه أعجب بشعر الحكم ! ولم يكن فى العربية على ما نظن أنسب للمعانى التى استشهد فيها أحمد زكى بالمتنبى من المتنبى.

❑

على أن هذا لا يعنى أن أحمد زكى قد استشهد بالمتنبى استشهاد المضطر ، فقد كان الرجل يحب المتنبى لاشك فى ذلك ، ولا غرابة فى هذا أيضا ، لأنه من البدهى أن الحب والإعجاب بالشاعر لا يستلزمان توافق ا لطباع .. بل ربما يكون العكس هو الأقرب إلى الصواب.

ولا شك أن أحمد زكى كان يميل إلى الحكمة .

وكان ـ رحمه الله ـ يعرف فى نفسه هذا ، وقد وجدنا فى تحليل نصوصه كثيرا من الشواهد ، لعل أبرزها ما كان فى مقدمة مقاله «قلوب كبيرة» حين يقول:

«فى العصر الإغريقى رأى الناس حكيما من حكمائهم يمشى فى الطريق وهو يحمل مصباحا ، والمصباح يضىء ، فسألوه ماذا يصنع والشمس طالعة ؟ فقال: أبحث عن رجل ، عن رجل ذى قلب كبير».

وقد وجد أحمد زكى رجالا لا رجلا واحداً ، ولهذا فإنه ليس بمستغرب ما كان أحمد زكى يفعله بأسلوبه فى أحايين كثيرة حتى يصوغ منه عبارات باقية على الزمان.

❑

أما أقوال الحكمة التى صاغها أحمد زكى فلم يكن ينقصها المعنى السامى أو النبيل أو الجميل أو الدقيق أو غير ذلك من الصفات السامية المتميزة ، ولكن أحمد زكى كان يبتغى لهذه المعانى التى عرضها أن تخلد ولو إلى حين فى عبارات مصاغة على النحو الذى تصاغ فيه الحكم ، لهذا كان أحمد زكى حريصا فى أحايين كثيرة على هذه الصياغة.

أساليب القصر

ووسائل أحمد زكى فى صياغة عبارات الخلود متعددة منها أساليب القصر.

والحق أنى أحس بأن أساليب القصر هذه كانت كثيرا ما تقلق ضمير أحمد زكى بعد أن يكتبها ، لأنه وهو العالم كان يعلم تمام العلم ويدرك تمام الإدراك أنه لا وجود للحقائق المطلقة ، وهكذا كان ضميره كثيرا ما يعود ليحرك قلمه ليضع جملة اعتراضية عقب هذه الأساليب ، بل أحيانا فى

وسطها ، وتكون النتيجة الحتمية أنه قد يذهب بالصياغة التقليدية للحكمة، ولكن تصبح الحكمة أحكم مما كانت.

❏

وخلاصة القول أن أحمد زكى كان يحب الشعر بكل ما يملك من جوارح ، وهو يقول فى ذلك:

«ولم أجد كالشعر مخرجا من ضيق ، وكاسرا لقيد ، ومحطما للأسوار ، ولم أر مثله جناحا يحملك بعيدا عن بيئة لا تلذ ، ووجود لا يحمد ، والحقيقة المرة أو ما يتراءى أنه الحقيقة المرة تطيب فيه وتحلو ، ذلك أن عماده الخيال والخداع والكذب ، وبه تجلس على عرش كسرى ، وتتزوج ابنة فرعون ويكون لك مال قارون ، أو هو يعزف بك عن هذا ويخيل لك فترى مائدة فى رغيف ، وموسيقى الدنيا فى صوت ، وترى النعيم أطيب النعيم فى فقر».

يبين أسلوب أحمد زكى عن تأثر واضح باللغات التى أجادها ، وتكراره للضمائر يعطيك مؤشرا قويا على التأثر بالأدب الإنجليزى ، على حين تأخذ الانطباع بتأثره بالألمانية من تكرار حروف الجر مع كل مجرور ، ومغايرتها ، وتكرار المفاعيل والترتيب بينها ، وهذا ما كنت أحس به على سبيل الإجمال ، وإن كنت أرى نفسى مشوقة إلى إنجاز دراسة موسعة فى هذا الموضوع بالذات إذا ما أتيح لى العمر والوقت.

وكان أحمد زكى يحب شو، ويعجب به ، وكان سعيدا أن عاصره فى إنجلترا ، وفى مقدمة ترجمته لمسرحية جان دارك قال أحمد زكى عن شو:

«حضرته خطيبا وسمعته مجادلا ، وقضيت عقدا من الدهر فى بلده وبين قومه ، فلم أجد بينهم اسما فى عالم الأدب والسياسة ترهف له الآذان كاسمه ، ولا جدلا يهرع الناس لحضوره كجدله ، ولا لسانا أقنع فى النقاش وألذع فى الجواب كلسانه ، ولا فكاهة تنم عن صاحبها كفكاهته..».

أما غلبة روح العلم على أسلوب الدكتور أحمد زكى فأمر جلى ، وروح العلم لا تغلب على روح أدب الدكتور زكى فحسب ، ولكنها تتجلى فى بناء المقال عنده ، وتتجلى روح العلم كذلك فى التدقيق الشديد والأخذ بالمحترزات ، وتتجلى أيضاً فى التخريج استدلاليا كان أو استنباطيا ، وتتجلى قبل ذلك كله فى بدء الدكتور أحمد زكى بالتعريفات حتى حين لا تبدو هناك حاجة ملحة إليها اقرأ مثلاً هذه الفقرة من مقاله «خواطر .. عند الحلاق» حيث يقول:

«وهل تدرى ما الموسى؟ إنه ليس موسى الكليم ، وإنه ليس بسكين وليس بساطور ، ولا هو بسيف ، إنه شىء ذو شفرة تطأطىء لها إقراراً بالسبق شفرات السكاكين والسواطير والسيوف . جرة واحدة من يد الحلاق لا يتحرك لخفتها ونعومتها ونظافتها حتى الهواء ، يحركها فى هذه الرقبة التى أمسك بها بشماله ، وأعمل فيها الموسى بيمينه .. إلخ».

مقارنات الكتب العلمية

كذلك فإن المقارنات التى تأتى فى أسلوب أحمد زكى تذكرنا فى سرعة بمقارنات كتب العلوم ، سواء كانت فى جداول أوفى سطور ، ولنتأمل عبارة أحمد زكى وهو يصف الموسى لو أصاب رأس الإنسان فأدماها بدلا من أن يؤدى وظيفته المعهودة منه عند الحلاق ، هنا يفرق أحمد زكى بين الحالين بوصف الطريق الذى ساره الموسى فى عبارة أقرب إلى علم الطب الشرعى حين يقول:

«هذا السلاح الذى خرج مرة من عادته ، فجرى فى الجلد قائما غائرا وقد عود الناس أن يجرى عليه زاحفا».

الفصل الثالث

إسهامات أحمد زكى فى أدب الرحلات

قد يمكن القول بأن أدب الـرحلات لم يكن من الغايات التى قصـدها أحمد زكى، وأبلغ دليل على ذلك أنه لـو كان من الغايـات لكتب لنا أحمد زكى فى هذا المجـال أضعافا مضـاعفة من واقع رحلاته العديدة والممتدة التى كانت لا يفتأ يقوم بها .

ولكن أحمد زكى مع هذا لم يحرمنا من الكتابة عن رحلاته العلمية، وقد ضمن هذه الكتابات فى تقريره عن مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث : ماضيه وحاضره ومستقبله .

كذلك كتب فى المصـور سنتى ١٩٥١ و١٩٥٢، عن رحلاته إلى ألمانيـا وباكستان والهنـد عدة مقالات منها «الألمان كـالقطط لهم سبعة أرواح»، و «باكستان أمة بنيت بين يـوم وليلة»، و «الهند بعد باكستان» .

أما بلاد الله المكرمة فى الحجاز، فقد شـد إليها أحمد زكى الرحال أكثر من مرة، وكتب لنا فيها ما سنعود إليه بالتنويه بعد قليل .

وقد تعرضنا لحديثه عن هذه الرحلات فى الجزء الأول من هذا الكتاب فى عجالة شديدة .

ويعنينا الآن أن نلتفت إلى علاقة أحمد زكى ببلاد الإنجليز، التى تزوج إحدى بناتها، وكان على صلة مستمرة بالسفر إليها، وكتب عنها الكثير، وبخاصة تحت عنوان «لندن فى الصيف» ما نشره فى مجلة العربى فى أعداد (١٠/ ٦٤)، (٨/ ٦٦)، (٩/ ٦٨)، (٩/ ٧١)، وقبل هذا (٩/ ٤٧)، (١٠/ ٤٧).

وقد فصل الدكتور زكى فى آخر هذه المقالات (العربى : ٩/ ١٩٧١) الإجابة عن هذا السؤال «لماذا لندن بالذات»، فى بداية مقاله . ولكن العبارة التى تعبر عن هذا المعنى فى أبلغ صورة ليست تلك الفقرة من مقال ١٩٧١، ولكنها عبارة جميلة وردت فى مقال للدكتور أحمد زكى سنة ١٩٤١ فى مقال سنقتطف منه فقرات طوالا يصف فيها تحرك القطار من لندن فيقول : «فتحرك القطار فمشى دبيبا ثم خبيبا، ثم انطلق مسرعا إلى العراء الواسع فلم يبلغه إلا بعد حين طويل . فقلت : إلى اللقاء فى لندن لقاء غريب ما سلم حتى ودع . . غريب أشعت فى نفسه الإجلال والإكبار لا الحب والهيام . فحب المدن غير حب العذارى، لا تقتل فيه النظرة العابرة الأولى».

هنا جوهر علاقة أحمد زكى، وتقديره للندن إجلالا و إكبارا، لا حبا وهياما .

ومن هنا قد يبدأ الخيط الأول الذى نستطيع معه أن نفهم طبيعة أدب الرحلات عند أحمد زكى فهو أدب تقديرى لا تقريرى إن صح هذا التعبير وذلك أنه يبحث عن أسباب العظمة المبهرة أو الباهرة قبل أن يصف هذه العظمة، انظر إلى عبارته فى وصف لندن حين يقول : «وعشت فى هذا البلد ما يقرب من عقد من الزمان لم أر فيه مظهر الفاقة المدقعة أبدا لأنى لم أر مظهر الكسل الفاحش أبدا».

هل يمكن لنا أن نسارع الآن إلى القول بأن أدب الرحلات عند أحمد زكى أدب تحليلى قبل أن يكون أدبا وصفيا، وهو نقد علمى قبل أن يكون نقدا انطباعيا وهو يرتفع بعقل قارئه إلى مستوى التقدم، قبل أن يرفع خياله إلى طائرة يركبها إلى البلد الموصوف .

وأحمد زكى يتحدث كثيرا عن بلاد الإنجليز، وعن الإنجليز أنفسهم وهو يصرح بهذا فى أول ما أدركت له من مقالات فى هذه الناحية فيقول فى نهاية حديثه :

«إن حديث هذه البلاد حديث طويل، وما أفدته منها عديد كثير. وحسبى منها سنوات قاربت العشر قضيتها بين الحقيقة والخيال، بين اليقظة والأحلام . وهى أحلام برئت منها على أثر دقة عنيفة دقها رجل على رأسى . جاءتنى هذه الدقة وأنا على الباخرة أهم بالنزول إلى أرض بلدى . وجاءتنى على رأسى من الوراء فتلفت خلفى، فإذا بالدقة من صندوق عظيم حمله حمال، ووجدت الحمال يزعق فى وجهى : «أنت أعمى؟ أعيناك مفتوحتان ؟ ألا ترى؟» فقلت فى نفسى : «لا والله

لم تكونا مفتوحتين، ولكنهما فتحتا الآن». ومضى الآن على عودتى سنوات، ولا أزال أحسب أن الصناديق لا تزال تدق رءوس الرجال، وتدفعها من الخلف.

عبارة أخرى لا أظننى أستطيع أن أحرم منها القارئ بدعوى الاختصار، لأنها تبلور أدق وأروع آراء زكى فى بلاد الإنجليز حين يقول فى مقاله: «على ضفة التايمز» (الهلال: ١٠/ ١٩٤٧):

«إنجلترا بلد يتلبد جوه كثيرا، ولكنه يصحو من بعد غيام، وقد عود هذا أهلها أن يطلبوا الصحو دائما إذا تلبد وجه الحياة وتجهم».

□

ونحن نلاحظ أن الموضوع من تلك الموضوعات التى تتناول لندن وغير لندن من بلاد الإنجليز أو غير بلاد الإنجليز لا يقف عند فكرة واحدة يناقشها وإنما يتحرك أحمد زكى بقلمه طوال الموضوع وكأنه يدير كاميرا سينمائية تركز على أبرز الأحداث فى البلد وحضارته وتحولاته الاجتماعية.. فمن حديث عن أزمة الأجور إلى معاشات التقاعد، إلى انخفاض قيمة النقد، إلى التغيير فى الأوراق النقدية: الجنيه وشلناته، إلى الحياة الاجتماعية والأطباء إلى الحياة السياسية والديمقراطية، إلى الحضارات وعلاقاتها ببعض، إلى الطريق والمرور، إلى أزمات السكن وهكذا.. وفى مواضع أخرى يقارن بعمق بين حال البلاد قبل الحرب الثانية وبعدها، وتعدادات السياحات، وآثار التقدم العلمى والتكنى والصناعى والاقتصادى، وأوضاع أساتذة الجامعات والتعليم الجامعى وأنماط التعليم المستحدثة.

أما الوصف فيأتى فى المحل الثانى، ولكننا مع ذلك لا نعدم نماذج رائعة للوصف الدقيق الذى عودنا عليه أديبنا الكبير، وانظر إلى هذه الصور الثلاث، الأولى يصف فيها الورد على ضفة التايمز فيقول:

«والورد مالت علينا أغصانه من فوق شجرة كانت وراءها، أمالتها ريح رخاء فيها من البرودة ما ينعس ولا يرعش، والورد على التايمز أجمل منه على **غير التايمز لأنه أعز وأنضر**».

والصورة الثانية لأحمد زكى ورفاقه وهم يُحرمون ابتغاء تأدية الفريضة:

«وأقبل الصباح فصحونا، وأفطرنا واستحممنا، ولم نلبس من بعد استحمام ثيابا. إن الذى يلقى الله ليس فى حاجة إلى ثياب. كان علينا أن نلقاه فى جلودنا كما خلقنا الله. إنه الإحرام. وفى لفائف من القطن أحرمنا، ثوبا درنا به حول السيقان والبطون، وثوبا درنا به حول الصدور والظهور. وركبنا السيارات فأخذت تخطف بنا الأرض خطفا بين تلال سوداء ووديان من رمال

الصحراء صفراء، وتنبسط الأرض انبساطا عظيما فأنظر إلى السماء فأقول يارب أين الماء. وذكرت قول إبراهيم: **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**. [إبراهيم: ٣٧].

والصورة الثالثة تصور السير فى الليل فى ساعات السحر إلى المسجد الحرام فى بلاد الإسلام المقدسة:

«ألا ما أحلى السير فى ظلام الفجر والناس نيام، والحوانيت مغلقة، والطرقات فارغة وبصيص النور يشع من هنا وهنا على غير سالك الطريق، ونجوم السماء تطل من السماء ساكنة فتزيد فى سكون الأرض».

هذا وقد سافر أحمد زكى إلى الأراضى المقدسة غير مرة، وكتب عنها ـ كما ذكرنا من قبل ـ كثيرا (الهلال: ٣/ ٥٤، ٨/ ٥٥) وفى العربى بعد ذلك كثير.

بقى أن نشير إلى الناحية المهمة من شبخصية أحمد زكى الرحالة الذى كان يقضى الصيف فى الترحال، بينما هو ميال إلى الوحدة، وقد يكون القارئ قد أدرك هذا الخلق منه فى الباب الأول من هذا الكتاب لكننا هنا نضع أمام القارئ نصوصا كتبها أحمد زكى فى «الجنة التى وعد الصابرون» يعبر فيها عن هذه الناحية من خلقه، حلمه أن يعش فى وحدة:

«فهذا حلمى الذى حلمته، تحقق لغيرى، ولكنه حلم لا يزال حيا، وهو رغيبة لا أزال أحتفظ بها من نفسى حيث المرء بالآمال، وهى أمنية أرتد إليها دائما كلما ساء الحال».

«وأخذت أتحدث إلى نفسى، وتتحدث نفسى إلى، عما يكون لى فيها، أنا وزوجى من حياة ثانية، نبدأ فيها دنيا جديدة، تكون بعد مغادرة دنيا الناس، أشبه «بالجنة التى وعد الصابرون».

الفصل الرابع

أدب التـــراجـــم

لأحمـد زكى بعض الآثار فى أدب التراجم ، خـاصة مع أولئك الذين كان يـبدى إعجـابه ببعض سجـاياهم ، ومن آثاره فى هذا المجـال كلمة رائعـة عن أحمـد لطفى السيـد حين توفى ، وأخـرى فى نهـرو ، ومقال عن ويلز.

ويميل الدكتـور زكى فى تراجمه إلى تأكـيد الصفـة البارزة فى مَنْ يتـرجم لهم ، وقد لا تكون هذه الصفة البارزة هى ما برز عند الناس ، ذلك أن لأحمد زكى مقـياسا خاصا فى قياس العظمات يختلف كثيرا عن معدلات القياس الجماهيرية.

أما التـراجم «الرسميـة» فقد حفظـت لنا منها مجلة الهـلال مقالا له فى عـدد خاص عن «إبراهيم باشا» وهو لا يخلو من طرافـة حين تجد أحمـد زكى يلتفت إلى السمـة المميزة فى حـياة إبراهيم وهى

وجوده وتزامنه مع عهد أبيه محمد على باشا الكبير فلم يُحس به منفردا. وفى هذا المعنى يقول الدكتور أحمد زكى :

«حق لإبراهيم أن يشتكى من أبيه ، مثل اشتكاء القمر من الشمس ، فقد شاء القدر أن يطلع إبراهيم فى سماء مصر فى الوقت الذى طلع فيه أبوه فى سمائها ، وشاء القدر أن يهبط إبراهيم من سماء مصر ، بل بالموت من كل سماء قبل أن يهبط أبوه بالموت منها».

ويفرق أحمد زكى بين العاهلين خير تفريق يمس فيه أبرز وجوه الاختلاف فى أعماقها لا فى ظواهرها ، على نحو ممتع لابد لمحبى الثقافة والمتأملين فى التاريخ أن يرجعوا إليه فى عدد مجلة الهلال (نوفمبر ١٩٤٨).

وأحمد زكى لا يخطىء المدخل إلى تقدير الشخصية ، ونحن نقرأ له فى مقاله عن ويلز حين يتعرض لقصة زواجه وما يوجهه الناس من انتقادات حولها فيقول: «وما كان نبيا وما جاز له أن يكون. كان صاحب رسالة كريمة ، فلبنات أفكاره يجب أن يتوجه البحث والتاريخ لمن أراد بحثا وتاريخا ، أما ما جرى لشخصه فى الحياة ، فلا خطر له فى ذاته إلا بالقدر الذى يتصل بالفكر ويؤثر فى الإنتاج».

وسنقدم للقارىء فقرات مختارة من حديثه عن شخصيتين من اللتين ترجم لهما:

أحمد لطفى السيد

❑ لم يمت فى مصر أحد ، منذ عشرات السنين ، هز العاصمة فاجتمعت على تشييعه بقلوب مؤمنة بما تفعل ، حزينة خاشعة آسفة ، كما اجتمعت يوم جنازته ، على الرغم من الرجل نيف على التسعين.

❑ وبسبب ما أمدَّ الله الراحل الكريم من عمر، لا يكاد الجيل الحاضر ، أعنى الشباب فيهم ، يعرف من سيرة الرجل إلا أنه كان فى ختام حياته رئيسا لمجمع اللغة العربية ،وأنه كان يوما قبل ذلك مديرا لجامعة القاهرة.

ويستخدم أحمد زكى علمه فى تطبيق فكرة «نصف العمر» على حياة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد على الرغم من أن هذه الفكرة لا يمكن أن تطبق فى حياة الإنسان إذ كيف يدرى الإنسان عمره حتى يحسب نصفه ! ولكن لنتأمل ماذا أفادتنا هذه الفكرة:

❑ إن لطفى السيد ولد فى عام ١٨٧٢ ، وتوفى فى عام ١٩٦٣ ، وهو إذاً كان بلغ منتصف عمره فى نحو عام ١٩١٧ ، إذ كان قد بلغ الخامسة والأربعين.

□ وقد كانت العشرة الأعوام التى سبقت هذه السن ، والعشرة الأعوام التى جاءت بعد هذه السن ، هى السنوات الناشطة المثمرة أكبر الإثمار فى حياته . وهذه العشرون من السنوات تقع من عمره بين سن الخامسة والثلاثين وسن الخامسة والخمسين.

□ وهو فى هذه الفترة كان بحق واضع أسس الوطنية الصادقة فى مصر ، وواضع مبادىء الاصلاح فيها ، ومركزها على ركائز هى وحدها التى ثبتت ودامت ، وآتت أكلها على مدى العقود التالية من السنين.

□ فالشباب الذى يعيش اليوم ، إنما يعيش فى أطوار من الحياة جاءت من صنع قوم غابرين ، كان لطفى أحدَّهم فى ذلك قَلَما ، وأصفاهم فكرا ، وألحهًم. فى إيضاح معانى التشقف والتقدم والحرية.

□ لم يكن لطفى رجل جمهور. لم يكن خطيبا. ولم يكن ذا مزاج يثور. وعرف هذا فى نفسه ، ولعله أسف له إذ قال: «إن خير الزعماء إنما هو الزعيم الذى قد يكون من الصفوة المختارة من حيث فكره ، ولكنه يستطيع أن ينزل إلى الجمهور ويشاركه الخامة من عواطفه ، وبذلك يكسب ثقته ، ثم يقوده ، ولو غير واعٍ ، إلى حيث تكون مصلحته ونفعه».

□ كان لطفى يكتب للصفوة أراد هو ذلك أو لم يرد. وكان قرأ للكثيرين من كتاب الشرق والغرب ولحكمائه. قرأ لفلتير ، وقرأ لروسو ، وقر لكونت Conte ، ومِلْ Mill ، ولك Locke واسبنسر Spenser. وقرأ لفلاسفة اليونان ولأرسطو خاصة ، وسلك فى تفكيره ، بناء على خبرته فى ريف مصر (وهو ابن عمدة ابن عمدة) وخبرته فى مدن مصر ، وبناء على ما اكتسبه من لقاء رجال كجمال الدين الأفغانى (قال إن تأثيره فيه كان عظيما) ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول ، وعبد الخالق ثروت وأضرابهم ، وكذلك بناء على ما قرأه لكتاب الغرب ، ممن ذكرنا ، ومفكريه من فرنسين وإنجليز (مترجما إلى الفرنسية) ، بناء على كل ذلك حاول لطفى أن يصوغ لمصر فلسفة خاصة بها ، فى وطنية ، وفى حكم ، وفى استقلال ، وفى حرية ، وفى تعليم ، وفى لغة ، و فى مدنية . فلسفة تستمد عناصرها من تربة مصر ، متمازجة متعاونة مع المدنية الغربية الحاضرة».

ولقد كان من الطبيعى ، وهو قد جعل المنطق الصارم أسلوبه فى التخريج والحكم فيما كان يكتب أو يقول للناس فى العقد الثانى والثالث من هذا القرن ، أن لا ينتفع بكتاباته ومقالاته غير المثقفين ، والنابهين منهم خاصة.

□ لهذا كان لطفى ، فى أزحم سنواته بالجديد النافع من آرائه ، وأكثرها الغريب غير المألوف الذى يماشى العقل أكثر من مماشاته العاطفة السائدة ، كان أبعد ما يكون عن الجمهور . إن الصفوة من شباب ذلك العصر الماضى هم الذين انتفعوا بهذه الآراء. وشبَّوا ، وصاروا من بعد ذلك رجالا وكهولا ،

وكتبوا وخطبوا ، وغيَّروا وجه مصر على توالى السنين. وصاروا فى العصر الحاضر أساتذة. وعندئذ فقط شاع لقب «أستاذ الجيل» تنويها بفضل لطفى الذى كان ، وكاد ينسى ، بحسبانه أستاذ أساتذة اليوم فى معانى الحرية الحقة والوطنية الصادقة غير الصارخة ، ووجوه الاصلاح الأصيل جميعا.

❑ ولقد أذكر فيما أذكر يوم سماعى الأول باسم لطفى السيد. كنا نمر أغلمة مراهقين ، فى أوائل هذا القرن. بذلك الشارع الذى كان يربط بين ساحة قصر عابدين ، وميدان باب الخلق ، بالقاهرة ، فنجد إلى يسارنا قصرا عظيما قديما كأنه بعض مخلفات القرون ، له فناء واسع ، وفى أقصاه بناء عتيق. ويشير إلينا المشير بأن هذا هو البيت الذى تخرج منه «الجريدة» ، لسان حزب الأمة. وأنه على رأس هذه الصحيفة اليومية رجل ذو ثقافة يرى فى الأشياء رأيا غير الذى يراه الناس. ففى صفحات هذه الجريدة صب لطفى كل أفكاره. صبها غزيرة حثيثة متلاحقة كأنما كان الرجل يحس بأن عمر هذه الصحيفة لن يدوم طويلا ، وأن هذه هى النافذة الكبرى التى هيأها له القدر ليطل منها على الناس ، وأنها وشيكا تغلق . وهو قد عاش فى الجريدة ، مديرا لها ، يكتب باسمه ، وأحيانا يكتب ولا يمضى ، فى كل شأن يراه عاجلا ملحاً ، يهدى الناس إلى الطريق الذى يراه هو الطريق القويم ، غير الخادع ، وإن لم يره الناس مثل رؤيته.

❑

ويلتفت الدكتور أحمد زكى إلى مراحل مهمة فى حياة أحمد لطفى السيد وهو يتأملها على نحو بديع متمكن منه بفضل ثقافته وقربه من عقلية أستاذ الجيل.

❑ ولقد عاش لطفى فى الجريدة من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١٥. والحرب العالمية الأولى قامت فى عام ١٩١٤. وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وأصدرت الحكومة المصرية التى كانت تعمل تحت سلطانها قانون المطبوعات. فلما اشتدت الرقابة على «الجريدة» لم يجد لطفى بدا من استقالة. استقال من «الجريدة» عام ١٩١٥ ، وراح يعتكف فى قريته ، قرية برقين بالدقهلية.

❑ استقال لطفى من «الجريدة» ، واعتكف ، ولكن لم يطل اعتكافه. فقد عينوه مديرا للكتبخانة الخديوية (دار الكتب اليوم) ، فكان أول مدير مصرى لها. وفى هذه الدار هدأ. وانصرف يقرأ. وترجم لأرسطو كتبه الشهيرة ، وهى لا تزال إلى اليوم جارية سيَّارة تباع وتقرأ. وهو لم يترجم لأرسطو ترجمة سوق . لقد كانت ترجمة ودراسة معا ، وتفنناً فى اختراع الألفاظ العربية للمعانى الإغريقية مما مهَد له أن يكون رئيسا لمجمع اللغة العربية فى آخر أيامه. واطراه شوقى بما صنع. ومن أجل هذا ارتبط اسم لطفى بالفلسفة ارتباطا وثيقا. وكان لطفى قد قرأ لأرسطو شابا ، وأعجب به

اعـجابا ، ورآه عـقلا جـبـارا فاق كل العـقول فـى كل الأزمان. وكـثيـرا مـا تحدث لطفى (باشـا) فى شيـخوخته ، واقـتبس من أرسطو أقوالا له جـامعة يعزز بهـا مايقول. وكـان الجمع بين ارسطاطاليس والقاف الصـعيـدية يكسب منطقة فى أذن الـسامع طرافة: «كـان المعلم أرسطو يجـول....». وما قلب لطفى قافه العـربية ، إلى جيمه المصرية ، لأنه صعـيدى ، ولكن كانت لغة قريته ، لغـة الدقهلية. وثبت عليها. فقد كان لطفى ، على ثورته الفكرية ، ذا حفاظ على التـقاليد عجيب. تسمع الحفاظ فى لفظه ، وتراه فى ملبسه فى بيتـه. كان خارج البيت مثل الرجل الفرنسى الأنيق ، وكان فى بيـته يلبس الجبة من الحرير الشـاهى ومن حولها الحزام الأصـفر ، فتـحسبه أحـد التجار الأثرياء بخـان الخليلى ، أو بسوق الحمـيدية. وهى بعض مـلابس القرن الذى مـضى. ومن حفـاظه تمسكه بسنن من الأخلاق عـالية ، لا يحيد عنها حتى فى الظروف السياسية القاسية.

❑ وفى الجامعة لقيت لطفى أول لقاء. وكان لقاء أذكره طريفـا. عدت إلى الجامعة أستاذا بها ، عام ١٩٢٨. وحظيت بأن أكون عـضوا فى مـجلس الجامعـة. وكان ذلك بعد غـيبة عـشر سنوات مـتصلة قـضيـتـها بإنجـلترا فى الدرس والـبحث. وشـاءت الظروف هناك أن أكـون فى عـزلة عن أهل بلدى. وعدت أقدَر على التحدث باللغـة الفصحى منى بالعامية. وتحدثت بالفصـحى فى مجلس الجامعة أول حديث ، فـرفعت منصوبا ، أو لعلى نصبت مـرفوعا. ولم ألبث أن استـدركت فصححت. فـصاح بى لطفى (باشا): مـا عليك يا دكتور ، أغلط مـا تشاء ، فالغلط فى النحـو جائز لأهل العلوم ، غيـر جائز لأهل الأدب. فسكتُّ. ثم رأيت الدكتور طه حسين يهمس همسة فى إذن لطفى ، فإذا به يقول لى: لا. لا. من اليوم سوف نعد عليك الخطأ عداً.

❑ كان لطفى فى الجامعة أبا. كان لا يتدخل فى تفاصـيل الأمور. كان أول ما يعنيه المبادىء العامة. وكانت حجرته فى أغلب الأحيـان ندوة يجتمع فيها الأساتذة ويدور فيـها النقاش ، أصفى ما يكون ، وأنفع ما يكون. وكثيرا ما كان نقاشا يذكر به الذاكر ما يتخيَّله مما كانت عليه أكديمية أفلاطون.

❑ وطبَّق لطفى فى الجامعة نفس آراءه القديمة فى حرية الفكر ، وفى تحرير المرأة ، وفى الديمقراطية. وكان من عمله فـتح باب الجامعة للطالبـات . فتحه ، وطلب منا جمـيعا أن لا نذكره فيـثير ذلك ثائرة الرجعيين. قال: إن قانون الجامعة ليس فيه ما يمنع دخول الفتاة. ونعم أن القانون يذكر الطلبة ولا يذكر الطالبات ، ولكن لفظـة التذكير فى اللـغة العربية تشـمل النساء والرجال. فـإذا اجتمع نفـر من رجال ونساء ، قـلنا فى ذكرهم هم ، ولم نقل هم وهن مـعا. ودخلت الجـامعـة أول الأمر قلة منهن ، كـانت السيدة أمينة السعيد من أولياتهن ، ثم كثرن حتى زدن فى بعض الفصول على الذكور.

❑ وحرص لطفى على استقلال الجامعة حرصا كبيرا. وكانت تلك السنوات صراعا بين الحكومة ، ومن ورائها القصر أحيانا ، وبريطانيا أحيانا ، وأحيانا هما معا ، وبين الجامعة.

وكانت إقالة الدكتور طه حسين من الجامعة.

ووقعت الأزمة باحتجاج لطفى على الحكومة. وكانت الثورة الجامعية الشهيرة الكبرى.

ثار طلبة الجامعة وطالباتها ، واجتمعوا فى حرم الجامعة حتى زحموه آلافا. وتعالت الأصوات ، ترددت الهتافات حتى صارت صراخا. وتكهرب الجو.. وظهرت على الأفق بعض مظاهر العنف. ويصيح الصائحون يطلبون مدير الجامعة أن يتحدث إليهم.

كنا فى حجرة لطفى نتشاور ونتداول. وبلغ الاحتجاج الحد الذى وجب فيه على رئيس الجامعة أن يتدخل ، وأن يتحدث ، وأن يظهر فى الجمع الحاشد الصارخ الواقف على الأبواب.

وخشى لطفى مغبة النزول. وكان ديمقراطيا ، يشرع دائما فى المناقشة وأخذ الأصوات ، وينزل على حكمها. ودار علينا يسأل ، أينزل أو لا ينزل. وكنت آخر من سأل. قلت أرى النزول يا باشا. قال أنا رقيق الجسم ولا أحتمل العنف. قلت: لا عنف ، وسنحيط بك إحاطة السوار بالمعصم. وسكت. ثم أخذ عصاه يتوكأ عليها وهو يقول: على بركة الله. وشق طريقه فى الزحام ونحن معه شقا. زحام فى الردهة العليا ، ففى السلم.. فى الردهة الدنيا. ثم خرجنا إلى مزدحم تلك الجموع. ولما توسطها ، طلبوا إليه الحديث ، فتحدث. لم يكن مسمعا. ولكن رضى به مَنْ سمعه ، ورضى به البعيدون على رضى القريبين. وفى أبّان تلك الساعة العصيبة ذرفت العيون دموعا غزيرة.. بينا وزير المعارف يقبع فى حجرته بوزارته ، يتمنطق ، بحجج من البيان زائفة ، ترفعها فتجعل لها مكاناً فى دولة الحق البنادق.

❑

وعند هذا الحد يستعرض الدكتور أحمد زكى ، بحياء شديد ، تجربته هو الشخصية من الموقع نفسه كمدير للجامعة نفسها بعد عشرين عاما ، ويقول:

«لم يكن يخطر لى فى تلك الساعة أنى ، بعد نحو من عشرين عاما ، سأقف وقفة لطفى هذه ، فى مثل منصبه هذا ، فى نفس هذه الساحة ، بين الآلاف المؤلفة من الطلب فى أيام هى أشد أيام الجامعة حرجاً منذ كانت».

ويعود الدكتور أحمد زكى إلى الحديث عن سنوات لطفى السيد الأخيرة:

❑ ومرض لطفى فى سنواته بالمجمع ما مرض ، ومع هذا كان يؤثر الحضور إلى جلساته على ضعف. فإذا انتظم الجمع واحتد النقاش واشتد ، اشتد لطفى على اشتداده ، وظهرت عليه الصحة وظهرت العافية .

....

وخلا المجلس يوما إلا منه ومنى. فقلت له انتهز هذا الخلو لأسألكم سؤالا طالما أحببت أن أسألكم إياه. قال هاته. قلت: إنه فى الفلسفة. قال: ما لها. قلت: إن الرأى عندى أن الفلسفة كانت فى أول أمرها ، فى القديم من الزمان ، تتضمن دراسة الطبيعة التى نعيش فيها والكشف عن قوانينها ، وكذلك دراسة ما وراء الطبيعة ، ثم أشياء أخرى تتعلق بالمعانى الخفية التى تتصل بالعقول والأخلاق. ثم جاءت القرون الحديثة فنزعت من الفلسفة دراسة الطبيعة وخصت بها العلوم الحديثة ، فلم يبق للفلسفة إلا دراسة مواضيع أكثرها الضباب ، لا يهتدى فيها الإنسان إلى شىء ملموس محسوس ، اهتداءه فى علم. ويأتى الفيلسوف ، ويضع لفلسفته نظاما وألفاظا ، ويقضى حياته فى تعريف الناس بهذه الألفاظ وتحديد معانيها. ويخرج الدارس من بعد كل ذلك بشىء لا يوزن ولايقاس ، قد يصح وقد لا يصح ، حتى أصبحت الفلسفة لا شىء إلا مرانا عقليا ، كمران الأجسام ، لا يستفيد الإنسان منه إلا تقوية عضلاته. واستشهدت بقول عمر الخيام فى رباعياته: «إن طالب المعرفة يدخل باب الفلسفة يطلبها ، وبعد لف ، يخرج من نفس الباب خالى الوفاض».

وابتسم لطفى. وسكت يفكر. ثم إذا به يقول ما لم أكن أنتظرمنه: قال: هذا حق.

❑ كان حظ لطفى من أعضاء المجلس ، وهم شيوخ أو قاربوا ، كل هيبة واحترام. لا يقول إلا أخذ كل بقوله. وكل هذا كان عن حب دخيل. حدث مرة أن مر كاتب شهير فرنسى ؟ ، أظنه دوهاميل ، أو لعله غيره ، واضطر لطفى باسم المجلس أن يدعوه إلى حفلة شاى. ولما حضر بلغ لطفى أن الدكتور أحمد أمين يتحفز ليتحدث فى الحفل فينهر الرجل على كلام قاله ظن أحمد أمين أن فيه تعريضا بالعرب. ولم يكن أحد بالمجلس سمع هذا عن الرجل الفرنسى الكبير. بلغ لطفى هذا الذى سوف يكون ، فاستدعى أحمد أمين ، وفى ركن من أركان الحجرة قال له: بلغنى كذا وكذا. ولى عندك رجاء ، أن لا تسئنى هنا فى ضيفى ، وافعل بعد ذلك ما تشاء. ونزل أحمد أمين على التو على إرادة لطفى. وقد كان لطفى لأحمد أمين أبا ، وصديقا ، وكثيرا ما طلبه ليصحبه بعد فراغ المجمع إلى بيته فى سيارته هو ، لا سيارة أحمد أمين.

□ من الناس من نسجوا ثوب حياتهم من خيوط استمدوها من حياة قريتهم. فهؤلاء إذا ماتوا أحست القرية بفقدهم ، وحزنت عليهم. وأدار أهل القرية الأحاديث عنهم فى الأصباح ، وعندما يفرغوون إلى «دوَّاراتهم» أو «دواوينهم» فى الأمساء. وتطول الذكرى.

ومن الناس من نسجوا ثوب حياتهم من خيوط استمدوها من حياة أمتهم.

ومن الناس ، قلَّة ، نسجوا ثوب حياتهم من خيوط استمدوها من حياة الأمم أجمعين. إذا قالوا انصتت الدنيا. وإذا خطبوا أرهفت الدنيا أسماعها. وإذا احتجبوا علمت الأمم باحتجاب. وإن ظهروا بعد احتجاب ، علمت الأمم بظهور.

وهؤلاء صنفان : صنف توجه إليه الأضواء احتفالا بمركزه الحاضر ، أو اعتبارا لقوة أمته. أى صنف قيمته ليست مستمدة من ذاته. ثم يموت. فما أسرع ما تنطفىء من حوله الأنوار.

مثل هؤلاء زعماء أمريكا ورؤساؤها الأحدثون. أهل السياسة فيهم والرياسة.

ومثل هؤلاء زعماء بريطانيا. أهل السياسة فيهم والرياسة.

مَنْ منهم يُذكر اليوم ، ويُذكر، ويحمد ؟ أو على الأصح مَنْ منهم تذكره الدنيا وتحمده. وكم منهم مَنْ خلف طابعا ، على حياة الأمم باقيا على الزمان.

كنت فى باكستان ، فى أوائل ١٩٥٢ ، فدعيت إلى أن أزور الهند.

ورسموا لى خطة أطوف بها مدن تلك البلاد ، أطلع على ما كان بها من بحوث علمية. وقد كنت إذ ذاك مدير مجلس فؤاد للبحوث «العلمية» فى الدولة المصرية (المركز القومى للبحوث اليوم) وكان صاحب ضيافتى فى نيودلهى ، مَنْ كان له مثل منصبى فى الهند ، الدكتور بتناجا ، رحمه الله. وكان صديقا حميما للبنديت نهرو. وكان فزيائيا عظيما.

وكان يوما قضيناه معا فى زيارة معمل الفزياء القومى بالعاصمة الهندية. وفى نهاية اليوم عرض علىَّ أن يكون من برنامجى لقاء البنديت.

وتحدَّد الموعد فكان يوم الأحد ، فى الساعة الخامسة من بعد الظهر. وفى وزارة الخارجية.

وصعدنا السلم، وفى حجرة السكرتير حططنا. وفى الخامسة تماما أخذنى السكرتير إلى الحجرة المجاورة ، فكان بها نهرو ، وحده. كانت حجرة صغيرة جدا لا تنم مطلقا عن مكانة الهند ، ولامكانة رئيس وزرائها ، ولا نمَّ المكتب الصغير الذى جلس إليه .. وقام وسلم ، فى حركة بطيئة وابتسامة حبيبة.

□ وجلست ، وأخذ الحديث مجراه. كانت مصر فى حالة اضطراب ، وعلم البنديت بوجودى ،

فأوعز إلى صاحبه ، صاحب ضيافتي ، أن يراني. كان يريد أن يسمع عن مصر من رجل مثلى ، لا يتصل بالسياسة. فرجل العلم عنده كالمرآة الصادقة ، يرى فيها الصور أقرب ماتكون صحة. فكان هذا الموعد ، فى ذلك اليوم ، يوم الأحد ، من بعد ظهر. وسألنى عما رأيت فى عاصمة الهند. فذكرت من ذلك طرفا. وأطريت. وعلمت صداقته بالدكتور بتناجا فكنت أكثر تفصيلا لمختبر الفزياء القومى. وقلت: ورأيت فى المختبر الموقد الشمسى ، وطبخوا لى فيه طعاما للغداء ، على حرارة الشمس ، وأكلنا. وذكرت أنه لم يكن فيه لحم. فضحك البنديت : وقلت إنه موقد رائع. فقال البنديت: أننا نهدف إلى أن نرخص ثمنه إلى سبع روبيات ، ليكون فى متناول الفلاح الهندى ، يطبخ به ، ويوفر الوقود. قلت: وفلاحونا فى حاجة إلى مثل ذلك. قال سوف أهديكم أول موقد عندما نبدأ بتلك الصناعة. وسألنى: كيف وجدت بتناجا. قلت: رجل عالم ، وإلى العلم لطف وفكاهة. فابتسم البنديت مترقبا متوقعا أن أزيد: قلت كنت أسير معه فى الطابق الأعلى من المختبر ، وكانت الأرضية جديدة ، وهى من الرخام الصقيل ، فكدت أنزلق ، فأمسك بى الدكتور بتناجا. وسألنى: عن نوع الحذاء الذى ألبسه. قلت: إنجليزى. قال: إن كل شىء إنجليزى زلق خدَّاع. فضحك البنديت نهرو طويلا. ثم قال: إن بتناجا لا يفتأ يقسو على الإنجليز وعلمه منهم. ثم انتحى الحديث ناحية أخرى كانت هى المقصودة أكبر القصد.

❑

ويبلور أحمد زكى بعض آرائه المهمة فى شخصية نهرو فيقول :

❑ كان هذا أول لقاء لى بالرجل. كان عندئذ فى الثانية والستين وخرجت من عنده وأنا أذكر فيه أشياء:

فأولا إنجليزيته: كانت لهجة صافية غير تلك اللهجة التى نسمعها من أهل الهند ، تلك التى لو أننا سمعناها وعيوننا مغلقة، لعرفنا أن المتحدث بها هندى.

وثانيا : محضر الرجل. كان المحضر الفخم البسيط. حركته الوليدة ، وكلماته ، وفكرة الحر ، الذى كاد أن يصنع منه إنسانا قبل أن يصنع منه هنديا ، وهيهات..

وشىء أخفى من هذا وذاك. أحسست أنه من أولئك الرجال الذين تجد فى رحابهم الراحة والطمأنينة ، هكذا يسبغونها عليك أسباغا ، كالشجرة العظيمة الظليلة البليلة فى اليوم الصائف.

❑ ووقف نهرو فى مشكلة كشمير وقفته العنيدة المشهورة ، وعلَّل ذلك بحبه لكشمير ، وأن اقتطاعها منه كاقتطاع قطعة من قلبه. وكان له فى الدين رأى ، أن لا تؤسس عليه الدول ، فصلا أو ضمًّا. ونسى واقع الهند وما جره عليها اختلاف الدين ، بل والأديان ، من مآس.

الفصل الخامس

القصص السياسى فى آثار أحمد زكى الأدبية

تعرضنافى الباب الثانى من هذا الكتاب للجوانب السياسية فى فكر أحمد زكى ، وقد أفضنا القول فى كثير من آراء الرجل ومواقفه وتعليقاته على مدى السنوات التى كتب فيها فى أمور السياسة.

وليس من شأن هذا الفصل أن يتناول هـذه الأفكار مرة ثانية ، وإن كـان من شأنه أن يعود إلى تناول أحمد زكى لهذه الأمـور ليصفه بأنه كـان تناولا موضـوعيا ذكيا يغلب الفكـرة على الأسلوب ، والجوهر على القالب ، وهو وصف وإن كان من باب السهل الممتنع إلا أنه فعلا لا يحتاج إلى مزيد من التوضيح أو التعليق ، فقد كان أحمد زكى وقلمه هكذا .

إنما يعنينا فى هـذا الفصل بصفة أسـاسية أن نعـرض بشىء من التلخيص والتعليق لاثنتين من قصص الـدكتور زكـى فى مجموعتـه القصصيـة «بين المسموع والمقـروء» ، فى أولاهما يهزأ أحمد زكى

بـديمقراطيـة الاجتماعات والشكليـات على نحو يتبـدى من تصويـره لجلسة من جلسـات مجلس الأمن ، وثانيتهما يـروى فيها أحمد زكى قصة الرأى الحر كيـف يجر على صاحبه المتاعب فى حيـاته ، وعلى أنصاره بعد مماته ، وكيف تنفض الإرادات السياسية وكيف تنعقد .

□

فأما القصة الأولى فقد صور فيها جلسة مجلس الأمن الدولى لعام ١٩٥٧ ، وقد عطس مندوب روسى فطلب الكلمة ، وطالب بإغلاق المنور الذى فوق المدخل الشرقى للمجلس لأنه يدخل منه تيار هواء بارد يناله فى ظهره .

ويمضى أحمد زكى بأسلوب ساخر يعرض نموذجًا كـاشفًا عن طبيعة المناقشات البيزنطية التى تدور فى اجتماعات مجلس الأمن على أشيـاء لا علاقة لها بالمصلحة العامـة ، بله الواقع ، تلك التى لا تستمـد وجودهـا من الحقـائق السيـاسية لكن من التحـزبـات السيـاسية ، إنما هى إجـراءات شكليـة ، والتعصب قبل ذلك بين الكتلتين الشرقية والغـربيـة واضح ظاهـر للعيان حتى فى أتفـه الأمور، وهذا رئيس المجلس يـرد على المندوب السامى الروسى فيقول : إنه لا مـانع إلا إذا كان هنا معارض . فيرد مندوب الـولايات المتحدة إنه لابد لـه من وقت يشاور فيه حكومتـه ويرجع إليها فى هذا الأمر الذى لم يتح لها وقت كاف لدراسته . واحتج على الطلب بأنه من جانب واحد ، وهذا لا يصح عنده ، ويتمادى فى هـذه الناحيـة فيرد على مندوب روسيا إحسـاسه ويقـول : هل نقبل هذا القـول لمجرد أن أحـد الأعضـاء قالـه . إنى أقول عـن نفسى : إنى لا أحس تيارا فى ظهـرى ولا فى وجهى .

ويتكلم مندوب بريطانيا معززا الرأى الأمريكى ويطلب ـ على عادة الإنجليز ـ تأجيل النظر فى الطلب إلى يونيو أو يوليو فلعله فى هذه الأثناء يكون الجو قد تحسن .

ويرد مندوب بـولندا ، ويعلن باسم حكومته أنه يحس مثلما أحس مـنـدوب روسيا ! ! ويستشهد على صحة كلامهما بقصاصة من النيويورك تايمز .

وتكلم مندوب هولنـدا ، وكان من رجال البنوك فقرر لـلأعضاء أن الحقوق التى تعطى على أنها شخصية تناقض طبيعة عمل البنوك ، ودستور هيئة الأمم .

ويؤكد مندوب بولندا أن الأمر ليس فـرديا ، فيتدخل مندوب أستراليا مقترحا تأليف لجنة تحقيق تباشر أعمالها فى بحر أسبوع .

هنا يعلن مندوب روسيا انسحابـه من الجلسة ، وينتظر حتى تترجم كلمته ، ثم يخرج ولا يلبث أن يعود ، ويقول إنه أحس بتحسن الجو ، ومن أجل هذا يسترد الطلب .

ولكن المندوب الأمـريكى يعترض بأن الشىء الـذى يدخل نطاق أعمال المجلـس لابد أن يبقى قائما حتى يتصرف المجلس فيه ، ولهذا فإن محاولة الروس إخراج الموضوع من دائرة النقاش عمل من جانب واحد .

ويمضى المندوب البريطانى ليؤكد المعنى الأمريكى ، وتمضى المسألة فى نقاش على النحو الذى مضت عليه فى المداولة الأولى لا يحسمها إلا جرس دق ليروض أعضاء المجلس على ما يصنعون إذا مـا شب حــريق فى المجلس ، وعنـد دق الجرس هـرول الجميع إلى الخروج ، وبخــروجهم انفض المجلس .

هكذا يختتم أحمد زكى حكايته الساخرة «العطسة التى هزت العالم» التى يبدى بها من العناية ما جعله يضعها فى أول كتابه «بين المسموع والمقـروء» . ثم يعقب أحمد زكى بعد النهاية على حكايته ـ على عادة المذكرات الرسمية : «طبق الأصل . من محضر مجلس الأمن» .

هذه الحكـاية صـاغها خيـال أحمد زكى ولكنها فى واقع الأمر ليست مـن الخيال فى شىء كثير، فهى تعبر أولا عن عقيدة أحمد زكى ، وتعبر ثـانيا عن طبيعة البيزنطيـات فى كثير من المجالس التى تزعم أو تعتقد أنها تسلك بهذا الأسلوب أسلوبا ديمقراطيا شكلا وموضوعا .

والواقع ــ كما قدمنـا فى البابين الأول والثـانى ـ أن أحمد زكى كـان متبرما أشـد التبرم من هذا الفهم وتلك الممارسـة للديمقـراطية على النحـو الذى بينـاه بشىء من التفصيل من قبل فى الفصل الخاص بفكره السياسى فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

ومن ناحيـة أخرى فقد كـان هذا هو جـوهر رأى أحمد زكى فى طبيعـة عمل واجتماعات مجلس الأمن الدولى .

ولهذا جاء تعبيرنـا فى نقد الحكايـة ، وترتيبنا لما هـدفت إليه على النحـو الذى جعل التعبير عن عقيـدة أحمد زكى السياسيـة هدفهـا الأول ، والتعبير عن طبيعـة مناقشـات مجلس الأمن ، هدفهـا الثانى . وقد تبين للقارئ بما لا يقبل الشك إلى أى حد نجح أحمد زكى فى الوصول إلى هدفه الأول ، ولعل أفضل الوسائل التى ساعـدته على ذلك هو تحقيقه للهدف الثانى من دقـة التصوير، وروعة التعبير، وسـلاسة الحوار ، واتسـاقـه مع مـا هو معـروف من مـواقف هـذه الدول والكتل وطبـائع المناقشات السياسية على مثل هذا المستوى متى جاءت الحكاية كأنها طبق الأصل فعلاً .

ولعل نجاح أحمد زكى فى استخـدام وسيلته إلى هدفه الأول . تلك الوسيلـة التى هى فى الوقت نفسـه الهدف الثانى ، يظهـر للكثيرين على نحـو يتبين منـه أن الهدف الثانى وهـو وصف طبيعـة المناقشـات كان هـدفه الأوحـد . ولكن الذى يـدرس الفكر السيـاسى للرجل لاشك يـوافقنا تمام

الموافقة إلى مـا ذهبنا إليـه من أن المسألة كانـت تهدف فى المقام الأول إلى بيان فكـرة الرجل ومـوقفه الثابت وهو «السخرية من هذه الديمقراطيات المريضة أو المزيفة».

هذه هى الفكرة الأم وقد جاء التعبير عنها قمـة، فجلاها، بما يملك من روعة تعبيرية حتى ليكاد النـاقد يظن الروعة نجـاحا فى الوصف والبيان فحسب، وفى الـواقع أن هذا ليس لم يكن إلا وسيلة إلى المعنى السياسى الكبير، وأظن أن إدراك هذا ليس بالصعب!

وأكرر هنا ما أحب أن أقوله دائما «ليس أعظم من أن تكـون وسيلة المرء إلى الغاية النبيلة وسيلة عظيمة».

□

أما القصـة الثانيـة فتجمع بين الفهم السياسى والتـاريخ، ولكن التاريخ الـذى فيها ليس إلا عامل الـزمن «والنمو الزمنى» الـذى لابد منه للقصـة، ولكنه من التاريخ، وهنـا تكتسب القصة شيئا يخرج بها إلى نطاق التاريخ حين يكون لها به نصيب من الأحداث التى دخلت التاريخ.

فقصة «**منعوه أن يدخلها دما ولحما فدخلها عظاما**» تدور حول كاتب «**توماس بين**» وهو كاتب إنجليزى حر، نشأ فى بلاده، ثم هـاجر إلى أمريكا، وأسهم فى حركة تحريـرها، وصحب أقرانه إلى النصر على أمته، واستخدم قلمه فى الثورة، ثم قامت الثورة الفرنسية فنشر فى نصرتها كتابا خشيت إنجلترا أثره، فخاصمت بسببه ابنها الذى ثار عليها من قبل مع الأمريكيين، وقُبض عليه، ولكنه هرب إلى فـرنسا الثائرة، وولته من أمـورها عظيما، ثم جرى قلمه بـالذى ساء فرنسـا، فلم يكن له مخلص إلا الهرب، ولكن إلى أين؟ إلى أمريكا ولكنه كان يكتـب ينتقد واشنطن فقد أحب أمريكا، فلما عاد إليها لم يحتفل بهِ أحد، ومات ودفن بالقرب من نيويورك.

وبعـد عشر سنوات من مـوتـه سمع أحـد الإنجليز المعجبين بـه، وكـان اسمه «كـوبيت» أن الأمريكيين بـدءوا يعبثون بالقبر: يـرفعون أحجاره، ويقتلعون أخشـابه، ويقطعون فـروع شجره، ويحتفظون بكل ذلك ذكرى للرجل الذى كسب غضب الأمم من بعد ما كسب عطفها وحبها».

هنا ثارت حمية «كوبيت» وهاله أن يجد إنجليزيـا حرا من بنى جلدته وأهل مذهبه يسىء الناس إلى ذكراه كـل هذه الإساءات، ورأى إن كـانت الحكومـة الإنجليزيـة قد أبت على الـرجل العظيم «بين» أن يدخل إنجلترا دما ولحما، فهو والله لعامل على أن يدخلها عظاما.

وهكذا ذهب «كوبيت» إلى نيو روشيل حيث دفن «بين» وقضى فيها بعض الأيام حتى وضع خطته، واستطاع أن يخرج بالتابوت الذى دفن فيه «بين» إلى نيويورك ثم عبر المحيط إلى إنجلترا، واستطاع أن يمر بجثة «بين» من جمرك ليفربول، وأن يصل إلى بيته فى قرية بالقرب من مانشيستر، ثم دعا أصحابه إلى حفل أقامه، فلما انتهوا من الحفل، قام فيهم خطيبا يخبرهم بما فعل، ويطلب إليهم أن يساعدوه بالمال على إقامة ضريح لائق بالكاتب العظيم، ولكنهم استنكروا عليه أن يفعل هذا وأن يشاركوه، فقد كان اسم «بين» يومها فى إنجلترا اسما كريها يتصل بمعنى الخيانة لوطنه، وهو عندهم متطرف فى التحرر تطرفًا لم يرضه حتى الأحرار، وفشلت كل محاولات «كوبيت» فى إقناع الرجل الإنجليزى برأيه، وأغراه الناس بدفن العظام فأبى، وطلب إليه الأمريكان أن يعود بالعظام إلى أمريكا، وبقيت الجثة فى حجرة نومه إلى أن صار هو جثة ثانية، وصارت الجثة إلى ابنه الأكبر فنقلها إلى مخزن من الخشب فى ظاهر الدار إذ لم يكن يكِنُّ لصاحبها ما أكنه له والده.

وفى عام ١٨٣٦ أفلس هذا الولد الأكبر، وبيع متاعه بالمزاد، وزايد على الجثة أحد الناس فنالها، وأعطاها لعامل ليدفنها، ولكنه لم يفعل، وبقيت فى بيت هذا العامل ثلاثة عشر عاما، وجدت بعدها، لغير ما سبب فى مخزن للأثاثات القديمة، بالدار رقم ١٣ بميدان بدفورد بلندن، ثم اختفت بعد ذلك بأشهر، وقيل بعدها إن الجثة اشتراها طالب طب، ولكن لم يدر أحد على التحقيق مالها.

□

إلى هنا انتهت قصة جثة الكاتب الحر كما رواها أحمد زكى، والهدف منها واضح أشد الوضوح حتى فى إخراجها الصحفى عندما نشرها، ووضع إطارا بارزا كان كثيرا ما يضعه فى وسط مقالاته، كتب فيه الهدف بصراحة، فقال: «من الكتاب مَنْ يكتب فيشقى بقلمه، ومنهم من يطلب فسحة الأفق للناس، فينتهى بأن تضيق به الأرض، والناس» وسبحان الله فى أمر الحرية!!

قد يهمنا أيضًا أن ننبه إلى أن أحمد زكى لم يورد عبارة الإطار هذه فى متن قصته، وكأنما أرادها خلوا من الموعظة المباشرة، ثم انتابه الشك فى ألا يفهم البعض المغزى، أو كأنه أراد أن يعبر عن المغزى فى عبارات حكيمة محكمة (وهذا هو الأرجح) فوضع هذه العبارة فى هذا الإطار، مع أنها ليست من المتن وذلك على غير عادته التى جرت بأن تكون عبارة الإطار من ضمن المقال أو القصة.

ولكن ما هو مصدر هذا الشك الذى ربما ارتاب أحمد زكى من أن يحمل القراء القصة على

مغزى آخر، قد يكون مرجعه إلى أن عنوانها «منعوه أن يدخلوها دما ولحما، فدخلها عظاما» قد يعبر فى سرعة عن المغزى الظاهرى أو عن وجه الغرابة أو الحكاية فى القصة. انظر إلى عبارات أحمد زكى فى تصويره حيرة رجال الجمارك فى ميناء ليفربول حين يقول: «وبلغت الجثة ليفربول فى نوفمبر عام ١٩١٨، وما عرف رجال الجمرك بالذى وقع فى أيديهم، حتى حاروا فى أمرهم، إن «بين» قد حرمت الأوامر الصادرة منذ سنين دخوله إنجلترا حيا، فهل هى لا تزال تحرم دخوله إياها ميتا؟».

«وأغرى كوبيت رجال الجمرك، فاقتنعوا بأن الميت غير الحى، وأن اللسان الذى خشوه فى تآكل، واليد التى خافوها قد تفتتت، وأن القلم الذى هابوه قد تهشم».

وهذا هو المعنى الذى قصد إليه عنوان القصة.

بقى أن نشير إلى أن أحمد زكى لم يسرد القصة كما قصصناها هنا موضوعيًا على ترتيب تاريخى، وعرض قريب من الجفاف، ولكنه صاغها، بقدرته الأدبية، على نحو الترتيب القصصى البديع المشوق بدءا بوصف قبر على قارعة الطريق.. مرّ عليه فلاح فى ليلة من ليالى أكتوبر الباردة عام ١٨١٩، فرأى أضواء صفراء تخرج منها، وسمع صوتا كصوت الفئوس، تضرب فى أرض جامدة ذات حصى، «ومشى خفيفا على أنامله، فزاد من المقبرة اقترابا، إنها عربة عند الباب يجرها حصانان، وقفا ينفخان هواء الليل البليل نفخا، ويضربان بالأعراف، ودفعه الشوق إلى أن يعرف فوق ما عرف، فخطا نحو الموضع خطوات خفيفة جريئة أخرى، ونظر فهاله ما رأى... إنهما رجلان قد حفرا القبر. إلخ»، وجرى إلى العمدة فأخبره، وجرى العمدة يحاول أن يلحق بما خرج من قريته، ولكن هيهات فإن عظام «بين» كانت فى عرض البحر إلى حيث لم تسترح!!

الفصل السادس

القصص الاجتماعى

قد يكـون التعريـف ببعض القـصص الاجتـماعى لأحمـد زكى هو أنسب الوسـائل لاستـعراض ملامح هذا القصص وخصائصه الفكرية والفنية.

□ فقصة «بيوت مسكونة» تحدثنا عـن أن السمعة بين الناس وطيـب الأحاديث لهما عـلاقات وثيقة بـالكسب ولهما روابط متينة بـالحب، وهذا هو مـا يحدث فى البيوت، حين يشتهـر عنها أنها مسكونة بالعفاريت، عندئذ تسوء السمعـة، ويقل القدر، ويقل الأجر، وهذا ما حدث مع بطل القصة الذى لم يدرك من التجارة غير عبارة ساعدته على أن يكسب ما لم يكسبه أمهر التجار، وهى عبـارة الاقتصـاديين التى تقـول «اقبل على الشراء إذا أحجم النـاس، وأحجم إذا أقبل النـاس»، فكان هذا المدرس يشترى البيت الذى ساءت سمعته بثمن بخس ثم يعيش فيه حتى ينسى الناس ويبيعـه بالثمن المضـاعف، وهكذا تـاجر بغفلـة النـاس حتى أثرى . ولكن النهـاية أن جـاء زمن اشتدت فيـه أزمة المساكن فأصبح الإحجـام عن البيوت المسكـونة بالعفـاريت ترفا لا تطيقـه أزمة السكن، وعبارة أحمد زكى فى هذا فى نهاية القصة رائعـة، إذ يقول : «والواقع أن الإيمان بالعفاريت ترف لا يسوغ وهذا الضيق قائم».

□ وأما « **الإسكافى الذى ملأ سمع الدنيا فى ليلة** » ، فهى قصة ألمانى بائس طاردته الشرطة بعد السجن حتى يئس ، فاحتال على عمدة إحدى البلاد وذهب فى لبس الحرس الإمبراطورى وقد تقمص شخصية ضباط هذا الحرس ، وفعل ما فعل من خداع طويل ، قامت له الدنيا فى اليوم التالى ، استغل مكره وفكاهته وخياله الخصيب فى فعلته التى هزأ بها تلك الروح الألمانية تهزيئا «لايقدر عليه مائة كاتب وخطيب ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» .

□ أما «**ساعات الحرج على المسارح**» فليست قصة قصيرة ، وإنما هى أقصوصات أو اسكتشات تدور حول هذا الموضوع ، ويقدم أحمد زكى بمقدمة عن الذاكرة وقوتها ثم يذكر «أن أحرج من تحرج الذاكرة من الرجال والنساء ، هم رجال المسرح ، فالممثل ليس من صفاته أن يحسن التمثيل وكفى ، بل لابد له من الذاكرة ، وليست الذاكرة ذاكرة ألفاظ وجمل وسطور فحسب ، بل لابد له من أن يذكر أين يبدأ وأين ينتهى . ويعسر هذا عليه ، وخاصة فى المحاورة والمداولة لاسيما إن كانت بين أكثر من اثنين . وعلى الممثل فوق ذلك أن يذكر فى أى مكان من المسرح ينطق بما ينطق ويمضى الدكتور زكى فيروى لنا بعض الطرائف فى هذا الصدد للممثل «فل باكر» فى رواية «الابن المسرف» وللممثل «روبرت جليكار» حين سقطت فردة شاربه اليمنى ، والممثلة «بيجى ريان» حين كتبت أدلتها على ظاهر الستار الأول ، فلما غيروا المنظر رفعوا الستار الأول إلى السقف . . إلخ .

يختم أحمد زكى هذه الطرف بقوله «إن اللباقة وحضور الذهن ، ضرورتان لازمتان لأدوار المسارح ، وهما كذلك لازمتان لأدوار الحياة ، فكم خلصت الكلمة الواحدة ، أو الحركة الواحدة ، أو الفعلة الواحدة ، من مواقف ، وكم دفعت من مكاره» .

□ وقصة «**فأل البيت الجديد**» تريد أن تضرب لنا مثلا عاليا رفيعا فى تربية الأبناء ، ومعالجة أمور الحياة لخصه أحمد زكى فى قوله : «**استمتعوا بأولادكم ما بقوا تحت سقفكم**» ، «**إن الأولاد كالأفراخ ، لا تبقى فى عشها الأول إلا ريثما تنبت أجنحتها فتشيل ، ثم لا يبقى لكم منها غير الذكرى**» ، ذلك أن أسرة من أبوين وولدين انتقلت إلى بيت جديد ، لم يكن فيه عيب إلا الخلاف الدائب بينهم ، بين الزوج وزوجه ، والولد وأخته ، فلما أخذوا يبدون تأملاتهم فى حسن البيت وجماله وقفوا عن كلمة لولا يشيرون بها إلى ما يتهمون به بعضهم بعضا وما يلحظانه من ازدياد ولدهما وبنتهما على الأيام سوءا ، رغم ما يغمرانهما من رعاية ، ولكن الزوجة تلفتت لتقول : نحن بئس الأبوان ، فلا مراوغة بعد اليوم ولا مداورة ، إننا نرى ما فى ولدينا من عيوب ، فنحاول أن نصلحهما وننسى ما نحن فيه ، كيف نصلح عيوبها ، وعيوبنا قائمة تقول لها بمثل هذا فليقتد المقتدون ، إننا جميعا

حساسون، ونحن متركزون أكثر التركز على أنفسنا، لا يهمنا إلا همها وحدهـا ، ولا نطلب الراحة إلا لها. إنا نعمل أفرادا، ونحن فرقة تعمل بروح الفرد لا بروح الجماعة، روح التسامح والتناصح والتعاون، فهل بعد ما نحن فيه نعجب أن يكون أولادنا ما نرى، إنا نجنى عليهم، فالبدار البدار يا عزيزى لنعطى لهم قدوة أصلح، ومثلا أنبل مما يجب أن يكون عليه الناس، والوقت الباقى قليل، فما هى غير سنوات حتى يذهب ابنك عنك، وتذهب ابنتى، إن الأولاد أفراخ لا تبقى فى عشها الأول إلا ريثما تنبت أجنحتها فتشيل». ثم يردف أحمد زكى بقوله:

«وأثر هذا الخطاب فى الزوج لأنه خرج من القلب. ومضى الزوج والزوجة يقولان: لم لا نبدأ من جديد فى هذا البيت الجديد. لم لا نضبط أمزجتنا ونلجم انفعالاتنا على وفق مزاجه، وهو مزاج لطيف خفيف.». ومضت القصة تروى ما حدث بعد ذلك من ضروب التعاون والإيثار والسبق إلى العمل، وما كان من أثر ذلك على ولديهما. ولم يكن النجاح بالأمر السهل، ولكنه يحتاج إلى مران، وهذا ما استغرق بقية القصة.

□ أما «القصّاصة العمياء» فسيدة افتقدت أولادها واحدة بعد أخرى، فذهبت تعيش مع أخت لها. وعاشت سنوات حتى بلغت عامها التاسع والخمسين، فجاءها ابن أخ يزورها وكان طفلا فأراعها، لقد ذكرت بزيارته عهدها القديم بالأطفال، وما كان لها بهم من أنس، وما كان لهم بها من أنس، فقد ظلت تعمل مدرسة خمسة عشر عاما، أما الآن، فماذا يجد الطفل فى امرأة عمياء! ثم خطر لها أن تروح عنه بقصص تحكيها له مما وعت الذاكرة، ولم يلبث هذا أن جاء بصاحب له ثم زادوا إلى عشرة ثم كثر الزحام حتى شكا الجيران إلى عمدة البلدة من زئاط الأطفال، وطلبها العمدة، وطلب إليها أن تكف عن الحكايات فى هذا الموضع، ولكن لكى تتولى المهمة فى الحديقة العامة، قالت السيدة: من أين لى أن أعلم أن الأطفال يرغبوننى أن أقص عليهم، قال العمدة: يا عزيزتى البلهاء: كيف ترين فى شىء يطلبه ألف صبى وصبية أهم يرغبون فيه أم عنه؟ إن تحت يدى الآن التماسا وقعه ألف صبى وصبية يطلبون أن تستمرى فى قصصك هذا.

وأما «محنة كبرى» فقصة أقدار، وما أعجب الأقدار، ثلاثة رجال يهبطون من وادى الموت حيث تتقطع بهم أسباب الحياة، فلا يكون لأحد منهم أمل فى عودة، ثم يأخذون يضربون فى مجاهل الفناء أحد عشر نهارا، وإحدى عشرة ليلة، يذكرهم النهار بالحياة وصحوتها ويذكرهم الليل بالقبور وظلمتها، ثم يقضى لهم آخر الأمر ألاّ يعبر هذا الوادى فيجوز إلى الحياة والإحياء مرة أخرى

غير واحد منهم، ليس بأقواهم وليس بأكثرهم تمرسا بنـوائب الزمان وهو يجوز هذا الوادى ليحكى ما جـرى، وتمضى القصة (أو الحكاية) تـروى وتصف على نحو شيق ما يمكن أن يجرى لـلإنسان عندما يلقى الموت صريحا لا شبهة فيه.

أما «بيت من طين» فبيت بنى فى الهنـد، فى منطقـة تقـع قـرب خط الاستـواء حيث التفـاوت الشـديـد فى درجات الحرارة بين الفصـول وبين الليل والنهـار، وحيث النمل الأبيض الـذى يأكل مـائدة من الخشب فى ليلة واحـدة، بنـاه أهل قريـة بأكملهـا (استعملهم المقـاول لذلك) لسيـدة أمريكية جاءت من حيث ناطحات السحاب. . ويمضى أحمد زكى فى تفاصيل بناء البيت مرحلة مـرحلة على نحـو أحرى بـه أن يكون الحديث عنـه أدب الرحـلات، ولكنه يختم القصـة بقولـه: «وعاشت السيدة فى المنـزل سنين خالت فى أثنائها أن المنزل يزداد جـودة، وسألت أهل الناحية كم يبقى مثل هـذا البيت. قـالـوا: إذا ولـد فيه الطفل استطـاع أن يستظل بسقفـه حتى يـرى أبنـاءه وأحفاده وأحفاد أحفاده». ثم يعقب أحمد زكى «بارك الله لها فيه، وبارك الله لكل مصرى يستطيع أن يجعل من بيـــوت مصر، وهى من طين، بيـــوتـا من الجودة بحيث تستطيـع أن تسكنهـا، على استمتاع، سيدة تأتى من حيث المنازل تنطح السحاب».

□ ونمضى بعد هذا كلـه لنقرأ مع أحمد زكى فى «تضحك والأحزان ملء جلدها» قصة زوجين سكنا إلى بعضهما وسكنـا فى ضاحيـة هادئة من ضواحـى العاصمة، وكـانا سعيـدين فى حياتهما، سعيدين بالـرضا بما هما فيه، وبأنه ليس لهما آمال تقـض المضاجع. . ولكن الزمن لا يسكت دائما حتى عمن عنه يسكتون، ولا يترك حتى أولئك الـذين بالقناعة تركوه وارتضـوه قسمتهم فيه. فقد جاء السيدة سرطان الثدى فتركها «قلقة مرتاعة»، وكـان زوجها أشد قلقا وأشد ارتياعا لأنه كان ذا حس مـرهف، وزاد حسهما بـالمصيبة التى نـزلت، وبأعقـابها التى لا تفتأ تتهـددهما، إنهما عاشـا منطـويين على نفسيهما، ففى صلتهما الـواحدة تـركـزت لـذة الحياة، وبين حيطـان بيتهما الصغير اجتمعت مفارق العيش، فلم يكن لهما خارج هذه الحيطـان صلات وثيقة، ولم يكن لهما أصحاب وثائق، وذهبت آثـار المرض اللعين مع مضى الزمـان ولكنه عـاد إلى الظهور مـرة أخرى، وكتمت الزوجـة الخبر عن زوجها، واحتفظت بسرها طويـلا حتى ثقل عليها الداء، فأخذ وجههـا يصفر، وجسمها ينحل، وقوتها تقـل، وهى تغالب كل هذا، وأخذت تضحك، وتخرج كعهـدها القديم ولكن زوجها لم يلبث أن أدرك أن شيئا ما قد اختل، وخطر بباله أن البلوى قد عادت، فأشار على

زوجته أن ترى الطبيب، فضحكت الزوجة من تلك المشورة. قالت: وما حاجة امرأة صحيحة سليمة مثلى أن ترى الطبيب، وزادت مخاوف الزوج فأصر على أن يذهبا، وذهبا، وأدرك الطبيب أنه الموت المحتوم ولكنه لم يرد أن يسود أيامها الباقية وأيام زوجها معها.

وأخذت صحتها بمضى الأيام فى الهبوط، وعجب زوجها، واعتزما أن يريا جراحا فى العاصمة، وذهبت إليه وحدها، وكان اليوم يوم عيد ميلاد زوجها، فلم يذهب إلى العمل بدعوى أنه عيد ميلاده، والواقع أنه لم يذهب لشدة قلقه.. وظل قلقا طوال اليوم يذرع الشارع جيئة وذهابا، ويضرب بقطعة الفضة يستلهم الخبر. وكانت الزوجة قد لقيت الجراح وعرفت منه بعد إلحاح أنه الموت والموت القريب، فلما لقيت زوجها قالت له إن الحال طيب، فضمها فى الشارع، ونسى أين هو فرقص.

وتدخل الزوج إلى بيتها فتقترح على زوجها أن تدعو الجيران والأحباب إلى بعض الطعام وبعض الشراب احتفالا بعيد ميلاده، فيقول بل احتفالا بهناءتنا، ويحضر الجيران فيكون طعام ويكون شراب، ويكون ضحك وتكون نكات، ويضحك الزوج، ويشربون الأنخاب لصحة زوجته.

ويصبح الصباح فتخبره الخبر اللعين. لقد عز عليها أن تحزنه فى آخر عيد للميلاد يجمعهما.

لماذا هذه النهاية الحزينة يا أستاذنا الدكتور زكى، ألم يكن أخف منها أن تقول وماتت بعد أسبوع؟ وإنى لأتخيل نفسى وقد طرحت السؤال على أحمد زكى فأجاب: ومن أدراك أنى أبحث عن النهايات الحقيقية؟

□ **ساعة فى قطار**: تحكى عن ساعة قضاها أحمد زكى فى قطار ولا لزوم للقطار هنا فى حبكة القصة إلا أن الجو كان حارًا، فكشف جندى أجنبى جلس أمام أحمد زكى عن صدره، يزيد مساحة المعروض من صدره، وعجب أحمد زكى وصديقه الذى جلس لجوار هذه اللوحة المرسومة بالوشم على صدر الجندى، وأخذا يتأملان، ثم سألاه أصنعه فى لندن؟ فقال: لا، إنه فى المحيط الهادى فلن تجد فى الدنيا وشامة كوشامته.. ومضى أحمد زكى يحكى على لسانه وعلى لسان الجندى فى أمر الوشم ما حكى من تاريخه.. على أننا نختار لمتعة القارئ فى شأن الوشم ما رواه أحمد زكى من أن سفاحا فرنسيا كان يقتل القتيل ولا يلبث أن يشم اسمه على جلده، ويشم تاريخ فعلته، وعلم أنه لابد صائر إلى المشنقة فوشم خطا على عنقه، وكتب بالوشم تحته: أيها الجلاد.. اشنق هنا.

ثم إن أحمد زكى قال للجندى مباسطا : فهل توصى بهذا الجلد الجميل الذى فوق صدرك لأحد من بعدك؟ إنه قطعة من قطع الفن ذات بال ، فابتسم متعجبا وقال : وما نفع ذلك فقال أحمد زكى : لقد وقعت مرة فى معرض على كتاب عليه جلدة بها وشم جميل ، فسألت أمين المعرض عنها فعلمت منه أنها جلدة إنسان دبغوها ، ثم إلى هذا أصاروها ، قال ضاحكا : والله لن أضن على أحد بالذى أجود به للدود ، على شريطة أن أعلم ما الذى سيصنعونه فى كتاب هذه جلدته .
«قلت : شعر جميل يحكى عن أفراح القلوب أحيانا ، وعن أحزانها أحيانا ، قال : أما هذا فنعم فهل لديك الوثيقة فأمضيها الآن . قلت دون هذا العمر الطويل إن شاء الله ، وكان قد بلغ القطار غايتنا منه فودعنا ونزلنا» ، لماذا هذه النهاية التى افتعل فيها المصادفة على نحو المقامات الحريرية؟ لعلها الفورمة التقليدية لذلك الزمان ولغير ذلك الزمان لم يجد أحمد زكى بدا ولا بأسا من اتباعها ، ولو تركها لكان خيرا وأولى .

□ أما «حضرية فى أقصى الريف» فليست إلا قصة فتاة نشأت فى عاصمة ثم ذهبت فعاشت فى ريف من أقاصى البلاد ، وتمضى القصة تعقد المقارنات فى تأمل بين الحياتين وكيف رضيتها صاحبتها وتأقلمت عليها وسعدت بها .

وأما الصيدلى الذى تدور حوله قصة «من الناس و إلى الناس» فقد قضى من حياته خمسين عاما فى هذه المهنة . . والدكتور أحمد زكى يسأله فى أول القصة : «ألم يسأم العمل فى هذه الصناعة الواحدة طوال هذه المدة ، فقال : إن صناعة الصيدلة لا تسئم أبدا ، ولا يمكن أن تسئم أبدا ، فأنت تقعد منها على مرقب من الحياة ، يمر بك الناس وأنت ثابت ، تتفرج بموكبهم الذى لا ينتهى ، وتوثقت بينى وبين الناس من وراء منضدتى هذه صداقات تتجدد لذتها كل يوم ، وتسر أخبارها أو تسىء ، ولكنها دائما تثير الهم ، ومن أثير همه لم يفقد الرغبة فى الحياة أبدا ، ولم يزهد فى العمل ولو أتعب أبدا .

والمسألة بسيطة ، ذلك أن الصيدلانى فى البلد الصغير ليس ساكب سوائل فحسب ، ولا طاحن أخلاط وعقاقير فحسب ، و إنما هو رجل قبل كل شىء ومستمع وناصح على كل حال ، يأتيه الناس يتحدثون فى آلامهم ، وعن أطفالهم ، وعن زوج سكير وكلب مريض ، والفقراء يختصرون الطريق فلا يذهبون إلى الطبيب ، ولكن يجيئون الصيدلانى ، وعليه أن يشخص الداء وينصح بالدواء .

وهكذا كان صاحبنا بل كان أكثر من ذلك ، وقصته التى يرويها لنا الدكتور أحمد زكى تحكى لنا

أمثلة من الـواقع الذى قـابله فى الحيـاة ، كإنقاذ أم أرادت الانتحـار ، وهى اليوم ـــ جدة ، ولم يكن يغضب أحـدا لأنه كـان يعتقـد أن الذى يضيع الحرص يضيـع الكرم ومع أن ثـروتـه تعد بمئـات الألـوف فلا تكـاد تجد فى المدينة شيئـا حسنا إلا ولـه نصيب فيه : فى الحدائق ، والمدارس والمكتبـة ومؤسسة لإقراض الفقراء . وحين جاءت الانتخابات ذهب إليه السكان فحملوه على ترشيح نفسه نائبا ، ففعل ، فلما كان فى مجلس تبينت له فيه الريبة من النقاش الذى كان فيه قام فى المجلس وقال لأعضائه : أنا لا أدرى أين أزمعتم أن تختبئوا بعد هذا ، أمـا أنا فلم أعتزم اختباء ، وأريد أن أعيش بين أهل بلدى أنظـر إليهم ملء عينى وينظرون . وأخفق المتآمرون . . . . ذكـر أحمد زكى كل هذا بعد مـا جاءه الخبر ـ منذ أيـام ـ بأنه مات ، وهـذه القصة لا تهدف تمجيد صيدلى بعينـه أو عرض قصة كفـاح إنما أراد أحمد زكى بهذه القصة تلك العبرة التى وصفها صريحة واضحـة فى نهايتها حين قال : «فرحمه الله رحمة واسعة ، ورحم أمثالـه من تجار يحرصون ويجمعون ، فى غير نفاق ، ويجمعون لينفقوا من بعـد ذلك فى وجوه الخير عامة ، وعلى ذوى الحاجـات وخاصة أن الذى يجمعـونه ، من الناس وإلى الناس ! هل عرفت إذن ما هو هذا الذى من الناس وإلى الناس ؟»

☐ وفى «لابد لها من أنف جديد» يروى لنا الـدكتور أحمد زكى قصة فتاة ، كـان لها أنف طويل وكان هذا يضايقها ، الناس تضحك عليـه ، فضحكت هى الأخرى عليه تدارى ضحك الناس ، فكانوا يطلبـونها لإضحاكهم ، فاستاءت أن تكون كمضحك الملك . وكـانت تحاول تصغيره بربطه فى الليل ، فلم يكن يطـاوعهـا . ثم دخلت مـدرسـة التمـريض وتخرجت ، وسر المرضى بـروحهـا الجميلة التى واتتها من طفولتها (الضاحكة) . ثم كان أن طلب أحد هؤلاء المرضى الناقهين يدها .

عندئذ ذهب مـا كان بها من تردد فى أن تجرى عملية جـراحية لتجميل أنفها «كـان يمنعها من ذلك فيما يمنع خشية أن يقول الناس إنها إنما تطلب الـزوج ، أما الآن ، وزوجها فى يدها ، فهى إنما تطلب الأنف ، تطلبـه لتكون جميلـة ـ جـذابـة وليس فى هذا المطلب مـا يشين . إنه مطلب يطلبـه النساء جميعا والرجال . ولو قالوا غير هذا لكذبوا» .

«وما ذنب زوجى ألقاه بهذا الأنف؟ ، وهو زوج حبيب ودود كريـم» .

وذهبت فـاستشارت طبيبهـا وأعطاهـا أسماء الجراحين ، وعرض عليهـا الجراح الذى اختـارته لقربـه إلى منزلها نماذج تختار منهـا ، واختارت ، وراجعها فى الاختيـار ، وتمت العملية ووصف أحمد زكى العملية وصفا دقيقا على عـادته ، وما بعد العملية بيوم ويـومين وبأسبوع وبأسبوعين وبأربعة شهور.

وعند ختام الأسبوع الثانى عشر أخبرها الجراح بأنه لن يكون بوجهها تغير بعد الذى كان، وأرسلها إلى رسامه ليأخذ صورتها من جديد، قال إنه يحتاجها لبحث هو ناشره فى مجلة طبية.

واستراحت أخيرا من بعد عناء، ولاشك استراح زوجها.

وكان دليل تغير وجهها إلى ما هو أحسن أنها خرجت من بعد ذلك، فصفر لها فى الطريق صافر يريد مغازلتها. وهو حادث لم يحدث لها أبدا. فعرفت وعرف زوجها من هذا الصفير، أن الجراحة نجحت والحمدلله.

□ و«**الجنة التى وعد الصابرون**» جنة فى الدنيا لا فى الآخرة. وهى تحكى قصة زوج اشترى جزيرة فى البحر، مهجورة، وجهز بيته فيها، وأخذ زوجه إليها، ورزقوا هناك بالولد وعاشوا جميعا.. كيف كانت حياة الوحدة عظيمة.

«وعلما من ذلك أن الناس على الزحام تسوء أخلاقهم وتخبث نياتهم، ولكنهم على التفرقة، وعلى الوحدة، وفى اختلائهم بالطبيعة، بدءوا بعدا وفكرا، لا يبقى فى أنفسهم مكان تشغله الأحقاد وتملؤه المخابث».

□ وتصور لنا قصة «**يوم مات أبوها**» فتاة جلست فى ليلة تتذكر يوما كان من عشرين عاما، يوم مات أبوها، وهو لم يمت موتة طبيعية، وإنما أعدم، لأنه قتل عاملا فى الميناء. كانت الفتاة يوم وقع هذا الحادث فى الثالثة عشرة من عمرها. وكانت أختاها فى العاشرة والثانية، والقصة لا تصور لنا إلا حال هذه الأسرة فى ظل عائلها متعهد السفن، يشحنها ويفرغها لا يغيب عن البيت إلا ثلاثة أيام كل ثلاثة أشهر. وكان للأسرة حظ لا بأس به من السعادة بأبيهم، كان يكسب، وكان ينفق، وكان له قلب رحيم، ومزاج، على غير السكر محبب جميل. ولكن حدث ما حدث وقتل الرجل رجلا فى الميناء، وجاء الخال، وذهبت الأم، وسجن الزوج، وزار البنات أباهن فى

السجن، فلاطفهن، وضحك معهن، ولما غادرن لاحظن أن عينيه غاضتا بالدموع، وطلب ألا يراهن بعد ذلك. ثم حكم عليه بالإعدام، وكان بين الحكم وتنفيذه خمسة أسابيع مرت سريعة. وتحدد إعدام الأب فى الساعة العاشرة مساء. وجاء ذلك اليوم، وبقى الخال والخالة مع الأم فى المطبخ، وذهبت البنات فجلسن فى الصالون. حتى كانت العاشرة إلا ربعا، «وبغتة صرخت الأم وصاحت»: «أى زوجى العزيز! ماذا يصنعون بك الآن»، وخرجت من المطبخ فزعة إلى الصالون إلى الابن الأصغر فرفعته إلى صدرها و إلى النافذة اتجهت، ورأت كبرى البنات ماذا تصنع الأم بنفسها وبأخيها الصغير، ولكنها لم تفعل شيئا. لقد تسمرت رجلاها فى الأرض فلم تستطع حراكا، فهى لم تذهب حتى إلى النافذة لترى ماذا جرى وهى لم تصرخ ولم تستغث وهى لم تبك.. وسمعت شيئا يرن فى أذنها.. إن الساعة تدق.. إنها تدق العاشرة».

□ وقصة «طمأنينة» قصة من أروع القصص النفسى، لا التى تصور عقدا نفسية، ولا التى تقوم على مثل هذه العقد، ولكنها من ذلك القصص الذى صور نفسيات طريفة، فهذا رجل فى الثالثة والخمسين ذهب إلى جراح كبير، والقصة تحكى لنا ما دار بينه وبين الجراح من حوار، الجراح يبحث عن شىء غير طبيعى فى كل جسم الرجل فلا يجد، ويعاود فلا يجد، ويستخدم كل الوسائل فامتحن قلبه، ونظر فى عينيه، وقاس ضغط دمه، وجس كليتيه وكبده، ودغدغ باطن قدميه، ودق على ركبتيه بمطرقة فارتاح المريض لكل هذا، وعندما طلب إليه أن يلبس ملابسه بان عليه كأنه يتلكأ، بان عليه كأنه يريد من هذا الفحص مزيدا للغبطة التى وجدها فيه، فلم يجد الجراح الكبير بدا من أن يصارح المريض أن لا شىء فيه على الإطلاق مع أن سلامته فى مثل هذا السن سلامة نادرة.

هنا قال المريض: إذن فأنت ترى رأى الطبيب فلان؟ قال: نعم، قال ورأى فلان وفلان... وعد أسماء خمسة من الأطباء وثلاثة من الجراحين، واثنين من النفسانيين وكلهم من مشاهير الرجال، فسأله الجراح: هل رأى كل هؤلاء؟ وأجابه المريض: وكلهم أمن على مثل ما تقول، ولكن قل لى ما رأيك فى الدكتور فلان؟ قال الجراح: إنه خير من أنجب الطب من الأطباء ولكن هل أنت قاصده أيضا قال نعم.. واستشاط الجراح من هذا المريض الذى يهدر وقت الأطباء إهدارا ولكن صاحبنا صمد لغضبة الجراح ولم تفارقه ابتسامته، وقال: قد يكون هذا، ولكنى رجل بلغ الثالثة والخمسين. وهى سن يأخذ الرجال عندها فى الهبوط، و إنى أجد سرورا عظيما كلما قال

لى طبيب كبير إن صحتى على خير ما يـرام . إنها طمأنينة كبيرة تسـاوى أضعاف مـا أدفع فيها من مال ، مرة كل شهرين .

قال هذا وهو يأخذ سبيله إلى الباب ، وعلى فمه ابتسامة فوز، وعلى وجه الطبيب دهشة وغيظ .

□ «شكرا لك يـا جدتى» هـذه هى العبارة التـى قالتهـا لأحمد زكى وصحبـه عازفـة من أبـرع العازفـات على البيانـو، حين شكروا لها عـزفها فقـالت إنها الشكر لجدتها ، وقصـة ذلك أن جدتها كانت تستمع إليها وهى طفلة فى الـرابعة أو الخامسة من عمرها ، وكانت تأخـذ ـ تعزف لها «فتارة خفقا ، وتارة موجا ، وتارة عاصفة بالموسيقى ، فأنصت وأنا ذاهلة عن نفسى ، وقد علمت من بعد ذلك أنى كنت فى عداد القـلائل الذين كانت جـدتى تعزف لهم عن طيب خاطر، وتلمع عينـاها أحيانا فتدق الأوتـار يجرى بالرعدة فى نقار ظهرى ، ثم هى تدق دقا خفيفـا فتقربنى بالأحلام» . . ثم أنها أوصت صغيرتها أن تتعلم الموسيقى وأن تخصص لها وقتـا يوميا للـدرس ، ولم يكن من عادة المدرسين إلا أن يعطوا درسا واحدا فى الأسبوع ، وبعد أسبـوعين من هذه النصيحة أصابتها السكتة المخيـة ، وانصرفت الفتاة ، فلم تعـد إلا بعـد شهر، كـانت أمهـا ووالدهـا وعمهـا عند جـدتها ، فوجودهـا لا تفتأ تلعب بأصابعها على الفراش كما تلعب على البيانـو وتنظر إليهم ، فظنوا أنها ربما تعنيها فأتوا بها إليها ، فلما رأتها انشرحت وأخذت تلعب على الفـراش كأن من تحته مفاتيح البيانو، ففهمت صاحبتنـا ، ونزلت إلى حجرة الجلـوس ، فعزفت على البيانـو وعادت ، فرأت جـدتها تعد بأصابعها ثلاثا ثم ثلاثا ، «فعلمت أنها تـذكرنى بالدروس الثلاثة التى أوصتنى بها ، فهززت رأسى بنعم ، فابتسمت عينها إذ لم تقدر أن يبتسم وجهها ، ثم حدث شىء عجيب ، جاءت قصفة من الريح جانبـا من النافذة خلت منه أشعة الشمس فأضاءت وجههـا ، وعند ذلك أغمضت جدتى عينيها» ، وجاءت الأم فاكتشفت وفاة الجدة . وعلى لسان أحمد زكى يقارن لنا أحمد زكى بين جانبين مختلفين جد الاختلاف فى موقفها ذات اليوم ، حيث تقـول : «لقد افتقدت فى ذلك اليوم شيئا على بساطته عظيما ، وكسبت كذلك شيئا على بسـاطته عظيما ، عزما أن أعمل وأعمل وأعمل ، وأعمل

فى جد لا ينى ، وكسبت شيئا آخر خيرا من هـذا وهذا ، أحسست بأنى عرفت أين ذهبت جدتى ، ولا شىء أكثر من هذا ، ومن يومهـا وأنا أود أن أذهب حيث ذهبت . لهذا ، ولكثير من مثل هذا ، شكرا لك يا جدتى »!

□ وفى «حتى الحيوانات منها المجنون» يروى أحـد عمال حديقة الحيـوان لأحمد زكى صورا من الجنون الحيوانى التى أدركها بحكم مهنته ، ورحلاته فى أفريقيا .

الفصل السابع

نموذج القصة التأملية

قد لا أظننى أجد فى تعبيرات النقد ما يقول بأدب تأملى أو قصة تأملية ، وإن كان من الممكن إطلاق هذا الوصف على أجزاء أو فقرات معينة من العمل الأدبى ، ولكنى مع هذا أجدنى مضطراً إلى استعمال هذا التعبير للدلالة على مجموعة من السمات والمكونات لبعض الأعمال الأدبية لأحمد زكى .

خذ على سبيل المثال قصة «دينار» بالتأمل ليجعله المحور الكبير الذى تدور حوله «قصة دينار» وهى إحدى قصص «بين المسموع والمقروء» ، وفيها يحكى الدكتور أحمد زكى قصة جراح متقدم فى السن جلس ذات يوم يتأمل فيما احتواه مكتبه من متاع ، ويتذكر من خلال هذه المحتويات أيامه الخوالى . وفجأة يقع نظره على علبة صغيرة ، ويفتحها فإذا به يجد فيها دينارا ذهبا يتوسط بطانة من حرير أزرق .

ويأخذ صاحبنا يتذكر قصة هذا الدينار. نعم لقد كان هذا من سنوات بعيدة جاءه به بحار عجوز دخل المستشفى يطلب الشفاء من داء ألم به فى رحلته الأخيرة، وكان يحسب فى الجراحة التى تجرى له نهاية أجله، وأجرى له صاحبنا الجراح العملية، ونجحت، وقام من سريره بعد أسابيع معافى، ولكنه عاد إلى الجراح فى منزله بعد ثلاثة أسابيع، فحسب الطبيب أنه يطلب إحسانه، وأخذ يشكر له ما فعله من أجله، ثم أخرج من جيبه دينار الذهب ووضعه على المنضدة حيث يجلس الجراح قال: أرجو منك يا سيدى أن تقبل منى هذا. إنى أعلم أنه شىء قليل لا يزيدك ولا ينقصك، وأعلم أنه من سوء الأدب أن أتقدم به إليك عوضا عما أسديته إلىّ، وإنما أرجو منك قبوله على أنه تذكار لما أنلتنى من صحة. إنى تركت بيتى من بلادى منذ سنوات ثلاث، وعند وداعى زوجتى أعطتنى هذا الدينار، ولم تعطه يدا بيد، وإنما خاطته فى كم سترتى، وجعلتنى أعدها ألا أفك عنه هذا الخيط إلا إذا أخذت أحس الموت جوعا. إن حياة البحار منا يا سيدى حياة غير آمنة، فهو قد يمرض فى غربته، وهو قد يتعطل طويلا، وقد قام هذا الدينار بينى وبين الموت ثلاثة أعوام، وقد أردت فى المستشفى أن أهديه إليك إذا أنا قمت فى عافية، وهاأنذا فى عافية، فأرجو منك يا سيدى أن تتقبله.

ويصور لنا أحمد زكى موقف الطبيب حينذاك فى لقطة دقيقة معبرة عن لحظة دقيقة من لحظات الحياة التى تضطرب فيها نفس الإنسان بين جلال المشاعر السامية ولا تدرى أيها أسمى، وهو يصور لنا هذا الموقف فى عباراته التالية من دون أن يشير إلى ما أشرت إليه هنا من وصف للموقف، ولكنه يعطينا فى عباراته الإحساس الذى لابد للذواقة منه إذا أراد أن يدرك أية لحظة أراد أحمد زكى تسجيلها فى قصته القصيرة، وهو يقول:

«سمع الطبيب ما سمع فاهتز له، وحار فى الذى يصنع، لقد كان تهيأ لأن يعطى، فإذا إليه يساق العطاء، وأخيرا جمع عزمه وشكر للرجل جميله وشكر عاطفته ولكنه أبى أن يأخذ الدينار ورجا منه أن يعود به إلى بلاده فيهديه إلى زوجته، وعندها اغتم الرجل غما كبيرا وتجهم وجهه، ومضى بأصابعه إلى الدينار يدفعه على سطح المنضدة قريبا من حيث جلس الطبيب، وأخذ يقول: أرجو منك يا سيدى أن تقبله، لا على قيمته النقدية التى هى له، ولكن على قيمته التى كانها لى طوال هذه الأعوام الثلاثة، إنى منذ تركت المستشفى لم أجد عملا، ومنذ تركت سريرى فيه لم أجد سريرا ألقى عليه هذا الجسد المتعب لأنام، ولم يكن بينى وبين الموت جوعا غير ساعات، ولكنى وفقت اليوم إلى سفينة أعمل فيها، فشكرا لله على هذا التوفيق، وشكرا لله أعظم الشكر على أن أعطانى القوة التى أصبر بها مع الجوع على الإبقاء على هذا الدينار. فتقبله يا سيدى منى بالذات كأنه لى. فلم يسع الطبيب إلا أن يتقبله».

ويمضى أحمد زكى بعد ذلك يحدثنا عما دار بخلد الطبيب بعد ما تذكر قصة هذا الدينار الذى وجده لساعته ، فيروى أن الطبيب أخرج ورقة وكتب فيها وصف الحادث فقال : لقد قبلت فى حياتى الطويلة كثيرا من الهدايا الثمينة أهداها إلىّ قوم كرام . . وإن لم يكن فى تلك الهدايا هدية أثمن من ذلك الدينار الصغير القليل ، ورفعته بأصابعى عن المنضدة وأنا أحدس كم كلف هذا الدينار - هذا الرجل البحار الساذج الغريب من آلام ، وتخيلته وهو يطوف الميناء يبحث عن عمل فلا يجد ، وما لقى فى أثناء ذلك من جوع ، وتصورت ما لابد قد افترشه من الأرض . كل هذا والدينار فى جيبه يستطيع أن يشترى به القوت والفراش ، وهو يأبى أن يضيعه ليهديه إلىّ وفاء لجميل زعم أنى صنعته فأى هدية تقول هذا؟ وأى وفاء ، ولو مخدوعا ، يعدل هذا الوفاء ، وأى قلب فى قلوب الناس فى أية طبقة من طبقات الأرض يكبر هذا القلب الشديد ، ولم ينل من الأوسمة اعترافا بهذا المجهود إلا أنه يجوع أحيانا» .

وختم أحمد زكى عبارته بعلامة التعجب ! .

هل أراد مفكرنا أن يحدثنا فى عطف عن حياة البحارين وما يلاقونه ، فجعل ذلك فى صورة الحديث على لسان الطبيب الذى روى لنا ما تذكر مما حدث ، لواحد من هؤلاء أصابه المرض ، والإشراف على الموت ، والجوع والإشراف على الهلاك ، والبعد عن الوطن ، والتعطل ، والإشراف على الضياع؟

هل أراد أن يعبر لنا عن هذه المعاملة النبيلة فى قلب البحار كيف كانت ، وإلى أى مدى يكون نبل العواطف؟

أم إنه أراد أن يحدثنا عن عاطفة أخرى لا تقل نبلا هى عاطفة ذلك الجراح الذى قدر عاطفة البحار ونبل خلقه حين أهداه ما كان أعز عليه من كل شىء عند غيره ، مهما كان هذا الشىء ، وهكذا فإن قيمة الهدية لا تتمثل فى قيمة الشىء فى ذاته ، ولكن فيما يمثله هذا الشئ عند باذله . وهو المعنى الذى عبر عنه أحمد زكى بعبارات بلغت ذروة البيان فى قوله : «أرجو منك يا سيدى أن تقبله ، لا على قيمته التى هى له ، ولكن على قيمته التى كانها لى» .

أغلب الظن أنه أراد هذه المعانى الأربعة مجتمعة والقصة على لسان الجراح، وهى تأتيه من باب الاسترجاع، وهو استرجاع ذاتى، يعود فيه إلى ذاكرته (Flash back) وليس فى الأمر اعتماد على مصادفات، هو رأى شيئا فتذكر فيه القصة، فلما تذكرها ومرت بذهنه معانيها الخالدات أخرج الورقة وسجل فيها ما سجل من رؤيته لهذه المواقف.

وقد استبقنا التعليق بينما كنا نسرد القصة، فأشرنا إلى أن أحمد زكى كان يصور الموقف اللحظى فى تأملات دقيقة جدا، وذكرنا لذلك مثلا بالحوار الذى أداره عالمنا بين جراحه وبحاره، ولكن لا بأس أن نشير هنا إلى تلك العبارات التى يصف بها أحمد زكى حديث البحار إلى الطبيب فى بداية لقائه به عندما ذهب يقدم إليه الدينار فيقول:

«وتحدث فى بساطة وفى تؤدة، وفى حرارة، ووثوق أعوزه الطلاء فتأثر الطبيب من هذا اللسان الخام تأثرا كبيرا، وهو الذى استمع لمئات من كلمات الحمد، والعد العديد من خطب الثناء مزوقة مطرزة».

□

ولابد لنا أن نقف هنا أمام هذه الصفات الأربعة التى وصف أحمد زكى فيها حديث البحار فى بساطة وفى تؤدة، وفى شوق أعوزه . . . نقف لنتساءل هل جاءت هذه الصفات المثالية من قلم أحمد زكى كما تجىء المترادفات على أقلام كتابنا تتوالى تترى وراء بعضها تأكيدا للمعنى المراد أو زيادة فى إيضاح الصورة، أم إنها (وهذا هو رأيى) جاءت كما تجىء عبارات عالم الكيمياء يصف المادة التى أمامه فيذكر شكلها وحجمها ولونها ووزنها وكثافتها وحالها من الصلابة والسيولة . . إلخ

هذا هو الفارق الحقيقى، والفارق الدقيق، والفارق الأول بين كتابة العالم متأثرا بعلمه، وكتابة العالم غير متأثر بعلمه، هذا معنى التفاوت بين القلم المتدفق يعطف ليتناول الجوانب والأعطاف من زوايا عديدة، وبين القلم المتدفق الواحد بالكلمة ذاتها وبأخواتها الشقيقات وغير الشقيقات.

ولو أنك غيرت أو بدلت فى عبارة أحمد زكى بالحذف فحذفت التؤدة أو البساطة أو الحرارة أو التدفق لما وصلت إلى المعنى الذى أدته العبارة مكتملة. على حين أنك تستطيع أن تحذف فقرات

وسطورا بأكملها مـن مقالات وقصص أخرى فلا يهتز المعنى المراد ولا شعـرة واحدة، ولست أنت الذى تستطيع **أن تحذف** من **مقالاتهم** ولكنهم هم أيضا يستطيعون بل هم **أول** مَنْ **يفعلون**.

ليس بعد ذلك من قـول **إلا** الثناء على التوفيق فى اختيـار عنوان القصة التأملية (الـذى لا أظنه يكون إلا هكذا كلمة واحدة نكرة) و إطلاقه هكذا نكرة، ولكن من باب التنكير للتعظيم! وما كان أعظمه من دينار.

الفصل الثامن

بعض ملامح التصوير البيانى فى قصص الدكتور أحمد زكى

يركز هـذا الفصل بصورة مختصرة على جلاء بعض ملامح التصـوير البيانى فى أدب أحمد زكى على نحو لا يستقصى، ولكنه يضرب الأمثلة، ذلك أن المؤلف يـؤمن بالقول القائل بأن خير ما فى الصورة هو الصورة نفسهـا، ولهذا فإنه سيتعرض فى هذا الباب لأبرز الصـور البيانية فى قصتين من قصص أحمد زكى وهما «شعـاع فى الظلام» «ونزل الستـار فحجب النور ثم ارتفع»، وسنقـدم لكل قصة بفكرة عن القصـة عامة ونبذة عن موضـع الصورة بخاصة، وسنكون فى هـذا التقديم أشبه بالمرشد أكثر منـا بالقارئ الذى يقرأ من أجل النقد، ولكن مرجع هذا بـلاشك هو الصورة نفسها التى هى أبلغ ما فى الصورة.

(١)

فأما قصة «شعاع فى الظلام» فقصة فتاة عمياء، قامت على تعليمها فى تصبر وتجلد سيدة عظيمة من أولئك اللائى منحهن الله القدرة على العطاء، فعوضتها عن هذا البصر المفقود خير تعويض. . هذه هى القصة فى اختصار شديد، يسمح لنا أن ندلف مباشرة إلى الجوانب التصويرية التى أعطت لهذه القصة أبعادها البيانية :

١ ــ ففقد البصر عند الطفلة ليس بالأمر الهين على حسب ما عبرت عنه عبارة أحمد زكى فى بلاغة رقيقة فى أول القصة حين يقول : «ما أشق على الرجل أن يفقد بصره، وأشق من هذا أن تفقده امرأة، وقد نراه فى طفل فنأسى له، ولكننا نأسى أكثر إذا نحن رأيناه فى طفلة، وفاقد البصر يحرم من كثير من خيرات هذه الدنيا، ويحرم أشد حرمان من ثمرات العقول إذا لم تتح له فرصة التعليم، وهى قل أن تتاح لأعمى».

٢ ــ يصور لنا أحمد زكى ـ على لسان الفتاة ــ أول شعاع من نور رأته الفتاة العمياء على يد مدرستها فيقول : «. . ونزلت فى بيتنا، وجاء اليوم التالى، فأخذتنى إلى حجرتها، وأعطتنى عروسا من قطن فى ثوب حرير، ولعبت بالعروس ساعة، وبينما أنا فى أثنائها، فتحت مدرستى يدى، وكتبت فى كفى «عروس» لعبة جديدة تلهو فيها الأصابع، تابعتها حتى حذقتها، فملأنى حذقى إياها فرحا، وثقة وإعجابا، وجريت إلى أمى أرسم لها هذا الرسم الجديد بأصبعى فى كفى، ولم أكن أدرى عندئذ أنى أتهجى كلمة، بل لم يكن يخطر فى بالى أن للكلمات وجودا، وفى الأيام التالية تعلمت بهذه الطريقة كتابة كلمات كثيرة، مثل قلم وساعة وباب، ومن الأفعال : قعد وجلس وشرب وجاع، ومضت أسابيع كثيرة قبل أن أعى أن هذه كتابة، وأن للأشياء ألفاظا مرقومة».

٣ ــ يتقدم بنا أحمد زكى إلى تفصيلات مهمة وطريفة، فى طريقة تعليم المكفوفين على هذا النحو، فيذكر على لسان الفتاة : «واختلطت على ذات يوم كلمتان كلمة «ك و ب» وكلمة «م ا ء»، وألح الاختلاط «رغم ما حاولته مدرستى من إبانة، عندها أخذت بيدى وخرجت إلى الحديقة، ووضعت يدى تحت صنبور ماء، فأحسست السائل البارد يغمر يدى، وهى تكتب فى يدى الأخرى «م ا ء»، وتركز فكرى كل التركيز على يسراى ويمناى، عندئذ انحلت عقدة فى نفسى فرحت لها فرحا شديدا، فى تلك الساعة تكشف لى معنى اللغة لأول مرة، وعدت إلى الدار

مغتبطة أحس كل شيء فى طريقى، وأحسست كأن كل شيء يتحرك عند مسى، لأنه أخذ عندى ينبض بالحياة، لكل شئ اسم، ولكل اسم كلمة، وفى كل كلم فكرة، ومن مجموع هذه الأسماء والكلمات والأفكار تتألف لغة الكلام والكتابة، شيء عظيم، وتعلمت معنى الأم والأب، والأخ والأخت والمعلمة، معان تشع بالنور الأبيض فى حياةٍ كل ما فيها سواد».

٤ ـ وهذه لوحة رابعة رائعة يصور فيها أحمد زكى الفتاة، وقد تقدم بها التعليم إلى المرحلة التى صاغت فيها الجمل، وأدركت فيها اختلاف الفصول والمطر والشجر والطير والأرانب وتفتحت لها أروقة الدنيا، ودرست الطبيعية ثم المعنويات. وهذه هى اللوحة التى يصور لنا فيها أحمد زكى هذا الانتقال إلى مرحلة المعنويات على لسان الفتاة، إذ يقول: «سألتها يوما «ما معنى الحب؟ وكنت جئت لها بزهرات بنفسج جمعتها ذلك الصباح من الجنينة، فوضعت ذراعها حول خاصرتى وقبلتنى، ثم كتبت بأصبعها فى كفى: «إنى أحبك». قلت: ما الحب؟ قالت: إنه هنا، وأشارت إلى مكان قلبى من صدرى، كأننا أحسست بضربات قلبى لأول مرة».

«ولكن حيرنى ما تقول، لأنى لم أتعود أن أفهم الأشياء إلا عند مسها. وشممت البنفسج، ثم سألتها فى شيء من الكلام على إشارة أريج البنفسج هذا هو الحب أو هو بعضه؟ قالت: لا، عندئذ أحسست بدفء الشمس تقع علىّ، فقلت: أهذا هو الحب؟. قالت: لا، فأحسست بالخيبة أن مدرستى لا تستطيع أن ترينى الحب. وذات يوم كنت أنظم عقدا، ولأمر ما أخطأت فى ترتيب حباته، وأخذت أطلب الطريقة إلى تصحيحه، عندئذ كتبت مدرستى على جبينى «فكرى»، فعرفت من ذلك أن الذى يدور فى رأسى هو معنى الفكر. فكان هذا أولا اطلاعى على معنى مجرد، وقد كنت أعرف معانى الأشياء محسوسة.

«عندئذ خطر لى أن أعود فى ضوء هذا المعنى الجديد، فأسأل عن معنى الحب، وكانت الشمس قد غابت».

قالت: «إن هذا الغمام فى السماء لا تمسه يدك، ولكنك تحسينه فى المطر إذا نزل فى يوم صائف، وعندئذ تغتبطين له، وتغتبط معك زهور الحديقة لنزوله، فكذلك هو الحب، لا تستطيعين مسه، ولكنك تحسينه فى قلبك وتحسه الأشياء، فلولا الحب يتخلل الأشياء والناس، ما كانت سعادة، ولولا الحب ما كنت تسرعين إلى الحقل وتلعبين».

«كلام استعصى علىّ فى تلك السن فهمه، ولكنى أحسست بأنه على انبهامه، مد لى خيوطا تربطنى بالحياة وبالوجود».

والقصة الثانية «نزل الستار فحجب النور، ثم ارتفع»، تدور فى نفس الظروف مع فارق الترتيب والزمن، فهى قصة رجل أصابه العمى، ثم شُفى منه، وأحمد زكى يحكى لنا فيها تجربة فقد البصر من ناحيتين، الناحية الطبية المادية، والناحية النفسية، لهذا فإن «نزل الستار» من الأدب التصويرى فى المقام الأول، قبل أن تكون قصة رجل ذهب عنه العمى رويدا رويدا، ثم أتاه البصر دفعة واحدة، فرأى، فعلم أن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

ولهذا فلن نطيل فى استخلاص العبر من القصة إلا بالقدر الذى عبر أحمد زكى فى آخر مقاله حيث قال: «فلنحمد الله على نعم لا ندركها إلا عند افتقادها». وسنعود إليها بعد قليل ونحن نتأمل بعض الصور البيانية التى فيها.

□

وقبل أن نبدأ استعراض الصور البيانية التى أتحفنا بها أحمد زكى، ينبغى لنا أن نقف عند نقطتين:

□ أولاهما: الإشارة إلى سبب ما أحسه القارئ من أن هذا الباب الذى يدرس التصوير البيانى فى أدب الدكتور زكى قد جمع قصتين تدوران حول فقد البصر، وليس من شك فى أنه لا غرابة فى ذلك، فالبصر هو أول الحواس وأقدرها على التصوير وإدراك التصوير، وليس من مجال أروع ولا أبدع لبيان القدرة البيانية على التصوير من هذا المجال الذى يتصل بتصوير أدق الإحساسات والمشاعر.

□ وثانيتهما: المقارنة بين طبيعة القصة فى الحالتين، وكيف استطاع أحمد زكى من خلال الصور، أن يعبر عن الحالتين المتشابهتين، مبينا أثر وجوه الاختلاف من دون أن يشير إلى أنها وجوه اختلاف، وإنما تستبينَ هذه الفروق للقارئ الذى يقرأ القصتين، أو الذى يقرأ هذا الفصل فيدرك الدرجة الرقيقة من التمييز والتفريق التى حبا بها الله أحمد زكى.

ونعود إلى الصور البيانية فى قصة «نزل الستار، فحجب النور، ثم ارتفع» :

- فأحمد زكى يشرح نظرية التعويض من غير تصريح باسمها ، فيقول : «وإذا عمى الإنسان وحجب نوره ، استيقظت فيه الأحاسيس الأخرى استيقاظا غير منظور، فهو يسمع أكثر مما يسمع ، ويشم أكثر مما يشم ، والخشب والمعدن يقتربان منه ، فيدرك اقترابهما بفروق خفيفة من حرارة وبرودة ، والقطن والصوف وقد كان مسها أطول المس ، يمسهما الآن ، فيجد من مسهما شيئا جديدا ، والكلب والقط والناس يصبح لهم إلى جانب الشم هالة ، كأنها هالة من مغناطيسية كهربية» .

- يصور أحمد زكى مراحل العمى فيقول : «وجاءه العمى على مهل ، فأخذ منه متع الحياة واحدة بعد الأخرى : فالرياضة والألعاب ذهبت وأول ما ذهب لعب التنس ثم الكرة ، ثم السيارة ، أخذ سيرها فى يديه يتباطأ حتى صارت أبطأ من حمار، ثم الكتب عزت قراءتها ، ثم امتنعت ، وكذلك الصحف لم يعد يقرأ منها إلا عنوانها ثم ذهبت هذه» .

- صورة أخرى للرجل وقد عاد إليه بصره ، فهو ينظر إلى رجل أمامه ويسأل مَنْ هذا الرجل ، وللرجل صورة ولده الأكبر «إنه لا يعرفه . موقف غريب . يلذ ويؤلم . ويسأل الابن أباه : ألا تعرفنى؟ فيقول الأب فى نفسه : «الحق أنى لا أعرفك يا بنى : ووجهه أزرق كسائر الوجوه ، ولكن مَنْ تكون؟ أنت؟ ابنى؟ لا يمكن هذا ! إن ابنى طفل أو شاب ، أما أنت فكهل» .

ويعود الابن يسأل : ألا تعرفنى يا أبت؟ فيقول فى نفسه : «نعم إنه صوت الولد . . ولكنه ليس الآن بولد . كبر خلسة . . » . . . ويتعارفان .

الفصل التاسع

بعض ملامح الدراما القصصية فى أدبه

يبدو لى أن عاطفة الحب هى جوهر الدراما فى أدب الدكتور أحمد زكى القصصى، وهو حب لا ينال نهايته التى يرجوها، أو حب لا ينتظر المصير الذى كان يعلقه على الأحداث لكى تجلب له السعادة التى يبتغيها، ولنتأمل معا بعض قصصه فى ضوء هذه الفكرة.

(١)

أما القصة الأولى فيرويها أحمد زكى عن طبيب شيخ، أخذ يذكر له ما يتذكره من الذكريات. . كانت امرأة فاتت العشرين من عمرها، قليلة الجسم، رقيقة البنية، جميلة، ناعمة البشرة، مستطيلة الوجه، عيناها زرقاوان، وفمها صغير حساس، لكن فيه قوة العزم واضحة، هادئة النفس، بطيئة الخطى.

وجاءت الفتاة الطبيب فى وقت مخصص لزيارة المرضى ، ولم يكن معها خطاب من طبيبها (على عادة النظام الإنجليـزى) يوصى بها ، واعتـذرت عن ذلك بأنه ليس لها طبيب ، وأنها جـاءت إلى لندن من أقصى شمال إنجلترا توا ، وقالت إنها تعلم ما بها ، وأنها تود أن يجرى لها الطبيب الجراحة . وفحصها الطبيب ، وأخبرها بأنها جراحة خطرة ، وقد لا تكون حاسمة ، ولكنها إن نجحت كان لها البرء الكامل فلم تتردد ، لقد انعقد عزمهـا على أن تتحدى الداء ، وكفى ، وسأل عن أبويها فقالت إنها يتيمـة الأم والأب ولا أقـارب لها ولا أصدقـاء . . ولم يـزل الطبيب بها يلح عليهـا فى أن يحضر عمليتهـا رجل أو امرأة «يعـرف عنك ويعنى بك» ، بل ويشترط عليهـا ذلك ، حتى وافقت أخيرا على أن تأتى بامرأة عجوز ذات قرابة بعيدة بها .

وأخذ الطبيب ينظر إلى هيئـة الفتاة ، وقد جلست على هيئة لا تنم عن حـالها ، وهو يتأمل هذا النزق الـذى أبدته ويبحث عن سببه ، أيـأس؟ « وكل الذى بان لى فى حيرة هذا الخفـاء أنها كانت تـرفع يدهـا إلى صـدرهـا تمس فيه من حين إلى حين دبـوسـا من مـاس ، كأنما تستمد منـه الصبر والإيمان» .

«وأجريت الجراحة فنجحت على غير كبير انتظار ، ونجحت نجاحـا تاما ، ولم يعقبها ارتفاع فى حرارة ، ولا تعقيد كـائنا ما كان ، وأخذ الجرح يلتئم التئـاما سهلا ، ولكن برغم هذا أخـذت حالة المريضـة تسوء يـوما بعـد يوم ، فقـد اعتراها قلق نفسـانى شديـد ، وذهبت عنها الـرغبة فى الحيـاة وصمتت فلم تجب عـن أى سـؤال بغير نعـم أو لا . ورضيت كل أنــواع العــلاج ، ولكن فى غير مبالاة» .

وتتبع الطبيب سبب قلق مريضتـه ، فعلم أنها فى انتظار شىء ، تطلبه فلا يجىء ، كـان خطابا أخذت تنتظره دون جدوى ، فكانت تنظر إلى الباب ، وإلى خطوة على السلم . . «وهل رأى خطابا فى بهو الدار؟ وكـم مرة يأتى البريـد فى اليوم؟ وهل هو يـأتى دائما فى ميعاده؟ وهل حـدث للقطار حادث ؟ وهل يجوز على الخطابات أن تضيع فى الطريق؟» .

وأخذ الدكتور يسأل الممرضات ، فلم يعرفن عن هذا الخطاب شيئا . ثم سأل : هل كتبت هى كتابـا لأحد؟ فكـان الجواب : لا ، إلا خطابـا كتبته قبل إجـراء الجراحة مبـاشرة «وحرصت على أن تضعه فى الصندوق بيدها ، فلم يدر أحد إلى مَنْ كتبت» .

وألح عليها الترقب ، وثقل عليهـا اليأس حتى صار داء ، فلم تعد تنام إلا بـالمورفين ، وجاءها بطبيب نفسانى لعله يعين ، فما أعان شيئا .

وهكذا حتـى جاءتها النهايـة ، وانظر إلى الصـورة المعبرة التى يصف بها أحمد زكى النهـاية على

لسان الطبيب فيقول : «وزادت الحالة سوءا، وظهر أنها آخذة سبيلها إلى الفناء، فلحمها ذاب، وعيناها تغوران، وشدقاها تعظمتا، والدبوس الذى لحظتها تمسه حين جاءتنى أول مرة رشقته فى الوسادة، ولم ترض أن يزيحه أحد عنها، وظلت تلبس هذا الدبوس من حين لحين كلما استطاعت لذراعها رفعا».

«وأخيرا جاءها الموت وأنا فى حضرتها».

«ففى ذلك اليوم دخلت الحجرة على عادتى، فنظرت إلىّ على عادتها، وعيناها تسألان عن هذا الخطاب، وشفتاها تهيأتا على جفافها ونضوبها لأن تتحركا للسؤال عن هذا الخطاب، ولم يكن لى حاجة إلى الجواب، فقد كان فى وجهى الجواب»

هنا قد يظن القارئ - الخبير بقصص الأفلام العربية — أن النهاية ستكون كنهايات هذه الأفلام ولكن النهاية هنا مختلفة :

«وعندئذ جاءتها قوة لا أدرى من أين، فقد تحركت لتشيح وجهها عنى تريد أن تكون وحدها، وبصوت لم أحسب أنها تستطيعه، وهى فى هذه الحال، صرخت صرخة مدوية هتفت فيها باسم رجل، كانت صرخة عتاب، وما صرختها حتى استرخت أعضاؤها، وفارقت الحياة».

ليس من تعليق على هذه القصة إلا سؤالان، أولهما: لماذا كانت النهاية حزينة هكذا. وهذا سؤال كان حريا بنا أن نسأله للطبيب الذى روى القصة لأحمد زكى ولو سألناه لقال لنا إن للحياة نهاية أقسى، وإن على الأسرة البيضاء ما هو أشد.

والسؤال الثانى: لماذا أخفى أحمد زكى السبب الذى أضنى الفتاة؟ هل هى مهارة قصصية؟ أم هو شىء آخر؟ يبدو لى شخصيًا أن مهارة أحمد زكى فى هذه القصة لا تخرج عن أن تكون من هذه النوعية التى تعظم المستور فيبدو الموقف وكأنك سترت عظيما.

(٢)

أما قصة «يا ليته درى» فقصة حزينة، والحزن فيها تأملى، تأمل معى هذه السيدة التى ذهب عنها زوجها منتحرا فى ساعة من ساعات الضيق بالفقر الذى آل إليه من بعد غنى، وكانت زوجته تشاركه فى السراء والضراء، ولم تكن قد عرفت الفقر قبل معرفتها به، ولا فى أثناء حياتها الأولى معه، أما هو فكان فى الأصل فى شبابه فقيرا عرف معنى الفقر بعدما عاناه.

«والأم تأخذ تفكر فيما ورّث الوالد المنتحر أولاده، فتجد أنه ورثهم فيما ورثهم الكفر بالحياة والريبة فى أمر أنفسهم. . والابنة المسكينة تخرج إلى المكتبة تطلب قصة، وتسأل عن ختامها، فيقول أمين المكتبة أو أمينتها إنها قصة غرام تنتهى بهناءة، فترد عليه الابنة قائلة: رد عنى هذا السخف، وأعطنى شيئا يتفق مع الحياة، شيئا ينتهى كما تنتهى الأشياء بمأساة. والولد تدخل عليه كرها مفارح الحياة فيغتبط قليلا، وتدخل عليه مفارحها فى غير استئذان، فينقبض كثيرا، ويشتد عليه انقباضه حتى يحسب أنه المزاج الذى قضى على والده وأنه بدأ يلعب دوره بالوراثة فيه. . إلخ». وهكذا «تطيل القصة فى وصف مظاهر المأساة التى تعبر لنا عنها على نحو دقيق لا يتأتى إلا لذوى البيان العالى.

ثم يحدثنا أحمد زكى عن الفقر كيف دفع بالرجل إلى الانتحار، فقد عاد إليه خوفه القديم، خوف الفقر، وخوف الحياة، وعملت الزوجة ما استطاعت ليفى المورد الضئيل بالحاجات المتضائلة، ونظرت إلى الفقر على أنه شىء طارئ إلى زوال، بينما كبت الزوج الأمر فى نفسه، وفكر فى أقساط التأمين وشبحها

«إنه لابد أن يفى بأقساط لا سبيل إلى الوفاء بها، وأنه على الموت سينال أهله التأمين كاملا، وفعل فعلته، وأكسب أهله قدرا من المال وافيا».

وهذا هو جوهر المأساة فى هذه القصة. . وفيه العقدة أو فيه الحل أو فيه الحل ثم العقدة، ولست أستطيع القول إن أحمد زكى هو صاحبه الأول، فقد قرأت هذه الفكرة من قبل فى قصتين إحداهما فى الأدب العربى، والأخرى فى الأدب الإنجليزى وليس فى استطاعتى الآن أن أحقق أى الثلاثة كتب أولا ؟ وليس فى هذا ما يهم القارئ من قريب ولا من بعيد ولهذا فسأنتقل إلى الوجه الآخر فى حل العقدة، وهو النظر فى فلسفة أحمد زكى التى نظر بها إلى هذا الحل، وموقف أحمد زكى يجريه على لسان الزوجة، إذ قالت لنفسها: «كيف ساغ عنده أن فى وفاء حاجة الجسم غناء عن حاجة النفس، وهو لو عاش لكافحنا سويا وكان لنا فى الكفاح على الإخلاص لذة؟؟».

وليس هذا إلا صدى لإيمان أحمد زكى العالم المؤمن بأن حاجة النفس فوق حاجة الجسم، وهو أمر لا يحتاج إلى تعليق الناقد أو إلى لفته نظر القارئ إليه.

ولكن هل تحظى هذه الفلسفة بالقبول عند الناس، وفى مجتمعات البشر؟ يقرر لنا أحمد زكى هنا رأيه: لا.

وهو هنا يقرر الأمر فى صورة قصصية فيجعل قلم المؤلف يعقب على فكرة الزوجة التى تساءلت بها فيقول: «ولكن لمن تقول؟ والأذن التى تريد أن نسمعها ملؤها التراب»، وسواء كان ملؤها

التراب لأنها ميتة، أو كانت من طين وعجين وهى حية، فهذه هى الحقيقة المؤلمة التى بنى أحمد زكى مأساته فى هذه القصة القصيرة، ولكن هل هى قصيرة حقا؟

(٣)

«إنه قضاء الله» قصة ميلودرامية أخرى ليس فيها أحداث كثيرة، ولكنها قصة طباع والطبع يعبر عنه بالموقف أو الموقفين، وليس فى حاجة إلى تنمية للشخصية من خلال مواقف متتالية تأتى بين فصول قصة طويلة، إنما هو طبع وخلق، فى أشخاص، فى أوقات حتى صار ظاهرة.

وأبطال هذه القصة ثلاثة: أب وزوجته وابنته، والأب سكير، والبنت ضعيفة الجسم لا تقوى على العمل، ولهذا تقوم الأم بكل الجهد فى تسهيل الكسب الذى يقوم بالحياة لهذه الأسرة، هكذا كان قدرها، إنه قضاء الله، ولكنه لم يكن قضاء الله الذى انتهت إليه قصتنا.

ذلك أن الزوج، كان يغتصب أجر زوجه فينفقه فى شراب ليلة واحدة، زائطا صارخا معربدا بين بطانة السوء، وهو الأجر الذى عملت بإبرتها فى تحصيله خمس عشرة ساعة قضت أكثرها فى المشغل وأقلها فى البيت.

«وهو إذ يغتصبه منها كان لا ينتزعه إلا بضرب وركل يسود عينها، أو يجرح جلدها، وكان يؤتيه هواه فى ضربها وركلها فيشفى هواه من ذلك فى الليل أو النهار»، «ومن الغريب أنه حين كان يفعل بها ما يفعل من أذى كان يقف دائما عند الحد الذى تعجز عن العمل إذا ما زاد عليه، فكأنما فى صحوه أو فى سكرته يدرك هذا الحد الذى إن تخطاه فقد بتخطيه الثمن الذى كان يدفعه فى الشراب، فامرأته وحدها كانت مصدر ما كان يمكن أن يأتيه من مال».

إلى هنا صار الخط الدرامى فى هذه القصة واضحا، فهو يؤذيها، ولكن بقدر، ليؤذيها ثانية، وتتكرر المواقف.. ولكن أحمد زكى سرعان ما يأتى بالحدث الذى يجعل فى الأمر قصة، ويكسر دائرة التكرار، ويضع للأمر خاتمة، وإن كانت مأساوية، فالسيدة تعمل على ضوء مصباح، ويأتيها زوجها فى يوم، وهو سكير كعادته، فيطلب إليها أن تشترى له هو الآخر مصباحا، ولم يكن الزوج يقرأ، ولا كان فى حاجة إلى مصباح.

واشترت له المصباح فى اليوم التالى، وزينته بحيث يحوز أعظم قدر من رضا الزوج، وعاد صاحبنا فوجد البيت مضاء جميلا، فراعه ذلك الجمال، وافتعل المشاجرة مع زوجته وقذفها

بالمصباح فأشعل النار فى ثيابها ، ثم ناولها المصباح الثانى من الناحية الثانية فأحاطتها النيران من كل جانب ، وحاولت ابنتها أن تنقذ الموقف فلم تستطع ، وجاء الجيران ، وحملوا الزوجة المسكينة ملفوفة بكل ما وجدوه ، ومسرعين بقدر ما أمكنهم إلى المستشفى وهناك أدرك الطبيب أنها مفارقة الحياة عن قرب ، فجاء بوكيل النيابة ليأخذ أقوالها قبل أن تذهب عنها الروح ، وأومأ النائب إلى الطبيب أن يخبرها أنها مفارقة الحياة ، فأومأت بما ينبئ عن إدراكها لذلك ، وعندئذ سألها النائب : مَنْ فعل بك هذا؟ وما فرغ من سؤاله حتى اقتربت الآذان تتلقف ما قد يخرج من فمها من كلمات ، وبعد جهد خرج من فمها فى بطء شديد ما يلى : لم يفعل بى ذلك أحد . إنه قضاء الله .

هنا انتهت القصة ، ولكن أحمد زكى لم ينهها ههنا ، وإنما عقب بقوله : ثم غابت عن وعيها ، ثم فاضت روحها ، وارتفع صوت من الجميع يقول : «إنها كذبة قد تجوز على قضاة ، ولكنها لن تجوز أبدا على قاضى السماء» .

وكأنما أراد أحمد زكى بهذه العبارة أن يضع العبرة ، ولا يترك الأمور هكذا بحيث تذهب نفس القارئ فى تأثرها إلى الكفر بالعدالة فى الإنسانية ، مهما آمنت بهذه الصورة التى بذلت الزوجة فى حياتها وفى مماتها! وخاصة أنها مثال لزوجات كثيرات .

ليس من شأننا هنا أن نعبر عن اهتمام أحمد زكى بأمر المرأة المظلومة المضحية العظيمة فى كل ذلك . وإن كان قارئ هذه القصة لا يستطيع أن يعبر إلى الجانب البيانى من دون أن يشير إلى هذه الناحية ، وإلى الوجهة الاجتماعية الإصلاحية فى القصة على العموم .

إنما يجب أن نعمد ونحن نحاول أن نستلفت النظر إلى المهارات البيانية إلى أن نشير إلى العبارات التى صور فيها أحمد زكى المرأة ، وقد أصابها الحريق فى كل جسمها ، وقد وضعت على سرير المستشفى : «فوجدوا امرأة قد ضاعت معالمها أو كادت ، فملابسها تلزقت وتصلبت ، ومن الرماد الذى تخلف من هذه الملابس عند صدرها برزت إبرتان كانت لاشك رشقتهما عند موضع ثديها ساعة توقفت فى عملها ، ووجهها تبدل فانكشف عن عينين مغمضتين لا رمش لهما ، ولا حاجب إلا خطوطا رقيقة سوداء ، وشفتاها تضخمتا فكانتا كالكرة انتفاخا ، وخداها تفحما لولا بقعات برقت كما يبرق الدهن على الشواء» صورة أدبية رائعة البيان ، وهى مع ذلك أقرب

الصور إلى الصواب (دقة وشمولا) إذا طلبت الصورة الإكلينيكية لحريق من طالب طب فى امتحان السنة الرابعة .

(٤)

أما القصة الرابعة «فى أسمالها تغنى» فهى قصة فتاة يتيمة ، ولدت فى أحد الأزقة وقام بتوليد أمها الباغت قابلتان . . رجل من رجال البوليس ، وامرأة عابرة ، فقد كانت الولادة فى الفجر ، ولم يكن فى الطريق غير هؤلاء ، ولما بلغت من عمرها الشهرين تركتها والدتها ، فكفلها أبوها إلى سن الخامسة عشرة ، وكان بهلوانا جوالا فذهب بها مع جماعتها فى كل أرض .

وحين بلغت الثالثة عشرة أدرك أبوها لأول مرة أن لابنته صوتا حسنا ، فكان يريدها على الغناء فى المقاهى فى كل بلد حلّ به ، وفى هذه المقاهى تتلمذت ، وفيها تدربت على الغناء ، ودللها الناس ، فأحبت تدليلهم ، ولكنه لم يفسدها ، وعملت جاهدة فى كسب رزقها الحلال .

فلما بلغت عامها الخامس عشر ، قصدت إلى المدينة الكبيرة ، وصدحت فى شوارعها بغنائها عاما كاملا على غير جدوى ، وكانت تقف فى الطريق تغنى ، والناس ينقدونها قطع الفضة فتنظر إليهم نظرات قاسية ، وكان وراءها رجل يسعى فيأخذ هذه النقود التى تترامى إليها من النوافذ والأدوار العالية ، (هنا يؤجل أحمد زكى أن يدلنا على أن هذا الرجل هو أبوها) .

وساقت إليها الأقدار رجلا من أرباب النوادى الليلية ، فأبدى إعجابه بأغانيها وعرض عليها أن تغنى فى ناديه الفخم ، وبهرها النادى ووافقت على الغناء فيها فى أسمالها هذه .

ولم تبتسم للناس ، ولكنها هزت لهم رأسها بالتحية هزة قليلة ، ووضعت يديها وراء ظهرها واستندت إلى عمود المسرح وأخذت تغنى .

وخرج الصوت قويا عارما ، فيه روح وفيه حرارة تماما كما تصدح به فى الشارع .

وأعجب الناس بها، وصاحوا بها: أعيدى.. أعيدى.. وظلت على حالها هذا بضعة أعوام. وأخذت تسير إلى الشهرة فى نفس الطريق الذى سارت فيه من قبلها كبريات المطربات، ولكن الأقدار التى أحسنت إليها بما جمعت بينها وبين هذا الرجل، عادت بعد ستة أشهر تسىء إليها من أجل هذا الرجل.

ذهبت صباح يوم إلى داره لتراجع معه بعض الأغانى، فوجدته مقتولا، وأحرجها البوليس فى سؤاله لها، وانتهزت الصحف فنسجت من هذا الحادث رواية غرامية شائعة أسمتها «ابنة السبيل والرجل الذى عشقها»، واهتدى البوليس أخيرا إلى اللصين اللذين قتلاه، ولكن الجرائد كانت قد هلهلت من أمرها ما هلهلت، فلم تغنها براءتها من تهمة القتل شيئا.

وأصابتها الحيرة بعد أن ذهب عنها صديقها الوحيد فى دنيا لم تلقها أبدا بغير القسوة، وها هى الدنيا تعود لتناصبها العداء مرة أخرى. ولم تدر ما تصنع. وهمت أن تعود إلى الشارع، ولكن سرعان ما جاءها خطاب من مسرح كبير يعرض عليها الظهور عليه، فوافقت، وظهرت على المسرح فاستقبلها الناس بالصفير والصخب، وكان أمامها خطتان أيسرهما صعب: إما أن تهرب كالقطيطة التى جرحت، فوجب عليها أن تركن إلى ناحية لتلعق جروحها، وإما أن تقاتل كقتال الهرة التى ضيقوا عليها الخناق. فلم يعد لها بد إلا أن تدفع بالمخالب والناب فاختارت الثانية، وكسبت دورها الأول بإسكات الصائحين، ورد المشاغبين، ثم أطلقت حنجرتها تندفع بكل ما فى صدرها من قوة، فلما سكنت انطلقت الأيدى تصفق حتى كادت تدمى.

وأخذ الشلل يزحف فى جسدها زحفا، فلما عرفت أنها الغاية المحتومة والأمل المقطوع قالت: «أى ربى، ضربت لى موعدا، وضربوا موعدا، وموعد الرب لابد فيه من وفاء». وبلغ الداء الصدر، فأرادت أن تصدح بالغناء، بالذى بقى من هواء، قبل أن تفوت الفرصة، فكانت شهقة واحدة انطفأت بها بقية من حياة كما تنطفئ شمعة.

وهكذا انتهت هذه «المأساة القصيرة» التى روى فيها أحمد زكى ما كان من شأن هذه المطربة الصغيرة.

ولكن أية عبرة أرادها أحمد زكى من قصته هذه، هل فى ذلك الموعد الربانى الذى قضاه الله فلابد من قضائه قبل الموعد الذى ضرب الناس، ولو كان فى هذا الموعد البشرى المجد البشرى كله؟

وخرجت من المسرح فى تلك الليلة ، وقد آمنت بأن الله أودع فى كيانها شعلة لا يمكن أن تنطفئ ، لأن الله موقدها . . وأخذت تعمد إلى المؤلفين ليكتبوا لها الأغانى الجديدة ، فكان لهذه الأغانى الجديدة عمل السحر فى تجاوز ما كره الناس منها ، وكانت تحرص عند غنائها على ذكر اسم مؤلف الأغنية إشهارا له ، وتنبيها عليها .

«ورتبوا لها حفلا تبلغ فيه الذروة ، واجتمع الناس وامتلأ بهم المكان ، ولم يبق فى المدينة نابه إلا حضر ، كلهم حضروا إلا واحدة هى صاحبتنا ، أصابها ، وقد شاب النهار ، تخاذل فى الساقين لم تحفل به ، وقامت تتزين فأحست بثقل فى الساقين ثم أرادت أن تمشى فعجزت ، وبينما كان مكان الحفل يصطخب بمن فيه ، كانت هى على سريرها بالمستشفى وحيدة إلا من صاحب وصاحبة ، وانتبهت بفكرها نحو ذلك الجمع الحاشد ثم إلى السماء ، ولم تدر فى ذهولها ماذا تقول وقد علمت أنه الشلل» .

هل هو الحظ السيئ يلاحق هذه الفتاة فى حياتها منذ ولدت فى الشارع ، وحين قضت حياتها بلا مأوى حتى قضت حياتها وهى أحوج ما تكون إلى الاستمتاع بهذه الحياة بعد كل هذا العذاب؟ هل هى قسوة القدر؟

قد لا يكون أى من الأمرين هو غاية أحمد زكى من قصته ولو نظرنا إلى هذه القصة على أنها حكاية يحكيها أديبنا مما قرأه أو سمعه كما يشير عنوان الكتاب الذى وضعها فيه «بين المسموع والمقروء» . ولو كان الأمر هكذا ـ والاحتمال قائم ولكنه احتمال ضعيف ـ لكان علينا أن ننظر لنتأمل إلى أى حد كانت ريشة الفنان المعبرة عن الصورة أو المعبرة فى الصورة ، ولهذا فإنى أرجو القارئ أن يقرأ معى وصف أحمد زكى لفتاتنا وقد أخذت تسير إلى الشهرة :

«وحفظت على المسرح كثيرا مما ظهرت به عليه أول مرة . فهى تحتقر الزينة ، وتلبس البسيط من الثياب ، وينشق الستار فتراها واقفة وحدها على المسرح الهائل كالكلب المقلوب المضروب يتحدى سيده ، وتقف وقفة المعاند كأنما تتحدى سعة المسرح وتتحدى السامعين ، ورجلاها الطويلتان قد تسمرتا بالذى وقف عليه . وشعرها قد تدلى على جبهتها الحالية ، وقد تهيأ لينقذف إلى الوراء عندما يحين موضع النغم وقت انقذافه ، ويداها اللتان كانت تربطهما وراء ظهرها ، تحررتا لتقوم بدور مهم فى غنائها . فهى تحركهما إفصاحا وتعبيرا حتى تكادا تنطقان . فيفهم الرائى منهما ما يفهم من الكلام . فحينا تجرى بهما أصابع على أوتار عود لا وجود له إلا فى خيالها . وحينا تطويهما كفين يخرج من بينهما الصوت المنغوم خافتا كأنما تسريه إلى أذن بعيدة محاكاة وتمثيلا» .

هذا وصف علمى تشريحى كالعادة الغالبة على كثير من أوصاف أحمد زكى التى يصل فيها إلى

القمة كمصور للشخصيات وكأنه الفنان يرسم البورتريه . وأنت تطالع أوصافه فلا يدهشك أن تلحظ فيها أثر عقلية العالم الذى يصف على نحو مرتب ، وقد لا يهمه أن يبدأ بأبرز الأمور أو بما يراه أبرزها أو أشدها تأثيرا على السامع والقارئ ، وقد لا يهمه أن يبدى شيئا واحدا ويسلط عليه الأضواء ويتعمق فيه ، ولكنه قبل ذلك كله معنى بالصورة الكلية التى تتكون من الأجزاء موصوفة جزءا جزءا ، فهذا الملبس ، وهذه الوقفة ، وهاتان الرجلان ، والشعر ، واليدان ، وحركتهما .

وهذه فقرة ثانية يحدثنا فيها أحمد زكى عن أغانى بطلة القصة ويطيل فيقول :

«وكانت تختار من الأغانى القوى الحار. ومن أغانيها الشهيرة أغنية فى الزواج الفاشل ، وهى أغنية تمثل امرأة قتلت زوجها لأنه خانها ، وفى دار البوليس تستمتع إلى أجراس عرسها القديم الذى كان ، وتتخيل حياة السعادة الأولى. ثم إلى الريبة التى جاءت من بعد ذلك . ثم الشقاء آخر الأمر» ولنا أن نسأل ما هو الغرض من الحديث عن هذه الأغنية؟ وإلى أى مدى يتلون إيحاؤها فى قصة صاحبتنا .

بل ما بال الأغنية الثانية التى سمتها «رجل يتبعنى فى الطريق» ، وهى أغنية تغنيها عاهر تصف فيها من تلقى من رجال . وكيف يضيق صدرها بهم ، وما يصيبها منهم من ميعة نفس يكاد يتبعها قىء . قد لا يستطيع القارئ الصادق مع نفسه إزاء وصف هاتين الأغنيتين ، إلا أن يقول لقلمه أن يتصرف فى «البنائية» المحكمة للقصة بحيث يخرج منها ما لا تقتضيه دواعيها .

هذا إذا كان عليه أن يمضى فى البناء القصصى المسلك التقليدى ، ولكنه لم يمض فى هذا البناء إلى غايته ، بل منذ البداية ، وانظر على سبيل المثال إلى هذا التناقض الزمنى فيما يتعلق بالمدة التى قضتها تغنى فى ملهاها الأول هل هى مدة سنوات أم ستة شهور كما عبر أحمد زكى فى موضعين مختلفين من قصته؟؟

قد يمكننا القول كذلك بأنه ليس فى القصة عقدة ، وإنما اعتمد أديبنا فى التشويق مذهبا من مذاهب التدوير ، لا يبدأ بالخاتمة ، وإنما يبدأ بحدث من أحداث القصة فى وسط حياة الفتاة يوم وقفت فى الشارع فرآها رائد الملهى فأعجبه صوتها فأخذها إلى حيث أبرز من فنها ما نال الإعجاب .

على أن قصة أحمد زكى مع كل هذه الملحوظات تنال من الإعجاب الإنسانى الحد الذى قد لا تبلغه عند النقاد المتزمتين .

□

ها نحن قد رأينا كيف عرض لنا هـذا الفصل أربعًا من هاتيك القصص، أولها قصة «خطاب يا ليته وصل»، إذ لـو وصل ذلك الخطاب لأنقذ البطلة من أقسى النهايـات الدرامية وهى الموت. والقصة الثـانية تحمل أيضا كلمة التمنى ليت فى عنـوانها «يا ليته درى» ولو درى البطل حقيقـة ما فعله حين انتحر ما أقبل على الانتحار الذى ظن فيه مكسبا لعائلته التى أحبها وأراد أن يبرهن على حبه لها بانتحاره.

أما القصة الثالثة فقصة زوجـة لا تدرى هل تزوجت عن حب أم لا، ولكنها تدرى أنها أحبت من تـزوجت وعملت بـالحب على إسعـاد مَنْ أنجبت على الرغم مـن ذهاب كل المقـومـات التى تستبقى هذا الحب أو بعضه، ولا يـزال بها الأمر على هذا حتى يذهب هـذا الحب بحياتها على يد زوجها فتأبى وهى تلفظ أنفاسها أن يؤخذ بجريرة مـا فعله بها وتقول: «إنه قضاء الله»، وهذا هو عنوان القصة.

أما القصـة الرابعة فقصة فتـاة «غنت فى أسبالها» فلم يغنها الغناء ولا أغناهـا، ولكنه ذهب بها من فاقـة إلى فاقـة، ومن أسبال إلى أسبال، حتى ذهبت إلى الآخرة قبل أن تغنى كما ينبغى لموهبتها، وقد مضت وهى لا تزال فى الأسبال !!

الفصل العاشر

عنصر المصادفة فى البناء الفنى للقصة

لابد أن نقدم بالقول بأنه ليس مما يعيب أحمد زكى ولا أمثاله من رواد مرحلة النهضة فى الأدب القومى أن تكون المصادفات من الصيغ الغالبة على أعمالهم القصصية التى يبدءون بها القصة فى الأدب العربى أو فى غيره من الآداب التى دخلت إليها القصة بعد نهضتها فى آداب أخرى.

إنما ينبغى على الناقد أن يمحص الدرجة التى تلعب فيها الصدفة الدور فى حل العقدة أو سلسلة الأحداث أو النمو الزمنى، ومدى إسهام ذلك كله فى صياغة الفن ثم الإدراك الفنى السليم لمقومات العمل الفنى.

ومثل هذا التمحيص لا يتأتى لدارس الأدب أن يصل به إلى قارئه إلا بعد عرض القصة على النحو الذى لا يذهب بجمالها من أجل إبراز قدرة صاحبها، بل إن هذه القدرة لن تتجلى بمعزل عن الجمال الفنى الذى هو أروع صور العمل الفنى.

ولهذا السبب فسوف نستعرض فى هـذا الفصل أربع قصص لأحمد زكى لعبت المصـادفة فيهـا دورا كبيرا حتى غلب على القصة طابعها ، أولها قصة «وفاء متبادل» يريد كل طرف أن يتم السعادة للآخر فإذا نتيجـة فعله النبيل تصيب الهدف المعاكس تماما ومن العجيـب أن هذا يتكرر فى نفس اللحظة بين طرفى الحب : الزوج والزوجة على نحو ما سنقرأ فى قصة «تنافس الأحباب» ، أما قصة «خشيته الأولى» فقصة طبيب تزوج أول فتاة عالجهـا من الانتحار وكانت المصادفة فى هذا العنصر فحسب ، وأمـا قصة «تسعـة تصيب وعاشرة تخيب» فقصـة طبيب آخر يصيبـه القدر فى العمليـة العاشرة بما يضيع النجاح الذى أحـرزه فى التسعة السابقة ، وأما الرابعة فقصـة «هدية يأبى المهدى إليه الاحتفاظ بها» ، وتدور تهدى من صديق إلى صديق حتى تباع فى السوق فيشتريها المهدى الأول ليهـديها مرة ثـانية من دون أن يـدرى إلى الطبيب وهـو فرح أن أحضر مـا يكمل الهدية زوجـا من التماثيل ، وهذه هى قصة «قطعة من الفن رائعة» .

□

أما «تنافس الأحباب» فقصة زوجين حبيبين ، وتقع أحداثها كلها فى ليلة العيد ، قامت الزوجة إلى صندوق صغير ادخرت فيـه ما استطاعت من نفقـة الطعام على مدار العام ، وأخـذت تعد ما ادخرته لهذا اليوم الذى كانت تحلم به رمزا للمحبة ، وعنوانا للإعجاب ، فلم تجد إلا مائة وعشرين قرشا كلها قروش وأنصاف قروش . وداخلهـا الهم ، وصعد الدمع إلى عينيها ، وقامت إلى المرآة تنظر إلى وجهها فيـه ، لقد تغير وجهها ، وإنما كانت تنتـوى بيع شعرها الجميل هذا ، وحلت شعـرها ، ومشطته ، فـانسدل على كتفيها انسدالا ، واستطـال ، ورشته ، فلم ، ثم جمعته وقصعتـه ، ووضعته حيث كان أول الأمـر ، ونزلت مسرعـة بعد تـردد ، ووقفت عند دكـان كتب عليه «مـدام سمسون» عندها كل ما يصنع من شعر واستجمعت قواهـا ، ودخلت فعرضت على مدام سمسون شعرها ، وفحصته السيـدة الخبيرة بالشعـر ، وقالت : خمسة جنيهـات ، فقالت الفتـاة : أعطينيها وأسرعى ، وأخذت صـاحبتنا الجنيهات الخمسة ، ومضت تبحـث فى واجهات المحلات عن الهدية المنـاسبة التى تقدمها لزوجها فى العيد السعيد .

وما زالت فى حيرة بين هذا وذاك حتى استقر رأيها على أن تشترى له سوارا جميلا لساعة يد ، فقد كانت ساعة يـد جميلة ، قيمة حقا ، ورثها عن أبيه ، ولكن حزامها وكـان من جلد أسود بلى ، وكاد ينقطع ، ويضطر زوجها أحيانا إلى النظر فى ساعتـه وهو مع الناس ، فيختلس إليها النظر اختلاسا «فسوار من بلاتين ، ولو قشرة ، لابد واقع من نفسه أحسن موقع ، وعندها سوف يستطيع الزوج أن يبرز ساعته للملأ فى غير استحياء . . جمال فى الساعة العتيقة ، وجمال فى سوارها» .

•

وعادت الزوجة، إلى البيت، وأحمت مكواة شعرها، ثم دارت على ما بقى من شعرها القليل تكويه خصلة قصيرة من بعد خصلة، وأخذت تنتظر زوجها، ودخل فإذا عيناه تتعلقان برأس صاحبته، وتعلقتا به طويلا، وانتفضت الزوجة المسكينة من مكانها تريد أن تقرأ فى وجهه ما خط فيه، فلم تقرأ شيئا واضحا، لم يكن ما قرأته فيه غضبا، ولا دهشة، ولا فزعا، ولا حتى عدم رضا، لم تقرأ فى وجهه شيئا مما كانت تتوقعه قط فصاحت به: عزيزى، لا تنظر إلى هكذا، لم تكن لى مندوحة من قص شعرى، ولقد قصصته وبعته لأشترى لك هدية فقل لى: كل عام وأنت بخير، وابتسم لى، ولنفرح معا. . قال الزوج وهو فى ريبة مما سمع: أنت قصصت شعرك، قالت الزوجة وهى فى ضيق: نعم قصصته أفكنت تحبنى من أجل شعرى وحده. . والزوج يقول وكأنه فى غيبوبة: وبعته من بعد ذلك، قالت الزوجة: نعم بعته من أجلك، وإنى أحبك بعدد شعراته فقل لى: إنى فعلت خيرا، ولكن الشاب يخرج من ذهوله ويضم إليه زوجته، ثم يخرج من جيبه شيئا ملفوفا يدفعه إليها وهو يقول: لا يا حبيبتى ليس شىء من شعر أو غير شعر، يستطيع أن يؤثر فى حبى لك مثقال ذرة، ولكن دونك هذه الربطة، وعندئذ تعلمين لأى شىء أذهلنى حديث الشعر أول وهلة. . وفكت الزوجة الربطة فى سرعة فما رأتها حتى اندفعت فى البكاء، كانت صندوقا فيه تلك المجموعة من الأمشاط التى صنعت من سن الفيل النادر، وعلى جوانبها بريق الجوهر، تلك المجموعة التى طالما رأتها فى نوافذ المخازن واشتاقتها وتمنتها. . وضمت الأمشاط إلى صدرها، ونظرت إلى زوجها من خلال الدموع، وقالت: «إن شعرى يا عزيزى ينمو بسرعة. . فلا يهمك».

وتذكرت هديتها إليه، وبسطت سوار الساعة على كفها، ومدت يدها إليه تقول: هذا لساعتك الجميلة يا عزيزى. . هات ساعتك هات لأرى كيف تكون على رسغك بهذا السوار، قال الزوج الشاب وهو يقهقه استغراقا، وقد وضع يده اليسرى، حيث اعتاد أن يحمل ساعته، وراء ظهره: دعينا من الهدايا وذكرها الآن يا عزيزتى. أو فاعلمى الآن ما أنت لابد عالمته، إنى بعت الساعة لأشترى لك هذه الأمشاط!!

☐

لابد أن نشير هنا إلى أن البطل والبطلة ـ وهما كل شخصيات القصة اللهم إلا إذا أضفنا مدام سمسون ـ مثلان رائعان فى التضحية، ولكن يبدو أن أحمد زكى وهو نصير المرأة يأبى إلا أن يجعل تضحية المرأة أعظم، فهى تضحى بجزء منها، بشعرها، أحد أسباب أنوثتها، وجمالها، ولا محل للقول بأنها ضحت بها إلى عودته سبيل حين ينمو فى حين ضحى الزوج بساعته إلى الأبد، ذلك أن العواطف فى رأيى لاتقاس إلا بالعواطف، ولا تقاس بالماديات.

وفى الغالب أن القارئ أحس بأننا فى عرضنا قد اختصرنا الجزء الأكبر من النصف الأول من القصة، فى حين اختصرنا من نصفها الثانى جزأه الأقل، وإنما أردنا بذلك تأجيل هذا الجزء الأول إلى حيث نسبقه هنا بالإشارة إلى أن أحمد زكى لم يترك القصة تتحدث عواطف مطلقة تتحكم فى أصحابها فحسب، وإنما كان حريصا على أن يبرز الدوافع، والدوافع المناقضة، انظر إليه فى تصويره للزوجة وقد عادت بالسوار إلى البيت، وقد صارت بلا شعر وهو يصف هذه اللحظة فيقول :

«وعادت الزوجة إلى البيت، وما كادت تدخله حتى أحست بأن الوعى الذى كان فارقها بعضه، وهى خارج المنزل قد بدأ يعود، وعادت الرزانة تحل محل الخفة، والنظر فى العواقب أخذ يشتد، لهذا قامت توا إلى مكواة شعرها، فأحمتها، ثم دارت على ما بقى من شعرها القليل تكويه خصلة قصيرة من بعد خصلة، ولما فرغت تراءى رأسها كرأس الفتى تموج شعره، وظهر الخبث فى عينه».

«ونظرت إلى نفسها فى المرآة فهالها ما رأت، وهالها ما يكون من أمر زوجها إذا هو رآها، ولكن ماذا كانت تصنع غير ذلك، والصندوق ليس به إلا عشرون ومائة قرش، والعيد ليس بينها وبينه غير يوم».

ولنتأمل أخيرا فى هذه اللوحة الصغيرة التى تعبر عن لحظة ترقب الحبيب للحبيب :

«ودقت الساعة السابعة مساء، موعد حضور زوجها من عمله، والشاى كان جاهزا ماؤه فوق النار، جزلتا اللحم كانتا حاضرتين تنتظران النضج والتحمير، وبغتة تسمع وقع قدميه على درجات السلم السفلى، رويدا يقترب وقع الأقدام، واصفر وجهها بعض اصفرار، ولكنها عادت فامتلكت قواها، وانفتح الباب ودخل الزوج . . يا للمسكين، ويا لمظهره! لم يكن تعدى بعد الثانية والعشرين من عمره، ولكن ظهر عليه أنه يحمل هم الدنيا»! «إنه تنافس الأحباب».

□

أما القصة الثانية من أدب المصادفة «مصادفة سعيدة» فقد كتبها أحمد زكى من ثلث قرن أو يزيد، ولو كتبها اليوم لقلنا إنها للسينما المصرية، فهى مع شىء من التطويل البسيط تصلح فيلما جميلا.

هذا طبيب شاب يسأله أحمد زكى عن الخشية فى الطب ويتطرق الحديث إلى خشية ذلك الطبيب الأولى، فيروى له الطبيب أنه كان طبيبا مبتدئا يتدرب على العمل فى المستشفى ودق

التليفون في الرابعة صباحا، فإذا سائق النقالة يطلب إليه أن ينزل على عجل إلى حجرة الحوادث. ولم يشأ صاحبنا أن يوقظ زميله الطبيب الآخر، وأحس بالثقة فى نفسه، وأخذت السيارة تنهب الشوارع نهبا حتى إذا كانوا فى الطريق خلا الطبيب إلى نفسه، بعد الذكريات التى مرت بخاطره سأل سائق الإسعاف عن الحادث الذى هما ذاهبان إليه، فأخبره بأنها فتاة انتحرت بإطلاق غاز الاستصباح فى حجرتها، وعقب السائق بأنه على ما يظن حب خاب، ونزل من السيارة فحدجته الأعين، وإذا بصوت رجل من رجال البوليس يقول: اتبعنى يا دكتور.

وبلغ الطبيب الحجرة فأمر بفتح النوافذ، وصاح بمن فيها أن يخرجوا، واختبر النبض فوجده سريعا مضطربا، وتمتم بالذى رأى، وأخرج من حقيبته حقنة كورامين، وحقنها فى الوريد، فتحسن نفسها، وهبط نبضها إلى مائة، وأمر الشرطى بأن ينزل فيأتى بأسطوانة الأكسجين.. وجاء الأكسجين وأنشقها إياه حتى أفاقت، وفتحت عينيها ونظر لها فكأنما نظر لأول مرة فرأى فتاة جميلة فى العشرين من عمرها، وشعر كالذهب، وشفة كالعناب، وعين فاتنة، فقال لها أهلا.. وغمز لها بجانب عينيه مداعبا، ثم طلب إلى رجال الشرطة إعطاءها أكسجينا لمدة نصف ساعة تنقل بعدها للمستشفى لتبقى زمنا تحت الرعاية، وعاد صاحبنا إلى المستشفى، وقد نسى إلى الأبد ما كان من أمر القلق والخوف الذى ساوره فى طريقه إلى الحالة.

ولكن ماذا كان أمر الفتاة؟ هكذا سأل أحمد زكى قال الطبيب: كان من أمرها أنى تزوجتها. إنها أم ولدى!!

هل أدرك القارئ الآن لماذا كنا نحرص على الاختصار فى سرد وصف الإجراءات الطبية، ولكننا مع ذلك لم نصرح له بنتيجة الصدفة.

ونستطيع أن نجزم مع القارئ بأن المصادفة فى هذه القصة ليست لها علاقة بالفن القصصى من قريب أو من بعيد، كل ما فى الأمر أنها شىء طريف فى قصة طريفة، وهكذا الجانب الوحيد المضىء الباقى فى السينما المصرية اليوم!

ولهذا فإننا على الرغم من وضع هذه القصة فى أدب المصادفات إلا أننا سنتناول فيها جوانب أخرى أجدر بالتناول من حيث بذل فيها أحمد زكى من قلمه وفكره فى تصوير المشاعر ما يستحق استلفات النظر إليها للتعلم منها.

انظر معى إلى اللوحة التى يصور فيها أحمد زكى نفسية الطبيب حين كانت السيارة التى تقله فى الطريق لإسعاف المريضة، وهى لوحة تعبر لنا عن قدرة أحمد زكى على إدراك الأحاسيس النفسية الدقيقة، وهى من أوليات قدرات التصوير الفنى فى الأدب على ما أظن. يقول أحمد زكى:

«وأخذت السيارة تنهب الشوارع نهبا إلى حيث يُنتظر منى الإسعاف، فأحسست بأنى بعد بضع سنوات قضيتها فى التلمذة قد صرت فى تلك الساعة طبيبا كاملا، فأنا وحدى ولا طبيب معى، يشرف علىّ ويساعد وينفذ، ويصحح الأخطاء، فالصواب الآن صوابى والخطأ خطئى».

«كانوا فى مدرسة الطب يراقبوننا مراقبة الأم أطفالها، حتى لا نجرى سريعا فنقع كما تقع الأطفال، فكان إحساسنا واحدا لا يختلف، إذا ربطنا إصبعا جريحا أو فككنا خيطا، فمن فوق أكتافنا كان يطل علينا دائما طبيب به سن وله حكمة، يقول: نعم هكذا. أو لا: ليس هكذا».

«إن الذى يعتمد دائما على عكازه، يقلقه أكبر القلق أن يمد إليها يده ذات يوم فلا يجدها».

«وقد أقلقنى خروجى إلى هذا الحدث الأول، وخروجى بلا زميل، أكبر القلق ولكن ما أسرع ما لبث الثقة الهاربة عندما ناديتها من أعماق نفسى، وألهانى عما كان يعاودنى من خوف كسرنا كل قوانين المرور المعروفة فى الطرقات، فالسيارة قد أطلقنا لسرعتها العنان، والضوء الأحمر الذى يسد الطريق لم نعبأ به، وذلك على مرأى السيارات جميعا، وكانت كثيرة فى ذاك الصباح على غير عادة، وهى تتخلى فجأة كلما بلغناها لتخلى لنا السبيل».

وفى موضع آخر يصف أحمد زكى حالته بعد أن عرف طبيعة الحال:

«وعندئذ قلت لنفسى: لا حاجة إلى الهلع، وسألتها أن تهدأ، فليس هذا الصباح آخر صباح فى الدنيا، وأخذت على برود مصطنع أستذكر تركيب هذا الغاز وأثره فى التنفس، وفى الدورة الدموية، وكل هذا جاءنى على عجل وأخذت أنظر بعد ذلك فى طريقة العلاج. فى الطريقة المثلى».

□

ومن أدب المصادفات أيضا قصة «تسعة تصيب، وعاشرة تخيب»، وهى قصة طبيب قضى سنوات دراسته فى الكلية محمودا مقدرا ثم تخرج، ونال زمالة كلية الجراحين بلندن، ثم شاء القدر أن يعمل فى عاصمة من عواصم الريف، وعلى الرغم من أنه ساعد طيلة تلمذته فى جراحات كبيرة، إلا أنه لم يقم فى الريف بجراحة ذات بال (تستأهل أن يباشرها زميل من كلية الجراحين بلندن) فكان من ذلك أن نسى الجراحة على توالى السنين.

وأحب، وتزوج، وأحبته زوجه، وكان أكبر إعجابها به، فهو مخلص وجميل وعالم، وعاشا سعيدين، ولا حرج فى ألا نطيل الآن فى وصف سعادتهما كما وصفها أحمد زكى، إنما يهمنا الحادث

الذى تتطور عنده القصة، والمسألة بسيطة، جاءتها الزائدة الدودية ـ بسيطة، لابد من جراحة، ويختار الزوج الجراح، ولكنها تأبى إلا أن يقوم هو بالجراحة «زوجها العبقرى هو وحده القمين بها، وهى لن تثق بأحد سواه، ثم ما فائدة المهارة والعلم والفن إذا لم يبذلها الرجل لزوجته أول باذل».

ويصور لنا أحمد زكى فى عبارات بليغة العوامل التى تنازعت نفس الجراح حتى جعلته يقتنع بأن يقوم هو بالعملية فيقول:

«وعقد إطراؤها إياه لسانه فلم يقل لها إن مجرد فكرة إجرائه العملية تصيب رأسه بدوار، وقلبه بخوار، ومعدته بالغثيان، وذهب تملقها إياه بالبقية الباقية فيه من بصيرة، فاعتزم أن يقوم بها، وزاد فى دفعه ما قد يثيره إجراؤها فى البلدة من أثر محمود، فلا شك أن الناس سيقولون هذا هو جراح ماهر وثق كل الثقة بنفسه، فلم يتردد فى إجرائها حتى على زوجته، وعدا هذا، فمساعده فى إجرائها سيكون زميله طبيب البلدة، ولا شك أنه سيزداد به إعجابا عندما يراه يقلب أحدث ما عرف الطب من أداة للجراحة فى خفة ولباقة إصبع، ثم ثقة زوجته به لابد أن يحتفظ بها، وإيمانها بمهارته لابد أن يحققه، ونسى أن هذه أول عملية «كبرى» جاءته فى حياته الريفية».

من أين جاءت خيبة العاشرة إذن، وليس فى عملية الزائدة هذا الخطر الكبير.

«ولكن ما بلغ من الجرح غوره حتى ظهر له ما لم يكن فى الحسبان، ظهرت له أنسجة ملتحمة مختلطة لا يبين بعضها من بعض، ولم يكن قرأ عن شىء كهذا أبدا، إنها الحالة العاشرة، الحالة المعقدة هى التى تراءت له الساعة على غير انتظار فأخذه القلق، ثم أخذه الخوف».

وهكذا كانت المصادفة السيئة التى ذهبت بروح الزوجة الحبيبة على يد زوجها زميل كلية الجراحين الملكية بلندن فى مأساة ميلودرامية.

وقد يكون هذا مبررا لأن نذهب بهذه القصة إلى موضع آخر يتناول الدراما فى أدب أحمد زكى، ولكنى أعتقد أن العبرة فى الدراما أوفى غير الدراما و فى الفانتازيا وغير الفانتازيا حين نصف القصص بالتوظيف.

□

كانت القصة الأولى من أدب المصادفات مصادفة مؤلمة، وكانت الثانية سعيدة، وكانت الثالثة ميلودرامية، والرابعة إذن على هذا الترتيب التبادلى فيها فرح ومرح، ولكن أى فرح وأى مرح.

فهذا صبى قد ذهب إلى الطبيب بقطعة رائعة من الفن، هدية من والدته إلى الطبيب صاحب الفضل فى إنقاذ حياته، والصبى ووالدته فقيران، ولم يكن أمامها من سبيل لرد جميل الطبيب إلا هذه القطعة من البرونز التى خلفها أبو الصبى:

«كان شمعدانا، حمل الشمع فيه فتاتان، سترتا جسميهما بمثل ما سترت أمنا حواء، كانتا عاريتين عرى الوليد، وابتسمتا للناظر ابتسامة الخبث، (استمتع معى هنا بالوصف لتوفر علىّ الوقت فى إعادة استلفات النظر إليه عند التعليق)، والحمد لله أن كان من واجبهما حمل الشمعة فاستقامتا، إذ لولا ذلك لانثنتا، فخجل الواصف عند الوصف فلم يصف».

وهنا كانت العقدة فقد استحى الطبيب أن يحتفظ بمثل هذا (الشىء) فى عيادته، لأنه ليس بالشىء الذى تسيغه التقاليد وتبش له الآداب «لأن الشيطان نفسه ما كان يستطيع أن يبدع شيئا ألعن من هذا».

وارتاع الصبى من رأى هذا الطبيب فى الفن، وأخذ يقنعه فيصف ما فى التمثال من فن، ولكن الطبيب لا يجيبه إلا بقوله: «أعلم هذا يا بنى، ولكنى رجل متزوج، ولى أطفال يروحون فى البيت ويجيئون، ومرضاى بينهم نساء كثيرات»، ولا يزال الفتى يلح على الطبيب فى الإقناع، ويتأسف له من أنه لم يحضر له لهذا الشمعدان أخا، لأن العادة أن تهدى الشمعدانات اثنين، وما زال الصبى على هذه الحال من الإقناع، حتى أيقن الطبيب أن مثل هذا الصبى لا ينفع معه الجدل، فأخذ التمثال منه، وشكره على هديته، وطلب إليه أن يبلغ والدته هى الأخرى شكره.

هل انتهت القصة هنا، لا ولكنها بدأت وهذا ما يجعل منها قصة جيدة الحبكة إلى الحد الذى يبلغ بحبكة القصة حد الجودة على الرغم من أنها كما نراها تعتمد على عنصر المصادفة اعتمادا كبيرا.

وأخذ الدكتور يتأمل التمثال وهو يحك رأسه ويقول لنفسه: «أما الجمال فلا شك فيه، حرام أن أرمى به أو أن أدقه فأفنيه، ولكنى كذلك لا يمكننى أن أبقيه».

وأخيرا خطر له أن يهديه إلى محاميه، وكان صديقا له، وهو إلى ذلك مدين له بخدمات قدمها له على سبيل الصداقة، وكان هذا المحامى أعزب، مفراحا عرف الدنيا، لما وصل إليه بالتمثال ليهديه له، أخذ المحامى بروعة التمثال، وأخذ يصف جماله.. ولكنه ما أتم قوله حتى اعتذر عن عدم قبوله وطلب إلى صديقه الطبيب أن يأخذه معه، فدهش الطبيب من تصرف صاحبه وسأله عن سر ذلك فقال المحامى «لأن أمى تزورنى هنا، وعندى زبائنى، إذا اكتشفوا مثل هذا عندى يحتقروننى، وأنهن...». وهنا سارع الطبيب يحرج محاميه حتى يقبل الهدية.

وما خرج الطبيب حتى أخذ المحامى يتفحص التمثال عن قرب ويقول: تمثال جميل حقا.. وحرام أن أرمى به، ومحال أن أحتفظ به، ولكن لا.. فلأتخلص منه بإهدائه إلى الممثل الكوميدى فلان صديقى. إن هذا المهذار هو أولى الناس بالاحتفاظ بمثل هذا التمثال.

ومـا عتم المساء حتى كـان المحـامى قد بلـغ دار التمثيل، وذهب إلى حجرة الممثل فى الـدار، وأهداه إياه، وأخـذت الحجرة طوال المساء تـرن بالذى ينطلق فيها من ضحك الـرجال، فما دخل رجل ورأى التمثـال حتى انضم إلى زمرة الضـاحكين. وتأتى الممثلـة بعد الممثلـة إلى باب الحجـرة فتدقه، فيصيح بها الممثل الفكه: لا لا.. لا تدخلى بالله عليك، فإنى عار لم ألبس بعد ثيابى.

ومـا انصرف الـرجـال حتى أخذ الممثـل ينظر إلى التمثـال ويتسـاءل، مـاذا يصنع بـه؟ وتأتى الإجابـة هنا مختلفة عن النتيجة التى توصل إليها صاحبـاه من قبل، (وإلا كانت صدفـا مكررة، ونمطية مملة). وقـال: صاحب الماكياج: تبيعه، والإجـابة هنا جاءت على لسـان البيكادير وكأنما اختاره أحمد زكى من بين رجال المسرح بالذات ليضع على لسانه الإجابة التى هى أنسب ما تأتى إذا أتت من الرجل الذى لا يفتأ يغير.

أخذ الممثل نصيحة صاحبه، وباع التمثال. فماذا حدث بعد ذلك؟ هل انتهت القصة بخروج التحفة من أيديهم إلى سوق الفن، لا لأن النهاية عندئذ لا تكون رائعة بروعة نهايات أحمد زكى.

وإنما جاءت النهاية على النحو التالى:

«فى صبيحة اليـوم التالى كان الطبيب فى حجـرة الدواء يمـزج شيئا منه، وإذا بـالباب يفتح فى عنف، وإذا بالصبى فزع مهتاج لا يكاد يأخذ أنفاسه وفى يده شىء ملفف فى ورق قال:

«يا دكتور.. أتـدرى ماذا صنعت! افرح! افرح معى ومـع أمى، فقد وجدنا للتمثـال أخا هو هذا.. وأخذ يسرد ما قاله من قبل فى فضل الدكتور عليه وهو وحيد أمه. وذهب بالتمثال فوضعه على المنضـدة، وفتح الطبيب عينيه وسعهما، وفتح فـاه، كأنه أراد أن يقـول شيئا، ولكنـه لم ينطق بكلمة».

الفصل الحادى عشر

الظاهرة الطبية فى أدب أحمد زكى

فى أدب الدكتور زكى وقصصه بعض الظواهر التى تنتظمها ظاهرة أكبر يمكن لنا أن نسميها بالظاهرة الطبية . أما تلك الظواهر الجزئية فثلاث :

أولاها : هى الصور واللوحات الطبية التى يتضمنها أدب أحمد زكى على نحو رائع سواء فى المقالات أو القصص ، ، وسواء فى التشبيهات أو التجريدات ، وقد أشرنا إلى كثير من هذه الصور واللوحات فى موضعها .

وثانية هذه الظواهر الجزئية : اهتمامه بأمر الأطباء وضرورة العناية بتعليمهم وتدريبهم ، وتصويره لأحوالهم فى البلدان المختلفة التى زارها ، وروايته للقصص على ألسنتهم ، وتكراره الأخذ من مجالهم .

وثالثة هذه الظواهر : تلك الآثار الأدبية من قصص ومقالات تتعلق بالطب وترتبط به ، وبالأطباء على النحو الذى سنسرده للقارئ بعد قليل .

وقبل أن نحقق فى إجابة السؤال التقليدى هل كان يتمنى أن يكون طبيبا أم لا ؟ يجدر بنا أن نشير إلى الجانب المضىء فى شخصية العالم العظيم الذى كان يحترم الطب ويؤمن بفوائده ، بل يحرص على أن يتناول الحديث من كشوفه واختراعاته بقلمه وهو فى مجلة الهلال لعهد قصير، ثم فى مجلة العربى لزمن ممتد حتى اعتلت صحته عن القيام بهذا الواجب على النحو الرائع الذى داوم عليه .

أكثر من هذا فقد كان أحمد زكى يتولى صياغة الإجابة عن أسئلة القراء واستشاراتهم فى كل فروع الطب والعلاج والأمراض .

ولنتأمل معا مدى تعاطف مفكرنا مع الطب كما يظهر فى عبارة له فى قصة «لابد لها من أنف جديد» حين يروى فيقول :

«وحذرها الطبيب من أن الأنف المطلوب لا يخرج دائما كما يود صاحبه ، ويود الجراح ، ولكنه طمأنها مع هذا بأنه عدل المئات من الأنوف ولم يفلت من يده غير أنف واحد ، ذلك لأن تركيب عظامه كان بعد القطع غير ما قدر» ، وهنا يأبى عطف أحمد زكى على الطب وتقدمه إلا أن يقلب الآية فيستطرد قائلا على لسان الجراح «ومع هذا فهذا الأنف الواحد خرج ، لا على الصورة التى اعتزمها ، ولكن على صورة خير مما كنت اعتزم» .

وأظن الآن أنه لا محل هنا لأن نبحث فى إجابة السؤال الذى أجلنا الإجابة عنه إلى حين اكتشفنا قبل أن ينتهى حينه أن الرجل كان نبيلا إلى أبعد الحدود فى مواقفه من الطب بل ومن الأطباء .

ويعبر أحمد زكى عن أن الطبيب كثير الاتصال بالناس ، بل هو أمسهم بحياتهم وهو فى مقدمة قصة «خطاب ياليته وصل» يقول :

«خطر لى أن أسائل نفسى : أى الرجال أكثر مساسا بالناس ، وأيهم أدور فى عمل يسومه على وجوه الخلق وذكرت المعلم ، وذكرت المحامى ، وصاحب القضاء ، وذكرت المهندس ، ورب الأعمال فى بؤرة المدينة ، وهى تعج بالحياة ، فلم أجد من بين هؤلاء جميعا رجلا كالطبيب الناجح تمر بين يديه طائفة من أرباب الحاجات والعاهات وتستمهل عند سمعه وبصره ، وتأخذ من حديثه ويأخذ من حديثها ما يكفى لإثبات صورهم فى صحيفة ذكراه» .

□

وإذن فهل لنا أن نسرد الآن للقارئ بعض ملامح الظاهرة الثالثة من الظواهر الطبية فى أدب أحمد زكى متخذين من مجموعة «بين المسموع والمقروء» عينة محددة لهذه الدراسة :

□ فقصة «دينار» يرويها طبيب شيخ .

□ وقصة «قطعة من الفن رائعة» تحدث لطبيب، وقطعة الفن هدية تتعقبه .

□ وقصة «خشيته الأولى» ت وبطلها طبيب شاب سأله أحمد زكى : «ومع هذا الاعتداد بالنفس، ألا تأتيك الخشية أبدا»، فقال : «إن الطبيب الذى لا يخشى أبدا، ولا يخاف أبدا، ولا تأتيه الريبة أحيانا فيما يصنع، فالحذر فيما يصنع، ليس من الطب فى شىء» . . فقال أحمد زكى : «حدثنى عن بعض ما جاءتك الخشية فيه، فمضى الطبيب يحكى له القصة التى سنعرضها فى فصل تال» .

□ وقصة «شعاع فى ظلام» ترينا كيف يكون علاج المعوقين على نحو إنسانى رائع . . وصحيح أن المعالجة لم تكن طبية، ، ولكن الجانب الإنسانى فى العلاج يكاد يقترب بالقصة من ظاهرتنا .

□ وقصته «خطاب يا ليته وصل» يرويها طبيب عن حادثة وقعت تحت سمعه وبصره، ولفتاة أجرى لها عملية وأشرف على علاجها .

□ «القصاصة العمياء» لعماها قصة، فقد كانت لها عين واحدة تبصر بها، فكانت حريصة عليها، ثم احمرت فذهبت إلى الطبيب وكان ضعيف البصر، فحدق فى عينيها، ثم أخذ يتحسس بيده على الرف يطلب زجاجة دواء، وهو يقول لها: لابد أن تحرصى كل الحرص على هذه العين، وأنت مهما صنعت فلن تبلغى بالحرص عليها الغاية، وفتح الزجاجة، وأخذ منها بالقطارة بعض ما فيها، وأمال رأسها إلى الخلف وفتح العين وقطر فيها، فكأنما صب فيها جمرات.. لقد تحمس يطلب الزجاجة التى عليها مس «أرجيرول» فوقع على الزجاجة التى عليها اسم «ارجنت»، وكان الأخير محلولا مركزا من أزونات الفضة حارقا. حرق عينها فتحرقت به، وظلت تتحرق به عشرة أعوام انتهت بانطفاء نورها، وزال ألم العين بزوال نورها.

□ وقصة «تضحك والأحزان ملء جلدها»، تدور بعض فصولها عن الطبيبين اللذين يتولون الكشف على بطلة القصة، فأولهما يعالجها فى المرة الأولى من السرطان، ثم هو فى المرة الثانية يخفى عنها النبأ لأنه عرف أنها على وشك الموت مما بها منه، فلم يرد أن يسود أيامها الباقية وأيام زوجها معها.. أما الجراح الثانى الذى تذهب إليه بعد أن شكت فيما طمأنها عليه الأول، فإنه يفكر ساعة لما وجده بها، ولكنه ينكر، ولا تزال به حتى يخبرها الأمر.

□ وقصة «من الناس وإلى الناس» هى قصة صيدلى فى بلد صغير، كان له شأن كبير.

□ وقصة «تسعة تصيب، عاشرة تخيب»، هى قصة طبيب شاب ابتلى فى زوجه، فتوفيت وهو يجرى لها عملية جراحية.

□ وبطلة قصة «لابد لها من أنف جديد» فتاة عانت من كبر أنفها، ثم درست التمريض، وعملت ممرضة، ثم طلبت يدها، فذهبت وأجرت عملية تجميل لأنفها على يد جراح من جراحى التجميل.

□ وقصة «طمأنينة» تحكى عن نوع من المرضى متعب للأطباء، أولئك الذين لا هم لهم إلا أن يستشيروا أكبر عدد من الأطباء، فى سبيل زيادة الاطمئنان على أنهم خالون من الأمراض، وهم فى ذلك يرهقون الطبيب ويستغلون وقته، ظانين أن هذا حق مكتسب لهم بأموالهم.

- أما «نزل الستارة» فقصة مريض أصابه العمى ، ثم عاد إليه البصر بعملية جراحية أصابتها نكسات بعدها ، إنها معجزة من معجزات الجراحة يجب ألا تخيب ، لا من أجل الراحة فحسب ولكن من أجل الطب والأطباء .

- «إنه قضاء الله» تدور الخاتمة فى المستشفى حيث يكتشف الطبيب أن المريضة التى حملوها إليه للإسعاف مفارقة الحياة لاشك ، فينبئ النائب بذلك ليأخذ أقوالها قبل صعود روحها إلى بارئها ، أما ماذا كانت هذه الأقوال فاقرأ عنها فى فصل تالٍ .

الباب الرابع

الببليوجرافيا

الفصل الأول

أعمال الدكتور أحمد زكى

أولا : الكتب

١ ـ سلطة علمية

١٩٤٨ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ١ .

١٩٥٠ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢ .

يتضمن هذا الكتاب عددا من الفصول فى الثقافة العلمية ، ألقاها أحمد زكى كأحاديث إذاعية فى الإذاعة ، وهذه هى فصول الكتاب :

١ ـ سلطة

٢ ـ عندما يسدل الليل على الغاب ستاره

٣ ـ لعاب الشمس

٤ ـ العقول كالبحار لها أعماق

٥ ـ القمح الذى عاش أربعين قرنا

٦ ـ صراع الحى فى سبيل الحياة

٧ ـ حلاوتى مرارتك

٨ ـ قصة الزجاج

٩ ـ لو خير الناس، بين الزجاج والألماس

١٠ ـ نقيق الضفادع

١١ ـ عود الكبريت

١٢ ـ شمعة تحترق

١٣ ـ أول الحياة بيضة

١٤ ـ الحضانة فى الطير

١٥ ـ لماذا تبيض الدجاجة ولكن تلد المرأة؟

١٦ ـ عقول مريضة

١٧ ـ خداع الحى فى سبيل الحياة

١٨ ـ طفولة

١٩ ـ الثلج

٢٠ ـ وادى الموت

٢ـ مع الله فى السماء

١٩٤٨ ، دار الهلال ، ط ١ .

١٩٥٧ ، دار الهلال .

١٩٦٧ ، دار الهلال .

١٩٧٦ ، دار الهلال

يتضمن هذا الكتاب عددا من الفصول فى الثقافة العلمية ، التى تتعلق بعلوم الكون والفضاء والفلك ، وهذه هى فصول الكتاب :

الفصل الأول : ما هذه الحياة ولماذا نحن هنا ؟

الفصل الثانى : عبادة الله بغير علم كعبادة الأصنام .

الفصل الثالث : ما السماء ؟

الفصل الرابع : الأرض كرة تدور .

الفصل الخامس : الشمس وأسرتها : الكواكب السيارة .

الفصل السادس : قوانين الحركة وقوانين الجاذبية .

الفصل السابع : الأرض كرة تدور على نفسها . تفرطح قطباها . ما أسباب هذا؟ وما نتائجه؟

الفصل الثامن : الأرض سلعة الكون العظمى .

الفصل التاسع : جوف الأرض من نار بلا نور .

الفصل العاشر : جو الأرض بحر من هواء نعيش فى أعماقه .

الفصل الحادى عشر : الكواكب السيارة .

الفصل الثانى عشر : الشمس التى عبدها الناس .

الفصل الثالث عشر : المذنبات والشهب .

الفصل الرابع عشر : نجوم السماء .

الفصل الخامس عشر : دنيانا سكة التبانة .

٣ ـ ساعات السحر :

١٩٥٠ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ .

١٩٦٩ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٢ .

يتضمن هذا الكتاب عددا من المقالات الصحفية والاجتماعية التى نشرها أحمد زكى فى مجلتى «الإثنين» و «الهلال» ، وسنسرد فصول الكتاب حسب ما رتبها الدكتور أحمد زكى ، مشيرين إلى أعداد مجلة الهلال التى كانت هذه المقالات قد نشرت فيها أما المقالات التى نشرت فى مجلة الإثنين فلم نستطع تحديد أعدادها بدقة .

١ ـ يعجبنى الشباب إذا (الهلال : ١٩٤٨/١)

٢ ـ قلوب كبيرة (الإثنين)

٣ ـ خواطر عند الحلاق (الإثنين)

٤ ـ للزعامات عورات فاستروها (الإثنين)

٥ ـ تعلمت حكمة من حمار وجزرة (الإثنين)

٦ ـ لـــذة الجـــرام (الإثنين)

٧ ـ دنياك لا تخشها أبدا (الهلال : ٢/ ١٩٤٩)

٨ ـ عطشان يا صبايا (الهلال : ٣/ ١٩٤٨)

٩ ـ حدثنى الجمال قال : (الهلال : ٦/ ١٩٤٨)

١٠ ـ اللهم نسألك الستر (الإثنين)

١١ ـ سلاسل وأغـلال (الهلال : ١٢/ ١٩٤٨)

١٢ ـ الكرة التى تحمل فوق عنقك (الهلال : ٩/ ١٩٤٨)

١٣ ـ الكذب فى قديم الزمان وحديثه (الهلال : ٤/ ١٩٤٩)

١٤ ـ خذوا الدنيا غلابا واغتصابا

١٥ ـ الحمار الحزين (الإثنين)

١٦ ـ علمتنى الحياة (الإثنين)

١٧ ـ حب الأوطان (الهلال : ٢/ ١٩٤٨)

١٨ ـ أصحابى الذين خابوا (الهلال : ٣/ ١٩٤٧)

١٩ ـ قطة الجارة (نشرت فى الإثنين بعنوان آخر : تعلموا من القطط)

٢٠ ـ دفاع عن القديم (الهلال : ١/ ١٩٤٩)

٢١ ـ بادلوهم إيمانا بإيمان (الإثنين)

٢٢ ـ تحرك الزمن ، فتحركت همومه (الهلال : ١٢/ ١٩٤٧)

٢٣ ـ حشاشون ، بلا حشيش (الإثنين)

٢٤ ـ الأكل فن وفلسفة (الإثنين)

٢٥ ـ النسبة والتناسب (الإثنين)

٢٦ ـ أستاذنا معذور (الإثنين)

٢٧ ـ هربوا من الحياة ، فلاحقتهم (الإثنين).

٢٨ـ قــلمى (الإثنين)

٤ ـ بين المسموع والمقروء : قصص من الحياة الواقعية

١٩٥١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

يتضمن هذا الكتـاب عددا من القصص تمثـل معظم الإنتاج القصصى للـدكتور أحمد زكى ، وهذه هى أسماؤها :

١ ـ العطسة التى هزت العالم .
٢ ـ يا ليته درى .
٣ ـ بيوت مسكونة .
٤ ـ الإسكافى الذى ملأ سمع الدنيا فى ليلة .
٥ ـ فى أسمالها تغنى .
٦ ـ ديـنـــــــار .
٧ ـ قطعة من الفن رائعة .
٨ ـ ساعات الحرج ، على المسارح .
٩ ـ خشيته الأولى .
١٠ ـ شعاع فى ظلام .
١١ ـ خطاب يا ليته وصل .
١٢ ـ فأل البيت الجديد .
١٣ ـ القصاصة العمياء .
١٤ ـ محنة كبرى .
١٥ ـ بيت من طين .
١٦ ـ تضحك والأحزان ملء جلدها .
١٧ ـ ساعة فى قطار .
١٨ ـ منعوه أن يدخلها دما ولحما ، فدخلها عظاما .
١٩ ـ حضرية فى أقصى الريف .
٢٠ ـ من الناس وإلى الناس .
٢١ ـ تسعة تصيب ، وعشرة تخيب .
٢٢ ـ لابد لها من أنف جديد .
٢٣ ـ الجنة التى وعد الصابرون .
٢٤ ـ يوم مات أبوها .
٢٥ ـ طمأنينة .
٢٦ ـ شكرا لك يا جدتى .
٢٧ ـ حتى الحيوانات منها المجون .
٢٨ ـ نزل الستار ، فحجب النور، ثم ارتفع .
٢٩ ـ إنه قضاء الله .
٣٠ ـ تنافس الأحزاب .

٥ ـ مع الناس

مايو ١٩٥٤ ، شركة التوزيع المصرية ، سلسلة كتب للجميع ـ ٧٩ .

يتضمن هذا الكتاب عددا من الفصول والمقالات الاجتماعية تدور حول العلاقات الاجتماعية .

وهى :

١ ـ أعياد الناس .
٢ ـ الصيام والناس .
٣ ـ راحة البال فى الناس .
٤ ـ المجاملة بين الناس .
٥ ـ الكلمة التى تفلت من الناس .
٥ـ الشائعات وكيف تروج بين الناس .
٧ ـ أحاديث الناس .
٨ ـ أسماء الناس .
٩ ـ أرزاق الناس .
١٠ـ وجوه الناس .
١١ ـ ملابس الناس .
١٢ ـ صحبة الناس .
١٣ ـ العمل والناس .
١٤ ـ الفكر فى الناس .
١٥ ـ هموم الناس .
١٦ ـ حسن السمعة بين الناس .
١٧ ـ روح الجماعة فى الناس .
١٨ ـ آداب الطريق والناس .
١٩ ـ أوطان الناس .
٢٠ ـ الزعامة فى الناس .
٢١ ـ البطولة فى الناس .
٢٢ ـ الأعزبون المعذبون فى الناس .
٢٣ ـ الناس بين ماضيهم وحاضرهم .

٦ ـ مع الله فى الأرض

١٩٧٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ، ط ١ .

يتضمن هذا الكتاب عددا من المقالات العلمية التى نشر أحمد زكى معظمها فى مجلة العربى فى سلسلة كانت تحمل عنوان «وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه»، وهى تتناول الحياة على وجه الأرض، وتطور مخلوقات المملكة الحيوانية على النحو الذى يبين عن التطور والرقى، وسنشير بين

قوسين إلى تاريخ صدور عدد مجلة العربى الذى نشر فيه الفصل ، أما ترتيب الفصول هنا فهو ترتيبها فى الكتاب المنشور وذلك حسب ترتيب قام به أحمد زكى نفسه قبل وفاته ووجدناه فى تراثه الذى أطلعنى عليه شقيقه اللواء حسن عاكف :

١ ـ أجسام الناس .

٢ ـ الهرمونات (العربى : ٩/ ١٩٧١)

٣ ـ للنبات هرمونات كما للحيوانات هرمونات (العربى : ١١/ ١٩٧١)

٤ ـ الخلائق (العربى : ٤/ ١٩٧٠)

٥ ـ هياكل الحيوانات (العربى : ٥/ ١٩٧٠)

٦ ـ المملكة الحيوانية والمملكة النباتية (العربى : ٣/ ١٩٧١)

٧ ـ التغذية . . والمواد الغذائية . . والهضم والمواد الهضمية (العربى : ٥/ ١٩٧١)

٨ ـ الخمائر (العربى : ٧/ ١٩٧١)

٩ ـ الهضم والتغذية (العربى : ١٢/ ١٩٧١)

١٠ ـ الجهاز العصبى

١١ ـ من هنا تبدأ المسيرة مع الوحدة (العربى : ١/ ١٩٧٢)

١٢ ـ شعبة الإسفنج (العربى : ٢/ ١٩٧٢)

١٣ ـ الحيوانات اللاسعة (العربى : ٣/ ١٩٧٢)

١٤ ـ الديدان المفلطحة (العربى : ٣/ ١٩٧٢)

١٥ ـ الديدان المدورة (العربى : ٤/ ١٩٧٢)

١٦ ـ الديدان المحلقة

١٧ ـ شعبة الحيوانات الرخوة (العربى : ٦/ ١٩٧٢)

١٨ ـ الحيوانات ذوات الأرجل وذوات المفاصل والشعبة المفصلية (العربى : ٧/ ١٩٧٢)

١٩ ـ الحشرات (العربى : ٨/ ١٩٧٢)

٢٠ ـ العقــارب (العربى : ١٠/ ١٩٧٢)

٢١ ـ وقفة بين شطرين من الحيوانات

غير ذات فقار، وذات فقار (العربى : ١٢/ ١٩٧٢)

٢٢ ـ الأسـمــاك (العربى : ١/ ١٩٧٣)

٢٣ ـ الضفــدع (العربى : ٢/ ١٩٧٣)

٢٤ ـ الـزواحـــف (العربى : ٤/ ١٩٧٣)

٢٥ ـ العــظايا أو السحـالى (العربى : ٥/ ١٩٧٣)

٢٦ ـ الثعـــابين (العربى : ٦/ ١٩٧٣)

٢٧ ـ التمـاســيح (العربى : ٣/ ١٩٧٣)

٢٨ ـ الطـــير (العربى : ٨/ ١٩٧٣)

٢٩ ـ البيضة أصل الحياة (العربى : ١٠/ ١٩٧٣)

٣٠ ـ الحيوانات ذوات الثدى (العربى : ١١/ ١٩٧٣)

٣١ ـ الخـلـيـة (العربى : ١٢/ ١٩٧٣)

٣٢ ـ الوحـــدة (العربى : ١/ ١٩٧٤ : تحت عنوان

الوحدة كما تتراءى فى هياكل الحيوانات)

٣٣ ـ الطعـــام (العربى : ٢/ ١٩٧٤)

٣٤ ـ الـديـــدان (العربى : ٤/ ١٩٧٤)

٣٥ ـ الهضم وأجهزته (العربى : ٣٠/ ١٩٧٤)

٣٦ ـ بالوصول إلى الديدان بدأت خطة الهضم

تتضح استطرادا منها إلى الإنسان (العربى: ٥/ ١٩٧٤)

٣٧ ـ التمـاثـل (العربى : ٦/ ١٩٧٤)

٣٨ ـ الدورة الدموية فى الإنسان (العربى : ١١/ ١٩٧٤)

٣٩ ـ دم الإنسان «العربى ١١ : ١٩٧٤»
٤٠ ـ الدورة الدموية فى سائر الحيوانات
٤١ ـ التنفس
٤٢ـ التناسل

٧.فى سبيل موسوعة علمية

١٩٧٧ ، دار الشروق ، القاهرة.

٨.حديث الزمان

مارس ٢٠٠١ ، دار الهلال ، القاهرة.

يعود الفضل فى نشر هذا الكتاب إلى الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال ، وقد قدم له بمقدمة رائعة ، وجمع فيه خمسة وأربعين مقالا من مقالات الدكتور أحمد زكى فى مجلة الهلال ، وهذه قائمة بفصول هذا الكتاب وتواريخ نشرها فى مجلة الهلال على نحو ما أشار كتاب الهلال فى هامش كل فصل.

الباب الأول: بين الشباب والكهولة

١ـ يعجبنى الشباب إذا	١/ ١٩٤٨
٢ ـ حب الأوطان	٢/ ١٩٤٨
٣ـ إلى أين المسير؟	٢/ ١٩٥٠
٤ـ الفقر داء عز دواؤه	٥/ ١٩٤٨
٥ـ عطشان يا صبايا!	٣/ ١٩٤٨
٦ـ دفاع عن القديم	١/ ١٩٤٩
٧ـ دنياك لا تخشها أبد	٢/ ١٩٤٩

٨ـ الكذب ١٩٤٩ /٤
٩ـ بين الليل والنهار ١٩٥٠ /١
١٠ـ هكذا أدبنا أشياخنا ١٩٥٠ /٥
١١ـ العيد شيء يعود ولكنه فرصة للبر والإحسان ١٩٥٧ /٥
١٢ـ الحكم الصالح ١٩٤٩ /١١
١٢ـ العداوة غالية الثمن ١٩٤٩ /١٠
١٤ـ جماجم ١٩٤٩ /٨
١٥ـ رقعة الشطرنج ١٩٥٠ /٣
١٦ـ أعياد الحمقى ١٩٥٠ /٤
١٧ـ أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض ١٩٥٠ /٦
١٨ـ هذا ما أومن به ، النجاح في الحياة .. حظ ١٩٥٦ /٦

الباب الثاني: الحرية والاستبداد

١٩ـ الحصانة الدبلوماسية في مطبخ سفير ١٩٥٧ /٣
٢٠ـ مصرع الحرية في القرن العشرين ١٩٤٩ /٦
٢١ـ أخذت أجازة من نفسي ١٩٥٠ /٧
٢٢ـ ثورة في حديقة الحيوانات ١٩٥٠ /٨
٢٣ـ أيتها الحرية.. كم باسمك تقترف الآثام ١٩٥٠ /٩
٢٤ـ المدرسة والحرية والحياة ١٩٥٥ /١٠
٢٥ـ لماذا يخشى الغرب العرب؟ ١٩٥٧ /١

الباب الثالث: الحب والجمال

٢٦ـ حدثني الجمال .. قال	٦/ ١٩٤٨
٢٧ـ الطبيعة حين تنام وحين تصحو	٤/ ١٩٤٨
٢٨ـ للنساء حروب ناعمة	٩/ ١٩٤٩
٢٩ـ جمال الشيخوخة	٣/ ١٩٥٥

الباب الرابع: العلم بين الحقيقة والخيال

٣٠ـ الذرة في حياة الناس	١٠/ ١٩٥٠
٣١ـ الهجرة إلى القمر : خرافة.. وهراء	٣/ ١٩٥٦
٣٢ـ التنجيم وقراءة المستقبل .. لهو .. لمن لا لهو له	٤/ ١٩٥٦

الباب الخامس: إسلاميات

٣٣ـ مكة عاصمة الإسلام	٨/ ١٩٥٥
٣٤ـ كنا بالأمس سادة فلنكن اليوم أسياداً	١/ ١٩٥٦
٣٥ـ رجل عاش في متحف	٢/ ١٩٥٦
٣٦ـ عبادة الله بغير علم كعبادة الأصنام	٥/ ١٩٥٦

الباب السادس: رجال لهم تاريخ

٣٧ـ أبطال لا تقام لهم أنصاب	٣/ ١٩٤٩
٣٨ـ هـ .ج. ولز	٥/ ١٩٤٩

الباب السابع: خواطر

٣٩ـ المطلقة ٧/ ١٩٤٩

٤٠ـ الخاطبة ١٢/ ١٩٤٩

٤١ـ فى بيت المرض ١١/ ١٩٥٠

٤٢ـ أتمنى .. لنفسى وللناس ٢/ ١٩٥٥

٤٣ـ رقم ٧ الرقم السعيد فى حياة الناس والكون ٢/ ١٩٥٧

٤٤ـ أصحابى الذين خابوا ٣/ ١٩٤٧

٤٥ـ سألت عن السعادة ٢/ ١٩٥١

ثانيا: تقارير

١ ـ مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث، ماضيه، وحاضره، ومستقبله
١٩٥٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة

ثالثا : آداب مترجمة

١ ـ مرجريت (ذات الكاميليا) ، (غادة الكاميليا)

١٩٢٠ ، المكتبة التجارية ، باسم (ذات الكاميليا) .

١٩٢٩ ، النهضة المصرية وبعد ذلك تحت اسم (غادة الكاميليا) .

١٩٣٨ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سلسلة عيون الأدب الغربى ، العدد الرابع .

وهى ترجمة «La Dame Aux Camelias» لألكسندر دوماس (الصغير) .

٢ ـ جان دارك

١٩٣٨ ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، روائع الأدب الغربى .

رابعا : كتب علمية مترجمة

١ ـ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله

١٩٣٨ ، القاهرة ، مجلة الرسالة ، ط ١ .

وطبع بعد ذلك فى دور نشر أخرى وهو ترجمة للكتاب الذى ألفه

«Dr. Paul del Kruif» «دكتور بول دى كريف» .

وقد كـان أحمد زكى قد نشر هذا الكتاب من قبل ذلك على هيئـة فصول فى مجلة الرسـالة ، كما سيأتى ذكره إن شاء الله .

٢ ـ فى أعماق المحيطات

القاهرة ، دار الهلال .

وهو ترجمة لكتاب «Lady with a spear» الذى ألفته أوجينى كلارك «Eugenie Clark» .

٣ ـ بواتق وأنابيب ، قصة الكيمياء

١٩٦٠ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، بإشراف مؤسسة فرانكلين . وهو ترجمة لكتاب «Crucibles: the story of chemistry» ، تأليف «برنارد جافى Bernard Jaffe» .

٤ ـ حيوانات نعرفها

١٩٦١ ، دار المعارف وفرانكلين ، ط ١ .

١٩٦٥ ، دار المعارف وفرانكلين ، ط ٣ .

وهو ترجمة لكتاب من تأليف برتاموريس باركر .

٥ ـ مواقف حاسمة فى تاريخ العلم

١٩٦٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، بإشراف مؤسسة فرانكلين ، ط ١ ، ط ٢ ، دار المعارف أيضا . وهو ترجمة لكتاب «Science and Common Sense» ، تأليف «جيمس كونانت James B. Conant» .

خامسا : كتب بالاشتراك

١ ـ مبادئ الكيمياء : جزآن

بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى .

سبتمبر ١٩١٥ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ .

سبتمبر ١٩١٨ ، لجنة التأليف والترجمة ، ط ٢ ، **أشرف الدكتور زكى بمفرده على هذه الطبعة بسبب سفر زميله .**

يناير ١٩٢٠ ، لجنة التأليف والترجمة ، ط ٢ ، **أشرف الدكتور الكردانى بمفرده على هذه الطبعة بسبب سفر زميله .**

يناير ١٩٢٤ ، لجنة التأليف ، ط ٤ .

يناير ١٩٢٥ ، مطبعة دار الكتب ، ط ٧ .

١٩٢٥ ، مطبعة دار الكتب ، ط ٨ .

١٩٢٥ ، مطبعة دار الكتب ، ط ١١ .

[هذه هى الطبعات التى عثرنا عليها فى دار الكتب ولاشك فى وجود طبعات أخرى غيره] .

سادسا : فصول من كتب

١ ـ الكويت بأقلام نخبة من الكتاب العرب

١٩٦٦ ، بيروت ، دار الكاتب العربي .

وقد كتب الدكتور زكي في هذا الكتاب فصلا تحت عنوان «الكويت بلغت مبلغ الاستقلال قبل أن يكون لاستقلالها إعلان» .

سابعا : مقالات ودراسات ومحاضرات

آثرت أن أرتب مقالات الدكتور أحمد زكى فى المجلات المختلفة بطريقة تيسر على الباحث والقارىء الوصول إليها . . وعلى هذا فقد رتبت مجموعة مقالاته فى كل مجلة مع بعضها ، كما رتبت كل مجموعة ترتيبًا زمنيا فيما بينها . أما المجلات التى نشر فيها فقد رتبتها تحكميا تبعًا للبداية الزمنية لمقالات أحمد زكى فيها ، وعلى هذا فسوف نبدأ بالكتاب السنوى للمجمع المصرى للثقافة العلمية ثم مجلة الرسالة ثم مجلة الهلال ثم مجلة الإثنين ثم مجلة الثقافة ثم مجلة العربى كما سنرتب مقالاته فى مجلة العربى تبعًا لموضوعها والسلاسل التى نشرت فيها فذلك أحرى أن يقدم صورة دقيقة ومنظمة عن إنتاج أحمد زكى .

(أ) فى الكتب السنوية للمجمع المصرى للثقافة العلمية :

محاضرات نشرت فى الكتاب السنوى للمجمع :

- ☐ الصناعات والعلوم (الكتاب السنوى ٣ : سنة ١٩٣٢)
- ☐ الأحجار الكريمة (الكتاب السنوى ٥ : سنة ١٩٣٤)
- ☐ الحديد والفولاذ فى المدنية الحاضرة (الكتاب السنوى ١٢ : سنة ١٩٤١)
- ☐ معهد فؤاد الأول للبحوث العلمية (الكتاب السنوى ١٥ : سنة ١٩٤٤)
- ☐ زيت البترول فى سلم الأمم وحربها (الكتاب السنوى ١٦ : سنة ١٩٤٦)

(ب) فى مجلة الرسالة :

◻ النوم واليقظة	١٩٣٣/١/١٥
◻ بين الكاس و"كاس	١٩٣٣/٢/١
◻ سبيل الإنسان والطبيعة	١٩٣٣/٣/١
◻ أسرع كمرة فى العالم	١٩٣٣/٤/١٥
◻ الشـــــاى	١٩٣٣/٤/١

□ القهـــوة	١٩٣٣/٤/١
□ التيفـــوس	١٩٣٣/٥/١
□ حديث قملة عجوز	١٩٣٣/٥/١٥
□ حلم الأستاذ فجعان	١٩٣٣/٦/١
□ الإشعـــاع	١٩٣٣/٧/١٥
□ الحمى داء ودواء	١٩٣٣/٨/١
□ كيمياء الـروح	١٩٣٣/٨/١٥
□ النســـل	١٩٣٣/٩/١٥
□ عيد الكهارب	١٩٣٣/١٠/١
□ آراء وأنبـــاء	١٩٣٣/١١/١
□ نـوبـــل	١٩٣٣/١٢/٤
□ نذيـر وبشـير	١٩٣٣/١٢/١٨
□ هل للعلم قيود تفرضها الأخلاق؟	١٩٣٣/١٢/٢٥
□ هل للعلم قيود تفرضها الأخلاق	١٩٣٤/١/١
[توجد فترة زمنية لم يكتب فيها أحمد زكى لعله كان على سفر]	
□ ابن من يا فاجرة ؟	١٩٣٤/١٠/٢٢
□ لجنة التأليف والترجمة والنشر. كيف نشأت فكرة هذه اللجنة . . . بمناسبة عيدها الفضى	١٩٣٤/١٠/٢٩
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١) لوفن هوك أول غزاة الميكروب	١٩٣٥/٢/١٨
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (٢)	١٩٣٥/٢/٢٥
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (٣)	١٩٣٥/٣/٤

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله(٤) إسبلترانى ثانى غزاة المبكروب ١١/ ٣/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله(٥) إسبلترانى ثانى غزاة المبكروب ١٨/ ٣/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (٦) إسبلترانى ثانى غزاة المبكروب ٢٥/ ٣/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله(٧) إسبلترانى ثانى غزاة المبكروب ١/ ٤/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (٨) إسبلترانى ثانى غزاة المبكروب ٨/ ٤/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (٩) بستور ثالث غزاة الميكروب ٤/ ٣/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١٠) بستور ثالث غزاة الميكروب ٢٢/ ٤/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١١) بستور ثالث غزاة الميكروب ٢٩/ ٤/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١٢) بستور ثالث غزاة الميكروب ٦/ ٥/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله(١٣) بستور ثالث غزاة الميكروب ١٣/ ٥/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١٤) بستور ثالث غزاة الميكروب ٢٧/ ٥/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١٥) بستور ثالث غزاة الميكروب ١٠/ ٦/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله (١٦) بستور ثالث غزاة الميكروب ١٧/ ٦/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله(١٧) بستور ثالث غزاة الميكروب ٢٤/ ٦/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، كوخ رابع غزاة الميكروب ٢٥/ ١١/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، كوخ رابع غزاة الميكروب ٢/ ١٢/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، كوخ رابع غزاة الميكروب ٩/ ١٢/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، كوخ رابع غزاة الميكروب ١٦/ ١٢/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، كوخ رابع غزاة الميكروب ٢٣/ ١٢/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، كوخ رابع غزاة الميكروب

يكتشف ميكروب السل ٣٠/ ١٢/ ١٩٣٥

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله هكوخ رابع غزاة الميكروب

يكتشف ميكروب السل ٦/ ١/ ١٩٣٦

قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/١/٢٠
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/١/٢٧
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/٢/٣
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/٢/١٠
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/٢/١٧
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/٢/٢٤
قصة الميكروب كيف كشفه رجاله بستور والكلب المسعور	١٩٣٦/٣/٩
ـ قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، الدفتريا بين واجداسمها الفرنسى ، وكاشف ترياقها الألمانى .	١٩٣٦/٤/٦
ـ قصة الميكروب ، كيف كشفه رجاله	١٩٣٦/٤/١٣
◻ سفائن الصحراء للدكتور أحمد زكى	١٩٣٦/٤/٢٠
ـ الدفتريا بين واجد اسمها الفرنسى وكاشف ترياقها الألمانى .	١٩٣٦/٤/٢٧
◻ قصة الميكروب .	١٩٣٦/٥/٤
◻ قصة الميكروب ، الدفتريا بين واجد اسمها الفرنسى وكاشف ترياقها الألمانى	١١/ ٥/ ١٩٣٦
◻ قصة الميكروب ، الحصانة واليهودى ، الأفان ـ ١ ـ	١٩٣٦/٦/٨
◻ قصة الميكروب ، الحصانة واليهودى ، الأفان ـ ٢ ـ	١٩٣٦/٦/٢٩
◻ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ،	١٩٣٦/٧/٦
◻ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ،	١٩٣٦/٩/٢٨
◻ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ،	١٩٣٦/١٠/٥
◻ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، وسطاء شر أبرياء	١٩٣٦/١/٣٠
◻ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ،	١٩٣٦/١٢/٧
◻ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ،	١٩٣٦/١٢/١٤

□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، عزرائيل يقبض بيد صفراء ٢١/ ١٢/ ١٩٣٦
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ٢٨/ ١٢/ ١٩٣٦
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ٤/ ١/ ١٩٣٧
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ١١/ ٢/ ١٩٣٧
□ قصة الميكروب كيف كشفه رجاله ، الرصاصة المسحورة ٣/ ٥/ ١٩٣٧
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ١٠/ ٥/ ١٩٣٧
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ١٧/ ٥/ ١٩٣٧
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ٢٤/ ٥/ ١٩٣٧
□ قصة الميكروب ، كيف كشف رجاله ، ٣١/ ٥/ ١٩٣٧

(جـ) فى مجلة الهــــلال :

نورد هنا المقالات الموقعـة بإمضاء الدكتور أحمد زكى، مع إقرارنا بـاحتمال وجود مقالات أخرى كتبها و لم يـوقع عليها باعتبـاره رئيس التحرير، وبخاصـة المقالات الافتتاحيـة، ولما كنا لم نحقق إنتاجه فيها مقالا مقالا فسنكتفى هنا كما ذكرنا بالمقالات التى وقعها أحمد زكى باسمه الصريح .

□ ماذا أفدت من الإنجليز	١٩٤١/٢
□ بين العامية والفصحى	١٩٤٤/١٠/٩
□ هل تصبح الإنجليزية لغة التفاهم بين الأمم	١٩٤٥/١
□ تنسيق البحوث العلمية فى مصر	١٩٤٥/٩
□ التقدم العلمى والتربية	١، ١٩٤٦/٢
□ ساعة فى مكتب تأمين	٣، ١٩٤٦/٤
□ أنصفوا الشباب	١٩٤٧/١
□ عندنا دكتاتوريات مقنعة	١٩٤٧/٢

◻ أصحابى الذين خابوا	١٩٤٧/٣
◻ وحش كاسر	١٩٤٧/٤
◻ طاب عيش المخادع	١٩٤٧/٥
◻ إلى الأمام	١٩٤٧/٦
◻ الطريق السلطانى وما وراءه	١٩٤٧/٧
◻ إجــازة الصــيف	١٩٤٧/٨
◻ لندن بين عامين	١٩٤٧/٩
◻ على ضفة التايمز	١٩٤٧/١٠
◻ الحب على المشرحة	١٩٤٧/١١
◻ تحرك الزمن فتحركت همومه	١٩٤٧/١٢
◻ يعجبنى الشباب إذا	١٩٤٨/١
◻ حــب الأوطــان	١٩٤٨/٢
◻ عطشــان يا صبايا	١٩٤٨/٣
◻ الطبيعة حين تنام وحين تصحو	١٩٤٨/٤
◻ الفقر داء عز دواؤه	١٩٤٨/٥
◻ حدثنى الجهال قال	١٩٤٨/٦
◻ الدنيا فى حاجة إلى زعيم	١٩٤٨/٧
◻ صفقة خاسرة	١٩٤٨/٨
◻ الكرة التى تحمل فوق عنقك	١٩٤٨/٩
◻ نشأت فى الثورة طالبا ومدرسا	١٩٤٨/١٠
◻ إبراهيم ومحمد على : شمسان فى سماء واحدة	١٩٤٨/١١
◻ سلاسل وأغــلال	١٩٤٨/١٢

□ دفاع عن القديم	١٩٤٩/١
□ دنياك لا تخشها أبدا	١٩٤٩/١
□ أبطال لا تقام لهم أنصاب	١٩٤٩/٣
□ الكـــذب	١٩٤٩/٤
□ هـ. جـ. ويلز	١٩٤٩/٥
□ مصرع الحرية فى القرن العشرين	١٩٤٩/٦
□ المطلقــة	١٩٤٩/٦
□ جمــاجـم	١٩٤٩/٨
□ للنساء حروب ناعمة	١٩٤٩/٩
□ العداوة غالية الثمن	١٩٤٩/٩
□ الحكم الصالح	١٩٤٩/١١
□ الخــاطبــة	١٩٤٩/١٢
□ حديث الزمـــان	١٩٥٠/١
□ إلى أين المسير .	١٩٥٠/٢
□ أعياد الحمقى	١٩٥٠/٤
□ هكذا أدبنا أشياخنا	١٩٥٠/٥
□ هكذا أكبادنا تمشى على الأرض	١٩٥٠/٦
□ أخذت إجازة من نفسى	١٩٥٠/٧
□ ثورة فى حديقة الحيوانات	١٩٥٠/٨
□ أيتها الحرية كم باسمك تقترف الآثام	١٩٥٠/٩
□ الذرة فى حياة الناس	١٩٥٠/١٠
□ فى بيت المرض	١٩٥٠/١١

◻ الحياة فن عسير (استفد من تجاربى)	١٢/ ١٩٥٠
◻ تعلمت فى أربع جامعات	١/ ١٩٥١
◻ سألت عن السعادة	٢/ ١٩٥١
◻ حديقة الأدباء	٣/ ١٩٥١
◻ رأى الجنة	٤/ ١٩٥١
◻ أخب الهرجلة أحيانا	٥/ ١٩٥١
◻ تعلمت من الصيف	٧/ ١٩٥١
◻ حاجة الناس إلى الزعامة	١٢/ ١٩٥١
◻ أنوف الناس مهضومة الحقوق	٧/ ١٩٥٢
◻ على أساس من العلم يجب أن نبنى نهضتنا الجديدة	١/ ١٩٥٣
◻ إرادة الشباب	٤/ ١٩٥٣
◻ شيخ يتحدث إلى الشباب	٩/ ١٩٥٣
◻ رابطة الثقافة أقوى من رابطة السياسة	١٢/ ١٩٥٣
◻ كنت فى مكة المكرمة	٣/ ١٩٥٤
◻ الله والناس	٤/ ١٩٥٤
◻ ساعة من الله	٥/ ١٩٥٤
◻ ساعة من الشيطان	٦/ ١٩٥٤
◻ ماذا بعد الجلاء ؟	٩/ ١٩٥٤
◻ كليتان للزوجات والأزواج	١٠/ ١٩٥٤
◻ الجامعتان العربية والإسلامية	١١/ ١٩٥٤
◻ الإسلام والمسيحية هل يمكن التوحيد بينهما؟	١/ ١٩٥٥
◻ أتمنى للنفس وللناس	٢/ ١٩٥٥

- ☐ جمال الشيخوخة ٣/ ١٩٥٥
- ☐ رجال للبيع أو للإيجار ٦/ ١٩٥٥
- ☐ مكة عاصمة الإسلام ٨/ ١٩٥٥
- ☐ المدرسة والحرية والحياة ١٠/ ١٩٥٥
- ☐ كنا بالأمس سادة فلنكن اليوم أسيادا ١/ ١٩٥٦
- ☐ رجل عاش فى متحف ٢/ ١٩٥٦
- ☐ الهجرة إلى القمر خرافة وهراء ٣/ ١٩٥٦
- ☐ التنجيم وقراءة المستقبل ٤/ ١٩٥٦
- ☐ عبادة الله بغير علم كعبادة الأصنام ٥/ ١٩٥٦
- ☐ النجاح فى الحياة حظ ٦/ ١٩٥٦
- ☐ شمعة من شموع الليل ٨/ ١٩٥٦
- ☐ أنت والزمان الجارى ١٠/ ١٩٥٦
- ☐ إيســـــوب ١١/ ١٩٥٦
- ☐ الله والناس ١٢/ ١٩٥٦
- ☐ لماذا يخشى الغرب العرب ؟ ١/ ١٩٥٧
- ☐ الحصانة الدبلوماسية فى مطبخ سفير ٣/ ١٩٥٧
- ☐ العيد شيء يعود ، ولكنه فرصة للبر والإحسان ٥/ ١٩٥٧
- ☐ أهل الفكر والناس ٦/ ١٩٥٧
- ☐ القنبلة الذرية يجب أن تصنعها مصر ٧/ ١٩٥٧
- ☐ الذرة وثلاثة رجال ٨/ ١٩٥٧
- ☐ صبى يسأل : من اخترع المدارس ؟ ٩/ ١٩٥٧
- ☐ ماذا بعد القمر ؟ ٩/ ١٩٥٧

- وصية إلى ابنتى ١٩٥٧/١٢
- لماذا نذهب إلى القمر ؟ ١٩٥٨/١
- هل غير هذه الأرض أرض ، وغير هولاء الناس فى الكون ناس؟ ١٩٥٨/٣
- جاءنا رمضان على ظهر الزمان ٢٩٥٨/٤

(د) فى مجلة الإثنين

معظم المقالات الواردة هنا ليس لى فضل فى حصرها فقد عثرت على قائمة بها (١ ـ ٣٥) بخط أحمد زكى نفسه فى أوراقه التى أطلعنى عليها شقيقه الطيار حسن عاكف، وقد نشر بعض هذه المقالات فى «ساعات السحر»، وهى تلك التى يجد القارئ أمامها رقما بين قوسين يدل على ترتيبها بين فصول كتاب «ساعات السحر»، أما المقالات الأخرى التى لا يوجد أمامها رقم بين قوسين فتمثل المقالات التى جمعها الدكتور زكى وأعدها للطبع، وقد اطلع المؤلف عليها واستعان بها فى هذا الكتاب.

أما المجموعة الثالثة من المقالات (٣٥ ـ ٤٠) فقد وجدتها بنفسى عندما تفحصت مجلة الإثنين بدقة وتأن للبحث عن تراث الدكتور أحمد زكى فيها، وتمثل هذه المقالات المجموعة الأحدث من مقالات أحمد زكى، ولعل هذا هو السبب الذى جعله لا يشير إليها فى القائمة التى وجدناها فى أوراقه، مما يرجح بالطبع أن تكون هذه القائمة قد كتبت منذ ما قبل ١٩٤٩ فلم تشمل هاتيك ـ المقالات ـ التى وجدتها فى «الإثنين»:

- □ الحكومة والحب
- □ الحمار الحزين [ساعات السحر: ١٥]
- □ أعوذ بالله من السجون
- □ بادلوهم إيمانا بإيمان [ساعات السحر: ٢١]
- □ قلوب كبيرة [ساعات السحر: ٢]
- □ تعلموا من القطط [ساعات السحر: ٦]
- □ لـــذة الحـــرام
- □ بـــلدتي
- □ خواطر عند الحلاق [ساعات السحر: ٣]
- □ النسبة والتناسب [ساعات السحر: ٢٥]
- □ خازوق الدولية
- □ أصحاب الياقات البيضاء
- □ هربوا من الحياة فلاحقتهم [ساعات السحر : ٢٧]
- □ أستاذنا معذور [ساعات السحر: ٢٦]
- □ أسئلة عجيبة لها أجوبة أعجب
- □ للزعامات عورات فاستروها [ساعات السحر: ٤]
- □ مساومة
- □ العقول الفئرانية
- □ الكسل أحلى من العمل
- □ البعد الرابع
- □ يـــوم عاصف
- □ عرفت الفقر والقبح
- □ هل نحن قوم غضوبون ؟

- الأكل فن وفلسفة [ساعات السحر : ٢٤]
- ضحكـــت
- الذرة الهائلة
- اللهم نسألك الستر [ساعات السحر : ١٠]
- لـبن مسكـوب
- عملتنى الحياة [ساعات السحر : ١٦]
- تعلمت حكمة من حمار وجزرة [ساعات السحر : ٥٠]
- حشاشون بلا حشيش [ساعات السحر : ٢٣]
- البغل الذى ذكره التاريخ

وهذه هى المقالات التى لم يسجلها أحمد زكى نفسه فى حصره

- قلـمى [ساعات السحر :٢٨](٤/ ١١/ ١٩٤٩)
- العمل هو الضريبة التى ندفعها للوطن (٢١/ ٧/ ١٩٥٢)
- الخاطفة ، مجلة كاملة رئيس تحريرها الدكتور أحمد زكى (١٨/ ١٠/ ١٩٥٤)
- صورة وقصتها (٣١/ ١٠/ ١٩٥٥)
- استمتعت بسياحة اختيارية (٢/ ١/ ١٩٥٦)
- عدت إلى الطبيعة (٢٣/ ١/ ١٩٥٦)

(هـ) فى مجلة الثقافة

نورد هنا مقالات الدكتور أحمد زكى مرتبة ترتيبا زمنيا مع ذكر عدد المجلة الذى نشر فيه المقال ويمكن للقارئ أن يرجع إلى هذه المقالات تبعا لرقم عدد المجلة الثقافية، فإذا أراد القارئ أن يعرف تاريخ صدور هذا العدد فبوسعه الرجوع إلى كتابى «مجلة الثقافة»: تعريف وفهرسة وتوثيق»، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣ ففيه قائمة بتواريخ صدور أعداد مجلة الثقافة.

على هامش العلوم	١
مطالعات أشتات: على هامش العلوم	٨
مطالعات أشتات: على هامش العلوم: النحل فى مجتمعه	٩
النحل فى مجتمعه	١٠
الأبسطة والسجاجيد	١١
حرب الغازات	١٩
حرب الغازات	٢١

حرب الغازات ٢٤

أيهما أفعل : حرب الغاز أم حرب الرصاص ٢٨

لماذا وكيف : عصا البهلوان وعمل الآذان فى اتزان الأبدان ٦٤

لماذا وكيف : النمل الأبيض عجيبة من عجائب الخلائق ٦٦

البرشوتات : أصلها ، وصنعتها ، وعملها ، وإحساس الهابط بها ٨١

اللعاب والبصاق والرضاب ٨٢

العقرب : خلقها وخلقها وسمها ، أمومتها حنانها صبرها ، عزوفها بيت عرسها . ٨٤

مات أوليفار لوذج ٨٨

تفاحتك ٩٠

الخمر غذاء غريب ١٠٠

حرارة الأبدان : كعاتق الميزان تتأرجح وغايتها الاتزان، فعل الكئوس بالرءوس ١٠٤

أنباء وآراء : الخمر أغذاء هى ؟ ١٠٤

قاتلات الحشرات فى المنازل ١٠٩

لماذا وكيف : إلى أى حد يستطيع الإنسان مغالبة البرد والحر وسائر الأجوا وهل فى الحيوان من هو أكثر منه مقاومة لها .

لغة الإنسان مطبوعة أم مصنعة وهل للحيوان لغة . ١١٢

فى الحديد ١٢٣

الحديد بين الأمم ١٢٥

المطـــاط ١٢٧

الأرض التى عليها روسيا ١٣٣

الأرض التى عليها روسيا ١٣٤

الأرض التى عليها روسيا ١٣٥

على هامش الأسبوع : الأرض التى عليها روسيا ١٤٤

على هامش الأسبوع : الأرض التى عليها روسيا ١٤٥

الطلبة والجامعات ١٤٦

على هامش الأسبوع : الجامعة أيضا/ الجامعة والتعليم

الأولى توحيد المناضل/ طلاب وظائف ١٤٧

على هامش الأسبوع العيد ١٤٨

على هامش الأسبوع : تيمور بك/ بين الدارجة والفصحى/ بطء النهضة لغة المستقبل ١٤٩

على هامش الأسبوع : تصدير البيض/ التسعيرة والجملة/ السمن والزيت صنوان ١٥٠

على هامش الأسبوع : أموات وأموات / جانيها غير صاليها ١٥١

على هامش الأسبوع : لصوص لصوص/ يوم الإثنين/ مجلس الشيوخ/ حزب الأحرار ١٥٣

على هامش الأسبوع : البرلمـــان ١٥٤

على هامش الأسبوع : فجيعة الدنيا فى سلمها شر من فجيعتها فى حربها ١٥٥

على هامش الأسبوع : علاوة الغلاء/ المساواة فى التضحيات/

الأخوات المتعطلات/ العزب/ وقف الغلاء خير من علاوته ١٥٨

على هامش الأسبوع : اليابـــان ١٦١

على هامش الأسبوع : اليابـــان ١٦٢

على هامش الأسبوع : اليابان/ ثروتها المعدنية ثروتها البحرية ١٦٣

على هامش الأسبوع : اليابان الأمة ، صفات أهلها ، عناصر تكوينه ١٦٥

على هامش الأسبوع : اليابان الأمة ، فجر تاريخهم عبادة آبائهم ١٦٦

على هامش الأسبوع : البوذية فى اليابان ١٦٧

على هامش الأسبوع : اليابـــان ١٦٨

على هامش الأسبوع : النصرانية فى اليابان ١٦٩

على هامش الأسبوع : أول لقاء بين الروس واليابان	١٧٠
على هامش الأسبوع : أمريكا تقتحم أبواب اليابان	١٧١
على هامش الأسبوع : أمريكا تقتحم أبواب اليابان	١٧٢
على هامش الأسبوع : خليفة الكومادور	١٧٣
على هامش الأسبوع : عودة الميكادو	١٧٤
على هامش الأسبوع : كنفوش حكيم حكماء الصين	١٧٥
على هامش الأسبوع : الكنفوشية حكمة وحكومة	١٧٦
على هامش الأسبوع : أسباب الثورة اليابانية	١٧٧
على هامش الأسبوع : أسباب الثورة اليابانية	١٧٨
على هامش الأسبوع : اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور	١٧٩
على هامش الأسبوع : اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور	١٨١
على هامش الأسبوع : اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور	١٨٢
على هامش الأسبوع : اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور	١٨٣
على هامش الأسبوع : اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور	١٨٤
على هامش الأسبوع : اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور	١٨٥
إسكندر الإسكندرية	١٩٩
إسكندر الإسكندرية	٢٠٠
فكرة الله كيف توطدت عند الأمم	٢٠١
الدين عند الإغريق	٢٠٢
الألعاب الأوليمبية فى عكاظ الإغريقية	٢٠٣
الألعاب الأوليمبية فى عكاظ الإغريقية	٢٠٤
الحكم عند الإغريق : الأرستقراطية والديمقراطية ألفاظ منابتها إغريقية	٢٠٦

الحكم عند الإغريق : الأرستقراطية والديمقراطية ألفاظ منابتها إغريقية ٢٠٧
الدكتاتورية من بعد الارستقراطية ٢٠٩
كفاح الموت ٢٢٦
كفاح الموت ٢٢٧
كفاح الموت ٢٢٩
كفاح الموت : فجيعة أيام أخيرة ٢٣٠
على هامش الأسبوع : فجيعة الأيام الأخيرة ٢٣٠
على هامش الأسبوع : لا علاج للداء إلا بفضح الأطباء ٢٣١
السكر وقصة دوائه ٢٣٢
داء السكر وقصة دوائه : الوحى ينزل فى السحر ٢٢٣
داء السكر وقصة دوائه : المعجزة تتحقق ٢٣٤
داء السكر وقصة دوائه : ذبابة فى الحساء ٢٣٥
داء السكر وقصة دوائه : كلب ناطق يفهم ما لا تفهم الكلاب ٢٣٦
داء السكر وقصة دوائه : مولد الأنسولين ٢٣٧
داء السكر وقصة دوائه : إحياء الموتى ٢٣٨
داء السكر وقصة دوائه : السير فريد ريك صاحب الأنسولين ١٣٩
أنات حائرة ٢٤٠
كفــاح الموت : فقر الدم الخبيث ٢٤١
كفاح الموت : طبيب وراء عصى ٢٤٢
كفــاح الموت : قلب حساس وتجارب خائبة ٢٤٣
كفــاح الموت : منطق يقول لا ، وطبيب يقول نعم ٢٤٤
كفــاح الموت : طبيب يدس الكبد فى حلوق مرضاه دسا ٢٤٥

كفـاح الموت : إعلان الكبد دواء فى مجمع العلماء	٢٤٦
كفـاح الموت : فقر الدماء وفقر الجيوب	٢٤٧
عصابة البيت الأحمر	٢٤٨
شر فى القراد : محاولات فاشلة	٢٤٩
شر فى القراد : الصبر مفتاح الفرج	٢٥٠
شر فى القراد : وتعطلت الحركة فى المعمل	٢٥١
شر فى القراد : وانتشر الموت الزاحف داخل المعمل وخارجه	٢٥٢
شر فى القراد : صناعة الطعم الواقى	٢٥٣
شر فى القراد : ويحقن السم فى ذراعه ضنا بإخوانه	٢٥٤
شر فى القراد : خاتمـــة	٢٥٥
كـلـبـى	٢٥٧
إصلاح التعليم فى مصر	٢٥٨
مصباح علاء الدين	٢٦٠
العلم بين الكفر والإيمان	٢٦١
مطالعات أشتات : بائع الصحف الأصم الذى أعطانى وأعطاك النور	٢٦٢
روزفلت قبل الأربعين	٢٦٣
روزفلت قبل الأربعين	٢٦٤
شيخ كريم	٢٦٦
فى حفلة شاى	٢٦٧
المـــلاريـــا	٢٦٩
المـــلاريـــا	٢٧٠
المـــلاريـــا	٢٧١
المـــلاريـــا	٢٧٢

المــــلاريـــا ٢٧٣

رجل وامرأة ٢٧٤

البترول الذاهب ٢٧٥

ضغط الدم ٢٧٦

عباد الله الصالحون ٢٧٧

حديث الفرقة ٢٧٩

فى القراء والكتب ٢٨١

المرأة فى عاصمتين ٢٨٢

وكتب الدكتور أحمد زكى عدة مقالات بتوقيع الجرنوسى وهى:

بين المسموع والمقروء ٢٩١

بين المسموع والمقروء ٢٩٢

بين المسموع والمقروء ٢٩٣

بين المسموع والمقروء ٢٩٤

بين المسموع والمقروء ٢٩٥

بين المسموع والمقروء ٢٩٦

مطالعات أشتات : فى الحمام التركى / احتجاب الشيخوخة / رمضان / شيخ جليل ولكن ٢٩٧

مطالعات أشتات : العفريت/ مائدة السلام/ حديث البابا/ قاتل الحشرات/ الديدى ٢٩٨

مطالعات أشتات : صورة / حادث/ قطعة من رصاص / هزة الكهرباء / ابن عباس أيضا ٢٩٩

مطالعات أشتات : الأدب والمعدة. عجزة المرأة / طباع القردة / قيس ولبنى ٣٠٠

مطالعات أشتات : تقرير / الحق والقوة / صرخة الشعب نحن وهم ٣٠١

مطالعات أشتات : أمة تبتلع وهم يسوء/ ما أشبه الليلة بالبارحة	٣٠٢
مطالعات أشتات : الإنسان والدم/ دموع شيخوخة/ شباب كالورد/اختلال ثقافى	٣٠٣
مطالعات أشتات : ذكرى فيلسوف / معايير القيم فى المسيحية	
الديمقراطية / شعب الله المختار	٣٠٤
مطالعات أشتات : مخالب القط / فى الكتب /	
ضمير/ القرض الحسن/ شيخ مرح/ شجرة/طماطم/ برنارد شو	٣٠٦
مطالعات أشتات : روزفلت والصهيونية/ خطورة الإعلان/ علقم معسول	٣٠٧
مطالعات أشتات : حظوظ وحظوظ	٣٠٨
مطالعات أشتات : السنهورى بك فى وزارة العدل	٣٠٩
مطالعات أشتات : بائع الدواء الجوال	٣١٠
مطالعات أشتات : طبيب يقول فتسكته النساء/ السجل الأكبر/ أستاذ جامعة	٣١١
مطالعات أشتات : هجرة الإنسان وهجرة الحيوان	٣١٢
مطالعات أشتات : محنـــة	٣١٣
مطالعات أشتات : الجنتلمان أو درس فى الترجمة	٣١٤
مطالعات أشتات : عدو عاقل ، حب دام ، قولة فاجر	٣١٥
مطالعات أشتات : طفل يسأل وأب بالسؤال يضيق	٣١٧
مطالعات أشتات : الشعوب مجامع اللغات	٣١٧
مطالعات أشتات : على غنائك ترقص معدتك	٣١٨
مطالعات أشتات : محنة أخـــرى	٣١٩
مطالعات أشتات : الحاجب الأكبر	٣٢٠
مطالعات أشتات : الحديث فن أى فن	٣٢١
مطالعات أشتات : جنـــون	٣٢٢

مطالعات أشتات : مدام ميكادو	٣٢٣
مطالعات أشتات : كم تعرف عن نفسك	٣٢٤
مطالعات أشتات : قـصــــة	٣٢٥
مطالعات أشتات : شارع محمد فريد / خمر ونساء	٣٢٦
مطالعات أشتات : صفة دكتاتور	٣٢٧
مطالعات أشتات : الحيوان الذى فينا	٣٢٨
مطالعات أشتات : وفـــاء	٣٢٩
مطالعات أشتات : روزفلت فى مرضه وموته	٣٣٠
مطالعات أشتات : هل يعقل الحيوان	٣٣١
مطالعات أشتات : هدنــة	٣٣٣
مطالعات أشتات : تاجر يتحدث	٣٣٤
مطالعات أشتات : محجوب ثابت/ فى أذيال الموسيقى/ قنبلة من ذرة	٣٣٥
مطالعات أشتات : دمشـــق	٣٣٦
مطالعات أشتات : لغة السياسة/ فى تعدد الزوجات/ سعادة/لا يا سيدى	٣٣٧
مطالعات أشتات : مشروع ثقافة للشعب جديد	٣٣٨
مطالعات أشتات : الرغيف والمرأة	٣٣٩
مطالعات أشتات : الحب فى السوق السوداء	٣٤٠
مطالعات أشتات : شريان الحب الأعظم/ جلود محفوظة/ حظر الأصابع والأضراس/ نصيحة لطلاب الموت	٣٤١
مطالعات أشتات : طبخــة	٣٤٢
مطالعات أشتات : فرسان ثلاثة	٣٤٣
مطالعات أشتات : عروس يذبح فى صبيحة عرسا	٣٤٤

مطالعات أشتات : ذكر أم أنثى	٣٤٥
مطالعات أشتات : تشرشل يقول فى هتلر	٣٤٦
مطالعات أشتات : دينـــــار	٣٤٧
مطالعات أشتات : تضحك والأحزان	٣٤٨
مطالعات أشتات : إنه قضاء الله	٣٤٩
مطالعات أشتات : تسعة تصيب وعاشرة تخيب	٣٥٠
مطالعات أشتات : خطاب يا ليته وصل	٣٥١
مطالعات أشتات : ساعة فى قطار	٣٥٢
مطالعات أشتات : البحر فى الفاتحة	٣٥٣
مطالعات أشتات : بطل الجزيرة	٣٥٤
مطالعات أشتات : بطل الجزيرة	٣٥٥
مطالعات أشتات : بطل الجزيرة	٣٥٦
مطالعات أشتات : حين تتنمر المرأة	٣٥٧
عراقيل فى سبيل النهضة العربية	٣٥٨
عراقيل فى سبيل النهضة العربية	٣٥٩
عراقيل فى سبيل النهضة العربية	٣٦٠
عراقيل فى سبيل النهضة العربية	٣٦١
بين الأدب والعلم	٣٦٢
مطالعات أشتات : قلب حميه يمتلئ ثم يفيض	٣٦٤
مطالعات أشتات : أطاق ويطيق	٣٦٥
مطالعات أشتات : الإسكافى الذى ملء سمع الدنيا	٣٦٦
مطالعات أشتات : العلم إلى التوحيد سائر	٣٦٨

مطالعات أشتات : فى ضيافة فلاح يابانى ٣٦٩
مطالعات أشتات : فى ضيافة فلاح يابانى ٣٧٠
مطالعات أشتات : فى ضيافة فلاح يابانى ٣٧١
مطالعات أشتات : فى ضيافة فلاح يابانى ٣٧٢
مطالعات أشتات : فى زيارة مصنع يابانى ٣٧٣
مطالعات أشتات : صبى المصنع ٣٧٤
مطالعات أشتات : ابن جديد يولد للشمس المشرقة ٣٧٥
مطالعات أشتات : قلب حائر ٣٧٦
مطالعات أشتات : حب وموت ٣٧٧
مطالعات أشتات : نجاح يغرى بالخيبة ٣٧٨
مطالعات أشتات : نجاح يغرى بالخيبة ٣٧٩
مطالعات أشتات : زواج بالإنسابة ٣٨٠
مطالعات أشتات : زواج بالإنسابة ٣٨١
مطالعات أشتات : مارتن لوثر ٣٨٢
مطالعات أشتات : مارتن لوثر ٣٨٣
مطالعات أشتات : مارتن لوثر ٣٨٤
مطالعات أشتات : ملك الكبريت ٣٨٥
مطالعات أشتات : ملك الكبريت ٣٨٦
مطالعات أشتات : الجبل الأعظم ٣٨٧
مطالعات أشتات : الجبل الأعظم ٣٨٨
مطالعات أشتات : قبيلان من الناس : أحمر وأسود ٣٩٨
مطالعات أشتات : شعاع فى ظلام ٤١٥
مطالعات أشتات : عجز تستمد منه القوة ٤١٦

مطالعات أشتات : سجن بغير سياج	٤١٧
مطالعات أشتات : فى السينما دار إفتاء	٤١٨
مطالعات أشتات : شيخوخـــة	٤١٩
مطالعات أشتات : الإنفلونزا	٤٢٠
مطالعات أشتات : الرجل المعقم والمرأة المعقمة	٤٢١
مطالعات أشتات : صار الترحيب صناعة	٤٢٢
مطالعات أشتات : قطعة من الفن رائعة	٤٢٣
مطالعات أشتات : القصاصة العمياء	٤٢٤
مطالعات أشتات : البرد : أسبابه ودواؤه	٤٢٥
مطالعات أشتات : لـــص ينصـــح	٤٢٦
مطالعات أشتات : رأسمالية جديدة	٤٢٧
مطالعات أشتات : شكر يا جدتى	٤٢٨
مطالعات أشتات : يوم فى الأيام حالك	٤٢٩
مطالعات أشتات : ينتحـــرون	٤٣٠
مطالعات أشتات : من الناس وإلى الناس	٤٣١
مطالعات أشتات : إذا اجتمع جمال وجنون	٤٣٢
مطالعات أشتات : فأل البيت الجديد	٤٣٣
مطالعات أشتات : هيا يابنات فالطعام قد تهيأ	٤٣٤
مطالعات أشتات : عربة بولمان	٤٣٥
مطالعات أشتات : طمأنينة	٤٣٦
مطالعات أشتات : خزعبلات لابد منها	٤٣٧

مطالعات أشتات : سيسل رودس	٤٣٨
مطالعات أشتات : خــادمـــات	٤٣٩
مطالعات أشتات : لابد لها من أنف جديد	٤٤٠
مطالعات أشتات : فى أسمالها تغنى	٤٤١
مطالعات أشتات : يخطب والجلاد ينتظر	٤٤٢
مطالعات أشتات : أوسع رجل فى العالم ذكرا	٤٤٤
مطالعات أشتات : كاسب وكاسبة	٤٥٥
مطالعات أشتات : بيت بنى من طين	٤٥٦
مطالعات أشتات : لعب وأطفال	٤٥٧
مطالعات أشتات : لبان يقف الناس ألوفًا على بابه	٤٥٨
مطالعات أشتات : الحرية وراء القضبان	٤٥٩
مطالعات أشتات : ساعة فى العمر لا تنسى	٤٦٠
مطالعات أشتات : نزل الستار	٤٦١
مطالعات أشتات : بالحب عمى وبالحب عناء	٤٦٢
مطالعات أشتات : عادت فتزوجت	٤٦٣
مطالعات أشتات : إدوار جينار صاحب اللقاح الأول	٤٦٤
مطالعات أشتات : حضرية فى أقصى الريف	٤٦٥
مطالعات أشتات : بيوت مسكونة	٤٦٦
مطالعات أشتات : زواج الست عشرة : كيف يحلو	٤٦٧
مطالعات أشتات : ساعات الحرج على المسارح	٤٦٨
مطالعات أشتات : الخديعة الكبرى	٤٦٩
مطالعات أشتات: ربة البيت أيهما؟	٤٧٠

مطالعات أشتات : صيـــانـة	٤٧١
مطالعات أشتات : تنافس الأحباب	٤٧٢
مطالعات أشتات : الجنة التى وعد بها الصابرون	٤٧٣
مطالعات أشتات : يا ليته درى	٤٧٤
مطالعات أشتات : فتاح الحقائب	٤٧٥
مطالعات أشتات : مولد جامعة	٤٧٦
مطالعات أشتات : خدرها فصحت ونجت	٤٧٧
مطالعات أشتات : الحرب التى سوف تكون	٤٧٨
مطالعات أشتات : الخاطبة	٤٧٩
مطالعات أشتات : ساعة مع صاحب فندق	٤٨٣
مطالعات أشتات : كـآبة	٤٨٤
مطالعات أشتات : إجـهاد	٤٨٥
مطالعات أشتات : جلود رقيقة	٤٨٦
مطالعات أشتات : عندما تقوم القيامة	٤٨٧
مطالعات أشتات : يحكى أن	٤٨٨
مطالعات أشتات : الـراديـوم	٤٨٩
مطالعات أشتات : خشيته الأولى	٤٩٠
مطالعات أشتات : حتى الحيوانات منها المجنون	٤٨١
مطالعات أشتات : رقاد لا خير فيه	٤٩٢
مطالعات أشتات : وسطاء السلام	٤٩٥
مطالعات أشتات : قرية ذهب سلامها	٤٩٨

مطالعات أشتات : يوم مات أبوها ٤٩٩
مطالعات أشتات : لابد من محتال مادام فى الناس غفلة ٥٠٠
مطالعات أشتات : جيل يمضى وجيل يجىء ٥٠١
مطالعات أشتات : شاهد عيان ٥٢٣
كيـــــف : حول المؤتمر الكيميائى المصرى الثانى ٦٧٠
دردشـــــة : دروس . ندوة الخميس . متى يحمد الصنع ٦٧٠
دردشـــــة : العطسة التى هزت العالم . أو مجلس الأمن كما تصوره أمريكا ٦٧٧

(و) مقالات فى مصادر متنوعة :

وهذه بعض المقالات للدكتور أحمد زكى فى أكثر من جريدة ومجلة لم يكن يواظب على الكتابة فيها ، إنما دعت إليها المناسبات الوقتية ، كالعودة من الرحلة ، أو طلب الكلمة منه ، أو الرد على رأى أبدى على صفحات تلك المجلة :

١ ـ الذرة الهائلة؟	المصور: ١٧/ ٨/ ١٩٤٥
٢ ـ الـــذكـــرى	مسامرات الجيب : ٢٨/ ٥/ ١٩٥٠
٣ ـ الألمان كالقطط لهم سبعة أرواح	المصور: ١٤/ ٩/ ١٩٥١
٤ ـ باكستان أمة بنيت بين يوم وليلة	المصور: ٢٥/ ٤/ ١٩٥٢
٥ ـ الهند بعد باكستان . . هوايت هول تنتقل من لندن إلى دلهى	المصور : ٢/ ٥/ ١٩٥٢
٦ ـ مفتى الإسلام يتعثر	أخبار اليوم : ١٠/ ٥/ ١٩٥٢
٧ ـ جولة بين الكهارب	المصور: ٤/ ١٣/ ١٩٥٣
٨ ـ حذاء زميلى مدرس اللغة العربية	الجيل : ١٢/ ٤/ ١٩٥٤
٩ ـ عتــاب	حــواء : ١/ ٣/ ١٩٥٦
١٠ ـ حاولت أن أتعلم الصينية	الشعب : ١٢/ ١/ ١٩٥٧
١١ ـ أشياء لفتت نظرى فى الكويت،	المصور: ٣/ ١٠/ ١٩٥٨

(ز) العربى :

قـد يبدو من المنطقى أن نـرتب مقالات الـدكتور أحمد زكى فى هـذه المجلة عـددًا عددًا تبعـا للترتيب الزمنى حسبما فعلنا فى مقالاته فى المجـلات السابقة ، ولكنى ارتأيت أنه ليس من المفيد أن نرتب هـذه المقالات ترتيبا تـاريخيا لمجرد اتبـاع القاعدة ، وأن الأفضل أن نبوب هـذه المقالات على النحو الذى يفيد الباحث والقارئ اليوم وغدا وعلى هذا فسوف نبوب هذه الآثار الرائعة على النحو التالى :

□ □ **المقالات الافتتاحية** : سواء قبل أن تسمى حديث الشهر وبعد أن سمى المقال الافتتاحى حديث الشهر.

□ □ **المقالات العلمية : وهذه تشمل :**

□ المقالات التى نشرت فى الأعداد الأولى وفهرست تحت عنوان «علوم» .

□ مقالات فى الذرة والفضاء وبعد ذلك خصص الدكتور زكى لهذه المقالات ركن «الفضاء والذرة» .

□ المقالات التى كتبت فى سبيل موسوعة علمية .

□ المقـالات التى كتبت فى سلسلة وحـدة الله تتراءى فى وحـدة خلقه والتى مثلت بعـد ذلك الجزء الأكبر من كتاب مع الله فى الأرض .

□ □ **المقالات الطبية : وهذه تشمل :**

□ مجموعة من المقالات الطبية فى نواح متفرقة من أول العربى وحتى ١٩٦٨

وتشمل هذه مقالاته التى شارك بها فى باب الأمراض الشائعة .

□ سلسلة من المقالات كتبها الدكتور أحمد زكى (٥/ ٦٧ ـ ١١/ ٧٢)

تحت عنوان «الطب المصور» .

□ □ **مقالات أخرى** : فى التربيـة ، وفى علم النفس ، وفى التـاريخ ، وتـاريخ الأشخـاص ، والثقافة العامة ، وصفحة اللغة وركن الأسرة والمرأة وسنرتب هذه جميعا فى صعيد واحـــد .

(١) المقالات الافتتاحية :

□ حرية العرب لا يحول دونها إطلاق الصواريخ	١٩٥٨/١٢
□ ثالوث مقدس هو منطقة النجاة فى بحر الحياة	١٩٥٩/١
□ تراثنا المتراكم لا يستخف به غير محموم	١٩٥٩/٢
□ السخف السياسى فى السياسة الدولية	١٩٥٩/٣
□ محنة : القومية العربية تجتاز محنا ثلاثة	١٩٥٩/٤
□ الحياة جسر لابد أن يعبر	١٩٥٩/٥
□ النكبة الكبرى : نكبة فلسطين	١٩٥٩/٦
□ معركة الفقر قائمة	١٩٥٩/٧
□ قصة « العربى » ، كيف نشأ	١٩٥٩/٨
□ للغد مجتمع تذوب فيه إرادة الفرد	١٩٥٩/٩
□ الشيوعية والرأسمالية طوران من أطوار الإنسان	١٩٥٩/١٠
□ التقى العاهلان وتنفس العالم الصعداء إلى حين / وفرنسا حانت لها فرصة العمر لتكفر عن خطايا عهد لعين	١٩٥٩/١١
□ « العربى » هذا فى عيد ميلاده الأول	١٩٥٩/١٢
□ العروبة ليست رابطة دماء	١٩٦٠/١

□ الشعوبية : هزة عنصرية وتفتيت قومية	٢/ ١٩٦٠
□ الطائفية شيمتها التنازع على الأرزاق	٣/ ١٩٦٠
□ لغتنا العربية ـ عماد القومية ـ هل اتسعت لحاجات هذه المدنية	٦/ ١٩٦٠
□ أغلقت المدارس وبدأ الصيف ما أهدافكم؟	٧/ ١٩٦٠
□ الأمة التى فاتها أن تشكر نعمة الله	٨/ ١٩٦٠
□ «العربى» هذا هو عيد ميلاده الثانى	١٢/ ١٩٦٠
□ الاستعمار صنوف وئام بين أصحاب الأديان	١/ ١٩٦١
□ قنبلة إسرائيل : حديث تحتمه الحوادث صريح	٢/ ١٩٦١
□ أزمة فى الأخلاق تذهب بما نسعى إليه من خير	٣/ ١٩٦١
□ الصحافة : انحرافات تذهب بسمو الرسالة	٤/ ١٩٦١
□ مفارقات فى الثقافة فى الدول العربية	٥/ ١٩٦١
□ صورة قبيحة من صور الاستعمار (البرتغال)	٧/ ١٩٦١
□ متى يكون فى الأرض سلام؟	٨/ ١٩٦١
□ يا تاريخ سجل ، ويا عروبة اسمعى	٩/ ١٩٦١
□ حــرب أم ســلام؟	١٠/ ١٩٦١
□ لابد من لغتين	١٢/ ١٩٦١
□ إيماننا إيمان بالله ، وبالفكر الحر، وبسيادة الشعب	١/ ١٩٦٢
□ الديمقراطية حكم الناس بالناس	٢/ ١٩٦٢
□ الأمــومــة	٣/ ١٩٩٢
□ أقراص لمنع الحمل أم لتشتيت الشمل	٤/ ١٩٦٢
□ الجزائر زحزحت مركز الثقل إلى المغرب العربى	٥/ ١٩٦٢
□ يومان : يوم للإعلام ، ويوم للوقاية من العمى	٦/ ١٩٦٢

□ حديث الصيف	٨/ ١٩٦٢
□ الأمن نعمة الحياة كالهواء ألفناه حتى نسيناه	٨/ ١٩٦٢
□ التعليم كم منه للثقافة ، وكم منه للرزق؟	٩/ ١٩٦٢
□ هذه الآراء السقيمة ، لتعويق النهضة الحاضرة	١٠/ ١٩٦٢
□ لابد للإنسان فى حياته من قواعد ومبادئ	١١/ ١٩٦٢
□ ٤ شمعات فى الذكرى الرابعة لميلاد «العربى»	١/ ١٩٦٣
□ كادت الحرب أن تندلع ولكن الله سلم	٢/ ١٩٦٣
□ الشعب الصغير الذى وقف صدرا بين الصدور	٣/ ١٩٦٣
□ لقمة العيــش	٤/ ١٩٦٣
□ الذرة تشق طريقها إلى صناعة ، وسائر مرافق الحياة شقا حثيثا	٥/ ١٩٦٣
□ الزمان آمن به الإنسان بحكم الكيان	٦/ ١٩٦٣
□ أربعة أحداث جارية على ألسنة الناس	٧/ ١٩٦٣
□ بولاروس . . الصاروخ الذى أحدث انقلابا فى أداة الحرب	٨/ ١٩٦٣
□ اتفق جبابرة الذرة	٩/ ١٩٦٣
□ الجدل : أكثره مجهود غير نافع	١٠/ ١٩٦٣
□ أمجاد العرب : العرب حملوا مشعل الفكر قرونا	١١/ ١٩٦٣
□ أهداف الحياة	١٢/ ١٩٦٣
□ ٥ شمعات فى العيد الخامس لميلاد « العربى»	١/ ١٩٦٤
□ أمجاد العرب هى أم أمجاد المسلمين؟	٢/ ١٩٦٤
□ مؤتمر القمة العربى الأول	٣/ ١٩٦٤

وابتداء من إبريل ١٩٦٤ أطلق أحمد زكى على المقال الافتتاحى عنوان: حديث الشهر:

- ☐ الربيع، مهرجان الحياة الأكبر / مجامع اللغة إنتاج مبعثر، ووحدة مفقودة/ الكيان الفلسطينى: نسمع فيه للشاكين ونرفض المشككين. ٤/ ١٩٦٤
- ☐ شهر آيار: شهر الورد والريحان والسد العالى ٥/ ١٩٦٤
- ☐ العروبة والإسلام ٦/ ١٩٦٤
- ☐ فقر الدولة من فقر أفرادها، وغناها من غناهم ٧/ ١٩٦٤
- ☐ نهرو. كان إذا تكلم أنصتت الدنيا ٨/ ١٩٦٤
- ☐ جنة النفاق ٩/ ١٩٦٤
- ☐ لندن فى الصيف ١٠/ ١٩٦٤
- ☐ ولاء المجتمع للفرد قبل ولاء الفرد للمجتمع ١١/ ١٩٦٤
- ☐ عدل الأرض أم عدل السماء/ من واقع الحياة:
  جولة عند حافة بحيرة/ عربيات سقطت قيدها ١٢/ ١٩٦٤
- ☐ ست سنوات مباركة من حياة العربى ١/ ١٩٦٥
- ☐ المذاهب والتمذهب والأحزاب والتحزب ٢/ ١٩٦٥
- ☐ عيدان: عيد الأمير، وعيد الاستقلال والدستور ٣/ ١٩٦٥
- ☐ خدعوك فقالوا: تغير الزمان وما تغير الزمان،
  ولكن تغيرت أساليب البغى والعدوان ٤/ ١٩٦٥
- ☐ يوم فى تاريخ البشر مشهود ومذكور ٥/ ١٩٦٥
- ☐ النكبة الكبرى فى ذكراها السابعة عشرة ٦/ ١٩٦٥

□ الديمقراطية اتخذت منها دول الأرض، زورا، لقبا محببا إلى الناس ٧/ ١٩٦٥

□ مدنيتان بينهما نصف قرن من الزمان ٨/ ١٩٦٥

□ موازنة بين الفرد والمجتمع، يجب أن يعتدل هذا الميزان ١٠/ ١٩٦٥

□ طبقات المجتمع ١١/ ١٩٦٥

□ إسرائيل من القنبلة الذرية قاب قوسين أو أدنى ١٢/ ١٩٦٥

□ بدأنا السنة الثامنة مباركة فى حياة «العربى» ١/ ١٩٦٦

□ أرقام تدغدغ الأفهام/ خفضوا سن الزواج لا ترفعوها/

سومرست موم/ إحراق جثث الموتى ٢/ ١٩٦٦

□ الوحدة العربية ليست شعارا يصرخ به المعارضون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الأيام/ وزير يستنجد بربات البيوت ولا يذكر أربابها/ الحرب الفيتنامية توشك أن تتحول إلى حرب ذرية/ شبابنا حائر قلق ٣/ ١٩٦٦

□ التشاؤم والمتشائمون ٤/ ١٩٦٦

□ أصداء وأجواء: الأحداث العربية أصداء لأحداث الدنيا ٥/ ١٩٦٦

□ حجر الأم أول كرسى فى مدرسة الحياة ٦/ ١٩٦٦

□ شبابنا وثقافة العصر ٧/ ١٩٦٦

□ لندن فى صيف ١٩٦٦ ٨/ ١٩٦٦

□ الجنون فنون ٩/ ١٩٦٦

□ ألف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها الآن لتصنع الرجال ١٠/ ١٩٦٦

□ دنيا البيض ودنيا الصفر والسمر والسود ١١/ ١٩٦٦

□ الحوافز فى حياة الناس ١٢/ ١٩٦٦

□ فى العيد الثامن من ميلاد العربى ١/ ١٩٦٧

□ دولة افتقدت كل ركائز الوحدة القومية/ جامعات الغرب

مفتوحة الأبواب اليوم وقد تضيق فى وجه أهل الشرق مسالكها غدا/

عالم الأطفال فى الدنيا عالم أحلام ٢/ ١٩٦٧

□ عيدان: عيد أمير، وعيد شعب كريم/ الفقر. . الفقر/ أنت أم أبوك ٣/ ١٩٦٧

□ ديمقراطية البادية أصدق الديمقراطيات/ عبادة الفرد/ المسكن المسكن ٤/ ١٩٦٤

□ الأحكام الكاسحة لا تجتمع، والمنطق، فى رأس واحد.

ما بعد عرى الأفخاذ إلا البطون/ يستغلون الجماهير بمضاعفة أثمان العقاقير ٥/ ١٩٦٧

□ عقل الإنسان ميزان غير ثابت على الزمان/ رعاية الفرد فى الأمم

منهج فى الدنيا جديد/ استطلاعات والدول العربية ٦/ ١٩٦٧

□ النكسة الكبرى ثالث النكسات فى ٢٠ يوما ٧/ ١٩٦٧

□ الفارس الذى سقط منه عند النزال سيفه، لايزال سليم القلب والجسد ٨/ ١٩٦٧

□ الرأى العام: صار بضاعة تصنع فى الناس ٩/ ١٩٦٧

□ التكنية: سبب الغنى والفقر، والعزة والمذلة. . إلخ ١٠/ ١٩٦٧

□ المساواة؟ نعم. . ولكن فى أى شىء ١١/ ١٩٦٧

□ البرو باجنده لفظ برىء صاف كالماء فى الزجاج، تدخله السياسة فيتلون ١٢/ ١٩٦٧

□ أتممنا السنة التاسعة من عمر «العربى» ١/ ١٩٦٨

□ المسألة العربية وتاجر الصابون/ أحب المرأة التى لا تقول لا وتقول نعم/

الخضوع أشقىٰ ما تشقى به الأمم/ المعلم كالسيارة

هى من طراز ١٩٣٠ أو ١٩٥٠/ روح العصر المتطور السريع ٢/ ١٩٦٨

□ محنة ولا كل المحن ٣/ ١٩٦٨

□ هذه المدنية زادت الناس تجميعا أم تشتيتا/

التاريخ قال قائلون إنه يعيد نفسه وقال آخرون إنه لا يعيد ٤/ ١٩٦٨

□ قصة مأساة من مآسى الحياة الدولية آذنت باختتام ٥/ ١٩٦٨

□ حرب العصابات: رجالها فدائيون عند الأصدقاء . .

إرهابيون عندالأعداء/ أزمة الملونين ١٩٦٨/٦

□ الفن والفنانون بين العبقرية والجنون ١٩٦٨/٧

□ الأخلاق، إذا عجز العقل عن القول فيها،

قامت معايير أخرى تدعم قواعد السلوك والأخلاق ١٩٦٨/٨

□ لندن فى صيف ١٩٦٨ ١٩٦٨/٩

□ جارتان: صغيرة وكبيرة، التشيك والروس ١٩٦٨/١٠

□ العقل والإيمان: عينان بهما يبصر الإنسان سبل الحياة ويهتدى ١٩٦٨/١١

□ الدولة الخيرة ترعى أبناءها من يوم يولدون إلى يوم يسيرون ١٩٦٨/١٢

□ نحن العرب: لا خوف علينا اليوم ولا غدا، ولا بعد غد ولا نحن نحزن ١٩٦٩/١

□ اشتدى يا أزمة تنفرجى ١٩٦٩/٢

□ الحرب اليوم علم وتقنية ١٩٦٩/٣

□ القبعة تغيرت وظل الرأس واحدا لم يتغير/

شهر انتظار واصطبار وترقب لم يأتنا بجديد ١٩٦٩/٤

□ الكتاب العربى سبب التخلف الحضارى والتخلف العلمى والتكنى

فى روضة أو مدرسة أو جامعة ١٩٦٩/٥

□ ذكرى الخامس من حزيران وما بعد الخامس من حزيران ١٩٦٩/٦

□ القوة. القوة. سياسة الأمم لا تعرف غير القوة ١٩٦٩/٧

□ الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون ١٩٦٩/٨

□ الزعامة والزعماء: الزعامة بعض طبائع الأشياء ١٩٦٩/٩

□ المجتمع العربى ١٩٦٩/١٠

□ بين مؤتمرين: مؤتمر القمة الإسلامى ومؤتمر القمة العربى ١٩٦٩/١١

□ رقابة لن تزيد العرب إلا صمودا	١٩٦٩/١٢
□ ١١ عاما من حياة «العربى»	١٩٧٠/١
□ الـــولاء	١٩٧٠/٢
□ فقـــر وغـــنى	١٩٧٠/٣
□ رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا: القومية والدين	١٩٧٠/٤
□ الجامعات بين قديمها والحديث	١٩٧٠/٥
□ هذا شهر حزيران	١٩٧٠/٦
□ الطعام والجنس	١٩٧٠/٧
□ الصفقات السياسية	١٩٧٠/٨
□ حيثما نظرت ففى الكون غموض و إبهام	١٩٧٠/٩
□ تقطبت الأرض فدارت على قطبين	١٩٧٠/١٠
□ من وحى رحلة فى المغرب العربى لصيف عام ١٩٧٠. اللغة العربية إن شقت الوطن العربى شقين. فشق ينطق بالضاد. وشق ينطق بغير الضاد، فذلك قضاء الله لا دافع له	١٩٧٠/١١
□ ديمقراطية مريضة	١٩٧٠/١٢
□ إن تكن ماتت الوحدة الشامله.. أجزاء فى ظل العروبة متكاملة	١٩٧١/١
□ (١) التربية كيف تمارس على التخلف والفقر (٢) المادية والروحية عند الفلاسفة	١٩٧١/٢
□ هلموا إلى الإصلاح	١٩٧١/٣
□ يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود	١٩٧١/٤
□ ما وجدت الحكومات إلا لتحمى الحريات	١٩٧١/٥
□ حريات الإنسان	١٩٧١/٦

- ☐ معركة الفقر والغنى ٧/ ١٩٧١
- ☐ رجال الشرطة بين حرية الفرد وسلامة الجماعة ٨/ ١٩٧١
- ☐ لندن فى صيف ١٩٧١ ٩/ ١٩٧١
- ☐ جامعة الهواء ١٠/ ١٩٧١
- ☐ الأسرة بين عصرين زراعى قديم ، وصناعى حديث ١١/ ١٩٧١
- ☐ أسموه إعلاما ، وما هو إلا مواصلات بين أرواح وأفهام من بعد مواصلات بين أجسام وأجسام ١٢/ ١٩٧١
- ☐ عصر الضياع . . إنها حيرة الشباب فى كل عصر ١/ ١٩٧٢
- ☐ مصادر السلوك الإنسانى ثلاثى : الغرائز، والعادات ، والضمائر ٢/ ١٩٧٢
- ☐ حرية الصحافة ٣/ ١٩٧٢
- ☐ الكتاب العربى بين أمية فاشية ، وقرصنة باغية ٤/ ١٩٧٢
- ☐ الجامعات فى الأمم المختلفة ٥/ ١٩٧٢
- ☐ تربية ابنك كانت تبعتك فصارت تبعة الدولة ٦/ ١٩٧٢
- ☐ بين الحرية والكسب ٧/ ١٩٧٢
- ☐ الزعامة والزعماء ٨/ ١٩٧٢
- ☐ حزبان ولكن! ٩/ ١٩٧٢
- ☐ بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية ١٠/ ١٩٧٢
- ☐ الأخلاق والقيم والعادات فى حياة الناس ١١/ ١٩٧٢
- ☐ حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما ١٢/ ١٩٧٢
- ☐ حقائق عشر عن تخلف الشرق ١/ ١٩٧٣
- ☐ للجدل آداب لابد من إحيائها ٢/ ١٩٧٣
- ☐ الدعوة، الدعاية ، الإعلام، البروباجندة ٣/ ١٩٧٣

- من أين وإلى أين يارجال العرب؟ ٤/ ١٩٧٣
- عقادة العقد/ حرية الفكر فى سلام وفى حرب/
  أكبر السعادة انتفاء الآلام لا متعة الأجسام ٥/ ١٩٧٣
- منطق الحوار ومنطق القوة ٦/ ١٩٧٣
- الحضارة الحاضرة زيت وفحم ٧/ ١٩٧٣
- توحد المذاهب والمشارب والعادات فى الأمة الواحدة يسهل مسيرة الحياة فيها ٨/ ١٩٧٣
- الأجور وكيف اختلفت بين الناس ٩/ ١٩٧٣
- قانون الطبيعة غذى حركات التحرير كل القرون ١٠/ ١٩٧٣
- الحرب فى أيامها الأربعة الأولى. الأساطير الكاذبة ١١/ ١٩٧٣
- بعد ١٧ يوما من سير القتال/ الانسجام مع الجماعة سبيل العروبة إلى الحياة ١٢/ ١٩٧٣
- جندوا الأمة العربية ذكورا وإناثا/ الذرة التى قضت على هيروشيما ونجازاجى
  كادت تدخل ميادين الحروب لتقضى على الجنود ألوفا ومئات ألوف ١/ ١٩٧٤
- الانفتاح على الدنيا ضرورة ٢/ ١٩٧٤
- إذا جمعت الحرب فلابد أن يفرق السلم ٣/ ١٩٧٤
- المادة والمادية والروح والروحانية وسؤال المادة والمادية فى العربية ٤/ ١٩٧٤
- اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر ٥/ ١٩٧٤
- الحضارة الحاضرة سبقتها حضارات كثيرة ٦/ ١٩٧٤
- التقاليد ٧/ ١٩٧٤
- هيئة الأمم المتحدة تركت الكرة فى الميدان،
  وجلست تشهد اللعب مع المشاهدين ٨/ ١٩٧٤
- الاحتكار ٩/ ١٩٧٤

□ أهل اليمين وأهل اليسار	١٠/ ١٩٧٤
□ الأسعار الأسعار	١١/ ١٩٧٤
□ الفقر أكثر أسباب التخلف أصالة	١٢/ ١٩٧٤
□ مكانة المرأة فى سائر الأمم عبر القرون	١/ ١٩٧٥
□ ميكافيلى السياسى الذى لعن الساسة	٢/ ١٩٧٥
□ الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب	٣/ ١٩٧٥
□ الحرب والسلم بينهما فرق شعرة ، هى الموت والحياة لآلاف من البشر/ دنيانا هذه مريضة تزداد مرضا عاما بعد عام/ حلقات الدراسة والتدريب	٤/ ١٩٧٥
□ أيها العرب تناسلوا تكاثروا حتى تملئوا البر والبحر عربا	٥/ ١٩٧٥
□ لا صلح بين الزعماء إذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب أعصى/ وفى لبنان فتنة/ فيتنام لها قصة من قصص الزمان تروى ، وبها عبرة	٦/ ١٩٧٥
□ هذه القضية العربية إلى أين تسير بها الأيام	٧/ ١٩٧٥
□ سوق عكاظ أيكون له نشر من بعد انطواء	٨/ ١٩٧٥
□ ربابة البيت أول مهنة ، وأقدم مهنة ، وأثقل مهنة ، وأكرم مهنة امتهنتها الأنثى فى شتى العصور ولسائر المهن فى حياة المرأة المكان الثانى	٩/ ١٩٧٥
□ الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الإنسان من قديم العصور والأزمان	١٠/ ١٩٧٥
□ قالوا : المصلحة أولا. وقالوا : أما العواطف من تراحم وود ، ومن صداقات وحب فأشياء عفى عليها الزمان ، وبئس ما قالوا	١١/ ١٩٧٥
□ الافتتاحية الأخيرة	١٢/ ١٩٧٥

(٢) المقالات العلمية فى مجلة العربى

١- المقالات التى نشرت فى الأعداد الأولى وفهرست تحت عنوان «علوم»:

□ إيكمان: أول من اكتشف الفيتامينات	١٩٥٨/١٢
□ للنمل ذكاء	١٩٥٩/١
□ اليد الإنسانية: تفرق ما بين الإنسان والحيوان	١٩٥٩/١
□ شجرة مباركة: زيتونة	١٩٥٩/٢
□ طائر تحدث: المينا الطائر الناطق	١٩٥٩/٣
□ أى الألوان لونك: لكل نفس لون ترتاح إليه	١٩٥٩/٣
□ عينك تخدعك: العين أشد الحواس صدقا	١٩٥٩/٣
□ هذا الكون العجيب	١٩٥٩/٤

- العلم يكشف الجريمة : بائعو جثث الموتى ١٩٥٩/٤
- الجراد : وجد منذ آلاف السنين ١٩٥٩/٥
- قصة الخلق : إن أكثر الحيوانات تنشأ من بيضة ١٩٥٩/٥
- قصة الخلق : كل حى يبدأ من بيضة ١٩٥٩/٦
- الانتحار له أسبابه وصداه فى المجتمع ١٩٥٩/٧
- الثعابين : مخلوقات من أعجب الخلق ١٩٥٩/١٠
- ملح الطعام : قام مقام الفضة والذهب ١٩٥٩/١٠
- النحل : مجتمع ديمقراطى عجيب ١٩٥٩/١٢
- السواحل أكثر مواقع الأرض تعرضا للزلازل ١٩٦٠/٤
- قصة الخلق : إناث لم تعرف الذكور قط ١٩٦٠/٤
- فلورى وفلمنج : كاشفا البنسلين ١٩٦٠/٥
- العلم يكشف الجريمة : فتاة ، وفندق ، ودماء ١٩٦٠/٥
- قصة الخلق : عقم الرجال ١٩٦٠/٦
- أول بئر للزيت حفروها منذ مائة عام ١٩٦٠/٦
- بصمات الأصابع بدأت فى أوائل هذا القرن ١٩٦٠/٧
- الذبابة أكثر الحشرات إيذاء للناس فى الصيف؟ ١٩٦٠/٨
- البعوض من بعد الذباب ١٩٦٠/٩
- العلم يكشف الجريمة : عندما يتحدث الزجاج ١٩٦٠/٩
- كان يتلون تلون الحرباء ١٩٦٠/١٢
- طواحين هوائية ترفع الماء وتروى الصحراء ١٩٦٠/١٢
- الفيروسات جسر مابين الجمادات والأحياء ١٩٦١/١

□ الأرز طعام نصف سكان الأرض	٢/ ١٩٦١
□ قصة الخلق : التوائم	٣/ ١٩٦١
□ التماثل فى الوجه واليدين والخلق	٥/ ١٩٦١
□ شجرة تعيش آلاف السنين	٨/ ١٩٦١
□ قصة الخلق : هل يفهم الحيوان وهل يعقل؟	١٠/ ١٩٦١
□ قصة الخلق : من الجرثومة إلى الفرخ	١/ ١٩٦١
□ محصول عام ٦١ من كشوف العلم	٢/ ١٩٦٢
□ للدجاج شخصيات	٤/ ١٩٦٢
□ منخفض القطارة	٥/ ١٩٦٢
□ أعمار الناس	١٠/ ١٩٦٢
□ الحصان : هل ينقرض ؟	١١/ ١٩٦٢
□ أيها الآباء! لا تحسبوا الأعمار بالسنين	٩/ ١٩٦٣
□ أرق وأطرف دعاء : سلمت يداه	١١/ ١٩٦٣
□ الببغاوات ألفتها الإنسان تعلمها الكلام	١/ ١٩٦٤
□ هذه الأرض كم تعرف عنها	٢/ ١٩٦٤
□ الربيع مهرجان الحياة الأكبر	٤/ ١٩٦٤
□ القط به إباء وفضول وبه فهم وذكاء	٤/ ١٩٦٤
□ الطب والعلم فى عام ١٩٦٣	٤/ ١٩٦٤
□ غاز البوتان : لا البوتاجاز	٥/ ١٩٦٤
□ رجال الهندسة عند العرب	٩/ ١٩٦٤
□ فى أعماق البحار : حياة أى حياة	١٠/ ١٩٦٤
□ تجارة عظيمة فى عظام الموتى	٢/ ١٩٦٥
□ المرصد الطائر أكبر خطوة خطاها علم الفلك	٣/ ١٩٦٥

٢ـ المقالات التى كتبها الدكتور زكى عن الذرة والفضاء

ثم فى «ركن الفضاء والذرة»

□ الذرة تنافس الزيت	١٩٥٨/١٢
□ أول سجين يهرب من الأرض	١٩٥٩/٣
□ الحوامة : سيارة تسير على فراش من هواء	١٩٥٩/٨
□ وجه القمر فضحته العدسات فإذا هو قطعة من حجر	١٩٥٩/٩
□ أول سفينة ذرية تحمل الناس والبضائع	١٩٥٩/٩
□ أول طائرة عبرت المانش وأول حوامة	١٩٥٩/١٠
□ أول اتصال بالقمر منذ كانت أرض وكان قمر	١٩٦٠/١
□ ماذا بعد القمر؟ الزهرة، أقرب الأجرام إلينا بعد القمر	١٩٦٠/٣
□ الإشعاع الذرى ، كيف يعكس	١٩٦٠/٣
□ أرضنا هذه أرض واحدة أم فى العالم أرضون ؟	١٩٦٠/٧

□ السنة القمرية ما صنعها محمد، ولا الشمسية صنعها عيسى 1961/1

□ رأيت السماء مظلمة ، والشمس طالعة 1961/2

□ الأقمار الصناعية تتنبأ بحال الجو لعام أو لعامين 1961/3

□ شعاع الموت بعد القنابل الذرية 1961/4

□ رجل الفضاء الأول 1961/6

□ الذرة حررت أمما من بعد استعمار 1961/11

□ الذرة تحصى على المخلوقات أعمارها 1962/12

□ التلستار : ذلك القمر الدوار 1963/1

□ الذرة تشق طريقها إلى الصناعة وسائر مرافق الحياة شقا حثيثا 1963/2

□ قصة الملاح الذى أطلقوه إلى كوكب الزهرة 1963/4

□ الذرة تشق طريقها إلى الصناعة وسائر مرافق الحياة شقا حثيثا 1963/5

□ الزهرة ربة الجمال وماسة السماء 1963/6

□ الصواريخ تتعرض لنزوات الإنسان 1963/7

□ بولارس : الصاروخ الذى سوف يعلن بدء خراب الدنيا 1963/8

□ فى سبيل اكتشاف أعظم وأرخص مصادر القوة فى الدنيا 1963/9

□ السلاح الذرى الحاسم : الإخفاق فى إنتاجه جعل خرشوف يكفر بالحرب 1963/10

□ السباق إلى القمر 1964/1

□ جنائز فى السماء بعد جنائز الأرض 1964/5

□ القمر هل فيه جديد 1964/11

□ التفجير الذرى يستخدم فى حفر القنوات 1964/12

□ بالذرة سوف يحلو ماء البحر 1965/1

□ الطائر الباكر: عصر فى التلفزة العالمية جديد 1965/7

- □ القمر فوهاته أفواه براكين — ٨/ ١٩٦٥
- □ المريخ خيب رجاء الإنسان فيه — ١٢/ ١٩٦٥
- □ مفاعل ذرى تجريبى/ مصنع ذرى يعطى الكهرباء ويحلى الماء/ صور من الفضاء/ محطة ذرية عائمة/ الذرة فى علاج السرطان/ الحنطة السوداء بعد إشعاعها — ٢/ ١٩٦٦
- □ أقمار اصطناعية تدور حول القمر الطبيعى/ فرنسا الدولة الثالثة/ اليابان — ٤/ ١٩٦٦
- □ جرمان يلتحمان فى الفضاء لأول مرة — ٥/ ١٩٦٦
- □ الصواريخ الأضداد — ٦/ ١٩٦٦
- □ الذرة والفحم والكهرباء — ٨/ ١٩٦٦
- □ القمر ونزول «لونا ٦٩» على سطحه — ٨/ ١٩٦٦
- □ أول مصنع ذرى للصناعة فى اليابان — ٩/ ١٩٦٦
- □ قمر السماء يدير الإنسان حوله أقمارا — ١٠/ ١٩٦٦
- □ الكوكبان التوءمان: الأرض والزهرة — ١١/ ١٩٦٦
- □ القمر: صار الإنسان منه قاب قوسين — ١٢/ ١٩٦٦
- □ الأرض فى التاريخ بين بسيطة ومكورة — ١/ ١٩٦٧
- □ صورة للكرة الأرضية فريدة — ٣/ ١٩٦٧
- □ أوضح صورة لسطح القمر — ٤/ ١٩٦٧
- □ المفاعلات الذرية أصبحت تهدد العالم بأخطار جسيمة — ١/ ١٩٧١
- □ المركبة الروسية بلا رجال/ ألمانيا تشيد مفاعلا ذريا للأرجنتين — ٢/ ١٩٧١
- □ إلى القمر ـ رحلة أبولو — ١٤.٤/ ١٩٧١

٣- المقالات التى كتبت «فى سبيل موسوعة علمية» :

□ المسك	١٩٦٦/١
□ المسك أيضا : ثور المسك وفأر المسك	١٩٦٦/٢
□ الزباء، العنبر، القسطورة	١٩٦٦/٣
□ الفلفـــل	١٩٦٦/٤
□ العنكبوت : أدق غزال وأرق نساج	١٩٦٦/٥
□ الشيكولاتة والكاكاو	١٩٦٦/٦
□ كيف تصنع الكهرباء	١٩٦٦/٧
□ الفرن الذرى : ينتج الكهرباء، ووقود القنبلة الذرية معا	١٩٦٦/٨
□ سم الثعبان وترياقه	١٩٦٦/٩

- □ الفلاحة فى الماء ١٩٦٦/١٠
- □ الفول السودانى ١٩٦٦/١١
- □ خرطوم الفيل : أنف طال ١٩٦٦/١٢
- □ الحياة معركة شاملة قاسية ١٩٦٧/١
- □ الجبن : الطعام الثانى الذى تبنى منه الأجسام ١٩٦٧/٢
- □ جملك سيارة الصحراء ١٩٦٧/٣
- □ الذرة : طب وزراعة وصناعة ١٩٦٧/٤
- □ عمرك أيها الإنسان وأعمار ما تألف من الحيوان ١٩٦٧/٥
- □ الوطاويط ، خفافيش الليل ١٩٦٧/٦
- □ النار ، فى سلم . . وفى حرب ١٩٦٧/٧
- □ المد والجزر فى بحار الأرض والمحيطات ١٩٦٧/٨
- □ الصحراء وما لها ، كثبانها وعواصفها ١٩٦٧/١١
- □ حبتان ، تسيطران على طعام الإنسان ، حبة الأرز ، وحبة القمح ١٩٦٧/١٢
- □ العناكب ١٩٦٨/١
- □ الطاقــة ١٩٦٨/٢
- □ التــوابــل ١٩٦٨/٣
- □ الأسمــاك ١٩٦٨/٤
- □ الزهرة علم عنها جديد ١٩٦٨/٤
- □ بصمات الأصابع بين الشرطة والعلم ١٩٦٨/٦
- □ سمك القــرش ١٩٦٨/٧

□ مدافع الهاون . . التنظيف على الناشف	٨/ ١٩٦٨
□ السـلاحف	٩/ ١٩٦٨
□ السمك وحفظه بالتجفيف والتمليح والتدخين	١٠/ ١٩٦٨
□ الـزلازل	١١/ ١٩٦٨
□ سلالات البشر اختلفت أطوالا وأشكالا وألوانا وشعورا، وتطارفت فاختلفت حتى كادت تنبهم أصولها	١٢/ ١٩٦٨
□ الباروكة ومواضيع أخرى	١/ ١٩٦٩
□ الخبز : وهو الطعام الأول : والأرخص الذى يأكله من الناس العدد الأكثر	٢/ ١٩٦٩
□ الطائرتان : الميراج والفانتوم	٣/ ١٩٦٩
□ الخنـافس	٤/ ١٩٦٩
□ فى الطريق إلى الخمائر	٥/ ١٩٦٩
□ الإسفنـج	٥/ ١٩٦٩
□ الخمـائـر	٦/ ١٩٦٩
□ الذُّرة : نبات لم يعرفه العرب	٧/ ١٩٦٩
□ الجوارح من الطير	٨/ ١٩٦٩
□ أشياء هذه الحياة : فيها الخشونة كثرة، وفيها النعومة قلة	٩/ ١٩٦٩
□ البطـريـق	١٠/ ١٩٦٩
□ الحرارة : كيف تصورها الأقدمون وكيف فضح سرها الأحدثون	١١/ ١٩٦٩
□ العجلة فى خدمة الإنسان : من الساقية رافعة الماء، إلى العجلة طاحنة الغلال، إلى الطوربين صانع الكهرباء	١٢/ ١٩٦٩
□ أول إنسان دقت قدماه سطح الأرض	١/ ١٩٧٠

□ ثلاجتك : كيف تعمل ؟ ١٩٧٠/١

□ الألـــوان ١٩٧٠/٢

□ الخشب وخطره فى حياة الإنسان ١٩٧٠/٣

□ الصـــابـــون ١٩٧٠/٤

□ الخزف والفخار ١٩٧٠/٥

□ الشمس أقرب نجوم السماء إلينا ١٩٧٠/٦

□ نجوم السماء ١٩٧٠/٧

□حجـــرتنـــا ١٩٧٠/٨

□ الجواهر الثمينة ١٩٧٠/٩

□طعام الإنسان : يختزنه له النبات اختزانا ١٩٧٠/١٠

□ البن . . والقهوة شرابه ١٩٧٠/١١

□ الكيماويات البترولية ١٩٧٠/١٢

□ الصاروخ : سلاح القرن العشرين ١٩٧١/١

□الأسلحة الكيماوية والأسلحة المكيروبية فى الحرب العالمية الثالثة ١٩٧١/٢

□ المعيز : أبناء عم الشاه وكلها أغنام ١٩٧١/٤

□ الشياه : خراف ونعاج معا ١٩٧١/٦

□ صور يستفاد منها عبر: إدارة الحياة ١٩٧١/٨

□ صور يستفاد منها عبر: صحراء تخضر بالنبات من بعد اصفرار ١٩٧١/٨

□ الأرض بين التسطح والتكور ١٩٧١/١٢

□ أمنا الأرض كم مضى من عمرها المديد ١٩٧٢/١

□ عمر الأرض والحياة والإنسان ١٩٧٢/٤

□ الجبال ١٩٧٢/٥

□ الماس ١٩٧٢/٦

□ مجاهر العلم ثلاثة : الضوئى، الألكترونى، الكاسح ١٩٧٢/٧

- ◻ صور وراء كل منها خبر: يريدون اللحاق بالركب/ أول لقاح ضد الجدرى اللغة الصينية فيها أكثر من ٥٠٠٠٠ رمز — ٨/ ١٩٧٢
- ◻ مـــرض النـــوم — ٩/ ١٩٧٢
- ◻ المعدة تهضم اللحم، والمعدة من لحم فلا تهضم المعدة نفسها — ١٠/ ١٩٧٢
- ◻ السماء لماذا هى زرقاء — ١١/ ١٩٧٢
- ◻ الإنسان: كيف قاس مكانه وكيف قاس زمانه — ١/ ١٩٧٣
- ◻ التاريخ: لا نحس الزمن ومع هذا نعده ونقيسه — ٣/ ١٩٧٣
- ◻ الطائرة كيف ترتفع فى السماء — ٩/ ١٩٧٣
- ◻ يسألونك عن الصدى — ٥/ ١٩٧٣
- ◻ كشوف فاجأت العلماء على قارعة الطريق — ١/ ١٩٧٤
- ◻ سماعة الطبيب — ٦/ ١٩٧٤
- ◻ غـــاز النفـــط — ٧/ ١٩٧٤
- ◻ الشمس أم الطاقات — ٨/ ١٩٧٤
- ◻ الجـــاذبيـــة — ٩/ ١٩٧٤
- ◻ الغطس والغطاسون — ١٠/ ١٩٧٤

٤ـ المقالات التى كتبت فى سلسلة وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه، والتى كونت بعد ذلك الجزء الأكبر من كتاب «مع الله فى الأرض»:

- ☐ السماء أشد دغدغة للفكر ١/ ١٩٧٠
- ☐ الشمس أم الحياة ٢/ ١٩٧٠
- ☐ أجسام الخلائق جميعا من هواء الجو ٣/ ١٩٧٠
- ☐ الخلائق وغطاء الأجسام ٤/ ١٩٧٠
- ☐ هياكل الحيوانات تكشف عن الوحدة الجارية بينها ٥/ ١٩٧٠
- ☐ الحيوانات لابد لها من هيكل صلب يسند أجسامها ٦/ ١٩٧٠
- ☐ المملكة الحيوانية والمملكة النباتية ٣/ ١٩٧١

- ☐ التغذية . . والمواد الغذائية ، والهضم والأجهزة الهضمية — ٧/ ١٩٧١
- ☐ الخمائر — ٧/ ١٩٧١
- ☐ الهرمونات — ٩/ ١٩٧١
- ☐ للنباتات هرمونات كما للحيوانات هرمونات — ١١/ ١٩٧١
- ☐ الهضم والتغذية لهما أجهزة أربعة أعوان : الكبد والرئتان والقلب والكليتان — ١٢/ ١٩٧١
- ☐ من هنا بدأت المسيرة مع الوحدة — ١/ ١٩٧٢
- ☐ شعبة الإسفنج — ٢/ ١٩٧٢
- ☐ الحيوانات اللاسعة — ٣/ ١٩٧٢
- ☐ الديدان المفلطحة — ٤/ ١٩٧٢
- ☐ الديدان المدورة — ٤/ ١٩٧٢
- ☐ شعبة للحيوانات الرخوة — ٦/ ١٩٧٢
- ☐ العناكب : العناكب ليست حشرات — ٩/ ١٩٧٢
- ☐ العقارب : صفات العقارب — ١٠/ ١٩٧٢
- ☐ وقفة بين شطرين من الحيوانات غير ذات فقار، وذات فقار — ١٢/ ١٩٧٢
- ☐ الأسمـــاك — ١/ ١٩٧٣
- ☐ الضفـــدع — ٢/ ١٩٧٣
- ☐ الـــزواحـــف — ٤/ ١٩٧٣
- ☐ العظايا أو السحالى — ٥/ ١٩٧٣
- ☐ الثعـــابـــين — ٦/ ١٩٧٣
- ☐ التمـــاسيـــح — ٧/ ١٩٧٣
- ☐ الطـــير — ٨/ ١٩٧٣

□ البيئة أصل الحياة	١٠/ ١٩٧٣
□ الحيوانات ذوات الصدى	١١/ ١٩٧٣
□ الخـليــة	١٢/ ١٩٧٣
□ الوحدة كما تتراءى فى هياكل الحيوانات من ظاهره وباطنه	١/ ١٩٧٤
□ الطعام وهضم الطعام وأجهزة هضم الطعام	٢/ ١٩٧٤
□ الهضم وأجهزته فى ثلاث شعب	٣/ ١٩٧٤
□ الـــديـــدان	٤/ ١٩٧٤
□ بالوصول إلى الديدان بدأت خطة الخلق تتضح استطرادا منها إلى الإنسان	٥/ ١٩٧٤
□ التمـــاثـــل	٦/ ١٩٧٤
□ الدورة الدموية فى الإنسان	١٢/ ١٩٧٤
□ دم الإنســـــان	١٢/ ١٩٧٤

المقالات الطبية

(١) مقالات طبية فى تخصصات متعددة حتى ١٩٦٨

١ ـ السرطان آخر ما قاله الطب فيه	١٢/١٩٥٨
٢ ـ الدفتريا : المرض الخانق للأطفال	١/١٩٥٩
٣ ـ السل : آخر ما قاله الطب فيه	٢/١٩٥٩
٤ ـ شلل الأطفال : اكتشاف لقاح جديد	٣/١٩٥٩
٥ ـ الهولا هوب : لعبة رياضية خطرة على الأولاد	٦/١٩٥٩
٦ ـ البول السكرى : داء السكر وراثة ؟	٧/١٩٥٩
٧ ـ الحصانة من شلل الأطفال : مصل حى يعطى فى الفم	١٠/١٩٥٩
٨ ـ الأشعة السينية ، تفضحك وأنت لا تدرى	١١/١٩٥٩
٩ ـ النوم : ثلث عمرك تقضيه نائما	١/١٩٦٠
١٠ ـ قلبك : آلة صدرك ، لو توقفت برهة ضيعتك !	٢/١٩٦٠

١١ ـ قلبك : ينقبض وينبسط ، ولا تعرف من قبضه ومن بسطه	٣/ ١٩٦٠
١٢ ـ هرمونات تعيد الشباب : قصة العقار «هـ ٣»	٤/ ١٩٦٠
١٣ ـ أنت كالقاطرة : الفحم وقودها ، والطعام وقودك	٥/ ١٩٦٠
١٤ ـ الصلع : أسباب الصلع الأصيلة مجهولة	٧/ ١٩٦٠
١٥ ـ شـلل الأطفـال	٨/ ١٩٦٠
١٦ ـ ضـربـة الشمـس	٨/ ١٩٦٠
١٧ ـ هل يتحكم الإنسان فى ذريته ، فيأتى بالبنين أو بالبنات ؟	١٠/ ١٩٦٠
١٨ ـ الرمد : وأخيرا كشفوا عن فيروسه !	١٠/ ١٩٦٠
١٩ ـ أنت تحمل جسمك ، فلا تحمل جسما ثقيلا	١١/ ١٩٦٠
٢٠ ـ الروماتيزم : مرض قديم قدم الإنسان	٤/ ١٩٦١
٢١ ـ الفتق : لا يشفى منه حزام ، ولكن تحسم فيه جراحة	٥/ ١٩٦١
٢٢ ـ الإمساك : يشغل الناس إلى يوم يموتون	٧/ ١٩٦١
٢٣ ـ الدم الأحمر : كالذهب الأصفر له بنوك يختزن فيها	٨/ ١٩٦١
٢٤ ـ قد يقضى دم الأم على حياة جنينها : عامل «ريسوس»	٨/ ١٩٦١
٢٥ ـ مريض بالسكرى يتحدث	٩/ ١٩٦١
٢٦ ـ هـذه عينـك	١٠/ ١٩٦١
٢٧ ـ للطبيعة ميزان أخل به الإنسان : تحديد النسل	١١/ ١٩٦١
٢٨ ـ العطـش	١٢/ ١٩٦١
٢٩ ـ محصول عام ١٩٦١ من كشوف الطب	٣/ ١٩٦٢
٣٠ ـ منع الحمل : حبوب تعطى للرجال	١/ ١٩٦٣
٣١ ـ منع الحمل : بإجراء جراحة للرجل لا تفقده رجولته	٢/ ١٩٦٣
٣٢ ـ قرحة المعدة : علاج عجيب ثلاث ساعات يأكل بعدها المريض	٣/ ١٩٦٣
٣٣ ـ البروستاتة : مرض الأشياخ وطريق الكثير منهم إلى القبر	٥/ ١٩٦٣

٣٤ ـ الحصبة : مرض الأطفال ، ومزعج الأمهات	١٩٦٣/٧
٣٥ ـ فى مرحاض عام : كاشف للسكرى فى البول	١٩٦٣/١٠
٣٦ ـ نزول الأطفال قبل أوانها	١٩٦٣/١٠
٣٧ ـ الهستريا لفظ له معنيان : علمى ودارج	١٩٦٤/١
٣٨ ـ الطب والعلم فى عام ٦٣	١٩٦٤/٣
٣٩ ـ الإسبرين فى عامه الخامس والسبعين	١٩٦٤/٧
٤٠ ـ عرق الصيف نعمة أم نقمة	١٩٦٤/٨
٤١ ـ كشف رائع لمرضى السكر	١٩٦٤/١١
٤٢ ـ أبو بكر الرازى طبيب الدولة العربية الأول	١٩٦٦/١
٤٣ ـ أبوال الناس ، ما يصنعون بها فى المختبرات	١٩٦٦/٧
٤٤ ـ جهاز البول : كليتان وحالبان ومثانة ومخرج	١٩٦٦/٨
٤٥ ـ حصى فى الحويصلة الصفراوية	١٩٦٧/٥
٤٦ ـ الذبحة الصدرية والسدة القلبية	١٩٦٧/٦
٤٧ ـ السكتة المخية	١٩٦٧/٧
٤٨ ـ الكلرة : مرض القرون الماضية ووباء العصور الحاضرة	١٩٦٧/٨
٤٩ ـ الصفراء عرض ومرض	١٩٦٧/١١
٥٠ ـ الجلوكومـــا	١٩٦٧/١٢

(٢) سلسلة «الطب المصور»

١ ـ بصرك ، أعز الحواس عليك : كيف تمتحنه	١٩٦٧/٥
٢ ـ الطفل رجل مكتمل الأعصاب	١٩٦٧/٦
٣ ـ قلبك قلبان : أيمن وأيسر	١٩٦٧/٧
٤ ـ شرطة النجدة فى دم الإنسان	١٩٦٧/٨
٥ ـ أول صيدلية فى بغداد	١٩٦٧/١٠
٦ ـ الطب والصيدلة عند قدماء المصريين	١٩٦٧/١٢
٧ ـ الطب والصيدلة عند قدماء المصريين	١٩٦٧/١٢

٨ ـ جالينوس	١٩٦٨/١
٩ ـ كلية سليمة مكان كلية سقيمة .	١٩٦٨/٢
١٠ ـ اللمس أحد الأحاسيس الخمسة	١٩٦٨/٣
١١ ـ الهيكل العظمى للإنسان	١٩٦٨/٤
١٢ ـ الطب فى بابـــل	١٩٦٨/٥
١٣ ـ الأحشـــــــاء	١٩٦٨/٦
١٤ ـ عضـــلات جسمـــك	١٩٦٨/٧
١٥ ـ الدورة الدموية	١٩٦٨/٨
١٦ ـ الأوعية الليمفاوية	١٩٦٨/٩
١٧ ـ أذن الإنسان	١٩٦٨/١٠
١٨ ـ جالينوس / أبو الطب القديم	١٩٦٨/١١
١٩ ـ كلية ميكانيكية تطيل الحياة	١٩٦٨/١٢
٢٠ ـ جهاز الهضم فى جسم الإنسان	١٩٦٩/١
٢١ ـ كيف يقيم الإنسان جسمه ويوازن بين أجزائه فلا تميل	١٩٦٩/٢
٢٢ ـ الكليتـــــان	١٩٦٩/٣
٢٣ ـ الخلية : الوحدة الأساسية فى كل الكائنات الحية	١٩٦٩/٤
٢٤ ـ الصدر : وفيه الرئتان وبينهما القلب	١٩٦٩/٥
٢٥ ـ أسنان الإنسان	١٩٦٩/٦
٢٦ ـ حركة الأجسام . . عضلات وعظام	١٩٦٩/٧

٢٧ ـ الكبــــد ١٩٦٩/٨

٢٨ ـ المذاق عند الإنسان ١٩٦٩/٩

٢٩ ـ الطحــــال ١٩٦٩/١٠

٣٠ ـ ضربات القلب ١٩٦٩/١١

٣١ ـ جلد الإنسان ١٩٦٩/١٢

المقالات المتنوعة

١ ـ عازب يقول : أنا سعيد فى عزوبتى	١٩٥٨/١٢
٢ ـ ومتزوج يقول : أنا سعيد فى زواجى	١٩٥٩/١
٣ ـ قصة رجل فشل فى ترويج بضاعته	١٩٥٩/١
٤ ـ أعسر أيام الأمومة	١٩٥٩/٢
٥ ـ صوتك دليل عليك ، تأثير الصوت على الشخصية	١٩٥٩/٣

٦ ـ عالم الغيب : تعدد الوسائل فى كشف الغيب ١٩٥٩/٤
٧ ـ فتاة الشرطة : ميدان جديد تقتحمه الفتاة العربية ١٩٥٩/٤
٨ ـ لا تأذن لجريمة الأمس أن تعكر صفو اليوم ١٩٥٩/٤
٩ ـ سقراط كيف مات ١٩٥٩/٥
١٠ ـ تحرر المرأة زاد نسبة الطلاق فى النساء ١٩٥٩/٥
١١ ـ من أنت ؟ : درس نفسانى لكشف شخصية الفرد ١٩٥٩/٥
١٢ ـ السيدة العجوز التى تحدثت إلى الحياة ١٩٥٩/٧
١٣ ـ فتاة تدخل الدير . . عوامل اعترتها فهربت إليه ١٩٥٩/٧
١٤ ـ كونان دويل : صاحب شرلوك هولمز ١٩٥٩/١١
١٥ ـ رسالة جندى يموت إلى ولد له لم يولد بعد ١٩٥٩/١٢
١٦ ـ الغضب : أبيض وأسود وأصفر وأحمر ١٩٦٠/١
١٧ ـ التلبثة : قراءة الأفكار من مسافة بعيدة ١٩٦٠/٣
١٨ ـ وقفة عند قبور قوم نابهين ١٩٦١/٢
١٩ ـ الوشم عند مختلف الأمم ١٩٦١/٤
٢٠ ـ إذا أعطيت أحدا يدا فاجعلها يدك اليسرى ١٩٦١/٤
٢١ ـ ابن زهر الطبيب الشاعر الأندلسى ١٩٦١/٧
٢٢ ـ الحياة معركة . . الوجه أكبر خادع ١٩٦٢/١
٢٣ ـ آداب السلـــوك ١٩٦٢/١
٢٤ ـ جورج واشنطن هزمته امرأة ١٩٦٢/١
٢٥ ـ ذكر أم أنثى ؟ الرجل لا المرأة هو المسئول عن ذلك ١٩٦٢/١
٢٦ ـ الحاج حسن تكمن سعادته فى خدمة الناس ١٩٦٢/٢

٢٧ ـ مصطفى كامل : يوم وفاته	٢/ ١٩٦٢
٢٨ ـ آداب السلوك	٢/ ١٩٦٢
٢٩ ـ منع الحمل عن طريق المرأة	٢/ ١٩٦٢
٣٠ ـ اللغة اللغة يا مجامع اللغة !!	٣/ ١٩٦٢
٣١ ـ من واقع الحياة : القرية الحنون	٣/ ١٩٦٢
٣٢ ـ منع الحمل عن طريق المرأة	٣/ ١٩٦٢
٣٣ ـ آداب السلوك فى الحفلات	٣/ ١٩٦٢
٣٤ ـ للأدب غايات ثلاث	٤/ ١٩٦٢
٣٥ ـ منع الحمل عن طريق الرجل	٤/ ١٩٦٢
٣٦ ـ أم نابليـــون	٤/ ١٩٦٢
٣٧ ـ آداب السلوك آداب السينما كيف تكون	٤/ ١٩٦٢
٣٨ ـ آداب السلوك . . بطاقات الزيارة	٥/ ١٩٦٢
٣٩ ـ إذا كرهت عملك فتحول عنه والسن طرية	٥/ ١٩٦٢
٤٠ ـ خصومة قديمة بين الأمواس واللحى	٦/ ١٩٦٢
٤١ ـ آداب السلوك	٧/ ١٩٦٢
٤٢ ـ أيهن أصلب عودا : نساء الأمس أم اليوم	٧/ ١٩٦٢
٤٣ ـ شيخ لا كالشيوخ يتحدث عن المرأة	٢/ ١٩٦٣
٤٤ ـ المرأة أمتن بناء من الرجل	٣/ ١٩٦٣
٤٥ ـ ربات البيوت خرجن يعملن للحياة	٤/ ١٩٦٣
٤٦ ـ زوجك حافظى عليه . . سبع نصائح للزوجات	٥/ ١٩٦٣
٤٧ ـ مات أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل	٥/ ١٩٦٣
٤٨ ـ أم خرجت بحكمة من حديثها إلى طفليها	٧/ ١٩٦٣

٤٩ ـ أين يتجه الطالب بعد المدرسة	٩/ ١٩٦٣
٥٠ ـ امرأة لا كالنساء	٩/ ١٩٦٣
٥١ ـ الخوارزمى رأس رياضى من أكبر الرءوس	١٢/ ١٩٦٣
٥٢ ـ فى مخفر الشرطة : صبى هارب	١٢/ ١٩٦٣
٥٣ ـ التحية فى قديم الزمان وحديثه	٣/ ١٩٦٤
٥٤ ـ إبراهيم لنكولن : يدفع دمه ثمنا لتحرير العبيد	٥/ ١٩٦٤
٥٥ ـ إقليدس حفظه العرب لأهل الغرب قرونا	٧/ ١٩٦٤
٥٦ ـ البيت والأسرة باقيان . . رغم أفلاطون .	١١/ ١٩٦٤
٥٧ ـ رجل لا يشار إليه بالبنان	١٢/ ١٩٦٤
٥٨ ـ أزهار ولكنها حيوانية ، فوق صخور سموها مرجانية	١/ ١٩٦٥
٥٩ ـ قامتك يا سيدتى هى صحتك	١/ ١٩٦٥
٦٠ ـ ضمير يستيقظ	٢/ ١٩٦٥
٦١ ـ ضياء منزلك قبل زينتك يا سيدتى	٣/ ١٩٦٥
٦٢ ـ كان لى زوجان	٤/ ١٩٦٥
٦٣ ـ أيتها الأم وزعى حنانك بالتساوى	٦/ ١٩٦٥
٦٤ ـ الطلبة أمزجة ثلاثة : واقعى ، ومثالى ، وبرجماتى	١٠/ ١٩٦٥
٦٥ ـ أنا و زوجتى فى زيارة جيران لنا	١/ ١٩٦٦
٦٦ ـ لغات أهل الأرض	١/ ١٩٦٧
٦٧ ـ معجم عربى للمعانى	٥/ ١٩٦٧
٦٨ ـ ابن سينا	٦/ ١٩٦٧
٦٩ ـ الجهاز العصبى	١١/ ١٩٧٢

ثامنا : استطلاعات صحفية

اشتهرت مجلة العربى باستطلاعاتها المصورة التى بلغت حدا رائعا من الجمال والكمال ، وكان أحمد زكى صاحب فكرة الاستطلاعات وقام بنفسه ببعض هذه الاستطلاعات ، وهذه قائمة بالاستطلاعات التى قام بها أحمد زكى :

١ ـ الدجاج : تربيته رابحة فى الكويت (استطلاعات الكويت)	١٩٥٩/٥
٢ ـ لسان من نار يندلع من جوف البحر من بئر نفط (استطلاعات الكويت)	١٩٥٩/٩
٣ ـ مراكش ترقد عند جبال بعمائم بيضاء	١٩٦٠/٢
٤ ـ الرياض عاصمة السعودية	١٩٦١/٢
٥ ـ البرتقال فاكهة الشتاء	١٩٦١/٢
٦ ـ الصحراء الجزائرية تدفق الماء فيها بعد الزيت	١٩٦١/٩
٧ ـ الاستقلال (استطلاعات الكويت)	١٩٦٢/٧

تاسعا : أحاديث إذاعية

نشر الدكتور أحمد زكى عشرين حديثا من أحاديثه الإذاعية فى كتابه «سلطة علمية» الذى أصدره عام ١٩٤٨ ، ولم تكن هذه كل أحاديثه الإذاعية ، ولحسن الحظ فقد عثرت فى تراثه على قائمة بالأحاديث الإذاعية التى لم تنشر وقد أعدها أحمد زكى فيما يبدو توطئة لنشرها ، وقد رأينا من الواجب أن نطلع القارئ على هذه القائمة التى لا فضل لنا فى إعدادها :

١ ـ الحب والعلم

٢ ـ أمريكا كما وجدتها (١)

٣ ـ أمريكا كما وجدتها (٢)

٤ ـ أمريكا كما وجدتها (٣)

٥ ـ أمريكا كما وجدتها (٤)
٦ ـ خزان أسوان مصدر للثروة
٧ ـ مشاكل الشباب (١)
٨ ـ مشاكل الشباب (٢)
٩ ـ لن ننساه
١٠ ـ الآلام والتجلى
١١ ـ أفكار تتناقل وخواطر تتوارد
١٢ ـ الروح بعد الموت
١٣ ـ أجسامنا حقول ترويها الدماء
١٤ ـ دماء الناس ليست سواء
١٥ ـ هل يعقل الحيوان ؟
١٦ ـ أكثر العلماء غفلة
١٧ ـ الماء للحياة وعاء
١٨ ـ ثورة فى عالم الميكروب
١٩ ـ الضاحك الباكى
٢٠ ـ رفقا بالقوارير
٢١ ـ قوانين مطبوعة وقوانين مصنوعة
٢٢ ـ قصة الذباب
٢٣ ـ عينـــاك
٢٤ ـ شجرة مريم
٢٥ ـ وطـــاويط
٢٦ ـ محطة إذاعة فى رأس قطة
٢٧ ـ قصة الكفاح الأول
٢٨ ـ قصة الحصانة
٢٩ ـ الإنسان العاجز
٣٠ ـ حلا يحلو
٣١ ـ القراءة فى خدمتك
٣٢ ـ الفلفـــل
٣٣ ـ القـــس
٣٤ ـ من وحى الصيف
٣٥ ـ اللســـان
٣٦ ـ أمزجة الناس ستة ، فأين أنت منها؟
٣٧ ـ سمـــوم
٣٨ ـ خروف العيد
٣٩ ـ أصوات صارخة ، لا تسمعها الناس
٤٠ ـ لوكامين إخوان
٤١ ـ الحرب الميكروبية
٤٢ ـ الهاربون من الحياة
٤٣ ـ الشيخوخة
٤٤ ـ شعر الرجال وشعر النساء
٤٥ ـ الزكيبة التى نعيش فيها
٤٦ ـ لعنة المواقد فى الشتاء البارد
٤٧ ـ عند ترعة المنصورية
٤٨ ـ خديجة ابنة عمران

٤٩ ـ

٥٠ ـ دعاء البحر

٥١ ـ الصيف والمصايف

٥٢ ـ حديث الدر والجوهر

٥٣ ـ أين نحن من السماء ؟

٥٤ ـ العلم والضحك

٥٥ ـ بستـــور

٥٦ ـ كيف يمكن للبلاد العربية أن تستفيد من العلوم الحديثة؟

٥٧ ـ كيف يمكن للبلاد العربية أن تستفيد من العلوم الحديثة؟

٥٨ ـ كيف يمكن للبلاد العربية أن تستفيد من العلوم الحديثة؟

٥٩ ـ الصيف والمصايف

٦٠ ـ الشيوعية والمجتمع

٦١ ـ أصدقاء ثلاثة

الفصل الثانى

أعمال عن الدكتور أحمد زكى

يلاحظ القارئ أننا جعلنا الأحاديث التى أجراها الصحفيون مع الدكتور أحمد زكى من الأعمال التى كتبت عنه، وضمناها هذا الفصل بالإضافة إلى التعليقات والردود التى كتبت تعليقا أو ردا على بعض مقالاته.

أولا : مقدمات كتب

١ ـ هذا المؤلف

مقدمة لكتاب « مع الناس » ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

بقلم د. فائق الجوهرى

ثانيا : مقالات وأحادث صحفية وتعليقات

- الإشعاع

تعليق للأستاذ أحمد أمين	الرسالة (١٥)	١٩٣٣/٨/١٥

- الحرب بالغازات الكيماوية ،

س و ج مع الدكتور أحمد زكى

مجلة (هى) العدد الخامس (٣٤ ـ ٣٥).

- اسأل «مجرب» . . الكيميائى الذى يحضر الأدب

إنجيل ماركس	الإثنين	١٩٥٠/٦/٢٩
- الدكتور أحمد زكى يتحدث عن حبه الأول	الإثنين	١٩٥٠/٧/٢٦
- حديث الأدباء		
طاهر الطناحى	الهلال	مارس ١٩٥١
- وزير الشئون يدعو إلى هجرة المصريين		
ويطلب تحديد النسل		
حيث يوجد الفقر والتعاسة	الأخبار	١٩٥٢/٧/٧

ـ وزير العلم يكرم العلماء	الإثنين	١٩٥٢/٧/٢١
ـ علماء فى الجيش	الجيل الجديد	١٩٥٢/٧/٢١
ـ رجل تحت الميكروسكوب « كاريكاتير مجسم صنع التمثال عباس الشيخ»	الإثنين	١٩٥٣/٦/١٨
إذاعات نرشحها للخلود	الإثنين	١٩٥٣/٥/١١
ندوة رمضانية فى ضيافة الإثنين ضيوفها (أحمد زكى ـ عبد الجواد حسين ـ عبد الحميد عبد الحق ـ محمد خطاب ـ الشيخ أحمد حسن الباقورى)	الإثنين	١٩٥٣/٦/١٨
ـ استقالة الدكتور أحمد زكى من مجلس فؤاد الأول المحـــرر	الأخبار	١٩٥٣/٨/١٢
ـ الدكتور أحمد زكى مديرا لجامعة القاهرة	الأخبار	١٩٥٣/٨/١٨
ـ مدير جامعة القاهرة يقول : على أصحاب الرأى أن يدركوا خطر الحرية المعطاة لهم	المصور	١٩٥٣/٨/٢٨
ـ مدير جامعة القاهرة يطالب بتهيئة الاستقرار للطلبة	الأخبار	١٩٥٣/٩/٦
ـ الرجل الذى يشرف على تعليم عشرات الألوف من الجامعيين يتعلم إلى الآن محمد خطاب	الإثنين	١٩٥٣/٩/٧
ـ نصيحتى الأولى للشباب	الإثنين	١٩٥٣/٩/٢٨
ـ مدير جامعة القاهرة يقول : لن يحرم طالب من المجانية مادام يستحقها	الأخبار	١٩٥٣/١٠/١٨
ـ مشروع هام وخطير	الإثنين والدنيا	١٩٥٥/٢/٧

- مدير جامعة القاهرة يقول :
لن أكون طرطورا — المصور — ٣٠/١٠/١٩٥٣

- هذه هى مشاكل الجامعة
كما يرويها الدكتور أحمد زكى — الجيل الجديد — ٢٣/١١/١٩٥٣

- أهل الفكر فى صوامعهم . .
مع شيطان الشعر . . وأنغام بتهوفن . .
وتعاليم الشيخ محمد عبده فى صومعة
مدير الجامعة — المصور — ٢٧/١١/١٩٥٣

- اسألوا أهل الفكر . . الدكتور أحمد زكى
يجيب عن أسئلة قراء الإثنين — الإثنين — ٢١/١٢/١٩٥٣

- الحكم الديمقراطى كما يجب أن نفهمه — الجيل الجديد — ٢١/١٢/١٩٥٣

- كرسى الاعتراف . .
الإثنين تحقق مع الدكتور أحمد زكى — الإثنين — ٨/٢/١٩٥٤

- مدير الجامعة يتكلم :
لماذا لم أستقل بعد أن هتف الطلبة بسقوطى
- مسئوليتى أمام ٢٣ ألف طالب كالعلقم
- سيأتى اليوم الذى أقدم فيه استقالتى
سامى جوهر — الجيل الجديد — ٢٩/٣/١٩٥٤

- مدير الجامعة يرد على الجيل الجديد — الجيل الجديد — ٢٦/٤/١٩٥

- مدير جامعة القاهرة يقول :
إننا نطلب الاستقلال للأمة
وننسى الاستقلال للفرد — أخبار اليوم — ٨/٥/١٩٥٤

ـ سهرة رمضانية مع الإثنين وضيوفها :		
أحمد زكى ، محمد خطاب ، عزيز أباظة ،		
د. سعيد عبده ، ثروت أباظة	الإثنين	١٩٥٤/٥/١٧
ـ من المسئول عن سوء نتائج الامتحانات	المصور	١٩٥٤/٨/٦
ـ مدير جامعة القاهرة . . ساقط ابتدائية	الجيل	١٩٥٤/٩/٦
ـ الدكتور أحمد زكى يقول : أكثر الذين		
يتزوجون لا يعرفون مَنْ تزوجوا	الجيل	١٩٥٥/٢/٢٤
ـ حلم وكابوس	الإثنين والدنيا	١٩٥٥/٢/٧
ـ هذه هى قصة حبى أهديها لكل		
عريس وعروس	الإثنين	١٩٥٥/٢/١٣
ـ ملوك الجمال يتسلمون جوائزهم	الإثنين	١٩٥٥/٢/٢١
ـ ليلة رمضانية فى البيوت . . أين الفانوس؟	المصور	١٩٥٥/٥/٦
ـ المساعدات المطبخية طريق السعادة . .		
الدكتور أحمد زكى بين المعمل والمطبخ	الإثنين	١٩٥٥/٥/١٦
ـ الرجال الذين لم تعجبهم المصريات		
وتزوجوا أجنبيات	آخر ساعة	١٩٥٥/٨/١٠
ـ الدكتور أحمد زكى يتحدث عن الحمام . .		
شذوذ الحمام كشذوذ الإنسان	المصور	١٩٥٥/٩/٩
ـ فى حياتى الدراسية علقة لا أنساها . .		
بضعة أقلام	الإثنين	١٩٥٥/٩/٢٦
ـ صورة وقصتها	الإثنين	١٩٥٥/١٠/٣١
ـ أخطر امرأة فى حياتى	الإثنين	١٩٥٦/٢/٦
ـ عتاب (وتعليقات لأمينة السعيد)	حواء	١٩٥٦/٣/١

ـ تأنيب الضمير	الإثنين	١٩٥٦/٦/١١
ـ خمسة من النجوم الكبار ينصحون النجوم الواعدة (عبدالحميد الحديدى، عباس العقاد، زكى طليمات، أحمد زكى، محمد عبدالوهاب)	الإذاعة	١٩٥٦/١٠/١٣
ـ شباب فوق الستين	الجيل	١٩٥٦/١٠/١٥
ـ « تذكرة للقمر. . من تأخذ معك؟»	أخبار اليوم	١٩٥٦/١٠/١٦
ـ هل هناك مخلوقات فى كواكب أخرى. . تفوق أهلالأرض ذكاء وعلما (تعقيب على الدكتور أحمد زكى) محمد التابعى	أخبار اليوم	١٩٥٩/٦/٢٧
ـ ماذا يقرءون : الدكتور أحمد زكى	الأهــرام	١٩٦١/٢/٢٠
ـ ملخص من تاريخ حياة الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير العربى	العربى	أكتوبر ١٩٧٠
ـ من أصحاب الأسلوب العلمى د. عبدالحليم منتصر	الهلال	سبتمبر ١٩٧٣
ـ رحلة الدكتور أحمد زكى مع العقل والوجدان سامح كريم	الإذاعة	١٩٧٤/٤/٢٠
ـ يوميات الأخبار . . لمسة وفاء حامد دنيا	الأخبار	١٩٧٤/٩/١١

- تحية إلى العالم الكبير فى عيد ميلاده الثمانين

نصرى عطا الله	الهلال	١/ ١٩٧٥

- منشىء المركز القومى للبحوث يعالج فى القاهرة

صلاح جلال	الأهـــرام	٢٨/ ٩/ ١٩٧٥

- الدكتور أحمد زكى يقول : الجهالة عمت مرافق الحياة

سيد نصار	أخبار اليوم	١٠/ ٥/ ١٩٧٥

ثالثاً : فى التأبين

ـ وفاة الدكتور أحمد زكى «أبو» العلماء المصريين		
المحـــرر	الأخبـــار	١٤/ ١٠/ ١٩٧٥
ـ وفاة الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير العربى. ومدير جامعة القاهرة الأسبق المحـــرر	الأخبار	١٤/ ١٠/ ١٩٧٥
ـ مات أحمد زكى أبو العلماء المصريين ودفن فى تراب مصر المحـــرر	الجمهورية	١٥/ ١٠/ ١٩٧٥
ـ أبو العلماء وعالم الأدباء الذى رحل د. عبد المنعم أبو العزم	الأهـــــرام	٢٧/ ١٠/ ١٩٧٥
ـ بعد أن انتهينا من طباعة هذا العدد مات د. أحمد زكى	العربى	نوفمبر ١٩٧٥

ـ د. أحمد زكى	البيان	نوفمبر ١٩٧٥
ـ عزيزى القارئ	العربى	ديسمبر/ ١٩٧٥
ـ تحية وعزاء		
عبد الرازق البصير	العربى	١٢/ ١/ ١٩٧٥
ـ الدكتور أحمد زكى (قصيدة)		
د. حسان حتحوت	العربى	١/ ١٩٧٦
ـ كلمة الدكتور إبراهيم مدكور		
فى حفل تأبين الدكتور أحمد زكى	مجلة مجمع اللغة العربية	جـ ٣٧: مايو ١٩٧٦
ـ كلمة الدكتور حامد جوهر		
فى حفل تأبين الدكتور أحمد زكى	مجلة مجمع اللغة العربية	جـ ٣٧: مايو ١٩٧٦
ـ كلمة الدكتور عبدالمنعم أبو العزم		
فى حفل تأبين الدكتور أحمد زكى	مجلة مجمع اللغة العربية	جـ ٣٧: مايو ١٩٧٦
ـ كلمة اللواء حسن عاكف		
فى حفل التأبين	مجلة مجمع اللغة العربية	جـ ٣٧: مايو ١٩٧٦
ـ كلمة للدكتور حسن إبراهيم (عند		
استقباله عضوا فى مجمع اللغة)		
عن سلفه الدكتور أحمد زكى	الثقافة	٥/ ١٩٧٨
ـ الله فى الفكر العربى..		
أحمد زكى (من عشرة مفكرين)		
فتحى العشرى	الأهـــرام	٨/ ٨/ ١٩٨٠

ملحق

رسالة من الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو العزم
رئيس أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا

السيد الأستاذ الدكتور محمد محمد الجوادى

تحية طيبة وبعد:

فقد أسعدنى قراءة كتابكم «أحمد زكى» «حياته.. فكره.. وأدبه» قضيت عدة أمسيات مع أسلوبكم الرفيع الذى تناولتم فيه سيرة هذا العالم الأديب المفكر.

أتذكر ـ وكذلك غيرى ممن أسعدهم الحظ بمعرفة الدكتور أحمد زكى معرفة شخصية ـ الكثير من مواقفه فى حياته الذاخرة بالإبداع. فقد ولد بذكاء فائق ونمى هذا الذكاء فى مراحل حياته كلها

فأوصله ذكائه إلى العبقرية التى تفتحت وأثمرت ولم يكن قد بلغ الخامسة والثلاثين ـ بعد ـ عندما حصل على درجة دكتوراه العلوم D.Sc. من جامعة لندن عام ١٩٢٨ ـ وهذا الإنجاز بالمقاييس المتعارف عليها فى إنجلترا ـ دولة التقاليد والبخل الشديد فى منح الألقاب ـ يضعه فى صفوف العباقرة فى العلوم ـ وكذلك فى مصر حيث يبلغ عدد الحاصلين على هذه الدرجة من المصريين حسب إحصائيات أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا (١٩٨٤) ١٩ (تسعة عشر) من بين ١٤١١٨ (أربعة عشر ألف ومائة وثمانية عشر) من الحاصلين على درجة دكتوراه الفلسفة Ph. D فى مجالات العلوم الاجتماعية والطبية والهندسية والزراعية والعلوم البحتة.

❑

وتعددت مواهب الدكتور أحمد زكى... يمتلك ناصية الأدب ـ كان رحمه الله حتى فى كلامه العادى يستخدم أسلوبا فى الأدب لم يسبقه إليه أديب ، أسلوبا متميزا لا يخطئه قارىء متمرس فى قراءة الأدب. ولا شك فى أن عبقريته فى العلوم أفادته فى أدبه فوائد كثيرة فتجده يدقق فى اختيار اللفظ دقة لا يصل إليها إلا العالم المتمكن ـ وتجده يضيف دائما جديدا فى كل ما يكتب .. فى السياسة.. فى الاجتماع .. فى الشعر.. فى الوطنية.. فى القومية.. فيصل فى هذا كله وغيره إلى عبقرية لا يدانيه فيها أحد .. وتجده يجدد فى كتاباته فيتناول كل تلك الموضوعات ومنها الشائك الذى يتطلب الحرص والحذر ولكنه بعبقريته يستطيع أن يسير بقدم ثابت فوق الأشواك فلا يصيبه منها إلا الإعجاب بعبقريته وثاقب فكره وعلو شأنه. ولعل من ذلك تعليقه على ما ذكرته بعض الصحف والكتاب عن الأطباق الطائرة وما تعرض له من هجوم من بعض كبار الكبار وقتئذ (١٩٤٧) وإهماله لكل ما قيل ـ والآن وبعد ٣٨ سنة يتضح لنا ثاقب رأيه ونفاذ بصيرته.

ولقد كان رحمه الله يملك ناصية الموضوع بحثا وتدقيقا وإضاءة وتجديدا فيرقى إلى الأستاذية بل يرقى إلى أن يكون أستاذ الأستاتذة فى كل ما كتب وأبدع. هو إذاً وبكل المقاييس العالم الموسوعة لا يباريه فى هذا أحد ممن سبقوه.

لقد أوردت في كتابك الكثير مما يؤكد ما ذهبت إليه ، وأضفت إلى عمره سنين أخرى.. لقد أعطيته حقه كاملا في كل المجالات التي اهتم بها وحاضر وكتب فيها إلا الناحية الأساسية في عبقريته.. ألا وهي العبقرية في العلم.. النظرى والتجريبي.. والتفوق في فكره عن مستقبل العلم والبحث العلمي في مصر ثم في البلاد العربية بل وفي العالم..

❑

لقد تناولت في عجالة ما كتبه عن «مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث ماضيه القصير وحاضره ومستقبله» وهو الكتاب الذي أوجز فيه نشأة هذا المجلس وما بذله في إنشائه وما لقيه من عنت.. حتى تحقق له بعض ما كانت تصبو إليه نفسه.. تضمن هذا الكتاب ـ صغير الحجم عظيم الفائدة ـ محاضرة له ألقاها عندما أنتخب رئيسا للمجمع المصري للثقافة العلمية عام ١٩٤٤ .. في هذا الكتاب أوجز الدكتور أحمد زكي ـ فكره في دور البحث العلمي في خدمة المجتمع ـ سواء أكانت البحوث أكاديمية أو تطبيقية أو تطويرية.. وكان رحمه الله قد بدأ في تحقيق هذه الأماني ... فأنشأ «مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث» وكان لزاما على المجلس أن تكون له معامله ومعاهده ومراكزه التي تجرى فيها البحوث في شتى المجالات تخدم الحياة كلها.. صناعة.. زراعة.. صحة.. تجارة .. سياسة.. أمن.. عدالة.. إنسانيات .. كلها تحتاج ـ إذا كنا نرغب في التقدم ـ إلى بحث علمي يساند ويدعم جميع مشروعاتها.. هو إذاً يريد للعلماء أن يكونوا متبوعين وليسوا تابعين. كما كان الحال وما زال..

وبدأ بإنشاء مبنى لمعمل «الكيمياء والصناعة القومي» على أن يتبعه معامل «للفيزيقا» ، «الطاقة»، «الزراعة» ، «النقل والمواصلات» «الصحة»، «العلوم الاجتماعية» .... وغيرها.

انظر ماذا فعلوا بكل هذا بعد أن «أخرج » من مجلسه عام ١٩٥٣ ـ نسى اسم «مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث» وكأنه لم يكن .... وسمى مبنى معمل «الكيمياء والصناعة القومي» باسم «المعهد القومي للبحوث» (١٩٥٤) ثم «المركز القومي للبحوث» (١٩٥٦) وانصرف العمل لغير ما أنشىء من أجله فأصبح طابعه البحث الأكاديمي فإن تعدى ذلك ـ في القلة القليلة منه «كان تطبيقيا يبقى

حبيس الأدراج أو على رفوف المكتبات - وتتعدد فيه أنواع البحوث من صناعية وزراعية وطبية... وغيرها.

ثم انشىء المجلس الأعلى للعلوم عام ١٩٥٥ ليقوم بدور مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث .. واستبدل بوزارة البحث العلمى (١٩٦١) ثم المجلس الأعلى للبحث العلمى (١٩٦٥) ثم وزارة البحث العلمى (١٩٦٨) ثم أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا (١٩٧١).

وخلال الفترة من خروج الدكتور أحمد زكى من مجلسه حتى ١٩٧١ كان الفكر فى تنظيم البحث العلمى ودوره فى مصر يقترب من أفكار الدكتور أحمد زكى فى القليل ويبعد فى الكثير.

❑

وابتداء من عام ١٩٧١ اقتربت الأكاديمية من فكر أحمد زكى. وكنت نائبا لرئيسها - وزاد القرب بدءا من عام ١٩٧٣ عندما شرفت برئاستها... كان فكره وما وضعه من تنظيم دستوراً نهتدى به.. ثم جاءت الإضافات لفكره الرفيع... فالمتغيرات فى مجالات العلوم والتكنولوجيا كثيرة... تتطلب الكثير من التغيير ، ولكن لابد أن يسبق هذا التغيير وضع الأسس وتثبيتها - وقد تضمن فكر أحمد زكى الكثير منها... فالإضافة لم تكن تحولاً عن فكره... بل تأكيد لأن هذا الفكر الناضج وضع أسسا لإضافة كان لابد منها.. وهذا شأن الأستاذ العالم المتميز الذى يغرس فى تلاميذه القدرة على الإضافة..

وأذكر أننى عندما دعوته لزيارة الأكاديمية (سبتمبر ١٩٧٤) ألتقى بعدد من رفاقه وتلاميذه ، ثم دعوته لزيارة «المركز القومى للبحوث» ، ورافقته فى الزيارتين .. وفى طريقنا إلى المركز أذكره يقول لى : «خرجت من مبنى المركز فى سبتمبر ١٩٥٣ وأعود إليه معك فى سبتمبر ١٩٧٤» وبعد زيارته لبعض معامل المركز طلبت منه الجلوس حيث كان يجلس قبل سبتمبر ١٩٥٣ حينما كان مديرا للمركز وجلست بجواره أمام أكثر من خمسين من أساتذة المركز ، وأذكر أنى فى تقديمى له قلت : «كتب علينا أن نبلغ سن الرشد فبعد ٢١ سنة من خروج الدكتور أحمد زكى من بيته هذا قبل أن

ندعوه إليه وهو صاحب البيت بلا منازع» وقدمته ليحاضرنا فيما شاء من فكر وتحدث ساعتين بفكر صاف تناول فيها معارف جديدة فى كل ميادين البحث العلمى.. وكانت آخر مناسبة للقائه.. وان لم تكن آخر مناسبة للاتصال به من خلال ينابيع فكره فى كتابه الشهرى «العربى» الذى كنت أحرص على قراءته..

❏

كانت وفاته خسارة كبيرة للعالم العربى.

وإذا كان العالم العربى قد كسبه كاتبا فى مجالات متعددة بأسلوب رفيع وفكر عميق يتناسب مع عبقريته .. فأنى أعتبر أن مصر خسرته عبقريا فى العلوم وتنظيمها منذ أخرج من المجلس فى سبتمبر ١٩٥٣..

وأرجو بأن تسمحوا لى بوقفه عند هذا الموضوع..

لقد وهب الله مصر فى حياة أحمد زكى العلمية عباقرة فى الأدب والسياسة وعلوم الاجتماع.. ممن أبدعوا فى تلك المجالات كتابة وقراءة..فى المحاضرات والإذاعة وغيرها. ولكنه فى العلم النظرى والتجريبى وتنظيم البحث العلمى لخدمة المجتمع كاد أن يكون وحيدا... وكان سباقا..

واستمحيك عذرا ـ وعذرى أنى انتسب إلى العلم ـ أن أقول بأن تعدد عبقريات أحمد زكى كانت من سوء حظ العلم.. فلو أنه كان عبقريا فى العلم وحده لكفاه هذا ذكرى ، ولأخذ بيد العلم والعلماء فى مصر أكثر من عشرين عاما عاشها بعيدا عن المعامل التى كان يعشق الاقامة فيها..

كان لا يرضى بالاقامة بأرض الفشل ـ حسب تعبيره ـ وكان على المسئولين فى الدولة ـ ومنذ قيام الثورة أن تترك له اختيار الأرض التى يعشقها ، وأن تضع تحت تصرفه كل ما يحقق لها أن تكون أرض الثمار والنجاح حتى يبقى بها.

وأسرع أحيانا وأحلم ـ بحال بلادنا لو بقى أحمد زكى متربعا على قمة جهاز البحث العلمى

الذى نشأة وعشقه حتى لقى ربه فى عام ١٩٧٥ كما تفعل الدول المتقدمة بعلمائها العباقرة من أمثال أحمد زكى.

وقد تقول إنه أثرى ميادين أخرى - ولكنها يا أخى الأنانية التى يشعر بها كل منتسب للعلم.. والفرض غير قابل للتحقيق... وهو حلم واستدرك فأقول: بل إن موهبته فى الأدب مكنته من التعبير البليغ عن فكره وآماله وطموحه فى دفع البحث العلمى ليكون وسيلة إلى التقدم والرقى - عبر عنها حديثا للمسئولين أدبا بكتابته لهم فمكنه ذلك من التبشير بالأمل الكبير الذى يمكن تحقيقه عن طريق البحث العلمى الهادف.

❑

هل يتسع وقتك لمزيد من القول عن أحمد زكى.

كان من العاملين بما يعلمون ويقولون.. حذر من اتخاذ العلم مهنة... كما ذكرت فى كتابك. لذلك عندما دعى للمشاركة فى إنشاء نقابة العلميين قال قولته المشهورة «أنا لا أمتهن العلم»... نعم - رحمه الله لم يمتهنه.

❑

وعندما عدت من البعثة فى يوليو ١٩٥٤ وما أن انتظم بى المقام فى «المعهد القومى للبحوث» سعيت للقائه بمنزله فى أكتوبر ١٩٥٤ وكان قد «أخرج» من جامعة القاهرة ولقيته فى حديقة منزله وأطلعته على خطاب من أستاذى بإنجلترا (مرفق) وبعد قراءته حضر للزيارة اثنان من عمداء كليات الجامعة فأعاد قراءة خطاب الأستاذ أمامهما ، ولم يكن له حديث طوال الجلسة إلا عن هذا الخطاب وما يذكره به قبل ثلاثين سنة وهو بين جامعات ليفربول ولندن والنمسا ...

ولعله أحس بأنه جامل تلميذه بأكثر مما يستحق أو بما قد يسببه له من «غرور» فكان أن قدمنى لمحاضره - بعد الزيارة بشهر تقريبا فى الجمعية الكيميائية وكان يرأسها ، قدمنى بما ذكرت فى كتابك

... يتعجلنى إنجازا لمصر حتى يحكم عدلا ... وأوفى بوعده عندما زار الأكاديمية والمركز القومى للبحوث فى سبتمبر ١٩٧٤ بعد عشرين عاما من القائمين (١٩٥٤) وعلق على إنجازهما.

❑

يقول : الإمام الشافعى فى مقارنة بين الإمام الليث والإمام أبى حنيفة رحمهما الله «كان الإمام الليث أعلم ولكن تلاميذه أضاعوه».

وهذا ينطبق على أحمد زكى وزميله على مصطفى مشرفه فلم يشهد النصف الثانى من الخمسينيات وطوال السيتينات أى ذكر لأحمد زكى - وكان أول من يستحق جائزة الدولة التقديرية والكثير من الإشادة من تلاميذه وكان يرد ذكر على مصطفى مشرفه لماما من بعض تلاميذه.

رحمهما الله رحمة واسعة.

وأسبغ عليكم الصحة والخير بقدر ما بذلته من جهد فى ذكر أفضالهما على مصر والعرب وعلى أجيال من بينهم من شغل ويشغل الآن مناصب رفيعة فى مجالات العلوم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

دكتور عبد المنعم أبو العزم

١٤/ ١/ ١٩٨٥

كتب للمؤلف

□ **فى التراجم**

- الدكتور محمد كامل حسين (جائزة مجمع اللغة العربية) (طبعتان) ١٩٧٨، ٢٠٠٣
- مشرّفة بين الذرة والذروة (جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠ ، ٢٠٠١
- الدكتور أحمد زكى - (طبعتان) ١٩٨٤ ، ٢٠٠٣
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية - ١٩٨٨

- اسماعيل صدقى باشا - ١٩٩٨
- سيد مرعى - ١٩٩٩
- يرحمهم الله - ١٩٨٤
- مصريون معاصرون - ١٩٩٩

◻دراسات أدبية ولغوية

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) - ١٩٨٤
- على هوامش الأدب - ٢٠٠٣
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) - ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية - ١٩٨٤

* عاشق الحرية / الفكر السياسي لنجيب محفوظ

◻دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين - ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة - ١٩٩٤
- الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية (طبعتان) - ١٩٩٥، ٢٠٠٣
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) - ١٩٩٦، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء - ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث - ١٩٩٩

- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية - ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧) - ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٧٣) - ٢٠٠٠
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ - ١٩٧٢) - ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ - ١٩٥٢) - ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين - ٢٠٠٢

❑ أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] - ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) - ١٩٨٩ - ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث - ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ - ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق - ١٩٩٣

❑ أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة - ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) - ١٩٩٥، ١٩٩٧
- المحافظون (طبعتان) - ١٩٩٥
- البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ - ١٩٩٦] (طبعتان) - ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ - ٢٠٠٠] - ٢٠٠١

- قادة الشرطة في السياسة المصرية [١٩٥٢ - ٢٠٠٢] - ٢٠٠٣
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة في صنع القرار السياسي - ٢٠٠٣

❑ في الفكر السياسي

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً - ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان في عصر جديد - ٢٠٠٣

❑ في الفكر التربوي

- مستقبل الجامعة المصرية - ٢٠٠٠
- آراء حرة في التربية والتعليم - ٢٠٠١
- تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين والتربويين - ٢٠٠٣

❑ في الشئون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها - ٢٠٠٠
- مستقبلنا في مصر: دراسات في الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) - ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج في مصر - ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار - ٢٠٠١

❑ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] - ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة في عواطف الأنثى] - ١٩٩٩

❑ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(ثلاث طبعات) ـ ١٩٨٩ ، ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- شمس الأصيل فى أمريكا (طبعتان) ـ ١٩٩٤ ، ٢٠٠٣

❑ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ـ ٢٠٠١

المحتويات

إهداء	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
تقديم الطبعة الأولى بقلم الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف إبراهيم	١١
مقدمة الطبعة الأولى	١٥
الباب الأول: حياة أحمد زكى	٢١

الباب الثانى: فلسفة أحمد زكى ٨٥
الفصل الأول: الفكر السياسى عند أحمد زكى ٨٧
• القوة أساس العلاقات الدولية ٩٢
• الأمم المتحدة كالرجل الناسك ٩٥
• الصين أخطر على أمريكا من روسيا ٩٦
• القوميات ٩٧
• أزمة الملونين ٩٩
• مفهوم الوطنية ١٠٠
• الزعامة ١٠١
• الزعامة والديمقراطية ١٠٣
• الديمقراطية ١٠٥
• الوعى السياسى ١٠٩
• المساواة ١١٠
• مصادر الفصل الأول ١١٤
الفصل الثانى: الحرية ١١٧
• معنى الحرية ١١٨
• الحرية والمسئولية ١٢٣
• الظروف المقيدة للحرية ١٢٤
• مبدأ الحرية فى العلاقات الدولية ١٢٧
• الحريات والتطور التاريخى ١٢٨

● مصادر الفصل الثانى ١٣١

الفصل الثالث: بعض ملامح الفكر الفلسفى ١٣٣

● الحقيقة ١٣٤

● ثنائية المادية والروحانية ١٣٩

● مصادر الفصل الثالث ١٤٣

الفصل الرابع: فن الحياة ومعناها ١٤٥

● الحياة فن لا علم ١٤٦

● الحياة بين البداية والنهاية ١٤٨

● معنى السعادة ١٤٩

● معنى النجاح ١٤٩

● الغاية وأهميتها ١٥٠

● الاهتداء بالفطرة ١٥١

● التوافق النفسى ١٥٢

● متعة الحياة ١٥٤

● المعاملة ١٥٦

● الإحساس بالزمن ١٥٧

● مصادر الفصل الرابع ١٥٩

الفصل الخامس: العروبة ١٦١

● الإقليمية والوحدة ١٦٣

● تقوية الأجزاء ١٦٤

- الشعوب والوحدة ١٦٥
- التقسيمات والمحاور ١٦٥
- الوحدة الاندماجية ليست اليوم ١٦٥
- وحدات لها أولوية ١٦٦
- الصفاء مع الفرس والباكستان ١٦٦
- هل العروبة عروبة دم؟ ١٦٧
- دور اللغة فى تحقيق الوحدة ١٦٧
- الانسجام مع الجماعة هو السبيل إلى الحياة ١٦٩
- ...ولكن لابد للعمل الجاد من أجل الوحدة ١٦٩
- مخاطر ضياع الوحدة ١٦٩
- مصادر الفصل الخامس ١٧١

الفصل السادس: الإسلام والعصر الحديث ١٧٣
- الضمير والولاء ١٧٧
- الإسلام والعلم ١٧٩
- الدين والقومية والعلمانية ١٧٩
- الإسلام والغرب ١٨١
- الإسلام والنهضة ١٨٢
- مصادر الفصل السادس ١٨٥

الفصل السابع: مكونات البناء الاجتماعى (الغرائز - العادات - الأخلاق - التقاليد - الضمير - القيم ١٨٧

• هل الدين مصدر من مصادر السلوك الإنسانى ؟..... ١٩٠
• الغرائز ١٩١
• العادات : المصدر الثانى من مصادر السلوك
الإنسانى ١٩١
• النظرية الاقتصادية فى العادات ١٩٢
• أثر الزمن فى العادات ١٩٣
• الضمير ١٩٤
• الضمائر والتقاليد ١٩٥
• التعريف الجديد للضمير ١٩٦
• الضمير والشيطان ١٩٦
• الضمير أشمل من القوانين ١٩٧
• المبادىء التى يسير عليها الضمير ١٩٨
• كيف يتكون الضمير ؟ ١٩٨
• المصادر الأخرى للضمير ١٩٩
• الضمير وتقدم الأمة ٢٠٠
• أحمد زكى (مع الزمن) يعدل بعض آرائه ٢٠١
• القيم ٢٠٣
• المجتمعات المستقرة ٢٠٣
• المجتمعات غير المستقرة ٢٠٤
• مصادر الأخلاق والسلوك ٢٠٤

١- الفكر ٢٠٤
٢- الطبيعة ٢٠٤
٣- الجبلة الإنسانية ٢٠٤
٤- الدين ٢٠٦
• التقاليد بين أهل اليمين وأهل اليسار ٢٠٦
• ما هى التقاليد ٢٠٧
• معنى التقاليد ٢٠٧
• مَنْ يصنع التقاليد ؟ ٢٠٧
• كيف تنشأ التقاليد ؟ ٢٠٨
• التقاليد والقانون ٢٠٨
• تقاليد الزواج : مثل للتقاليد الشائعة ٢٠٨
• التقاليد والحروب ٢٠٩
• التقاليد بين الريف والحضر ٢٠٩
• التقاليد والمصالح ٢١٠
• التقاليد البالية ٢١٠
• أثر التعليم فى التقاليد ٢١٠
• التقاليد والمستقبل ٢١١
• مصادر الفصل السابع ٢١٣
الفصل الثامن : المجتمع ٢١٥
• الفقر ٢١٥

● وما الحل ٢١٧
● مصادر الفصل الثامن ٢٢١
الفصل التاسع: المرأة ٢٢٣
● حاجة المرأة إلى الرجل ٢٢٤
● حاجة الرجل إلى المرأة : الأمومة ٢٢٥
● ربابة البيت هى مهنة المرأة الأولى ٢٢٦
● الأسرة باقية ٢٢٨
● حرية المرأة ٢٢٨
● دفاع عن المرأة ٢٢٩
● مصادر الفصل التاسع ٢٣١
الفصل العاشر: تنظيم الأسرة ٢٣٣
● الوجهة الدينية فى الموضوع ٢٣٤
● طبيعة دعوة أحمد زكى إلى تنظيم الأسرة ٢٣٥
● خفض سن الزواج لا رفع سن الزواج ٢٣٦
● لماذا دعا أحمد زكى أخيرا إلى التناسل والتكاثر؟ ٢٤٠
● خاتمة ٢٤٢
● مصادر الفصل العاشر ٢٤٣
الفصل الحادى عشر: التعليم الجامعى ٢٤٥
● ضرورة الجامعة ٢٤٦

• استقلال الجامعة ٢٤٧

•أيهما أولى: التوسع فى الجامعات أم القضاء على الأمية ٢٤٨

• ماذا تضيف الدرجة الجامعية إلى صاحبها ؟ ٢٤٩

• الحفاظ على المستوى الرفيع لتعليمنا الجامعى ٢٤٩

• بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية ... ٢٥٠

• التعليم الجامعى والمجتمع ٢٥١

• التوافق بين إمكانات الطالب ودراسته ٢٥٢

•مصادر الفصل الحادى عشر ٢٥٤

الفصل الثانى عشر: فى الثقافة والإعلام ٢٥٥

•مصادر الفصل الثانى عشر ٢٦٠

الباب الثالث: القدرات والآثار الأدبية للدكتور أحمد زكى ٢٦٣

الفصل الأول: نظرة على مكانة الدكتور أحمد زكى فى الأدب العربى المعاصر ٢٦٥

الفصل الثانى: بعض الخصائص الفنية فى أسلوب أحمد زكى ٢٧١

•فن المقالة عند أحمد زكى ٢٧٥

•القدرات التصويرية فى أدب أحمد زكى ٢٧٧

• مكانة الشعر فى استشهاداته ٢٧٩
• أساليب القصر ٢٨٠
• مدى التأثر باللغات الأجنبية فى صياغة العبارة ٢٨٢
• غلبة روح العلم على أدبه ٢٨٣
• مقارنات الكتب العلمية ٢٨٣
الفصل الثالث: إسهامات أحمد زكى فى أدب الرحلات ٢٨٥
الفصل الرابع: أدب التراجم ٢٨٩
• أحمد لطفى السيد ٢٩٠
• نهرو ٢٩٦
الفصل الخامس: القصص السياسى فى آثار أحمد زكى الأدبية ٢٩٩
الفصل السادس: القصص الاجتماعى ٣٠٥
• قصة «بيوت مسكونة» ٣٠٥
• قصة «الإسكافى الذى ملأ سمع الدنيا» ٣٠٦
• قصة «ساعات الحرج على المسارح» ٣٠٦
• قصة «فأل البيت الجديد» ٣٠٦
• قصة «القصّاصة العمياء» ٣٠٧
• قصة «محنة كبرى» ٣٠٧

• قصة «بيت من طين» ٣٠٨
• قصة «تضحك والأحزان ملء جلدها» ٣٠٨
• قصة «ساعة فى قطار» ٣٠٩
• قصة «حضرية فى أقصى الريف» ٣١٠
• قصة «لابد لها من أنف جديد» ٣١١
• قصة «الجنة التى وعد الصابرون» ٣١٢
• قصة «يوم مات أبوها» ٢١٢
• قصة «طمأنينة» ٣١٣
• قصة «شكرا لك يا جدتى» ٣١٣
• قصة «حتى الحيوانات منها المجنون» ٣١٤
الفصل السابع: نموذج القصة التأملية ٣١٧
• قصة «دينار» ٣١٧
الفصل الثامن: بعض ملامح التصوير البيانى فى قصص
الدكتور أحمد زكى ٣٢٣
• قصة «شعاع فى الظلام» ٣٢٤
• قصة «ونزل الستار فحجب النور ثم ارتفع» ٣٢٦
الفصل التاسع: بعض ملامح الدراما القصصية فى أدبه ٣٢٩
• قصة «خطاب يا ليته وصل» ٣٢٩

• قصة «يا ليته درى» ٣٣١

• قصة «إنه قضاء الله» ٣٣٣

• قصة «فى أسمالها تغنى» ٣٣٥

الفصل العاشر: عنصر المصادفة فى البناء الفنى للقصة ٣٤١

• قصة «تنافس الأحباب» ٣٤٢

• قصة «مصادفة سعيدة» ٣٤٤

• قصة «تسعة تصيب ، وعاشرة تخيب» ٣٤٦

• قصة «قطعة من الفن رائعة» ٣٤٧

الفصل الحادى عشر: الظاهرة الطبية فى أدب أحمد زكى ٣٥١

الباب الرابع: الببليوجرافيا ٣٥٧

الفصل الأول: أعمال الدكتور أحمد زكى ٣٥٩

• أولا: الكتب ٣٥٩

١- سلطة علمية ٣٥٩

٢- مع الله فى السماء ٣٦٠

٣- ساعات السحر ٣٦١

٤- بين المسموع والمقروء ٣٦٣

٥- مع الناس ٣٦٤

٦- مع الله فى الأرض ٣٦٤

٧- فى سبيل موسوعة علمية ٣٦٧

٨ - حديث الزمان ٣٦٧

• ثانيا : تقارير ٣٧١

• ثالثا : آداب مترجمة ٣٧٢

• رابعا : كتب علمية مترجمة ٣٧٣

١- قصة الميكروب ، كيف نشأ رجاله ٣٧٣

٢- فى أعماق المحيطات ٣٧٣

٣- بواتق الأنابيب ، قصة الكيمياء ٣٧٣

٤- حيوانات نعرفها ٣٧٤

٥- مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ٣٧٤

• خامسا : كتب بالاشتراك ٣٧٥

• سادسا: فصول من كتب ٣٧٦

• سابعا: مقالات ودراسات ومحاضرات ٣٧٧

(أ) فى الكتب السنوية للمجمع المصرى للثقافة العلمية ٣٧٨

(ب) فى مجلة الرسالة ٣٧٩

(جـ) فى مجلة الهلال ٣٨٤

(د) فى مجلة الإثنين ٣٩٠

(هـ) فى مجلة الثقافة ٣٩٣

(و) مقالات فى مصادر متنوعة ٤٠٨

(ز) فى مجلة العربى العربى ٤٠٩

◆ المقالات الافتتاحية ٤١١

◆ أحاديث الشهر ٤١٤

◆ المقالات العلمية فى مجلة العربى ٤٢٢

• المقالات التى نشرت فى الأعداد الأولى وفهرست تحت عنوان «علوم» ٤٢٢

• المقالات التى كتبها الدكتور زكى عن الذرة والفضاء ثم فى «ركن الفضاء والذرة» ٤٢٥

• المقالات التى كتبت «فى سبيل موسوعة علمية» ٤٢٨

• المقالات التى كتبت فى سلسلة «وحدة تتراءى فى وحدة خلقه» ، والتى كونت بعد ذلك الجزء الأكبر من كتاب «مع الله فى الأرض» ٤٣٣

◆ المقالات الطبية ٤٣٦
• مقالات طبية فى تخصصات متعددة
(١٩٥٨ حتى ١٩٦٨) ٤٣٦
• سلسلة «الطب المصور» ٤٣٩
◆ المقالات المتنوعة ٤٤٢
• ثامنا : استطلاعات صحفية ٤٤٦
• تاسعا : أحاديث إذاعية ٤٤٧
الفصل الثانى: أعمال عن الدكتور أحمد زكى ٤٥١
• أولا : مقدمات كتب ٤٥١
• ثانيا: مقالات وأحادث صحفية وتعليقات ٤٥٢
ملحق: رسالة من الأستاذ الدكتور عبدالمنعم أبو العزم رئيس
أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ٤٦١

كتب للمؤلف ٤٦٩

المحتويات ٤٧٥

Besides, Dr. Zaki was elected to be President of Egyptian Academy for Science, and Egyptian Academy for Advacement of Science and he was also a Full Member of Arabic Language Academy (1964).

Our book deals with the life of that great arabic thinker and scientist in the first chapter. The second one is dedicated to the presentation and criticism of his philosophy in many fields whereas the third chapter introduces & discusses the Literture of Dr. Zaki which was fortunately of high quality and great quantity. The Fourth Chapter Contains a complete bibliography for the works of and on Dr. Zaki .

As soon as his calling for the establishment of National Scientific Research Centre took place in 1946, he was appointed as the first director where he did a lot of hard creative work for a long time till he was able to introduce, to his country, this great effective and active organization.

For a very short periods of time Dr. Zaki was the "Minister of Social Affairs" (1952) , Director of Cairo University (1953 - 1954), Director of Chemistry Organization (1954) and chief editor of El-Helal, the oldest Arabic cultural magazine (1947 - 1950).

After his retirement in Egypt, Prof. Zaki was invited to establish in Kuwait a newly monthly illustrated review named "El-Arabi". It was the magazine which Prof. Zaki gave his vast experience and full time up to the last minute of his life (1975).

Dr. Zaki wrote a lot about his point of view regardig the political and social affairs as much as about Science, Medicine and Inventions in a simplified way.

This Book

Dr. Ahmed Zaki was one of the most prominent Arabic Scientists in the first half of the 20th Century. To his efforts we attribute the foundation of our national school of organic chemistry. He was the first Egyptian chemist to abtain D.Sc. in Chemistry from London University (1928).

Before his mission to Europe (1921 - 1928) he worked as a teacher in different secondary schools (in Cairo) after being graduated in the high school of teachers (1914).

Dr. Zaki was born in Sues on the Suez Canal (1894) where he spent his first years of life before departure to Cairo (1900).

As Dr. Zaki had the chance to be one of the staff of Faculty of Science, he did his best for creation of junior Egyptian Chemists as well as for the encouragement of youth scientific and social activities.

Thereafter, Dr. Zaki was chosen to be the first National Director of Chemistry Organization of Egypt where he also could achieve an outstanding success.

Ahmed Zaki

Second Editio

General Egyptian Book Organization

2003

Ahmed Zaki

(1894 _ 1975)

His Life, Philosophy and Literature

Dr. Mohamed El Gawady

Second Edition

General Egyptian Book Organization

2003